مرجان كمالي

مكتبة

نساء جسورات من طهران

رواية

المركز الثقافي العربي

كتب مرجان كمالي ..

هدية من رغد ..

لقد أحببت أن تقرأوها ..

ومكتبة كانت الوسيط ..

مرجان كمالي

نساء جسورات من طهران

الكتاب

نساء جسورات من طهران

تأليف

مرجان كمالي

ترجمة

زياد حسّون

الطبعة

الأولى، 2024

الإيداع القانوني:

2024MO4399

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9920-657-85-3

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

العنوان الأصلي للرواية:

Marjan Kamali

The Lion Women of Tehran

© 2024 by Marjan Kamali

All rights reserved

t.me/soramnqraa

مرجان كمالي

مكتبة
t.me/soramnqraa

نساء جسورات من طهران

رواية

ترجمة: زياد حسّون

المركز الثقافي العربي

إلى نساء إيران الجسورات

حين لم تعد حياتي شيئاً،
سوى دقّات ساعةٍ على الجدار
اكتشفتُ أنه يجب عليّ،
يجب عليَّ قطعاً
أن أحبَّ بجنون.

فروغ فرخزاد، **النافذة**

تبدأ أمواج المحيط رحلتها على بعد آلاف الأميال في عرض البحر. وتتخذ شكلها وحجمها ومظهرها من سرعة الرياح التي تسود الغلاف الجوي، وقوّة التيارات الخفية أسفل البحر، والمسافة الطويلة بين نقطة منشأ الموجة ونقطة وصولها... والأحداث التي تبدو وكأنّها تظهر في الحاضر من العدم، ثمّة في الواقع تاريخٌ طويل يقبع وراءها.

جورج ليبسيتز، **آثار أقدامٍ في العتمة**

الفصل الأوّل

1

ديسمبر 1981

مكتبة
t.me/soramnqraa

وقفتُ على الأرضية المطلية بالورنيش - امرأةٌ ضئيلة الحجم تلبس ثياباً سوداء وتعلّقُ شارةً اسمية مستطيلة الشكل على صدرها. لقد صُمِّم مظهري المهندَم والمطمئنّ ليس لأبدو راضيةً فحسب، ولكن لأبدو أيضاً متفوّقة على نحوٍ هادئ. تعلّمتُ في أمريكا أنَّ السرَّ لأكون مندوبة مبيعات ناجحة هو أن أتصرف كفردٍ من النخبة، كما لو أنَّ رشَّ العطر على أرسغ الزبائن زرقاء العروق هو بمثابة إسدائهم معروفاً عظيماً.

كان السواد الأعظم من النيويوركيين المتعجرفين ينحرفون عن مسارهم ليتجنّبوا التعرّض لرشّةٍ من عطري. لكن أحمدُ الله أنَّ نساءً أكثر تواضعاً - الطاهيات والخبازات الواصلات إلى الطابق الأوّل من قسم السلع المنزلية - كنَّ مهذّباتٍ جداً بحيث لم يرفضن رذاذ العطر الذي عرضته عليهنّ. عشّشتْ روائح البرتقال والزنبق والياسمين في خطوط يديّ وخيوط ملابسي.

- «يا للعجب، إيلي! سوف تتولين أمر هذه العلامة التجارية بالكامل عمّا قريب. حريٌّ بي أن أحتاط جيّداً!». تسلّلت صديقتي وزميلتي في العمل أنجيلا العائدة من استراحة التدخين، وهمست في

أذني. لم تنجح رائحة العلكة في طمس رائحة الدخان في أنفاسها.

ارتعشتُ إذ تحسّستُ رائحة التبغ الكريهة. سوف تذكّرني إلى الأبد الطبقاتُ المرّة والحامضة للروائح بليلةٍ مرَّ عليها زمنٌ طويل في إيران. الليلة التي تسبَّب فيها فعلُ خيانة في تغيير مجرى صداقتنا أنا وهوما، وحياتَينا بالكامل.

منذ اللحظة التي قرأتُ فيها رسالة هوما الليلة الماضية وأنا عبارةٌ عن حطام.

تجنّبتُ مجاملات أنجيلا، وقلتُ إنّني لم أكن أبلي حسناً حقّاً، وإنَّ لديَّ صداعاً لأنّني لم آكل شيئاً طوال اليوم.

- «قد يغمى عليّ»، أضفتُ للأمر لمسةً من الميلودراما.

كان من المريح رؤية أنجيلا تتحرك مبتعدة بسبب زبونٍ متطلّب.

كانت والدتي تقول دائماً إنَّ الحسد يستجلب العين الشريرة لتلقي بأحكامها الغاشمة علينا. وأخبرتني أنَّ النظر إليك كشخصٍ مقتدر أو سعيد أو ناجح قد يستحضر المحن وسوء الطالع. كنتُ أعلم أنّه ينبغي بي أن أنبذ الاعتقاد بالقوى الناجمة عن غيرة الآخرين والنحس الذي تتسبّبُ به العين الشريرة. لكنّني وفي سنّ الثامنة والثلاثين، وسط ذلك المتجر الضخم في مانهاتن، كنتُ لا أزال عن غير قصد أرزح تحت وطأة الخرافات.

لا يمكنني الهرب من حقيقة مَن أكون. ولا من الخزي الذي قضيتُ سنوات وأنا أحاول سحقه ومحوه.

لطالما كنتُ أنا المذنبة.

باكراً ذاك الصباح، في شقتنا الواقعة في الجانب الشمالي الشرقي من مانهاتن، حاول زوجي مهرداد أن يهدِّء من روعي بوجبة

إفطار، فأعدَّ لي الخبز المحمص مع جبنة الفيتا ومربى الكرز، كما خمّرَ بعض الشاي بالليمون. لكنَّ نفسي عافت الطعام والشراب. فالمربى كان معدّاً وفقاً لوصفة هوما. والشاي بالليمون في الإبريق الأبيض المزخرف بزهرتين ورديتيّ اللون ذكَّرني بها. ومع وصول رسالتها، عاد غيابها ليطغى على حياتي من جديد.

عندما رأيتُ ظرف البريد الجوي المخططة حوافه بالأزرق والأحمر لأول مرة، افترضتُ أنه من والدتي، وأنه سيحتوي على المزيج المعتاد من الرثائيات والتحديثات بشأن الوضع السياسي الخطير في إيران. كنت أعرف أنّ قوات النظام قد فتحت تلك الرسائل وقرأتها على الأرجح، لكن والدتي لم تكن تهتم لذلك في الغالب، وكتبت بكلِّ صراحة ووضوح شيئاً من قبيل: **ألستِ محظوظة، يا إيلي؟ لقد رحلتِ ونجوتِ من الاحتجاجات العنيفة وأعمال الشغب الصاخبة جدّاً. لقد غادرتِ ولم تشهدي الانزلاق المؤسف لبلادنا نحو العصور الوسطى. لقد خسرت المرأة في هذا البلد عقوداً، بل قروناً من حقوقها. يسعدني أنَّ المقام يطيب لك في أمريكا مع زوجك الأستاذ الجامعي. أحمدُ الله أنك خرجتِ من هنا!**

لكنَّ قلبي كاد أن يتوقف إذ سحبتُ الورقة الرقيقة من المظروف وفتحتُها. فعلى تلك الورقة، كان ثمّة خط لا يمكن أن أخطئه، إنه خط يد صديقتي القديمة هوما.

حين كنّا لا نزال يافعتين، جلسنا على نفس المقعد في المدرسة الابتدائية وسط مدينة طهران. ورسمنا شبكات لعبة الحجلة على أرض الزقاق في حيّنا، وتسابقنا إلى المدرسة فيما حقيبتانا ترتدّان متقافزتين عن وركينا. مع هوما، تجولتُ في متاهات البازار الكبير،

وتشاركتُ معها شطائر المثلّجات وأحلاماً عن نوع النساء اللواتي سنكبر لنصبح منهنّ. في مطبخها الحجري، تعلّمتُ الطبخ. ويداً بيد، قفزنا معاً فوق أضخم النيران[1]. ويوم تسلقنا جبل البرز ورأينا طهران تنداح أسفل منا، شعرنا وكأنَّ العالم بأكمله يمكن أن يكون ملكاً لنا.

حتى دمّرت لحظةٌ من الإهمال الصادم كل شيء.

تعمّدنا على مدار السبعة عشر عاماً الماضية أن نبقى مفترقتين - دون أيّ نوعٍ من التواصل عدا لقاءٍ واحد لم يكن مخططاً له. والآن كان ثمة رسالة منها بين يدي. كيف عرفت أين تجدني؟ لا بدَّ أنّها حصلت على عنواني من أمي.

كانت صفحةٌ من رسالة هوما مليئة بالأسئلة عن حياتي في أمريكا. والصفحةُ الأخرى كانت عن وضعها في إيران. كانت بصحّةٍ جيدة (**بعض المشاكل في الجيوب الأنفية لا أكثر**)، وكان الطقس (**بارد لكنه مغرٍ للصعود إلى الجبال - هل تذكرين المقهى الذي ذهبنا إليه**) يتّسق أكثر فأكثر مع فصل الشتاء، وكانت وظيفتها كمعلمة تبقيها مشغولة. لكنها لم تكن مرتاحة البال (**لن تتعرّفي على هذا البلد، يا إيلي. لا أعرف أين أخطأنا**). وأسفل الصفحة، كانت ثمة جملة عن ابنتها بَهار، وكيف أنّها كانت تحب الغناء. ثمَّ ختمت الرسالة بـ **هل يمكنك الاتصال بي، يا إيلي؟ أرجوك. هذا رقمي 272963. أحتاج أن أتحدث إليك. الأمر عاجل.**

---

(1) أحد طقوس الاحتفال باستقبال النوروز وإعلان مجيء الربيع وبدء السنة الفارسية الجديدة، حيث يقوم الإيرانيون، الشباب خاصة، بإشعال نيرانٍ كبيرة في مداخل الطرقات، ويعمد الكثير منهم إلى القفز فوقها وهم يرددون أشعاراً محلية - المترجم.

بعد أن أخبرتُ مهرداد بشأن الرسالة، ضمّني إليه، وقال بلطف: «من الجيد أنها تواصلت معك. لقد كنتما أعزّ صديقتين. آن الأوان للبوح بكل المكنونات، يا إيلي. تحدّثي إليها».

كم أتمنى أن يكون الأمر بهذه البساطة.

لم يكن بإمكاني لوم هوما على انقطاع التواصل. لكنّها عادت إلى حياتي الآن بكل براءة وحيوية لتخلق حفرة ملغومة من الأسئلة عبر تذييل رسالتها بـ **الأمر عاجل**.

في نهاية مناوبتي، نزعتُ دبوس شارتي الاسمية، ووضعتها في درج المنضدة، ثمَّ ارتديتُ معطفي الطويل الدافئ وجورب الساقين المخطط.

إذ هرعتُ خارجاً باتجاه محطة مترو الأنفاق، حمل هواء ديسمبر البارد رائحة المكسرات المحمصة من عربات الطعام وأبخرة الديزل المنبعثة من حافلات المدينة. قرع رجالٌ ببطونٍ كبيرة يرتدون زيّ بابا نويل ويبدو عليهم التعب الأجراس وهم يشيرون إلى دلائهم ويصرخون: «ميلاد مجيد!». كانت حبال الزينة الفضية والذهبية تؤطّر الجهة الداخلية من نوافذ المتاجر وأشجار العيد المضيئة تجثم خلف واجهات العرض الزجاجية. كانت ثمّة برودة في الهواء جعلت أنفاسي تنبعث طافية على شكل حلقات مرئية.

كانت الكلمات من رسالة هوما تتزاحم في رأسي. وفجأة، انحرفت سيارة أجرة قريباً جداً مني وأطلقت بوقها بصوتٍ عال. شعرتُ بقلبي يسقط من مكانه إذ تذكرتُ مناسبةً أخرى كادت فيها سيارة أن تصدمني. لكن هذه المرة، كان الضرر الوحيد عبارة عن بضع بقعٍ من المياه الموحلة تتغلغل في جورب ساقيّ.

قرب مدخل مترو الأنفاق، أضاء باللونين الأحمر والأصفر وميضُ لافتة بيتزا. وشعرتُ بدوخةٍ لذيذة إذ تخيلتُ الحصول على شريحة.

منذ وصولي إلى نيويورك قبل ما يقرب من أربع سنوات ونصف، تنزهتُ في سنترال بارك، وزرت المتاحف المتخمة بفنون العالم، وتناولتُ الطعام في بعض المطاعم الفاخرة، لكن ما من تجربة ثقافية تتفوق على تناول شريحة بيتزا مالحة، جبنية، وساخنة في نيويورك. يبدو أنَّ كل مطعم بيتزا يستخدم وصفته السرية لصلصة الطماطم العذبة والعجينة القابلة للطيّ بصورة مثالية.

نظرتُ إلى ساعة يدي. ليس ثمة معنى لركوبي القطار وأنا جائعة وخائرة القوى. لذا تسللتُ إلى محلّ البيتزا وانتظرت في الطابور للطلب. وبعد أن دفعتُ الخمسة وسبعين سنتاً، خرجتُ ومعي شريحة جبن في علبة كرتونية مثلثة الشكل. فتحتُ العلبة لآخذ قضمتي الأولى.

سمعتُها قبل أن أراها. كانت تئنّ بإيقاعٍ مضبوط كما لو أنها تتألم. وتحت الضوء الخافت لمصباح الشارع قرب محطة المترو، استطعتُ أن أراها بصعوبة: امرأة مسنة تجلس متكئة على عمود الإنارة، وكيسان بلاستيكيان ملفوفان حول قدميها، وغطاء رأس بالكاد يغطي شعرها. وبين أنّةٍ وأنّة كانت تسأل المارة غير المستجيبين بصوتٍ ضعيف ومكرّرٍ آلياً: «هل يمكنك الاستغناء عن سنت، يا سيدتي؟ هل يمكنك الاستغناء عن بضعة قروش، يا سيدي؟».

كنتُ أريد الوصول إلى قطاري؛ إلى بيتي. كنتُ أحتاج أن أفكر، كي أقرر ما إذا كنت سأتصل بصديقتي القديمة. لكن كيف يمكنني أن أتجاهل هذه المرأة؟ ذهبتُ إليها وجلست القرفصاء

أمامها. ابتسمت لي، ففوجئتُ لرؤية أسنان مستقيمة ومثالية. التقطت المرأة العجوز المفاجأة في نظرتي. كانت عيناها دامعتين وكامدتين. رفعتْ كتفيها قليلاً. وفي تلك الحركة الصغيرة، رصدتُ اعترافاً صامتاً بعبثية عجلة الحظ.

ناولتُها علبة الكرتون مثلثة الشكل، حيث كانت البيتزا لا تزال ساخنة ولم تمسّ. عثرتُ في حقيبتي على محفظة النقود التي كانت أمي قد أهدتني إياها حين كنت طفلة في إيران، فتحتُها وأخرجتُ كل ما فيها من عملات معدنية وبعض الأوراق النقدية المجعّدة. كانت النقود الأمريكية لا تزال تبدو غريبة بالنسبة لي: إنها خضراء اللون وسميكة جداً مقارنة بأوراقنا النقدية في الوطن. أخذت السيدة ما عرضتُه عليها من البيتزا والعملات المعدنية والورقية وهي بحالةٍ من الذهول.

نهضتُ ومضيت مبتعدة. وإذ شرعتُ أهبط درجات محطة مترو الأنفاق، استدرتُ مرة واحدة فقط.

كانت تأكل شريحة البيتزا وعلى وجهها تعبيرٌ عن الارتياح في أكمل صوره.

إذ اندفع القطار داخل النفق وتباطأ حتى توقف تماماً، تدافعنا جميعاً وتعجلنا الصعود إليه. عبقت العربة المزدحمة برائحة البول والصوف المبلل. لحسن الحظ، تمكنت من الحصول على مقعد. محشورة بين زمرة من الغرباء، كنتُ ممتنّةً لكوني شخصاً مجهولاً بالكامل هنا. لم يكن هناك شخصٌ واحد في هذه المدينة القذرة، والمزدحمة، والرائعة، والمحبِطة، والمغوية، والضاجّة بالحياة، يعرفُ شيئاً واحداً عن ماضيّ أو عن الشعور بالندم والذنب الذي كان قد ابتلعني بكليّة كينونتي.

ترنّح القطار ثمَّ انطلق إلى الأمام. عطس أحدٌ ما قرب الباب، ودندن رجلٌ يرتدي قبعة بيسبول نغمةً بهيجة على نحوٍ غريب.

أغمضتُ عينيّ. تذكّرتُ كلّ شيء - كل جزءٍ صغير منه. تلك الأيام التي لا يمكن نسيانها من التواصل والفوضى العبثية التي شكّلت صداقتنا.

2

ربيع وصيف 1950

- «لا يمكنكِ أن تتوقعي مني أن أعمل، يا إيلي»، قالت أمي مستخدمة اسم التحبب الخاص بي. «لا ينبغي بسليل الملوك أن يلمس شيئاً كي يأخذ أجراً».

كان أكبر مصدر فخرٍ لأمي هو أنها تتحدر من سلالة ملوك وملكات، وكانت لا تنفكّ تخبرني أنَّ جدتها كانت ابنة أحد ملوك القاجار[1]، وأنّها أطلقت عليّ اسم «إيلاهيه» لأنه يعني «إلهة»؛ لأننا كنا من سلالةٍ ملكية، وقد كانت حريصةً كل الحرص على ضمان ألّا يتمّ تجاهل مكانتنا الرفيعة.

ليس لديّ عن حياتنا في البيت الكبير في الحيّ الراقي من المدينة سوى القليل من الذكريات. أذكر أنني كنت أغفو على صوت والديّ وهما يتجادلان في الغرفة المجاورة. أذكر وجه والدي بحاجبيه الكثيفين وملامحه الطيبة، ورائحة المسك التي تنبعث منه، وجِرس صوته العميق وهو يردّد أبيات الشعر القديم. كان يناديني بـ «إيلاهيه جاااان» ويطيل الألف في لاحقة التحبّب «جان» بعد اسمي

(1) حكمت سلالة القاجاريين بلاد فارس بين عامَي 1779-1925 - المترجم.

الأول، وفي بعض الأحيان كان يناديني «إيلاهيه جون» حيث تعتبر «جون» النسخة العامية لكلمة «محبوبة».

توفّي ذات يوم من ربيع العام 1950، بعد عيد ميلادي السابع مباشرة.

لم يكن لدي إخوةٌ أو أخوات لنتفجّع عليه معاً. ومع تقدّمي في السنّ، افترضتُ أنه ربما جاء واحد أو اثنان منهم إلى الحياة قبلي أو بعدي، وربما فقدناهما بسبب الأمراض والعلل الكثيرة التي كانت تفتك بالرضّع وحديثي الولادة في ذلك الوقت. لكن وقبل أن يحاول والداي مجدداً إحضار طفلٍ آخر إلى هذا العالم - طفلاً سينجو مثلي - فتك السل بجسد والدي. سُجّي جثمانه ملفوفاً بكفنٍ أبيض، ودِفن في مكان قريب مبجَّل.

وحتّى يومنا هذا، حين يمر رجلٌ بقربي في بعض الأحيان، تنتفض بفعل رائحته الشبيهة بالمسك ذكرى بابا بداخلي. أثناء مراسم دفنه، حملتُ قبّعته المصنوعة من صوف الحمَل ومرّرتُ أصابعي عبر النسيج الفروي الناعم جدّاً. وفي وقتٍ لاحق من ذلك المساء، أعطتْ والدتي تلك القبّعة لمتسوّلٍ في الشارع.

مع تقدّمي في السن، كان لدي توقٌ دائم لمعرفة المزيد عنه، لكنّ أمي كانت تتصرف بطريقة قمعية كلما ذُكر اسمه، وتكتفي بالقول إنّها تحزن كثيراً لتذكّر مصيره والقوة الرهيبة للعين الشريرة.

لم يكن لأبي - الذي توفّي وهو لا يزال صغيراً جداً - سوى شقيقين. ركب أحدهما حصاناً نحو الحدود الروسية، واتخذ لنفسه زوجةً هناك، ثم استقرَّ في منطقة باكو[1]. أمّا الأخ الآخر، العم

---

(1) عاصمة أذربيجان الحالية - المترجم.

مسعود، فقد تولّى شؤوننا وأصبح الوصيّ الماليّ علينا، المسؤول عن دفع إيجارنا ومصاريفنا.

بعد الجنازة، جاء العم مسعود لرؤيتنا حاملاً قبعته السوداء من صوف الحمل. قال - ببالغ الأسف - إنّنا سنضطر، أنا وأمي، إلى مغادرة منزلنا الكبير، منزلها منذ أن تزوجت وهي في السادسة عشرة من عمرها. أوضح لنا العم مسعود بلطف أنَّ أبي لم يترك لنا الكثير من المال، فكان علينا أن ننتقل جنوباً إلى مكانٍ كان قد أمّنه لنا في منطقة **باين الشهر** أي «قاع المدينة».

- «لا تقل لي هذا الهراء، حجّي مسعود»، قالت أمي. «أنتَ فقط تريدني أن...»، جذبتني نحوها بغريزة الأم الحامية، ثمَّ همستْ له قائلة: «كم من المحزن أنّك ستعاقبني بهذه الطريقة».

لاحقاً، عندما كنت لوحدي (كان الخدم جميعاً نائمين منذ بضع ساعات قبل أن يتم إرسالهم لحزم أغراضنا)، جاءت أمي لتتمنّى لي ليلةً سعيدة. قياساً بعائلة إيرانية في ذلك الزمن، كانت عائلة أمّي صغيرة. لم يترك لها والداها أي ميراث، كما توفيت أختها الوحيدة قبل والدي بفترةٍ وجيزة، ليزيد حزنها حزناً، ويتعاظم إحساسها بلعنة العين الشريرة.

مسّدتْ أمي شعري ووعدتني أن انتقالنا إلى الجانب الآخر من المدينة سيكون مؤقتاً فقط. وحدّثتني عن الأخلاق والأدب الرفيع واحترام الأرامل، وأخبرتني أنّ العم مسعود لا يتمتع بأيٍّ من تلك الصفات. ثمَّ توقفت فجأة عن مداعبة شعري، وقالت إنَّ العمّ مسعود يريد شيئاً واحداً فقط، لكنها ما كانت لتمنحه إيّاه. لم أعرف ما هو ذلك الشيء الوحيد، لكنني لم أجرؤ على السؤال لأنَّ أمي بدت

غاضبة جدّاً عندما ذكرتُه، وآخر شيء كنت أريده هو أن أثير أعصابها المتوترة أصلاً.

صباح اليوم التالي، وأثناء تجولها في المنزل للمرة الأخيرة، صرخت أمي بأنها لا تريد أن تترك لوحاتها، ولا أغطية الطاولات المخرّمة، والخزف، والكراسي الفرنسية من طراز لويس التاسع المنجّدة بقماش الدامسكو الثقيل. في غرفة النوم، جررتُها من ساقيها وهي تعانق خزانة الملابس الفاخرة. ثمَّ دلفنا الغرف الداخلية، حيث بكت أمي الأطفال الذين قالت إنها كانت ستنجبهم لو كان مصير والدي مختلفاً عمّا آل إليه. ثمَّ كالت أمي الشتائم لعمي في فناء منزلنا حيث ازدانت الحديقة بشجيرات الزهور الوردية والحمراء والبيضاء، الأمر الذي فاجأني، فكيف يمكن لحديقتنا أن تكون بهذا الجمال رغم أنَّ أبي لم يعد موجوداً؟

آخر لمحةٍ لي عن تلك الحياة كانت صورة ضبابية مبهمة للقصر مصحوبة بتنهدات أمي المتحسرة ونحن نمضي في طريقنا مبتعدتين.

في الليلة الأولى في شقتنا الجديدة وسط البلد، فرشتُ مع أمي المرتبة التي سننام عليها الآن معاً. حدّقت أمي في الأرض وقالت: «إيلي، هل فكرتِ يوماً أنكِ ستعيشين لتري اليوم الذي ستعيش فيه والدتك - المتحدرة من نسل ناصر الدين شاه(1) - في العشوائيات؟».

كنتُ لا أزال أحاول هضم وفاة والدي. «كانت مجرد نزلة برد في البداية، أليس كذلك؟ ألم يكن ينبغي بالكركم الذي أذبتُه له مع الشاي الحلو أن يقيه من الحمّى؟ لمَ لم ينجح ذلك؟».

---

(1) ناصر الدين القاجاري، وهو ابن محمد شاه قاجار، حكم إيران بين عاميّ 1848-1896 - المترجم.

- «لقد حُسدنا ونظرتْنا العين الشريرة، يا إيلي جون. لقد حلّت لعنةٌ بنا. هذا كل شيء».

- «أتمنى لو أنّه كان لا يزال هنا».

- «لا تقللي أبداً من شأن قوة الحسد، يا إيلاهيه»، قالت أمي مخاطبة إيّاي باسمي الكامل. «عين الحسود قادرة على تدمير السعادة. كل أولئك الحاسدين لي ولأبيك منذ بداية زواجنا، جلبوا لنا النحس بأفكارهم الشريرة والناقمة».

بدت كلمات أمّي وكأنّها موجّهة لصديقة، أو لأختها التي فقدتْها، وليس لي، كاتمة الأسرار التي بالكاد تبلغ السابعة من عمرها.

- «أمّي، لقد كان مريضاً. أعتقد أنَّ المرض هو ما قتله».

- «ينطوي الحسد على طاقةٍ هائلة. طاقة يمكن لها أن تسكن الهواء وتهدِّم السعادة الحقيقية. أعلم أنكِ لا تصدقيني، يا إيلاهيه. لكن سترين».

تخيّلتُ سحباً من طاقة الحسد تسبح في طبقات الجو. كان ثمّة شيءٌ مخيف وغريبٌ تماماً في قبول أن يكون للآخرين هذه السلطة علينا ببساطة من خلال عواطفهم. كان عليّ أن أنقذ أمي من الغرق أعمق في لجّة اليأس. فغامرتُ بالقول: «على الأقل، لا يزال لدينا العم مسعود».

وندمتُ على ذلك في الحال.

- «آه، أرجوك لا تحدثيني عن العم مسعود!»، قالت لي. «كان بإمكانه أن يسمح لنا بالبقاء في منزلنا شمال المدينة. لكنّني رفضتُ الانصياع لشروطه. لأنّ لديّ مبادئ. لأنّني ما كنتُ لـ. . . أوه، لا

يهم يا إيلي. لا تلقي بالاً لذلك. المسألة وما فيها أنّنا عالقون هنا ببساطة. فقد استُنزفتْ كل أموال والديّ - رحمهما الله - في حياتهما بسبب أولئك الذين سلّطوا **عليهما** لعنة العين الشريرة أيضاً! وشقيق والدك الآخر هرب إلى روسيا. والآن عمك الحبيب مسعود هذا، يعتقد أنّه يسدي لنا معروفاً بدفع إيجارنا في العشوائيات، بينما يقضي واجبه أن يعيل أرملة أخيه وابنته». ثمَّ نظرتْ حولها في الغرفة الخاوية وقالت: «حتّى إنه لن يرسل في طلب أثاثنا القديم».

حاولتُ أن أفكّر في شيءٍ إيجابي لأقوله. «من الجيد أنَّ العم مسعود لن يرسل لنا الأثاث القديم، فلن يكون مناسباً لهذا المكان على أيّة حال».

حدّقتْ أمي بي، ثمَّ انفجرت في البكاء.

كان العم مسعود يأتي لتفقّد أحوالنا، ويحضر معه اللحم والدجاج وحلوى النوغا البيضاء. وحتى وأنا في السابعة من عمري، كنت أعلم أنّه ليس شيئاً غير اعتيادي أن يتزوج الرجل من أرملة أخيه المتوفي. كان العم مسعود أعزبَ - وما كان أحدٌ ليتفاجأ أو ليقلق إذا ما تزوج والدتي، كواجبٍ تجاه أخيه المتوفي، بصرف النظر عن أسبابٍ أخرى. لكنّ أمي قالت إنّه لا يناسبها أن تتزوج من شقيق زوجها فقط كي تشعر بالأمان. **لن أسمح لذلك الرجل أن يضع إصبعه عليّ. أنا لستُ ضرباً من المُلكية يتمُّ تناقلها من شخصٍ لآخر.**

لم تغفر أمّي للحياة أبداً مصير والدي.

لم يخترق جدارَ حزننا الانعزاليّ في تلك الأسابيع الأولى القليلة إلّا زياراتٌ منتظمة من العم مسعود وبعض الأقارب اللدودين.

لم تكن أمّي يوماً ذاك الشخص المرح، لكنّها بعد «رحيل» والدي، قالت لي إنّه لمن المؤلم جداً أن يراها أفراد الأسرة الذين كانوا ذات يوم على دراية بثرواتنا وقد أصبحت تقطن في العشوائيات. وفي نهاية المطاف، كفّوا عن جعل أنفسهم عرضة لأسلوبها الجلف وغير الودود في التعامل.

حتى مع استمرار زيارات العم مسعود، بدأتُ أعتقد أنه جعلنا ننتقل من قصر عالي الجدران إلى منزل من الطوب في العشوائيات بدافعٍ من الانتقام والغضب لرفضها له. بعدها، بدأتُ ألاحظ بعض المزايا البسيطة لهذا المكان الجديد الصغير. كانت لدينا غرفتان نظيفتان وإطلالة على الشارع. وكان يمكنني بسهولة أن أنظر من النافذة وأرى الأولاد والبنات وهم يلعبون في الشارع.

في المناسبات النادرة التي خرجنا فيها، كانت أمّي تنهر أطفال الحيّ أثناء مرورها، وترفع تنورتها وهي تشق طريقها بين أطرافهم النحيلة المتطاولة كما لو أنها تحاول تجنب الإصابة بالعدوى. «هذا غير لائقٍ بالمرة»، كانت أمي تقول. «أطفال في الشوارع. انظري إليهم كيف يرمون الحجارة ويقفزون مثل الحمقى».

أحببتُ أنَّ منزلنا كان ضمن زقاق يعجُّ بالأطفال. وأحببتُ أنَّ الأولاد في هذا الجزء من المدينة يشركون الفتيات في ألعابهم، وأنّه يمكن حتى للفتيات أن يلعبن في الخارج.

لكن أمي قالت إنها لن تسمح لسليلة نسل ناصر الدين شاه بالتسكع مع الـ **دهاتي** (الأشبه بالفلاحين) والزعيق مثل أولاد الشوارع.

لذا، فقد قضيت معظم فترات بعد الظهر داخل المنزل. ابتعدتُ عن النافذة كي أجلس مع أمّي وألعب بدميةٍ قماشية أسميتها تورنيب.

في الليل، كنتُ أستلقي على المرتبة التي تقاسمتُها مع أمي وأرسم في ذهني صورة الصديقة المثالية. سيكون لها شعرٌ بنّيٌّ غامق، وعينان لطيفتان، وطباعٌ هادئة.

مرّت الأشهر، وكان صيفنا الأول في وسط البلد يلفظ أنفاسه الأخيرة. بعد ظهر أحد الأيام، طلبتْ أمّي شايها كالمعتاد، فأحضرتُه لها مع قطعة سكّر. وضعت السكّر بين أسنانها، وأخذت رشفةً من الشراب كهرمانيّ اللون وقد ذوى وجهها في البخار.

- «إيلي، لقد سجّلتكِ في المدرسة»، قالت لي.

بينما كانت تتحدّث - وتخبرني كم كان من الصعب عليها أن تسجّل اسمي مع علمها بأنّها كانت مدرسةً فقيرة في حيٍّ فقير، لكن ماذا تتوقعين عندما لا يدفع لنا شقيق والدكِ الجشع كي نكون في حالٍ أفضل - ضجَّ جسدي بمزيجٍ غريب من الترقّب والإثارة.

لقد غيَّرتْ رياح حظّي مجراها.

مدرسة. مدرسةٌ حقيقية. مبنىً كامل يفصل بيني وبين أمي. باحة. لا بدَّ أنَّ هناك باحات في المدارس - كنتُ متأكدةً من ذلك. معلّمون. وفتياتٌ من عمري - خفق قلبي بسرعة لمجرّد التفكير في هذه الاحتمالية!

شعرتُ بالذعر والإثارة من فكرة هذه البوابة التي تفضي إلى عالمٍ آخر كلّياً. عالمٌ ربّما أعثر فيه - أقول ربما - على صديقة أحلامي ذات العينين اللطيفتين.

سنلتقي في أول يومٍ دراسيّ. ربّما خارجاً في باحة المدرسة. قد نشعر بالخجل في البداية، ونتردّدُ حيال تقديم إحدانا نفسها للأخرى. لكن بعد حذر البدايات، سنصبح صديقتين بسرعةٍ كبيرة.

وسنفعل كلّ شيءٍ معاً. اللعب في فترات الاستراحة وأداء الواجبات المنزلية (كنتُ في غاية الحماس لكلا الاحتمالين).

طلبت أمي من العم مسعود أن يشتري لي الدفاتر، بل وقلمَي رصاصٍ أيضاً. سأتعلم الكتابة! وعلى دفترٍ حقيقي، بواسطة قلم رصاصٍ حادّ. كنتُ قد رأيتُ أمي وهي تكتب - قالت إنّه كان أشبه بوجع قلب مستمر أن تكون محاطةً بالأمّيين في حياتها الجديدة بينما هي متعلمة وأكملت الصف التاسع.

قليلةٌ هي الأشياء التي أثارتني أكثر من احتمال التعلّم والعثور على صديقة. أردتُ أن أتعلم كل شيء، وأن أصبح أفضل طالبةٍ عرفتها المدرسة على الإطلاق. وسنذهب - أنا وصديقتي الجديدة - إلى كلِّ مكانٍ معاً. سنلعب لعبة الخمس حصوات التي رأيتُ فتيات الحي يلعبنها. ربّما سيعطيني العم مسعود المال لشراء المثلّجات. فإذا عرف أنني أبلي حسناً في المدرسة، وإذا عرف أنَّ لديّ صديقة، فلربّما يدفع لي لشراء المثلّجات. حين كنتُ أستلقي بجوار أمي، كنتُ أتخيل إحضاري لهذه الصديقة الخيالية إلى منزلنا. ستُضحك صديقتي الجديدة أمي. ويمكننا حتى أن نأكل سويّاً في بعض الأحيان. وقد أطلقتُ العنان لمخيلتي بشأن الأطباق اللذيذة التي سنتشاركها.

لم أطق صبراً وأنا أتطلع إلى العالم الجديد الذي كان ينتظرني مع نهاية الصيف ووصول الخريف.

3

سبتمبر 1950

رفرف سربٌ من الفراشات بداخلي بينما كنتُ أشقُّ طريقي سيراً إلى المدرسة. حملتُ الحقيبة التي علّمني العمّ مسعود كيف أقفلها، وشعرتُ بثقل الدفتر وقلمَي الرصاص بداخلها.

كنتُ متوترة، لكن ممتنّة أيضاً. بدا أنَّ بداية كلّ شيء ممكنة. لم يعترض العمّ مسعود على ذهابي إلى المدرسة، إذ كان يؤمن بأنَّ الفتيات يجب أن يتعلَّمن أيضاً. حتى وأنا في السابعة من عمري، ميّزتُ أنَّ ذلك لم يكن رأياً يشترك به جميع الرجال والنساء. لكنَّ أمي وعمي كانا متفقين بهذا الشأن. كنتُ أعرف الطريق إلى المدرسة، والمبنى الذي يجب أن أدخل إليه - ليس لأنَّ أمي كانت تمسك بيدي لتدلّني على الطريق، بل لأنَّ العم مسعود كان قد أعطاني الإرشادات بصوته الرخيم بينما كان يسلّمني الزي واللوازم المدرسية. كما إنني كنتُ قد تدرّبتُ على الذهاب إلى هناك مرتين بالفعل.

كان الهواء قد فقد معظم سخونته الجائرة مع نهاية الصيف. وساعدتني النسمات المنعشة على تهدئة أعصابي - إلى أن بلغتُ وجهتي، حيث وقفتُ أحدّق في فناءٍ كبير ضاجٍّ ومكتظّ.

عند بوابة المدرسة، وضعتُ الحقيبة بين ركبتيّ حتّى أتمكن من تحرير يديّ لأشتغل على خرافةٍ شخصية. ففي عزّ الصيف، وبينما كنت أختنق بفعل الحرارة الحارقة، اخترعتُ طقساً لنفسي، مارستُه كلما أردتُ أن يحدث شيءٌ جيد. كنت أولاً أحكم شدَّ إحدى ضفيرتيّ (اليسرى) ثمَّ أحكم شدَّ الأخرى (اليمنى). يجب أن تُشدَّ الضفيرتان بإحكام - اليسرى أولاً، ومن ثمَّ اليمنى.

كنتُ قد أدّيتُ حركة الضفيرتين الجالبة للحظّ، فأعلنت أمّي بعدها بأسابيع قليلة فقط أنّها سجلتني في المدرسة، أليس هذا ما حدث؟ وكررتُها في الأسبوع السابق، قبل أن أتدرب على السير إلى بوّابات المدرسة مباشرةً، ثمَّ مجدداً في اليوم الذي ذهبنا فيه إلى الحمّامات، حيث حظيتُ بألطف عاملة في الحمّامات لتتولى مهمة تنظيفي، أليس هذا ما حدث؟ لقد أفلحت هذه الحركة سابقاً. كان ينبغي لها أن تفلح اليوم.

بعد أن شددتُ ضفيرتيّ، أخذتُ نفساً عميقاً، ورفعتُ الحقيبة من بين ركبتيّ، وعلّقتُها على كتفيّ مجدداً، ثمَّ مشيتُ عبر البوابات وصولاً إلى باحة المدرسة.

كانت هناك فتياتٌ على مدِّ النظر. رفرفت الفراشات بداخلي أكثر فأكثر حتّى تخيّلتُها تصطدم ببعضها. ارتدت الفتيات زيّاً موحداً كالذي أرتديه تماماً؛ فساتين رمادية بياقات بيضاء لا تعدّ ولا تحصى. بدت جميعهنّ مهندمات وجذّابات. تحرّكتُ أبعد داخل الباحة بحثاً عن فتيات زقاقنا. إن كانت أيٌّ منهنّ محظوظةً بما يكفي لتكون هنا، فالأرجح أنّني لن أعرف بذلك حتّى. كنّا جميعاً نبدو كالتلميذات!

اخترق صوتٌ ثاقبٌ وغير مألوفٍ أذنيّ. كان عالياً وحادّاً جدّاً. استدرتُ، فرأيتُ امرأة أكبر سنّاً وفي فمها شيءٌ صغير (علمتُ لاحقاً

أنّها صفّارة). كانت تؤرجح كلتا ذراعيها في الهواء وهي تصرخ: **اصطففن! اصطففن!** فبدأت مجموعات من الفتيات بتنظيم أنفسهنّ في صفوف كما لو كان ذلك بفعل السحر.

- «**كلاس أفل!**»، صرختْ امرأةٌ ترتدي تنورة زرقاء داكنة. الصف الأول. إنّه صفّي. لحقتُ بالمرأة، وشققتُ طريقي إلى الصف حيثُ وقفتُ ثابتة في مكاني. كانت المعلّمات تطلبن من الفتيات الهدوء.

لكزة.

تجاهلتُ الأمر.

ضربةٌ بالكوع.

لم أكن أريد الوقوع في ورطة، لكنّني استدرتُ للوراء.

كشفتْ ابتسامتها عن سنّين أماميين مفقودين. كان شعرها أسودَ، ومجعّداً، وفوضوياً. انعقصتْ إحدى الجعدات فوق جبهتها تماماً مثل خطافٍ مارق. كانت عيناها تنضحان شقاوة.

شعرتُ على الفور بالغيرة من مظهرها، وذلك لأنني لم أكن قد فقدتُ أسناني الأمامية بعد. «**ناكون! توقفي!**»، قلتُ همساً.

انحنت الفتاة التي لكزتني حتى أصبح وجهها قرب وجهي. كانت رائحة أنفاسها كرائحة الفجل. مَن يتناول الفجل على الإفطار؟ كان لها بشرةٌ داكنة، وثمّة شامةٌ أسفل عينها اليسرى. «**ميدوني تشي؟** خمّني ماذا؟»، قالت لي.

أردتُ بشدة أن أستدير وأواجه المعلّمة مثل طالبةٍ جيدة، لكنَّ نظرة هذه الفتاة كانت آسرة. «ماذا؟»، تمتمتُ قائلة. الأفضل لها أن تسرع وتخبرني.

- «**هيتشي! لا شيء!**»، قالت، ثمَّ طارت يدها لتغطّي فمها.

كانت ترتجُّ ضاحكة بصمت على نكتتها السمجة، وعيناها مغمضتان بإحكام.

استدرتُ للأمام، غير منبهرة. نظرتُ يائسة ذات اليمين وذات الشمال، وتساءلتُ إن كانت هنا؛ الصديقة التي كنتُ أرسم صوراً لها في خيالي. تلك اللطيفة ذات الشعر البني الداكن والطباع الهادئة، تلك التي سأتناول معها المثلّجات. حتى بينما كنّا نسير لندخل المبنى خلف معلمتنا، مسحتُ باحة المدرسة بحثاً عنها.

داخل الفصل الدراسي، اصطففنا أمام الحائط في انتظار تخصيصنا كلٌّ في مقعدها. نظرتُ حولي في الغرفة بحثاً عن الصديقة المثالية. وإذ نودي على مقعدي، وجدتُ نفسي بجوار الفتاة التي كانت تلكزني في باحة المدرسة. انتابني الذعر. هل لم تفلح تعويذة ضفيرتي الجالبة للحظ؟

جلستُ في المقعد المخصص لشخصين، ووضعتُ حقيبتي بعناية.

التفتت الفتاة الوقحة إليَّ، وقالت: «اسمي هوما، ما اسمك؟».

نظرتُ إليها بطرف عيني وتمتمت: «إيلاهيه».

افترَّ ثغرها عن ابتسامتها منقوصة الأسنان الأمامية ثمَّ ضحكتْ بلا سبب.

تجاهلتُها.

خلال تلك الأيام القليلة الأولى في المدرسة، بقيتُ متمسكةً بالأمل في أنَّ الصديقة التي كنتُ أستحضرها في خيالي سوف تظهر رغم كل شيء. قد ألتقيها صدفة خلال الاستراحة (هل كانت في فصلٍ دراسي آخر)؟ أو قد ترفع معلمتنا عينيها لتعلن أنَّ طالبةً جديدة قد التحقتْ بفصلنا.

تجاهلتُ هوما قدر استطاعتي، رغم أنّها كانت بجواري دائماً مع ابتسامتها السخيفة.

في الأسبوع الخامس من العام الدراسي، وذات يوم أربعاء، حدثتْ مواجهة كان من شأنها أن تغيّر رأيي في هوما.

كنا في تلك الأيام نأخذ استراحةَ غداء لمدة ساعتين، حيث يعود الطلاب إلى منازلهم ليأكلوا مع عائلاتهم. كانت الفتيات الأخريات يصلن - كنتُ على يقين من ذلك - ليجدن قماش السفرة مفروشاً، والأطباق مرتّبة، وأكواب الصفيح مملوءة بالماء البارد.

في يوم الأربعاء الخامس ذاك، عدتُ إلى المنزل مسرعة. قالت أمي إنه لا يمكن لعينيها المتعبتين أن تلتقطا الأوساخ والحصى الصغيرة في الأرز بمثل عينيّ اليافعتين. كانت عيناها «محطمتين» من البكاء على والدي.

كانت قد وضعت الأرز في صينية، وانتظرتْ أن آتي لأزيل الحبيبات. سكبتُ الحبات الجيدة المتبقية في وعاءٍ وشطفتها بالماء عدة مرات. كنا في هذا الجزء من المدينة محظوظين لحصولنا على الماء، كما كنا محظوظتين لأن لدينا إبريقاً ومغسلةً بمضخة مياه يدوية. لكنَّ أمي كانت تفتقد مطبخها القديم، وتكره هذه المضخة الجديدة.

ناولتُ وعاء حبوب الأرز المبللة لأمّي، فسكبتْها في قدرٍ على الموقد. ما كانت لتسمح لي بطهي الأرز مع ذلك، فقد كانت تخشى أن أحرق المنزل، وماذا ستفعل عندئذٍ؟ قالت إنّها كانت متعبة ولا طاقة لديها لتحضير أي شيء مع الأرز، لذا عندما أصبح جاهزاً، أكلناه مع بعض اللبن الزبادي. ثمَّ ساعدتُ في غسل الأطباق، وبحلول الوقت الذي كنتُ أرتدي فيه حذائي للعودة إلى المدرسة، كنتُ قلقة من أنّني سأتأخر على جلسة فترة بعد الظهر.

في الخارج، مشيتُ بأوسع خطوات ممكنة، بأنفاسٍ متقطعة والعرق يتصبب مني. لم أركض لأنَّ أمي كانت تقول إنَّه لا يليق بالفتاة الركض. كانت الحقيبة تخبط وركي كما لو كان جسدي سجادة يُنفض عنها الغبار.

- «هيه! صبر كون. انتظري!».

استدرت. تلك كانت هوما. كانت تركض باتجاهي، وشعرها المجعّد يتطاير هنا وهناك. «أريد أن أقول لكِ شيئاً».

لم أقل شيئاً وواصلت السير.

- «لمَ أنتِ خائفة دائماً من أن تكوني متأخرة؟».

في تلك اللحظة، رأيتُ هوما كما كانت ستراها أمّي: **فتاةٌ أقلُّ شأناً منكِ، تنتمي للطبقة الدنيا، وأنتِ عالقةٌ معها في مدرسةٍ تافهة.** أكملتُ طريقي مسرعة.

- «لو أنّك تنتظرينني لدقيقة فقط، يا حمارة، حتى يتسنى لي التحدّث إليك!».

توقّفتُ عن المشي. «هل نعتِني لتوّك بالحمارة؟».

وصلتْ إليّ لاهثة. «لقد سمعتني، يا حمارة»، قالت لي.

وقفنا وجهاً لوجه، لاهثتين ومنقطعتَي الأنفاس بسبب الاستعجال.

قلتُ لها وقد طغى على خطابي إيقاع ونبرة أمي: «هل تعلمين أنَّ ابنة ناصر الدين شاه كانت جدّتي الكبرى؟».

- «ماذا؟»، سألتْ بأقلّ الصيغ تكلّفاً.

- «لقد سمعتِني، يا حمارة»، رددتُ عبارتها ببغائياً. كنتُ أصغر حجماً وأضعف جسدياً بالتأكيد، وشعرتُ بالنقص وقلة الحيلة لأنَّ الشمس كانت تعمي عينيّ.

- «**خودتي خر!** أنتِ حمارة!».

- «مَلَكيّة»، تمتمت، لكنَّ الكلمة فقدتْ وقعها لدى خروجها من فمي. حرّكتُ قدميّ، لكن وهج الشمس ظلَّ يعمي عينيّ وأنا أحاول النظر إلى هذه الشقية التي تجرّأت على نعتي بالحمارة مرتين. لم أرفع يدي كي أظلِّلَ عينيّ، فقد كان عليَّ أن أُظهر ثباتاً وأُريها مع مَن كانت تتعامل.

صفعت هوما خدّها بقوة وعلى نحوٍ مفاجئ. «أوه! أنتِ **شازدِه**، أميرة!».

لطالما كررت أمّي على مسامعي أنَّ الأولاد والبنات في هذا الجزء من المدينة «العشوائيات» **فهشي**، همجيون، وأنّهم نزَّاعون للعنف بطبيعتهم. في تلك اللحظة، انتابني فجأة إحساسٌ بالذعر.

نزعت هوما حزام الحقيبة عن كتفي، فجفلتُ وتراجعتُ للخلف.

- «لا يهمني إن كانت جدتك الكبرى ملكة بلاد فارس كلها. كل ما أريد معرفته هو هل تريدين أن تلعبي معي؟»، قالت وهي تمسّد حزام حقيبتي.

- «ماذا؟».

- «الحجلة».

لم أصدق ما سمعت. كانت تطلب مني أن ألعب معها؟ وكانت علاوة على ذلك تتحدث عن الحجلة؟ كانت جادةً جدّاً، وبدت راغبةً حقاً في أن أنضمَّ إليها. «لا أعرف»، قلتُ مماطلة. «يجب أن أحصل على إذن والدتي».

- «اسأليها إذاً! وخمّني ماذا أيضاً؟ يمكننا أن نلعب لعبة الخمس حصوات أيضاً». أخذت تقفز في مكانها. «حسنٌ، ماذا تنتظرين أيتها السلحفاة؟ فلنتسابق!».

وضعت هوما إحدى قدميها أمام الأخرى واتخذت وضعية التأهب للانطلاق. «مستعدّة؟».

تلك الابتسامة منقوصة الأسنان، ذاك الشعر المجعّد تحت أشعة الشمس، وتلك النظرة السخيفة المجنونة في عينيها. كان من المستحيل أن تمرَّ بالقرب من طاقتها المتقدة دون أن تشعر برغبةٍ في القفز أو الركض أو التصرف كالحمقى. لم أكن مستعدة، لكنّني حاكيت وضعيتها بطريقة تكاد تكون لا إرادية.

بدأت العدّ. «**يِك**، **دو**، **سي**! واحد، اثنان، ثلاثة!».

اندفعتُ في نفس اللحظة التي قالت فيها ثلاثة، وكأنَّ قوةً مجهولة ما أطلقتني.

ركضنا، وجعلنا الحقيبتين مضمومتين إلى الصدر بحيث لا تتقافزان أثناء الركض. تطايرت ضفيرتاي، وصفرت الريح في أذنيّ إذ اندفعتُ بسرعةٍ لم تكن لديّ فكرةٌ أنّني أمتلكها. ركضنا متزامنتين. كان الأمر وكأنّنا نتحرك في فراغٍ معزول عن بقية العالم داخل كبسولةٍ لا شبيه لها.

عندما لاحت المدرسة في الأفق، أطلقت هوما صيحة **هووووراااه** مدوّية، ومن أعماقي انبعث صوت - صرخةٌ كانت ستجرح مشاعر أمي الحساسة - انعتاقٍ هائلٍ لذيذ.

لاهثتين، وصلنا بوّابات المدرسة في الوقت المناسب، ولم نتوقف عملياً إلّا عند قضبان الحديد المطاوع في البوابات. أمسكتُ بالقضبان وأرحتُ رأسي على البوابة، وأخذتُ ألهثُ وألهث. فعلتْ هوما الشيء نفسه، ثمَّ وقفتْ منتصبة، وأمسكتْ بيدي وقالت: «لنعتبر هذا تعادلاً، أيتها الأميرة».

ودخلنا المدرسة معاً.

4

أكتوبر 1950

- «ما اسمها؟»، سألت أمّي وهي تجلس متربّعةً على الطرّاحة الأرضية المكسوة قاعدتها بالسجاد وظهرها المسنود إلى الحائط.

- «هوما».

- «أوه»، قالت وأغمضت عينيها. «لطالما أحببتُ هذا الاسم. الطائر الخرافيّ من أساطيرنا الفارسية والزرادشتية. طائر الهوما لا يرتاح على الأرض أبداً. يقولون إنَّ هذا الطائر يعيش حياته كلها غير مرئيّ بينما هو يحوم فوقنا جميعاً».

هل كانت هذه إشارة أمل؟ أن تحمل صديقتي الجديدة اسماً تحبّه والدتي. لربما كان طائر «الهوما» الذي في ذهنها مخلوقاً جميلاً ومحبّباً. بالطبع، فإنَّ رفيقتي هوما؛ أكثر فتاة مشاكسة في صفنا، بالكاد يمكن وصفها بالمحبّبة. لكنها بدت كمن يملك روحاً مختلفة ومميزة. بدت كمن يطفو في فضاءٍ آخر.

فتحتْ أمّي عينيها، وتأمّلتني جيداً. ولثانيةٍ، رقَّ قلبها حيال أيّاً كان ما رأتْه في ملامحي. فتنهّدتْ وقالتْ: «حسنٌ، لكن ليس هنا. لا أريدها في منزلي».

- «يمكنني أن أذهب إلى هناك»، قلتُ بسرعة، وقلبي يخفق

بقوة بفعل حصولي على موافقتها. لم أكن أريد لها أن تغيّر رأيها. «قالت هوما إنّها تعيش غير بعيدٍ عن هنا. هل يمكنني أن أذهب الأسبوع القادم بعد المدرسة؟».

- «أوه، يا إلهي، ستكونين واحدة من أولئك الأطفال المتسكّعين في الأزقة في نهاية المطاف».

نظرتُ إليها، خائفةً من قول أيّ شيء.

- «هل رأيتِ ماذا يحدث عندما تكونين وحيدةً في هذا العالم؟ كان لي والدان، وأختٌ، وزوج. لكنّهم تركوني جميعاً، والآن هذه الوحدة تعني أن أكون تحت رحمة عمّك. **تنهايي**، الوحدة، هي الأسوأ بين كل الآلام. هل تعلمين ذلك؟».

أومأتُ برأسي. لطالما ادّعت أمّي أنّها وحيدةٌ جدّاً في هذا العالم. لكن أليس لديَّ أمّي وهي لديها إيّاي بالمقابل؟ لم أستطع منع نفسي من التفكير في أنّه لو ظلَّ أبي حيّاً، لكانَ ذلك أكثر من كافٍ.

- «هل تعتقدين أنَّ بابا كان سيتعافى من المرض لو اكتشفناه في وقتٍ أبكر؟»، سألتُ، وتابعتُ عاجزةً عن منع نفسي. «هل تعتقدين أنّه كان سيفخر بي لذهابي إلى المدرسة؟».

- «كفى أسئلة!».

- «لكنَّ بابا كان مثقّفاً، صحيح؟ كان يحبُّ القراءة؟».

- «لا أريد أن أتحدث عنه، يا إيلي. لقد أخبرتكِ بذلك مراتٍ عديدة». راحتْ أمي تفرك صدغيها. «إنّه أمرٌ محتوم على ما أظن، سوف تندمجين مع هؤلاء الأولاد عاجلاً أم آجلاً. إلا إذا...». لم تعد عيناها الآن مركّزتين عليّ. «لقد رفضتُ»، قالت ووضعتْ رأسها بين يديها.

- «إلّا إذا ماذا؟».
- «اذهبي وأنجزي فروضك المنزلية».
استعدتُ حقيبتي من قرب الباب وأخرجتُ منها دفتري. لم أكن أريد أن أقوّض هذا التوازن المكتشَف للتو، فقد كنتُ متأكدة من أنَّ أمّي استسلمت للموافقة على موعدي الأول المخصص للعب!

لم تكفّ هوما عن الكلام بينما كنا نسير إلى منزلها يوم الأربعاء التالي بعد المدرسة. كانت أمّي قد نبّهتني أن أغسل يدي فور دخولي إلى هناك. **هذا إن كان لديهم مياهٌ جارية.**
- «عليكِ أن تلزمي الحذر من الأولاد الكبار في زقاق حارتي»، قالت هوما. «بالأخص من سامان النتن، الذي نناديه سامي. لكن لا تقلقي - لقد صفعتُه الأسبوع الماضي، والآن أصبحوا **جميعاً** أقلَّ إزعاجاً. حسنٌ، سامي لا يزال متنمّراً بالطبع. لقد خاض عراكاً بالأيدي يوم الجمعة، ونزف أنفه! أنا أعمل على حمل الأولاد على السماح لي بالمشاركة في لعبة العُصي. يعتقدون أنّه لا يمكنني اللعب لأنّني فتاة. ألا تعتقدين أنَّ من السخيف عدم السماح لي باللعب لمجرّد أنّي فتاة؟».
- «ما هي لعبة العصي؟». تصوّرتُ صبيةً ضخام البنية في الصف الرابع والخامس يلوِّحون بأغصان سميكة. **لات أو لوت،** مشاغبون، هذا ما كانت ستقوله أمّي. لم أكن واثقةً تماماً من رغبتي في أن أكون بالقرب منهم.
- «أوه، لعبة العصي خاصتهم رائعة بحقّ. لو أنّهم يسمحون لي فقط بالانضمام، سيرون عندئذٍ أنه يمكنني أن ألعب ببراعةٍ مثلهمً تماماً»، قالت هوما حالمة.

كان واضحاً أنَّ لدينا أهدافاً مختلفة حيال لعبة العصي. «هل لديك أب؟»، طرحتُ عليها هذا السؤال لأنّني ربطتُ الأولاد الكبار بالرجال، والرجال بالآباء.

- «بالطبع، أيتها المغفلة».

- «أبي ميت»، قلتُ لها.

توقفت هوما عن المشي. «هل توفّي حين كنتِ طفلة صغيرة؟».

- «لا، لقد توفّي قبل بضعة أشهر، قبل أن ننتقل إلى هنا».

أمسكتني وشدّتني إليها في عناقٍ قويّ. «**تسليات، تسليات**، تعازيّ، تعازيّ»، قالت وسكتت للحظة. «أعتقد أنَّ هذا ما يُفترض قوله، أليس كذلك؟».

- «بلى»، قلتُ متنهدة. «التعازي هي ما يردّده الناس دائماً».

بدأنا نمشي مجدّداً. وكما لو أرادت تغيير الموضوع غير المريح، بادرتْ بالقول: «هل أطلعكِ على سرّ؟».

- «بالطبع».

- «أبي شيوعيّ!».

- «ماذا؟».

نظرتْ إليَّ هوما بعينين واسعتَين. «إنّه ضدّ الملك».

كنتُ قد سمعتُ من أمّي عما جرى لأولئك الذين كانوا ضدَّ ملكنا. أخبرتني كيف استولى والد الملك الحالي، رضا شاه، على العرش من الملك القاجاري الذي تنحدر أمي من سلالته. ورغم أنني لم أستوعب أبداً الطريقة التي أطاح بها رضا شاه بجدّها الأكبر، إلّا أنَّ أمّي لطالما حذرتني من أنَّ التحدث علناً ضدَّ ابنه - ملكنا الحالي الذي كنا قد بدأنا للتو نطلق عليه لقب الشاه - أمرٌ في غاية

الخطورة. «أعتقد أنّه من غير الآمن الوقوف ضدّ الملك. قد يذهب المرء إلى السجن»، همستُ لهوما.

نظرت هوما حولها بتلصّص. «لقد تذكّرتُ لتوي أنّه لا يفترض بي أن أبوح لأحدٍ بذلك. أوه، يا إلهي. لا أريد أن يذهب بابا إلى السجن». أخذت يدي. «عديني أنّكِ لن تخبري أحداً. عديني في الحال!».

- «أعدك، أعدك!».

تنفّستِ الصعداء، ثمَّ قالت: «لكن السبب الرئيسي للذهاب إلى السجن ليس أن تكوني ضد الملك».

- «لماذا يذهب الناس إلى السجن إذاً؟».

- «يذهبون إذا شربوا الدم»، قالت بثقةٍ مثيرةٍ للقلق.

- «أوه». ولما تبقى من رحلتنا سيراً إلى منزلها، شعرتُ ببعض القلق من كيفية معرفتها لشيءٍ كهذا.

في زقاق حارة هوما، تجمّع الأولاد الكبار معاً - حوالي سبعة أو ثمانية منهم. لم أتمكّن من رؤية أيّ عصيّ، لكن من المحتمل أنّهم كانوا يخفونها وسط الحلقة التي شكّلوها. كانت ثلاث فتيات متربّعاتٍ على الأرض يلعبن لعبة الأحجار المتراكبة. وفي الزاوية، صبيّان أصغر سناً وفتاة صغيرة كانوا يمصّون حبات الكرز الحامض المجفّف ويلفظون النوى من أفواههم فيما بدا أنّه مسابقةٌ في دقّة البصق. كان زقاق هوما أكثر حيوية وإثارةً من زقاقي بالفعل. لوّحتْ هوما ملقية التحية على الأولاد الكبار. تجاهلها معظمهم، لكنَّ واحداً منهم استدار وبدأ يتحرك باتّجاهنا فجأة.

- «مرحباً، مرحباً»، قال لاهثاً. «ومن تكون هذه؟».
- «هذا ليس من شأنك، يا سامي».
قادتني بسرعة بعيداً عنه.
- «لا أستطيع أن أصدّق أنّه كان لطيفاً معك بعد أن صفعتِه وما إلى ذلك»، قلتُ لها.
- «لا تلقي له بالاً»، قالت لي. «هو لا يعدو كونه مشكلة لا أكثر».

وصلنا بوابةً بيضاء بين جدران إسمنتية منخفضة. ذهبتْ هوما مباشرةً إلى البوابة وفتحتْها. في البداية، ظننتُ أنّها تقتحم ملكية شخصٍ آخر. لكنّني لحقتُ بها إلى فناءٍ معتنى به جيداً تتوسطه هوز، بركة ماء. كانت المياه الزرقاء الزاهية تلمع في ضوء الشمس مشكِّلة أنماطاً هندسية متناظرة عبر سطح البركة الضحلة، وكانت بضع أسماك برتقالية سمينة تسبح هناك. نظرتُ إلى المنزل متفحّصةً إياه. كان مبنيّاً من الطوب كمنزلنا تماماً، لكنه كان أكبر على نحوٍ واضح.
- «**خوش آمديد!**، أهلاً وسهلاً!»، قالت هوما مرحِّبة.
هذا كان منزلها إذاً. لم أكن أتوقع أن يكون كبيراً على هذا النحو.

في الداخل، انفجر طفل صغيرٌ بالبكاء. مشينا إلى الباب الأمامي، وخلعنا حذاءينا في الردهة الصغيرة، ودلفنا إلى المنزل.
تطلب الأمر ما يقارب الدقيقة كي تتأقلم عيناي بعد ضوء الشمس الساطع في الفناء. كنّا في غرفةٍ رئيسية قليلة الأثاث. وثمّة طفلٌ يبكي فوق بساط رثّ وسط الغرفة. كان صوت البكاء عالياً لكنه أيضاً عذبٌ على نحوٍ غريب. فاجأتني رائحة شيءٍ ما يُخبز ولم ينضج بعد. كانت أمّي تخبز فقط في رأس السنة الفارسية.

هرعتْ امرأةٌ ترتدي شادوراً[1] أبيضَ منزلياً فضفاضاً. رأيتُ من طرف الشادور المفتوح قليلاً أنّها كانت ترتدي كنزةً منقوشة. وثمّة جديلة سوداء طويلة تلتف من رقبتها إلى الجهة الأمامية من جسدها.

- «من هذه إذاً؟»، سألت المرأة. ولم أعرف ما إذا كانت تسأل عن الطفلة أم عني. لكنّها إذ ذاك رفعت الطفلة ووازنتها على وركها بحركةٍ نظيفة وسلسة، ما دلَّ على أنّها قامت بها مراتٍ لا تحصى من قبل. أخذت المرأة تنطّط الطفلة على وركها، وكان ذلك كفيلاً بجعل الطفلة تتوقف عن البكاء. كانت الطفلة تحدّق بنا، أنا وهوما، بعينين دامعتين تكيلان لنا الاتهامات، وجعداتٌ متعرقة من شعرها الداكن تلتصق بفروة رأسها.

- «ماما جون، ألا تذكرين أنّني أخبرتكِ بأنَّ إيلي ستأتي لتلعب معي؟».

لم يبدُ أنَّ المرأة تذكّرتْ شيئاً كهذا، لكنَّ ابتسامتها كانت مرحِّبة. إذ اقتربتْ مني، رأيتُ النقش على كنزتها بوضوحٍ أكبر: زهورٌ زرقاء صغيرة نمت على سيقان خضراء صغيرة على القماش الأبيض. أعطى قماش الشادور خاصتها الانطباع بأنّه ناعم الملمس جدّاً. وكانت رائحتها أشبه بالخميرة والحليب. «أنا منير خانم»، قالت لي. «هل ترغبين في بعض **شربات** الكرز؟ لا بدَّ أنكِ تشعرين بالعطش».

- «بعد قليل، ماما جون»، قالت هوما. «بعد أن نلعب».

---

(1) زيٌّ نسائي شعبي في إيران، وهو لباس خارجي عبارة عن جلباب فضفاض أسود اللون في الغالب، ويكون عل شكل نصف دائرة مفتوحةٍ من الأمام، ليس به فتحات للذراعين - المترجم.

كنتُ لأحبّ الحصول على بعض **شربات** الكرز، لكنّني لم أكن بوارد أن أبدو جشعة أو قليلة التهذيب.

- «**بيرين**، **باشها**، حسنٌ أيتها الفتاتان. سأضع لكما وجبة خفيفة هنا في حال شعرتما بالجوع». ابتسمت مجدّداً، واستدارت خارجة من الغرفة. كانت الطفلة تحدّق بنا من فوق كتف الأم.

- «**ميرسي**، يا خانم»، شكرتُها باستخدام اصطلاح التفخيم الخاص بالسيدات، آملةً أن تكون الوجبة الخفيفة ذات صلة بالرائحة اللذيذة للمخبوزات.

- «أليست جميلة؟»، سألتْ هوما بعد أن عدنا إلى الخارج.

لم أكن واثقة كيف أردُّ على ذلك. «والدتكِ جميلة»، قلتُ لها أخيراً.

- «لا، يا مغفلة! أعني، نعم، هي كذلك بالطبع. لكنّني أتحدّث عن أختي الصغيرة، سارة. ألا ترغبين في أكلها وحسب؟».

لم يخطر لي أكل الطفلة، لكنّها كانت مكتنزة ومحبَّبة.

- «عمرها ثلاثة عشر شهراً تقريباً!»، قالت هوما بفخر. «ثلاثة عشر!».

كنا في الصفّ الأوّل. وكانت سارة قد أنهت للتو العام الأول من حياتها. كنتُ أتمنى أن يكون لي أخٌ أو أخت، لكنّني كنتُ أعلم أنَّ موت والدي يعني أنَّ هذا لم يكن مقدَّراً لي. كم كانت هوما محظوظة بأختها الصغيرة!

أمسكتْ هوما بيدي وسحبتني إلى الفناء، ومنه إلى الزقاق. وهناك راحتْ تنظر إلى الأرض وكأنّها تبحث عن قطعةٍ نقدية ضائعة. في النهاية، التقطتْ حجراً مدبّباً. «ممتاز!»، قالت بحبور.

أخذت تجرُّ الحجر على الأرض، وترسم الخطوط. وشيئاً

فشيئاً، باتت الخطوط متّصلة بمربّعاتٍ كبيرة. ثمَّ رفعتْ عينيها إليَّ وقالت: «لا تقفي هناك وحسب. اعثري على حجرٍ جيّد. علينا أن نرقِّم المربّعات».

اخترتُ صخرةً صغيرة خشنة، وشرعتُ أخربش الأرقام داخل المربعات. كنّا قد تدرّبنا في الفصل على كتابة الأرقام من واحد إلى عشرة، وكنتُ فخورةً لاستخدام معارفي الحديثة في تشكيل الشبكة الخاصة باللعبة. لم أستطع أن أصدِّق أنّني محظوظة بما يكفي لألعب الحجلة على أرض الواقع. فلأسابيع، كنتُ أراقب تلميذاتٍ أخريات وهنَّ يلعبن، وإذ أستلقي على المرتبة بجوار والدتي، كنتُ أسبح في خيالاتي الليلية عن القفز بصورةٍ مثالية داخل المربع مع صديقتي المتخيَّلة.

بعد أن رقّمنا كلَّ المربعات، عثرتْ هوما على حصاتين صغرتين وأعطتني إحداهما. «هل تريدين أن تكوني البادئة؟»، سألتني. لكن كان من الواضح أنّها متشوقة لتبدأ هي.

- «لا، أنتِ ابدئي».

قذفت هوما حصاتها، فهبطت على المربّع رقم أربع، ثمَّ وازنت نفسها على قدمٍ واحدة بعناية. «**يِك دو سه! - واحد اثنان ثلاثة!**»، صاحت، وشقّتْ طريقها قفزاً إلى المربع حيث استقرت الحصاة. وبقدمٍ مرفوعة في الهواء، انحنت والتقطت الحجر عن الأرض، وأحكَمت قبضتها عليها، ثمَّ رفعتْه ونظرتْ إليَّ وفي عينيها نظرة انتصار مطلق.

لم أملك إلّا أن أصفق وأهتف لها وهي تقفز عائدة.

بعد أن لعبنا الحجلة، قفزنا بحبلٍ أصفر مهترئ كان مدسوساً

داخل دلوٍ مقلوب. قالت هوما إنَّ هذا كان مخبأ الحبل السري حتى لا يسرقه سامي. وقالت إنَّ سامي كان لصّاً وكذّاباً. ثمَّ تلصصنا على سامي والأولاد حتى استدار سامي ورآنا، فسحبتني هوما بعيداً، وركضنا إلى منزلها ضاحكتين. مكسه سر مى فرأ

كانت والدة هوما، منير خانم، تجلس الآن على الأرض فوق طرّاحة تشبه إلى حدٍّ كبير طرّاحة أمّي بقاعدتها المكسوة بالسجاد وظهرها المسنود إلى الحائط. كانت ساقاها ممدوتين، بينما سارة ترضع صدرها بنهمٍ وعلى نحوٍ صاخب. غطّت منير خانم جزءاً من صدرها بالشادور حين رأتنا.

- «هناك بعض حلوى الـ **قطب**[1] لأجلكما في المطبخ»، قالت لنا. «تأكّدا من غسل أيديكما أوّلاً».

- «شكراً لكِ، ماما جون»، قالت هوما.

كنتُ أعلم أنّه ينبغي بي أن أتهذب وأنخرط في طقسٍ من رفض ما يقدِّمه المضيف حتّى يصرَّ على ذلك مرة أخرى (وهو ما يطلق عليه بالفارسية **تعارف**). كنتُ أعلم أنَّ أوّل رفض لم يكن ليعدَّ مهذّباً وحسب، بل كان متوقّعاً أيضاً. لكنَّ رائحة المنزل كانت زكيّةً جدّاً، وكنتُ على نحوٍ ما أشعر براحةٍ كبيرة هنا.

- «**خيلي ممنون**، شكراً جزيلاً لكِ، يا خانم»، قلتُ لها.

- «**نوشي جان**، بالهناء والشفاء».

قادتني هوما إلى الجهة الخلفية من الغرفة الرئيسية، ونزولاً أسفل درجٍ حجريّ. كانت الدرجات أسفل قدميَّ المجوربتَين ملساء وباردة، وكان يمكنني أن أستشعر الانحناءات في الوسط كما لو أنَّ

---

(1) معجنات إيرانية تقليدية مصنوعة من حشوة الجوز واللوز - المترجم.

سنوات من المشي أضعفت مركز كلٍّ منها. بعد نزول سبع درجات، دلفنا مطبخاً هادئاً يشبه الكهف. كان يُفترض بالجو أن يكون رطباً هناك في الأسفل، لكن الهواء كان دافئاً وجافّاً وعابقاً برائحة الخَبز اللذيذة التي التقطتُها لحظة دخولي إلى المنزل. عُلِّقت قدورٌ نحاسية على الحائط فوق الموقد الضخم، وعلى هذا الأخير، كان ثمة سماور[1] يعلوه إبريق شاي أبيض مع نقشٍ لزهرتين ورديتيّ اللون. كُدِّستْ على الرفوف أطباق من مختلف الأشكال، وكان كل سطحٍ في هذا المكان يلمع لشدّة نظافته.

على المنضدة، جثم طبقٌ مغطّىً بقطعة قماشٍ بيضاء. اقتربتْ منه هوما على رؤوس أصابعها بطريقةٍ دراماتيكية، ورفعت قطعة القماش لتكشف عن حزمةٍ من المعجنات هلالية الشكل.

- «قطب أمّي»، قالت هوما بنبرةٍ مهيبة. «الأرجح أنّه أفضل شيءٍ ستأكلينه على الإطلاق».

صببنا الماء من أبريق فخّار قرب الحوض الخزفي العميق، واستخدمنا قطعة صابون كما لو كنا نتوضّأ للصلاة. ثمَّ جفّفنا أيدينا جيداً بمنشفة معلَّقة بخطاف صغير بجانب الحوض. وإذ وقفنا أمام المنضدة الرئيسية مجدداً، رفعت هوما الطبق إليّ. «بفرماييد، تفضّلي»، قالتْ مستخدمةً الصيغة الرسمية لدعوتي للمشاركة في الأكل.

مجدّداً، لم أكن شديدة التهذيب، ولم أشارك في رقصة الأخذ والردّ بشأن رفض العرض حتى تصرَّ مضيفتي وتتوسل إليّ أن آكل.

---

(1) حوض ماء معدني بداخله أنبوب أسطواني يصل إلى القمة، وعلى محيطه الخارجي ثمة صنبور مياه، يُستخدم لإعداد الشاي - المترجم.

أمسكتُ قطعة المعجنات هلالية الشكل - وكانت لا تزال دافئة. أخذتُ قضمة: مقرمشة من الخارج ثمَّ حضورٌ مفاجئ لطعمٍ لاذع، وانفجارٌ منعش للنكهات الحلوة والحامضة في فمي.

- «ماذا يوجد بداخلها؟»، سألتُ بفمٍ ممتلئ، مدركةً حجم الذعر الذي ستشعر به أمي جرّاء سلوكي السيّء.

- «رمّان!»، قالت هوما، وكانت عيناها تلمعان كما لو كانت تبوح لي بالرمز السرّي للسرداب الذي يحتفظ فيه الشاه بجواهر تاجه.

- «ظننتُ أن الـ **قطب** يكون محشوّاً بالجوز واللوز مع رشّةٍ من السكر». تذكّرتُ علبة الـ **قطب** التي كان عمي مسعود قد أحضرها بمناسبة عيد ميلاد أمّي. يومذاك، غطّتْ بودرة السكر أفواهنا بينما كنّا نتقاسمها نحن الثلاثة. كنتُ أعلم أنَّ أمّي تفتقد الحفلات الفاخرة التي كانت تقيمها بمناسبة عيد ميلادها حين كنا نعيش في الحي الراقي.

- «هذا الصنف الآخر من الـ **قطب**. هذا معدٌّ وفقاً لوصفة جدّتي. إنّه تخصّصها».

مضغتُ لقمتي، وشكرتُ في قلبي جدّة هوما. تناولنا معاً المزيد من قطع المعجنات تلك، ولم نتوقف إلّا لأنّه سيكون من غير المهذب أن نأتي عليها جميعاً، رغم يقيني من أنَّ منير خانم كانت ستصر عليّ. من طريقة ترحيبها بي لدى دخولي إلى المنزل، ومن أسلوب تعاملها مع الطفلة سارة، كنتُ أشعر بأنّها ليست الأمّ التي تشكو مشاكلها لأطفالها.

يا لحظِّ صديقتي، يا لحظّها!

غمرني الشعور بهزّةٍ صغيرة في صدري، كانت أقرب للألم. وجاءت مصحوبة بإحساسٍ جديد وغريب بالخواء.

لم أكن قادرةً على تحديد ماهيّته في ذلك الوقت. لكن بالعودة إلى الماضي الآن، فقد تولّدت عندي رغبةٌ في الحصول على ما كان لدى هوما بدءاً من تلك الزيارة الأولى. أردتُ أن تكون لي عائلتها. والدها الحيّ، ووالدتها الطيبة. أردتُ أختها الصغيرة المكتنزة التي قد تؤكل لفرط لطافتها. أردتُ الإحساس بالدفء والأمان الذي كان يخيم على منزلها. أردتُ روعة ذلك المطبخ، وسحر طابعه الكهفي، وقدرته على تحويل العجين وحبّات الرمّان إلى طبقٍ إلهيٍّ لا يضاهيه في اللذة شيء. ولكَمْ أشعر بالعار، فإذ وقفتُ هناك، ومضتْ في رأسي صورةُ شيءٍ رهيب يحدث لأمّي كي يتسنّى لي أن أصبح يتيمة فتأخذني عائلة هوما. إن الانضواء تحت مظلّة جماعتها سيجعلني واحداً منها؛ جزءاً منها.

عشقتُ هوما.

وقد أصبحتُ أغار منها بالفعل.

5

نوفمبر 1950

منذ ذلك الحين، أصبحنا منسجميتن على نحوٍ طبيعي. أتقنتُ مع هوما كل ألعاب القفز بالحبل، ودلّكتُ ظهرها بالدوس عليه بقدميّ فيما هي مستلقية ووجهها إلى الأرض، ومنها تعلّمتُ كيف أبصق بذور الكرز بعيداً (وبعيداً عن عينيّ أمّي المستهجنتين).

وتعلّمتُ لأوّل مرة كيف أستخدم السكين في مطبخ هوما، حيث وضعنا بصلةً على المنضدة تحت إشراف منير خانم. ثمَّ قشَّرنا معاً القشرة الرقيقة والمتشققة، وكانت الأغشية تحتها زلقة بصورة مفاجئة، ولزجة الملمس على أصابعنا. فتحتْ منير خانم أحد الأدراج، وأخرجت منه سكيناً ضخماً بمقبضٍ متعدد الألوان. جلبت السكين مباشرة إلينا، أنا وهوما، ووضعتْ يد كلٍّ منّا على المقبض اللامع، ووضعتْ يدها فوق كلتا يدينا، ثمَّ وجّهتنا لتقطيع البصلة إلى نصفين، ثمَّ تقطيع كلِّ نصف بحيث يكون وجهه للأسفل، وتدويره بعد ذلك ثمَّ تقطيعه في صفوف بعكس الاتجاه السابق. وعندما سحبت والدة هوما السكين ببطء لتكشف عن كومةٍ من مكعبات البصل المثالية الصغيرة، شعرتُ وكأنّنا قمنا بتأدية أحد عروض السحر. لم أستطع أن أصدّق كم لنا من سُلطة على تغيير شكل الأشياء.

في المنزل، كانت أمّي تجلس على طرّاحتها الأرضية، وتبدو وكأنّها تختفي أكثر فأكثر داخل الحائط. كانت لا تتوقّف عن الشكوى بشأن «تسكّعي مع الرعاع» واختلاطي بـ «أصنافٍ دنيا». لكنّها لم تمنعني من الذهاب إلى منزل هوما. لربما أراد جانب منها - الجانب الأمومي - صون سعادتي المكتشَفة حديثاً. هذا ما أردتُ أن أصدّقه بشدّة.

المهارات التي تعلّمتُها في مطبخ هوما الحجريّ الرائع كانت مهارات جلبتُها معي إلى أمي في المنزل. سمحتْ لي بإعداد الوجبات أكثر فأكثر، رغم أنّه كان لا يزال من غير المسموح لي أن أستخدم الموقد.

أعددتُ لأمّي طبق السلطة **الشيرازية** المكونة من البصل المفروم، والخيار، والطماطم، وقدّمتُها مع النعناع الأخضر. زِدتُ كمّية عصير الليمون، وقلّلتُ الملح، وتجرّأتُ على رشّ القليل من زيت الزيتون الذي كان العمّ مسعود قد أحضره. ولم تستطع أمّي أن تقاوم الطعم.

ولم أستطع الابتعاد عن سحر ذلك المطبخ الحجري.

أسرتني عملية الطبخ منذ أول لحظة وقفتُ فيها بجانب منير خانم، إذ كيف يمكن لبصلةٍ بسيطة أن تتحول من كرةٍ مقشّرة إلى تلك الشرائح البيضاء الرفيعة ومنها إلى تلك المكعبات الصغيرة التي تصبح مقلية بنية اللون بفعل الحرارة والدهون داخل القدر النحاسيّ، ورائحة الكرملة التي كانت تملأ المنزل بينما يتقرمش البصل.

يمكن لتلك البصلة الوحيدة أن تكون الأساس ليخنات لذيذةٍ جدّاً مثل **قورمه سابزي** و**خوريش** الأعشاب الخاصة بمنير خانم أو **خوريش** البازلاء الصفراء مع لحم البقر التي قالت أمي إنها كانت

المفضّلة لدى أبي (لم تعدّها بعد وفاته أبداً، بحجة أنَّ الذكريات كانت شاقّةً جدّاً عليها). تعلّمتُ كيف يمكن للبصل المقلي أن يكون طبق مقبّلات إلى جانب شوربة الـ **آش** عند خلطه مع النعناع المجفّف، أو أن يكون ضمن حشوة الـ **دولمة**، محشي ورق العنب، مخلوطاً بالأرز والأعشاب. علّمتنا منير خانم كيفية طهي حبّات الرمان على الموقد ببطء وتروٍّ حتّى تستحيل دبساً يمكن استخدامه في يخنة الـ **فسنجون** بالجوز والرمان التي كانت هوما تحبّها كثيراً.

كنّا لا محالة، بعد مواعيد اللعب المتكررة، ننزل أنا وهوما الدرجات الحجرية الباردة الملساء التي تفضي إلى المطبخ الأشبه بالكهف. وتكون والدتها هناك - بلا شادور - مرتديةً تنّورة وكنزة مزهرة، وخفّاً بالياً درءاً للحسد. كانت سارة تزحف حولها، تبرطم وتقرقع بأغطية القدور سعياً وراء أهدافها الغريبة لكن المحدّدة. وقفتُ وهوما جنباً إلى جنب قرب موقد منير خانم الضخم، واستمتعنا بقوام الباذنجان أو بعصارية الليمون.

ولمّا استجمعتُ شجاعتي بعد عدة أشهر لأسألها كيف يمكن لأسرتها أن تتحمّل تكاليف هذا الطعام - هذا الطيف المستحيل من الألوان والمؤن - نظرتْ هوما إليّ كما لو كنتُ قد طرحتُ سؤالاً سخيفاً.

- «بفضل المكان الذي يعمل فيه أبي، أيتها المغفلة. وإلا فما كنا لنتمكّن من تحمّل تكلفة شيءٍ من كل هذا».

- «ظننتُ أنَّ والدك شيوعيّ». كنتُ قد تخيّلتُ أباها وهو يتظاهر في الشوارع أو يتحصّن داخل قبوٍ ما حيث يضع خططاً للإطاحة بالشاه.

- «الشيوعيّون يعملون أيضاً! إنّه رئيس النُدُّل في مطعم **فندق**

القصر. وكلُّ ما يفيض عن الحاجة في نهاية اليوم، يمكنه هو وبعض النُدَّل الآخرين أن يأخذوه إلى منازلهم. ألسنا محظوظين؟».

- «جدّاً، محظوظون جدّاً»، قلتُ فيما كانت سارة تداعب كاحلَي مثل قطّةٍ صغيرة.

محظوظون بهذه الأمّ التي وثقت بنا أنا وهوما بما يكفي لتعلّمنا كيف نطعم أنفسنا، والتي جعلتنا نشعر بالكفاءة والمسؤولية من خلال احترامٍ عفويّ لم أشعر به من أيٍّ شخصٍ بالغٍ آخر.

محظوظون بالأب الشيوعي الذي يملك إمكانية الوصول إلى أنواع الطعام؛ رجلٌ لم أكن قد قابلته قطّ، لكنَّ دخله وكونه على قيد الحياة كانا يعنيان أنَّ بيت هوما لم يكن تحت رحمة أهواء عمٍّ ما.

محظوظون بالأخت الصغيرة ولغطها المحبّب، تلك التي كانت تمصُّ إبهامها وتبتسم لي بفرحٍ خالص.

محظوظون لكلِّ ذلك.

أحببتُ منزل هوما، وكنتُ حين أمشي راجعة - بعد أيٍّ من مواعيد اللعب ودروس الطبخ - إلى برودة الحيّز الذي طغى عليه حزن أمّي، كانت رفاهيات هوما تبعث بداخلي ذاك الألم المحدّد والملموس، والذي كنتُ أخجل منه طوال الوقت.

- «لقد تأخّرتِ»، كانت أمّي تقول بغض النظر عن وقت عودتي.

- «ببخشيد»، كنت أردّ عليها. سامحيني.

6

مايو 1953

- «إيلاهيه وهوما»، هكذا نادتنا الفتيات الأخريات وكأننا واحدٌ لا يتجزّأ. «إيلي-و-هوما» كان لقبنا المختصر. كنّا لا ننفصل أبداً.

انتقلنا معاً عبر مربّعات شبكة حجلة غير مرئية تمثّل سنوات الدراسة الأولى تلك. رمينا حصاةً خيالية، فطارت وهبطت في مربّع الصفّ الثاني. وفي غضون أشهر، انتقلنا إلى الصف الثالث، وكنا من المتفوّقات أكاديمياً. كانت هذه الصداقة بمثابة الحامل لنا عبر ذلك الانتقال السريع وتخطّي الصفوف الدراسية.

كانت سرعة دوران التحالفات المتقلّبة والديناميّات الدرامية عند الفتيات الأخريات أشبه بالكرة الأرضية الدوّارة التي كانت معلّمتنا تحبُّ أن تغزلها أمام وجوهنا. تعلّمنا أسماء العديد من البلدان - أماكن مثل كينيا وأوغندا وأستراليا - وحفظنا أشكالها وصورها. الهند والصين وكوريا واليابان. وعبر البحر وصولاً إلى أوروبا، كانت هناك أماكن تسمّى ألمانيا وفرنسا وإنجلترا. إيطاليا وإسبانيا. البرتغال: **بور-تيه-غال** كما تُلفظ بالفارسية، والتي تعني أيضاً فاكهة «البرتقال»، لذا ربطنا دائماً البرتغال **بالبرتقال**. مرَّرنا أصابعنا فوق حدود دولتين تسمّيان **روسيه وأمريكا**. كانت معرفة أنَّ

ثمّة عالمٌ كامل خارج حدودنا أمراً سريالياً بحقّ.

بحلول الصف الرابع، كانت هناك بضع طالبات فقط في صفنا يُجدن القراءة والكتابة بذات المستوى الرفيع الذي كنّا قد بلغناه أنا وهوما في سنّ العاشرة. تنافستُ معها على مرتبة **شاغرد أفل**، التلميذة الأولى في الفصل. لكن أكثر ما جعلني أحبُّ هوما هو قدرتها المحبّبة على وضع المنافسة جانباً وإضفاء لمسةٍ من المرح على الأشياء.

ذات صباح في الأيام الأخيرة للصف الرابع، عندما كانت العطلة الصيفية تطرق الأبواب، دخلتُ باحة المدرسة وسمعتُ صفرةً حادة قصيرة ورائي «بسست». وحتى قبل أن ألتفت، أجبتُ قائلة: «ما الأمر يا هوما؟».

جاءت ووقفتْ قبالتي، ثم وضعت كلتا يديها على كتفيّ. «ماذا لو؟»، قالت وهي تنظر في عينيّ، «أخذنا إجازة اليوم؟».

- «ظريفٌ جدّاً. لا يمكننا ذلك».

- «حبّاً بالله. السنة الدراسية على وشك الانتهاء. نحن نستحق أن نخوض مغامرة».

إذا فوّتنا المدرسة، فمن المؤكّد أنّنا سنتعرّض للعقوبة. انسحبتُ مبتعدةً عنها، وذهبتُ لأنتظم في الصف قبل انطلاق الصافرة.

- «ألم ترغبي يوماً في فعل شيءٍ لا يُفترض بكِ فعله، يا إيلي؟»، صاحتْ في أعقابي.

توقّفتُ وأمعنتُ التفكير في سؤالها. كنتُ كلَّ سنةٍ أرغب في التهام كل قطعة حلوى في العلبة التي كان يحضرها العم مسعود بمناسبة عيد الـ **نوروز**؛ أوّلُ أيام الربيع وأوّل أيام السنة الجديدة عندنا. لكنّني كنتُ أتراجع عن ذلك لأن أمّي لم ترد لي أن أصبح

سمينةً. وكنتُ أرغب في استخدام الموقد كي أطهو في مطبخنا، لكنني لم أفعل لأنَّ أمي قالت إنَّ المنزل قد يستحيل رماداً. كنتُ أرغب في أن أكون صديقة هوما. وكان هذا شيئاً لم يكن يُفترض بي فعله، وقد فعلتُه. لكن لم يكن بوسعي أن أخبر هوما أنَّ صداقتي معها كانت بمثابة تمرّدٍ حقيقي.

- «دعينا نفعل ذلك وحسب، يا إيلي».

- «لا يمكنني أن أقصّر في دراستي».

- «إيلي، أنتِ ''متقدّمةٌ في دراستك'' بالفعل وفقاً لطبطبائي خانم. يمكنك ببساطة تحمّل تفويت يومٍ واحد. كلتانا يمكنها ذلك. لقد أخبرتني أنَّ مستواي في القراءة والكتابة **لا تشوبه شائبة**».

هل حقّاً قالت لها معلّمتنا ذلك؟ شعرتُ بقرصةٍ صغيرة. هل كان من قبيل الصدفة أن نتفوق أنا وهوما معاً في المدرسة أم أنَّ كلّاً منا أعطتْ الأخرى دفعةً صغيرة للتقدّم أبعد فأبعد؟ لكنَّ هوما كانت على حق - لم تكن أيٌّ منا عرضةً لخطر التقصير الدراسي.

- «وإلى أين سنذهب حتى؟»، **سألتُها**.

- «سأريكِ من الطعام أكثر ممّا رأيتِه يوماً، يا **شكم!**».

شكم تعني الشخص الذي يعشق الأكل، وأولويته دائماً هي معدته، وكانت هوما تمازحني بودٍّ بإطلاقها هذا اللقب عليّ. لم أمانع ذلك، فمن الواضح أنَّ هذه الكلمة منها كانت للتحبّب، كما لو كان الاستلاب للطعام أمراً رائعاً في نظرها. وقد أحببتُ كيف أنّها محت كلمة «أميرة»، وهو أوّل اسمٍ أطلقتْه عليّ نتيجة أسلوبي السطحي في تقليد أمّي وإثارتي لمسألة أسلافي الملكيين في ذلك الصباح المصيري عندما ركضنا معاً إلى المدرسة.

على أيّة حال، إنّها حقيقةٌ أنَّ كلّ ما يتعلق بالطعام كان يجلب لي السعادة: تجميع المكوّنات، تحويلها ودمجها معاً، تقديم الوجبات ومشاركتها. الجانب الوحيد الذي لم يجلب لي السعادة كان تذمّر والدتي من وزني الزائد. كنتُ قد أصبحتُ مكتنزة؛ حتّى أنَّ البعض قد يستخدم كلمة سمينة. لكنّني أحببتُ أنَّ هوما تقبّلت اكتنازي كأمرٍ واقع وليس كنقيصة.

- «أين؟»، سألتُ متشكّكة.

- «تعرفين أين. **البازار الكبير**».

رغم أنّني ذهبتُ إلى هناك مع والديّ بحسب ما أخبرتني أمّي - فقد كنتُ صغيرةً جدّاً لأتمكن من تذكّر ذلك، إلّا أنَّ البازار الكبير كان مكاناً محرّماً الآن. فقد أصرّتْ أمّي أنَّ الناس هناك كريهو الرائحة، وأنَّ النساء يدفعن ما يعترض طريقهنّ والرجال يمشون كالعميان. لكنَّ الخوف كان السبب الحقيقي وراء عدم اصطحاب أمّي لي إلى البازار الكبير، إذ ادَّعت أنَّ ذلك كان سيهيّج ذكريات الذهاب إلى هناك مع أبي. قالت إنَّ قلبها ما كان ليتحمّل ذلك.

كنتُ أتمزّق بين خوفي من ترك المدرسة ورغبتي الشديدة في خوض مغامرةٍ محرّمة.

لكن قبل أن يتسنّى لي قول كلمةٍ أخرى، كانت هوما قد أمسكتْ بيدي، وانطلقنا إلى مغامرتنا.

تبعتُ هوما، ووثقتُ في أنّها تعرف إلى أين تذهب بنا. في البداية مشينا، وفي نهاية المطاف أطلقنا سيقاننا للريح من شارعٍ إلى شارعٍ آخر إلى أن انفتحت الأزقّة الضيّقة على جادّاتٍ أكثر اتّساعاً تصطفُّ المنازل الكبيرة والمتاجر وأبنية المكاتب على جانبيها. لم

أكفّ عن التفكير في أنَّ خطّتنا الجهنّمية قد تُكشف من قِبل مديرة مدرستنا، أو الأسوأ من ذلك، من قِبل أمي. وأنّ الشرطة سترسَل لاعتقالنا. لكن لم يحدث شيءٌ من ذلك.

وصلنا أخيراً إلى **البازار الكبير** بالقرب من مسجد الشاه. لا أتذكر أنّني كنتُ قد رأيتُ في حياتي هذا الكمّ من البشر في مكانٍ واحد.

أحسستُ بالألفة إذ وقفنا أمام المدخل الرئيسي لمركز التسوق الكبير الذي تباع فيه البضائع داخل المحلات وخارجها، والذي كان لمئات السنين ركيزة أساسية لمدينتنا. تمعّنتُ في ذلك المدخل المقنطَر بزخرفته الفسيفسائية المغرقة في التفصيل. هل وقف أبي في هذه البقعة موازناً إيّاي فوق كتفيه؟ أو ربّما، هو وأمّي، أمسك كلٌّ منهما بإحدى يدي، وقاما بأرجحتي فيما بينهما.

أمسكتْ هوما بيدي الآن، ودلفنا معاً متاهةً من المجازات التي تصطفُّ على جانبيها الأكشاك العامرة بشتّى أنواع البضائع ومنتجات الحرف اليدوية. كان الباعة الجوالون يصرخون ترويجاً لبضائعهم. وكان الهواء عابقاً برائحة الشمّام والنعناع، وعطورٍ غريبة قادمةٍ من بلادٍ أجنبية، وصابون وورودٍ مجففة. رنّت في أذنيّ أصوات القضبان المعدنية وهي تطرق النحاس والقصدير أثناء حفر الحرفيين لتصاميمهم المعقدة على أسطح الصواني والأطباق. أمّا النجارون فكانوا يعملون على تنعيم الأسطح الخشبية. غيّرنا مسارنا، فوجدنا نفسينا أمام طاولاتٍ خشبية تكدست فوقها أكوام من الملابس الداخلية النسائية وقمصان النوم. كانت حمالات الصدر معلقة على حبلٍ بملاقط الغسيل، وكان بعضها مزركشاً وأحمر اللون؛ وبعضها الآخر كانت عبارة عن حمّالات بيضاء ضخمة مثل التي كانت لدى

أمّي. كان ثمّة رجالٌ يفرغون أكياس البضائع من على ظهور الحمير، ونساءٌ يرتشفن عصير فاكهة بارد وينظرن حولهنّ بوجل، كلٌّ من تحت شادورها.

كان مزيج الروائح ونشاز الضوضاء طاغياً. أردتُ أن أتوقّف؛ أن ألمس الملابس الداخلية المزركشة، وأتنشق عبق كدسات الورود المجفّفة. أردتُ أن أتحسّس قطع الحلوى المكوّمة على شكل أهرام، وأن أستشعر ملمس السجاد الحريري المكدّس عالياً في أكشاك الزاوية.

لكنَّ هوما سحبتني بعيداً عن كلّ هذا. وخرجنا أخيراً من زقاقٍ صغير يجتاز مجموعة من الممرات المتعرجة إلى فناءٍ خارجيّ تصطف الأكشاك على جانبيه لكنّه مفتوحٌ في الوسط. وفي نهايته البعيدة، ثمّة كشكٌ وحيد تغطّيه مظلّة حمراء وبيضاء اللون.

- «لقد أعطتني أمّي المال الأسبوع الماضي بمناسبة عيد ميلادي»، همستْ هوما. كنتُ ممتنّةً لأنّها امتلكت من رجاحة العقل ما يجعلها تخفِّف من صوتها العالي المعتاد مع جِرس التعجب الملازم له. كان خيراً للطلاب المتسربين من المدرسة - الهاربين عمليّاً - أن يبقوا بعيداً عن الأنظار. مدَّتْ هوما يدها داخل حقيبتها، وسحبت أموال عيد ميلادها بكل فخر، فلمعتْ القطع المعدنية تحت أشعة الشمس.

- «لقد خطّطتِ لهذا؟»، همستُ لها.

- «هل كنتُ سآتي بكِ إلى البازار دون أيِّ نقود لنصرفها؟ بالله عليك، لقد أخبرتكِ أننا نستحقّ ذلك».

سارت إلى الكشك ذي المظلة الحمراء والبيضاء. لحقتُ بها. كانت حواف المظلّة ترفرف مع النسيم.

- «**آغا، دوتا بستني لطفاً**». طلبت هوما اثنين من المثلجات. أذهلتني ثقتها بنفسها.

تفحّص رجلٌ ذو بطنٍ هائل يرتدي قميصاً ضيقاً وسروالاً فضفاضاً وينتعل صندلاً مشققاً العملات المعدنية التي أعطتها له، وخرجتْ من فمه أصوات برطمة مشوبةٍ بلثغة وهو يَعدُّها. ثمَّ فتح صندوقه، فرأيتُ بداخله كتلاً ضخمة مستطيلة الشكل من الثلج وُضعتْ فوقها أوعية من المثلجات. كنّا في صف العلوم نأخذ دروساً عن المواد الصلبة والسائلة والغازات، لكنّني لم أكن قد رأيتُ ثلجاً كهذا من قبل.

كان شعر الرجل أبيضَ ويشبه صوف الغنم. غرفَ المثلجات وحشَرها بين قطعتين من رقائق البسكويت التي كان قد أخرجها من علبةٍ قريبة، وناول هوما أوّل شطيرة مثلجات. فمرَّرتْها بتهذيبٍ إليّ كما لو كنّا بالغتَين يمكننا أن نشتري ما نريد ونفعل ما يحلو لنا فعله في أحدِ الباحات البعيدة في البازار الكبير صباح يوم ثلاثاء. أعطى الرجل شطيرة المثلجات الثانية لهوما، ثم التفتَ ليوجه اهتمامه إلى زبائنه الآخرين، وهنَّ مجموعةٌ من النساء اللاتي يرتدين الشادور. أليس بوسع أحدٍ رؤية زيّنا المدرسيّ والحقيبتين؟ كيف يمكن أن تمرَّ مرور الكرام حقيقة كونك مجرّماً وضيعاً هارباً من المدرسة؟

عثرنا في تلك الباحة على حافةٍ مرتفعة قليلاً لنجلس عليها. تناوبنا لنتمكن من فعل ذلك، فحملت إحدانا شطيرتي المثلجات بينما رفعتْ الأخرى نفسها فوق الحافة. وإذ استقرَّ بنا المقام هناك، أخفضنا رأسينا، وأخذنا قضمة.

انفجرت نكهة الفانيليا المشرَّبة بماء الورد والزعفران في فمي. كانت قرشة البسكويت تتناقض مع القوام السلس للمثلجات. وزاد

من مسرّاتي وجود قطع من الكريمة الثقيلة المجلّدة - كان طعمها الثريّ مفاجأة بحدّ ذاتها.

- «هل أحببتِها؟»، سألتْ هوما.

- «كثيراً. شكراً لك. سأعيد لكِ ما دفعتِه».

- «إنّها على حسابي»، قالت مبتسمة. «تستحق أن نُعاقب بسببها، أليس كذلك؟».

- «لا تقولي ذلك». أخذتُ قضمةً أخرى. «حسنٌ، ربما هي كذلك».

- «تخيّلي، يا إيلي، أن تكوني قادرةً على تناول المثلجات في أيِّ يوم من أيام الأسبوع. لكن أظنُّ أنه يجب أن تكوني غنيّة لتتمكّني من ذلك».

لم أذكّرها بأنّني كنتُ غنية فيما سبق. أو لم أكن فقيرة على الأقل.

- «يقول بابا إنَّ المجتمع الوحيد الذي يستحق أن يعيش فيه المرء هو مجتمعٌ حيث يمكن للجميع الحصول على الغذاء، والمأوى، والمياه النظيفة، والخدمات الصحية».

بحلول ذلك الوقت، كنتُ قد التقيتُ بوالد هوما عدة مرات. كان رجلاً قصير القامة، أصلع الرأس ويضع نظّارة، وكان مثقّفاً حلو اللسان. وبينما كانت هوما تكرّر كلماته، تذكّرتُها كما قالها لي بالضبط في أوّل يوم التقيتُ به.

- «يقول بابا إنَّه ينبغي أن تكون لنا مساهمتنا في البلد. الرجال والنساء على حدٍّ سواء». قالت وأدارت رأسها بحيث تستطيع أن تنظر في عينيّ تلك النظرة اللجوجة التي كانت إحدى سماتها المميزة. «كيف ستساهمين، يا إيلي؟».

رفعتُ عينيّ نحوها، وشفتاي على أطراف شطيرة المثلجات. «ماذا؟».

- «ما الوظيفة التي ترغبين في الحصول عليها؟».
- «وظيفة؟».
- «نعم. هل تريدين أن تصبحي معلّمة؟ ممرّضة؟ محامية؟ طبيبة ربّما؟ فأنتِ بارعةٌ جدّاً في العلوم».

كنتُ أريد أن آكل شطيرة المثلجات فحسب. «لستُ متأكدة»، تمتمت.

- «أخبريني».
- «أُمّ»، قلتُ وفمي ممتلئ.
- «نعم، نعم. لكن النساء يمكنهنّ العمل أيضاً كما تعلمين. أقصد في مجتمعٍ عادل. هل تعرفين أنّنا يمكن أن نكون أوّل جيل من النساء العاملات بالكامل في إيران؟».
- «هناك نساءٌ عاملات في إيران الآن».
- «لسنَ كثيرات. وليس في الكثير من الوظائف العليا. سيتحقّق هذا على أيدينا. أليس كذلك؟».

سالت بضع قطرات من المثلجات الذائبة على أصابعي. أردتُ أن أخرج المنديل من حقيبتي، لكن لو نبشتُ فيها، لكانت يداي الدبقتان ستجعلان الحقيبة دبقة ولربّما الدفاتر أيضاً.

كانت أمّي دائمة القلق على يديها. أرادت أن تظلّا غير منتفختين وبلا أيِّ علامات على البشرة، أي بعكس أيدي النساء العاملات. قالت إنَّ السيّدات الحقيقيات لا يلمسن شيئاً يلوِّث أيديهنّ، وإنَّ العمل مقابل أجرٍ كان شيئاً لا يليق بها. كانت فخورةً لأنّه وبالرغم من كل شيء، فهي لم تنحدر إلى مستوى أن تكون امرأةً

عاملة «يائسة»، حتى لو كان ذلك يعني اعتمادنا الكامل على ما يخصّصه لنا العمّ مسعود.

- «حسنٌ، سأخبرك بما أريد أن أكون. أريد أن أكون **قاضي**، قاضية!»، قالت هوما.

- «لا يمكن للنساء أن يكنَّ قاضيات».

- «لا تصدّقي هذا الهراء. عليَّ أن ألتحق ببرنامجٍ جامعي حيث سأتعلّم كلّ شيءٍ عن القوانين أوّلاً. وسأكون بعد ذلك قادرةً على تقرير مَن هو على حق ومَن على خطأ عندما ينشب خلاف بين الناس. ألا يبدو هذا مثيراً؟».

بدا ذلك فظيعاً في نظري. مدرسةٌ تتعلّم فيها القوانين فحسب؟ لم أستطع التفكير في شيءٍ أكثر مللاً. كما أنّني لم أكن متأكدة من أنّه يُسمح لنا بالذهاب إلى كليّة الحقوق، ناهيك عن مسألة تحديد مَن هو على حقّ ومَن على خطأ. «هل أنتِ متأكدة أنَّ بوسع النساء الالتحاق؟».

- «نحن في العام 1953. ولدينا رئيس وزراء منتخب بصورة ديمقراطية! هذا البلد يتطور ويصبح أكثر عصرية، يا إيلي. أين كنتِ تعيشين؟». أخذت قضمةً أخرى من شطيرتها. «سوف أتحقّق من الأمر برمّته مع طبطبائي خانم. وإن لم يكن ذلك مسموحاً لنا، فهذا سببٌ إضافي لأصبح محامية؛ حتّى أغيّر القوانين»، قالت وهي تغمز بعينها.

- «يبدو هذا عصيّاً على الفهم تماماً».

- «**يِك كاريش ميكونيم**، سنفعل شيئاً حيال ذلك»، قالت هوما، ثمَّ أخذتْ نفساً عميقاً ونظرتْ في عينيّ مباشرةً. «هل تعرفين ماذا سنصبح حين نكبر؟».

- «لا أعرف»، قلتُ لها.

- «**شير زن**. نساءٌ من نسل الأُسود. هؤلاء نحن. ألا يمكنكِ رؤية ذلك، يا إيلي؟ يوماً ما، سنفعل أشياءَ عظيمة؛ أنا وأنتِ. سنعيش حياةً من أجلنا، وسوف نساعد الآخرين. قد نكون مجرّد شبلتين الآن، لكنّنا سنكبر لنصبح لبؤتَين، امرأتين قويّتين تجعلان الأشياءَ تتحقّق».

تورَّدَ وجهها من فرط الإثارة. كان يمكنني أن أرى كم هي سعيدة ومتحمّسة. كنتُ قد سمعتُ بمصطلح **شير زن** - النساء الإيرانيات القويات والمقدامات - لكنّني لم أشعر بأنّني لبؤة بحالٍ من الأحوال. إن كان ثمّة شيء، فأنا أكثر الشِبلات جُبناً على الإطلاق. حسدتُ هوما على ثقتها وإيمانها. هل يمكن أن تكون محقّة؟ هل يمكن أن نصبح ذات يومٍ من صنف النساء الجسورات الذي لطالما صدَّعتْ رأسي بالحديث عنه؟ هوما يمكنها ذلك، كنتُ أعرف ذلك. لكنّني لم أكن متأكدة من أنّه يجب إدراجي تحت مصطلح «**شير زن**» خاصّتها. فرغم أنّني كنتُ متفوّقة في المدرسة، كانت لدى أمّي خططها الخاصة بشأن زواجي (من رجلٍ ثريّ) وإنجابي للكثير من الأطفال تجنّباً لمصيرها كوالدةٍ لطفلة وحيدة (وهو ما كان يعني - على نحوٍ مؤلم كالعادة - بأنّني لم أكن كافية بالنسبة لها).

- «إذا أردتِ أن تصبحي هذه المرأة العاملة الناجحة، فعلينا ألّا نتغيّب عن المدرسة. إذا غادرنا الآن، يمكننا على الأقل اللحاق بحصة بعد الظهر»، قلتُ لهوما، ثمَّ انزلقتُ عن الحافة وقفزتُ إلى الأرض. فركتُ يديّ الدبقتين وقلتُ: «وماذا سنقول عن عدم تواجدنا في الفصل هذا الصباح؟».

- «أوه، يا إيلي، أنتِ تحبطينني الآن! هيّا بنا، فلنتغيّب اليوم بأكمله، وغداً سنخبرهم بأنّنا لم نكن على ما يرام اليوم».

- «أنا أرجعُ بكِ إلى العالم الواقعي! أحدٌ ما عليه أن يفعل ذلك. رُبَّ قاضيةٍ سوف تكونين! أنتِ تنتهكين القوانين منذ الآن».

أتت هوما على ما تبقى من شطيرتها، ولعقتْ أصابعها، ثمَّ قفزتْ عن الحافة. «يتحتّمُ عليكِ في بعض الأحيان أن تنتهكي القوانين، يا إيلي. فبعض القوانين غبيّة وسخيفة وغير عادلة».

كنتُ على يقين من أنَّ هوما ستستغلُّ آراء والديها المستنيرة لتثقيفي حول قوانين رهيبة لم أكن لسعادتي على درايةٍ بها، لكنّني كنتُ أعلم أيضاً أنَّ الوقت يداهمنا، فقلتُ لها: «لا يمكننا ألّا نكون في المنزل وقت الغداء».

تنهّدتْ. «حسنٌ. دعينا على الأقل نرى المزيد من معالم البازار في طريق العودة».

حالما عدنا إلى قلب السوق، وبِتُّ محاطةً بالأصوات ومزيج الروائح من جديد، وحالما وقعتْ عيني على الأكوام الهرمية من التوت والجوز واللوز، وحالما كشفتْ هوما عن بضع قطعٍ نقدية أخرى كانت قد سحبتْها من الحقيبة وقادتني إلى كشك المكسّرات، لم يعد ثمّة فائدةٌ ترجى منّي. كان هذا هو المكان الذي أردتُ أن أكون فيه. هذا الفضاء الفوضوي، البهيج، الغامر، المذهل. وكان كلُّ ما يمكنني فعله هو تذكير هوما مجدّداً بضرورة العودة. لكن قبل كل شيء، أخذنا مكاننا في الطابور للحصول على الجوز والتوت المجفّف، وهو تدليل أخير قبل أن نعود إلى البيت.

مكتبة
t.me/soramnqraa

تدبّرنا أن نعود بحلول ساعة الغداء الاعتيادية. كنتُ متخمةً بفضل المثلجات والوجبات الخفيفة، لكنّني كنتُ سألعبُ الدور كما ينبغي وأتناول الطعام مع أمّي.

دخلتُ إلى المنزل وقلبي يخفق بقوّة. سأتظاهر بأنّه كان مثل أيِّ صباحٍ مدرسيٍّ آخر، مخفيةً بقايا التوت المجفّف والجوز الملفوفة بالورق أسفل حقيبتي. سأخلعُ حذائي وأغسلُ يديّ، وأضع الأطباق فوق قماش السفرة، وأساعد في تنقية الأرز، وسنأكل معاً. ثمَّ سأفرش المرتبة وأنفشها من أجل قيلولة بعد الظهر لأمّي.

شعرتُ بوجود أحدٍ خلفي إذ انحنيتُ لأخلع حذائي. تجمّدتُ في مكاني. وخلال ثانية، كانت أمّي تقف بجواري.

- «أرى أنّكِ عدتِ من المدرسة».

- «سلام، مادر. مرحباً أمّي»، قلتُ لها.

- «كيف كانت المدرسة، يا إيلاهيه؟».

لم أستطع النظر في عينيها. فركّزتُ في الأرض. «كانت جيّدة».

- «أكانت كذلك؟ ماذا كان لديكم من دروس اليوم؟».

- «أوه، كما تعلمين. الأشياء المعتادة يوم الثلاثاء. الرياضيات، وفن الخطّ».

- «أعلم جيّداً أنّكِ تحبين فنّ الخط».

- «همم ممم».

- «كيف حال تقدّمك في هذا الفن، يا إيلاهيه؟ هل تعملين على إتقان ضرباتك؟».

أومأتُ برأسي وأنا لا أزال مركِّزةً في الأرض.

- «هل تمرّنتِ على رسم الحروف الكبيرة هذا الصباح؟».

ضرب الغثيان معدتي.

- «من المضحك أن تقولي إنّكِ كنتِ تتمرنين على الخطّ في المدرسة. لأنَّ ما قالته لي شابا خانم قبل قليل هو أنّها رأت أحداً يشبهكِ تماماً يلتهم شطيرة مثلجات في الباحة خارج البازار الكبير. هل كانت مخططة يا ترى؟».

وددتُ لو أختفي تماماً. تمنّيتُ لو أنَّ الأرض تنشقُّ وتبتلعني، فلا تترك منّي إلا حذائي، لتقف أمّي هناك وتتحدث فقط إليه. لم أقل شيئاً.

- «أجيبيني».

- «نعم. كانت مخطئة»، قلتُ بصوتٍ ضعيف. كانت شابا خانم تعيش على الجهة الأخرى من الزقاق مع والدتها المسنّة وزوجها وأولادها. كان زوجها عامل نظافة، وكانت ثمّة شائعات بأنَّ أحد أبنائها كان لصّاً. لم أكن أعرف شابا خانم إلا لماماً. كانت أحياناً تدردش معي إذا صادفتني في الخارج. كما وجدنا أنفسنا عدة مرات نسير معاً إلى **نانفايي**، الفرن لشراء الخبز. دائماً ما كانت تسأل عن والدتي. ودائماً ما كنت أسأل عن والدتها.

- «إيّاكِ والكذب عليّ مجدّداً، يا إيلاهيه»، قالت أمّي ببرود.

هي لم تشدّني من أذني. لم تصفعني. بل وضعت ببساطةٍ يدها على ذقني وحملتني على رفع وجهي بحيث لا أتمكن من تجنّب النظر في عينيها. وإذ فعلتُ ذلك، رأيتُ أنَّ عينيها كانتا مغرورقتين بالدموع.

- «لقد ذهبتِ معها، أليس كذلك؟».

لم يكن ثمّة حاجة لتحديد مَن تقصد. فغالباً ما أشارت أمي لهوما بضمير الغائب أو بـ «فتاة الـ **دهاتي**، فتاة الأرياف تلك» أو بـ «صديقتك تلك»، وكانت تضفي على كلمة «صديقة» وقعاً يجعلها

تبدو وكأنّها لعنة. نادراً جدّاً ما لفظت اسمها الحقيقي. في الواقع، لستُ متأكّدة ممّا إذا كانت قد نطقت ذلك الاسم من قبل. استعر غضبٌ بداخلي، وحاولتُ أن أزيح يد أمّي التي كانت لا تزال على ذقني، لكنّها كانت تمسكني بإحكام.

- «إنَّ لها اسماً»، قلتُ لأمّي. «اسمها هوما. هي صديقتي ولها اسم».

أفلتت أمّي ذقني فجأة كما لو أنَّ حرقاً أصاب يدها.

- «وأنتِ محقّة. لقد ذهبتُ مع هوما. ذهبنا أنا وهوما معاً. ذهبنا إلى البازار الكبير. واشترتْ لي المثلجات. والجوز والتوت المجفّف. كلّها كانت أشياء لذيذة. الأمر برمّته كان مذهلاً».

نظرتْ إليّ أمّي بتمعّن، ثمَّ قالت: «وأنتِ فخورةٌ بهذا؟ فخورةٌ بالتغيّب عن المدرسة - هذه المدرسة التي تدّعين أنّكِ تحبّينها، يا **شاغرد أفل**، صاحبة المرتبة الأولى في الصف؟ ماذا تعتقدين أنّه سيحدث لمرتبتك هذه الآن؟».

لم أقل شيئاً.

- «هل تتصورين كم بدوتُ حمقاء أمام شابا خانم؟ أمام تلك الفلّاحة الغبيّة التي ستتعامل معي بتعالٍ الآن؟ لمَ تشعرين بالحاجة لأن تقودك فتاة **دهاتي**؟ لم أنتِ مهووسة بها إلى هذا الحدّ؟ هذا ليس طبيعياً يا إيلاهيه. أنتِ لستِ طبيعية».

- «هوما ليست فتاة **دهاتي**»، قلتُ بصوتٍ مرتجف. «وحتّى لو كانت كذلك، فلن يهمّ ذلك في شيء. سأظلُّ صديقتها».

- «ماذا تكون إذاً؟ أرستقراطيةً تركب الفيل؟ هل يجب أن أنحني إجلالاً لها؟ أخبريني يا إيلاهيه، ما القاسم المشترك بينكِ وبين تلك الفتاة؟».

- «نحن أعزُّ صديقتين».

ابتسمتْ أمّي ابتسامةً صفراء. «إنّها معك في المدرسة، وأنتما تلعبان معاً. هذا هو الوصف المناسب للحالة - لا أكثر. هذه الصداقات لا تعني شيئاً. إنّها لا تدوم يا إيلاهيه. بل تأتي وتذهب ببساطة. همين. هذا كل شيء».

لم يكن هذا كل شيء. هل كانت تعلم أنَّ لدينا نكتة مكررة من زلّات اللسان البريئة للسيدة طبطبائي، وأنّنا كتبنا قصيدة مجمّعة من كل عباراتها المضحكة؟ هل كانت تعلم أنّه كان بوسعي أن أقول شيئاً - أغبى شيءٍ على الإطلاق - فتتمكّن هوما من اجتراح الردّ المثالي على شكل مزحة أو قولٍ مأثور أو بيت من الشعر القديم الذي أجبرونا على حفظه في المدرسة، وقبل أن تنقضي بضع ثوانٍ، سنكون قد دخلنا في نوبة ضحك هستيرية حتى تُغرق الدموع وجهينا؟

كانت أمّي تدَّعي أنَّ لديها عشرات الصديقات شمال المدينة، لكن أين هنَّ الآن؟ لم أرَ أيّاً منهنّ تقوم بزيارتنا. لقد تخلَّينَ عنها لحظة تغير حظّها، كما لو أنَّ موت أبي نفسه كان معدياً مثل مرضه تماماً. وكما لو أنَّ انتقالنا إلى الطرف الجنوبي من المدينة جعلنا منبوذتَين. لربّما كانت حقيقة أنَّ والدتي لم تكن شخصاً سهل المعشر معظم الوقت هي السبب وراء انفضاضهنّ من حولنا جميعاً. أم كان هناك ما هو أكثر من ذلك؟

هل كانت لدى أمّي يوماً صديقةٌ توفّر لها بعض الراحة من القتامة اليومية؛ صديقةٌ جعلتها تشعر بأنَّ هذا العالم - الذي أعلنت أمّي أنّه مثقلٌ بالقسوة ومليءٌ بأولئك الذين ينظرونا بـ جشم، بأعينهم الشريرة - كان أيضاً جميلاً ومليئاً بالفرح والمغامرة؟

- «ليس لأنّنا في نفس المدرسة»، كافحتُ لقول الكلمات التي

كانت تخرج متهدّجة بفعل غضبي الآخذ في التعاظم. «نحن... نفهم إحدانا الأخرى وحسب. نحن مثل أختين. ولسوف نفهم بعضنا دائماً».

- «**فلام كون**. أعفيني من هذا الهراء وحسب. والدها نادلٌ يجول بين الطاولات طوال اليوم مثل الخادم. ووالدتها أمّية. إنّهم مجرد حشرات طفيلية تهيم على وجهها في الأزقة يا عزيزتي؛ نكراتٌ، لا حسب ولا نسب».

كنتُ أزفر أنفاسي في شهقات حادّة الآن. «هم ليسوا بحشرات. هم كرماء ولطيفون. ولديهم من الكرامة أكثر بكثير ممّا تتخيّلين. وهم مجتهدون وأذكياء، وبصراحة، فإنَّ منزلهم أجمل بكثيرٍ من هذا المكان، وأكبر. أعلم جيّداً أنَّ مسألة الثروة والنسب تعني لك الكثير "فأنتِ تتحدرين من أصلٍ ملكيّ". لكن ما الذي يعنيه ذلك حتّى، يا أمي؟ لقد تعلّمنا في المدرسة عن ناصر الدين شاه. كان لديه حريم؛ الكثير منهنّ. لذا فإنَّ حقيقة كونك من نسله تجعلك في الأساس حفيدة إحدى العاهرات».

خرجتْ تلك الكلمات منّي على عجل. وكان صوتي عالياً وحادّاً.

لا يتحدّث المرء مع والدته على النحو الذي تحدّثتُ به. فلو رفعتْ يدها وضربتني، لكنتُ أستحقُّ ذلك.

توقّعتُ منها أن تصرخ. تحضَّرتُ لأن أكون عرضةً للهجوم. كانت قد ضربتني فقط في مناسبتين يمكنني تذكّرهما؛ مرّةً لتصريحي بأنّني كنتُ أفضّل وسط البلد على حيّنا القديم، ومرةً أخرى لأنّني نسيتُ أن أقفل الباب ليلاً. والآن، كنتُ قد خرقتُ قانون الاحترام غير المكتوب.

لكنّها وقفتْ فحسب؛ يدها على وركها، ووجهها مكفهر. «هل هذا صحيح؟». تخطّتني نظراتها إلى شخصٍ إضافي في الغرفة لكنّه غير مرئي؛ شخصٌ بدا أنّها كانت تستشيره كثيراً. «الأمر أسوأ ممّا كنتُ أعتقد»، قالت للقوة غير المرئية. «هذا راجعٌ إليّ»، وغطّتْ وجهها بكلتا يديها. «نادر!»، همستْ أخيراً.

تراجعتُ خارج الغرفة بينما واصلتْ ترديد اسم أبي كما لو كانت تتجادل معه.

وقفتُ لبضع دقائق في الردهة الصغيرة المؤدية إلى المطبخ، وأخذتُ نفساً عميقاً. أيّاً يكن الأمر، كان عليَّ أن أعتذر لأمّي. لذا عدتُ إلى الغرفة الرئيسية.

كانت جالسةً على الأرض الآن ورأسها إلى الحائط. كانت هادئة، ومظهرها يوحي بالصلابة والحزم الغريب. لم تبكِ أبداً، وكانت قد توقّفت عن ترديد اسم أبي. ابتسمتْ إذ رأتني. «مرحباً إيلاهيه»، قالت بنبرةٍ لطيفة، لكن جليدية.

كنتُ لأفضّلُ الجَلْد على تلك التحيّة الباردة. وكنتُ أعلم أنّه يتعين عليّ أن أعيد الأمور إلى نصابها الصحيح، فقد تجاوزتُ الحدود كثيراً. «أنا آسفةٌ جدّاً، وأشعر بالخجل الشديد ممّا قلتُه، يا مادر. لقد أخطأتُ. هل ترين أنني مدركةٌ لخطئي؟».

- «بالطبع، أرى ذلك»، قالت بذات الأسلوب البارد.
- «سأضعُ الأطباق»، قلتُ لها.
- «فلتفعلي ذلك».

أخافني هدوؤها. «ما قلتُه لك كان وقحاً وغير دقيق وأنا أعتذر عنه. لكن هوما لم يكن لها علاقةٌ بشيء بحالٍ من الأحوال. أنا من

قلتُ ذلك، وأنا آسفةٌ جدّاً. سأخبرهم أنّني تغيّبتُ عن الصفوف هذا الصباح. وسأذهب إلى غرفة الحجز».

نظرتْ إليّ بعينين ساهمتين. «انظري كيف تدافعين عنها! هذا مذهلٌ حقّاً. أنتِ تعشقينها وعائلتها بالكامل، ألستِ كذلك؟».

لم أقل شيئاً.

- «اذهبي واغتسلي».
- «ماذا؟».
- «اذهبي واغتسلي لأنَّ رائحتك كريهة».
- «كان البازار مزدحماً جدّاً...».
- «لا، رائحتكِ تشبه رائحتها. رائحتك كرائحة جدايي، الفاقة. إنّها تدفعني للتقيّؤ».

هممتُ بالخروج من الغرفة.

- «أوه، بالمناسبة، يا إيلاهيه؟».
- «نعم؟».
- «اليأس؛ اليأس هو السبب في كونكما صديقتين. لا شيء آخر. يأسٌ صِرف».

استدرتُ آملةً ألّا تنهمر الدموع من عينيّ.

- «أتعلمين، تلك الفتاة ستكون مقتلك»، صاحت في إثري. «كلّما أسرعتِ في التخلّص منها، كان ذلك أفضل لك».

مشيتُ إلى المطبخ. ولم أتمكّن من طمس صوتها.

7

مايو ويونيو 1953

حالما اعترفنا بالتغيّب عمداً عن المدرسة، رتّبتْ طبطبائي خانم لنا قضاء عقوبة في غرفة الحجز. قالت بهدوء إنّنا لم نترك لها أيَّ خيار. ولأسبوعٍ كامل، وبينما كانت الفتيات الأخريات يلعبن خلال فترات الاستراحة، أمضينا أنا وهوما الساعات في غرفةٍ مقفلة سيّئة التهوية. كُلِّفنا علاوةً على ذلك بنسخ تسع وثلاثين صفحة من كتاب التاريخ كلمةً بكلمة في دفاترنا المدرسية. كنتُ أحبُّ الكتابة، وكنتُ أملك يداً ماهرة في إمساك القلم. لكنَّ وظيفة النسخ هذه تسبّبت لهوما بالألم والملل. وبينما كانت تكافح مع التشنّج في أصابعها، ذكّرتُها بصوتٍ خفيض أنّها إذا ما أرادت الذهاب إلى كلّية الحقوق، فسيتعيّن عليها أن تنجز المزيد والمزيد من النسخ الببغائي. فدمدمتْ بأنّه ربّما ينبغي بها أن تعيد تقييم أهدافها، وتتجه نحو شيءٍ لا يتطلّب الكثير من الكتابة، مثل غاسلة شعر في حمّامات النساء العامة. ولِما تبقّى من فترة الاحتجاز تلك، كنا نتبادل الأفكار بشأن وظائف عشوائية لا تتطلّب الكتابة: كنّاسة شوارع، غسّالة ملابس. حتّى استقرَّ بنا الأمر على مشذّبة حواجب بالخيط.

في تلك الأيام الأخيرة من الصف الرابع، أعلنت السيدة

طبطبائي عن ترتيب الفصل. احتللتُ أعلى الترتيب، **شاغرد أفل**، التلميذة الأولى على الفصل، بينما متوسط درجات هوما وضعها في المرتبة الثانية.

حين عدتُ إلى المنزل، زففتُ لوالدتي الخبر الذي مفاده أنَّ مدرستنا ستقيم حفل تتويج وقت الغداء بمناسبة نهاية العام الدراسي للطالبات الأوائل من كلِّ صفّ، حيث ستقدّم المعلّماتُ المكسرات وجبن الفيتا والخبز الطازج والـ **سابزي**، الحشائش الخضراء بهذه المناسبة.

- «**أُفرين**»، هنّأتني أمّي. «انظري لحالك. الأولى على صفّك. لم يراودني أدنى شكٍّ في ذلك، يا عزيزتي. وفي أيِّ يومٍ قلتِ إنهم سيقيمون هذه الفعالية؟».

- «يوم الخميس من الأسبوع القادم. يمكنني أن أسأل ما إذا كان مسموحاً للأهل الحضور»، قلتُ لها.

- «لم أكن أخطّطُ للحضور»، قالت أمّي وهي تمسِّدُ شعرها.

- «أوه، فهمت. لستِ مضطرةً لذلك».

- «لن تعودي على الغداء في ذلك اليوم، هل هذا ما أفهمه؟».

- «لا، إنّهم يقيمون وليمة!».

ابتسمت أمي ابتسامةً باهتة. «حشائش الـ **سابزي** والمكسرات والجبن؟ هل هذا ما تعتبرينه وليمة؟»، نظرتْ إليَّ مشفقة.

تململتُ إذ بدأتُ أشعر بالتوتر. «حسنٌ، سيكون ذلك مسلياً على أيّة حال»، قلتُ وقد انتابتني رغبةٌ مفاجئة في تغيير الموضوع قبل أن تجد المزيد من المثالب في الحفل الذي كنتُ متحمسة له أيّما حماس. «هل تصدقين أنّني سأترفّع للصف الخامس عمّا قريب، يا أمي؟».

- «الوقت ليس في أيدينا»، قالت بصوتٍ حالم، ثمَّ ربَّتتْ على شعري. «ستكونين فتاةً مختلفة تماماً بعد هذه السنة الدراسية. إيلاهيه الصغيرة. الأولى في صفّها، والتاج على رأسها».

غادرت أمّي الغرفة.

استعدتُ كلماتها في رأسي بينما كنتُ أنظّف أرضية المطبخ. كانت منذ اليوم الذي ضبطتني فيه متغيبة عن المدرسة تتعامل ببرود لكن بلطف. كانت قد هنّأتني وبدتْ إلى حدٍّ ما فخورة بتحقيقي امتياز لقب **شاغرد أفال**، ألم تكن كذلك؟

عندما اكتشفت هوما أنّني كنتُ الأولى في الصف، اشتعلتْ حماساً، وعانقتني بقوة، بل رفعتني عن الأرض بضعة سنتيمترات. أما أنا، الرازحة تحت عبء خصال شخصيتي الغبية، شعرتُ بالغيرة من قدرتها على عدم الشعور بالغيرة!

صباح يوم الحفل، جلست الآنسة طبطبائي إلى مكتبها، وسألتنا عن آمالنا حيال عطلة الصيف، فتحوّل الحديث إلى نقاشٍ عن الفواكه الصيفية المفضّلة. أعلنت معظم الفتيات أنهن يفضّلن الشمام، فيما صوتت القليل منهن للكرز. رفعت هوما يدها لتصف أنّه ليس ثمة ما يضاهي الطعم اللاذع لأوّل حبات الخوخ الأخضر في الموسم. علت أصوات همهمات داخل الغرفة، وقالت بعض الفتيات إنّهن نسين أمر الـ **غوجه سبز**، الخوخ الأخضر، تماماً، لذا يطالبن بتغيير تصويتهنّ. تلا ذلك بعض الجدل حول عدالة تغيير التصويت بعد الإدلاء به وما إذا كان الخوخ الأخضر الحامض هو في الواقع فاكهةٌ صيفية أم أنّه أكثر ارتباطاً بفصل الربيع.

حاولتْ السيدة طبطبائي أن تعيد تصويب مسار الحديث،

فوضّحتْ أنّه إذا كنا محظوظات بما يكفي لتذوّق خيرات الصيف، فعلينا أن نحاول الحفاظ على بعض الفاكهة كمربّى كي يتسنّى لنا أن نتذكر - عندما تصفر رياح الشتاء الباردة - بأنّنا حظينا ذات يوم بسلوى الفراولة ومزايا الدراق.

نظرتْ إليّ هوما بطرف عينها لدى سماع تلك اللغة الدرامية. وإذ كنا نتوجّه إلى الباحة وقت الغداء لحضور حفل التتويج، قالت بصوتٍ جدّيٍّ وساخر في آن معاً: «مزايا الدراق»، فرددتُ مقلِّدةً النبرة التعليمية للسيدة طبطبائي: «سلوى الفراولة»، وانفجرنا ضاحكتين، وأخذنا نكرر العبارتين حتى دخلنا في نوبة ضحك هستيرية.

حالما اصطففنا جميعاً، بدأ استدعاء الـ **شاغرد أفل** ابتداءً من الصفوف الدنيا ليتمَّ تتويجهنّ. عندما أُعلن اسمي عن الصف الرابع، أخذ قلبي يدقُّ بسرعة كبيرة، وكنتُ متأكدة من أنّني سوف أتعثّر وأسقط وأنا أخرج إلى حيث يقف صفٌّ من البالغين في مقدّمة الباحة.

انحنيتُ قبالة مديرتنا السيدة داشتي التي مسّتْ يداها الناعمتان جبهتي بينما كانت تضع تاجاً ورقياً باللونين الأبيض والأزرق على رأسي. كانت رائحتها تشبه رائحة الحلبة والليمون. «**أُفرين**. أحسنتِ صنعاً»، همست لي، وأشارت إليَّ أن أستدير باتّجاه باحة المدرسة وأنحني كما فعلت الـ **شاغرد أفل** الأخريات. قمتُ بتأدية انحناءةٍ صغيرة، فصرخت بعض الطالبات مهلِّلات. وإذ قفلتُ راجعةً إلى هوما ومجموعة الفتيات اللواتي كنتُ أقف معهنّ، كان يمكنني أن أسمع نبضات قلبي في أذنيّ. لم أكن قد شعرتُ بمثل هذا الفخر الشديد إلّا في مناسبات نادرة جدّاً. عانقتني هوما وضحكت وهي تعدّل وضعية تاجي بكل فخر.

بقيّة الحفل، استمعنا وهلّلنا للفائزات بالمركز الأول من الصفوف الأعلى كلٌّ بدورها. كان المزاج احتفالياً وباعثاً على البهجة. وفي النهاية، ألقت السيدة طبطبائي والسيدة داشتي ومدرِّستان أخريان كلمات حول ضرورة أن ندرس بجدٍّ خلال الصيف حتّى لا ننسى كلَّ ما تعلّمناه طيلة العام. وقالت السيدة دشتي إنَّ حفظ الشعر القديم - ويفضل أن يكون قصائد من شعر السعدي وحافظ[1] - كفيلٌ بأن يبقي أذهاننا حاضرة مع اشتداد الحرارة الذي كان على الأبواب. هل نعدها بأنّنا نحفظ بضع غزليّات[2] على الأقل كلّ أسبوع؟ ردّدنا بصوتٍ واحد: «نعم» وحاولنا أن نبدو جدّيات بشأن مشاريعنا الشعرية الصيفية. ثمَّ أُخرجتْ أطباق الخبز الطازج وجبن الفيتا والحشائش الخضراء، ووُضعتْ فوق الطاولات في الباحة. ووقفت السيدة داشتي أمام وعاءٍ كبير من شربات الكرز المثلج، وأخذت تسكب المشروب البارد حلو الطعم لكلِّ فتاة.

- «هل هناك ما هو أفضل من هذا؟»، قالت هوما وهي تحشو فمها بجبنة الفيتا المحشورة داخل خبر اللافاش.

- «لا شيء أفضل من هذا سوى حِفظ بعض الغزليات لحافظ أثناء الصيف!»، قلتُ ممازحةً إيّاها.

- «في الواقع، أنا أنوي القيام بذلك»، قالت هوما وفمها ممتلئ. «أريد أن أطّلع على أبياته ومقاطعه الشعرية. لطالما قال أبي

(1) سعدي الشيرازي، وشمس الدين محمد حافظ الشيرازي، ويعتبران أئمة شعر الغزل في الفارسية - المترجم.

(2) اشتُهرت على يد سعدي وحافظ، وتتألف الغزلية من سبعة إلى عشرة أبيات، وموضوعها التغزل والتشبيب والعشق المجازي والحقيقي - المترجم.

إنَّ قصائده هي الكمال بعينه. إنّها مثل عرّافات. يمكنها أن تخبركِ بمستقبلك».

كنتُ على دراية بالممارسة الخاصة بطرح سؤالٍ على الكون عبر فتح ديوان حافظ الشعري على صفحةٍ عشوائية، وجعل المقطع الشعري الذي يظهر فيها أيّاً يكن مصدر إلهام وبوصلة يُهتدى بها.

- «حسنٌ، سأفعل ذلك أيضاً»، قلتُ بفتور.

رفعتْ السيدة داشتي مكبر الصوت وأعلنت أنّه حالما نضع أطباقنا وكؤوسنا على الطاولة الرئيسية في الخارج، سنكون حرّات في العودة إلى منازلنا.

- «لكنّني ظننتُ أنّنا سنظلُّ مجتمعات حتّى جلسة بعد الظهر»، قلتُ وأنا أنظر إلى هوما.

- «لا، أين كان عقلك؟ سنعود يوم السبت لثلاثة أيام أخرى، ثمَّ سننظّف مقاعدنا وغرفة الفصل، وهذا كلُّ شيء!». أكلَتْ هوما آخر قطعة خبزٍ مع الجبن وأنهت ما تبقى من **شربات** الكرز، ثمّ قالت: «عليَّ أن أذهب. وعدتُ أمّي أن أساعدها في الاعتناء بعلي رضا».

كانت والدة هوما قد أنجبت طفلاً في العام السابق. كانت سارة الحلوة في الرابعة من عمرها الآن، وعلي رضا لا يزال في عامه الأوّل، وكان طفلاً متعِباً جدّاً. وكان دور هوما كأخت كبرى يعني أنَّ لديها الكثير من الواجبات المتعلّقة بمجالسة الأطفال، لكنّني استمتعتُ بالمشاركة في ذلك وبكوني جزءاً من عائلتهم الصاخبة.

وضعتُ الطبق والكأس على الطاولة، وساعدتُ هوما في ترتيبها. «هل تريدين أن آتي معك؟ تعتقد أمّي أنَّ لدينا يوم دوام مدرسيٍّ كامل. هي لا تتوقّع عودتي إلى البيت بعد ظهر هذا اليوم».

- «في الأحوال العادية كنتُ سأقول نعم، لكنَّ بابا أخذ إجازةً قصيرة، وسنذهب جميعاً إلى منزل عمّتي بارفين. سيتعين عليَّ أن أحرص ألّا يتسبّب أخي وأختي بالكثير من المشاكل هناك».

لقد كنتُ جزءاً من عائلتهم **في أوقاتٍ معينة فحسب**. ولم يكن بوسعي دائماً أن أتطفّل على نزهاتهم العائلية الممتعة. كنتُ مدركةً لهذه الحقيقة، لكنني مع ذلك شعرتُ فجأةً بفراغٍ كبير. تمالكتُ نفسي. «**خوش بكزره.** استمتعي بوقتك»، قلتُ لهوما.

التقطتْ هوما حقيبتها. «سأراكِ يوم بعد غد في المدرسة».

- «بالطبع. أراك آنذاك. أتمنّى لكِ جمعة مباركة».

خرجنا من بوابة المدرسة ومضينا في اتّجاهين متعاكسين، واستدارت كلٌّ منّا لأجل تلويحة وداعٍ أخيرة.

إذا أخبرتكم أنّني عدتُ إلى المنزل والتاج على رأسي، هل ستصدّقونني؟ أردتُ أن أتباهى به. فقد كسبتُه عن جدارةٍ واستحقاق. وكنتُ على يقين من أنّني لم أكن الـ **شاغرد أفل** الوحيدة التي فعلتْ ذلك. كان مجتمعنا يشيد ويحتفي بالأوائل في صفّهم. وقد تلقيتُ بضع عبارات ثناء «**أُفرين**» من الكبار في طريق عودتي إلى المنزل، ولم أحظَ إلّا بنظرةٍ متبرّمة واحدة من صبيٍّ متأفّف أكبر سنّاً مني.

ماذا ستقول أمّي؟ لم أطق صبراً حتى أريها تاجي. خلعتُ حذائي، وهرعتُ إلى حوض المطبخ، غسلتُ يديّ، بل ورششتُ الماء على وجهي مع الحرص على بقاء التاج منتصباً ومستقراً فوق رأسي.

أعلى من صوت الماء، سمعتُ صوت مواءٍ بطيء. كانت قطط الزقاق تبحث عن بقايا الطعام في كثير من الأحيان. هل دخلتْ قطّة

ضالّة؟ مشيتُ بقدميّ المجوربتَين إلى غرفة المعيشة، كنتُ أحاول أن أعرف من أين يصدر الصوت.

مزيدٌ من المواء. تلاه أنينٌ مكتوم.

كان الصوت قادماً من غرفة النوم. تلك كانت أمّي.

كان هذا صوتها.

كان صوت الأنين يعلو شيئاً فشيئاً. انتفض جسدي مصعوقاً بالقلق. مَن كان يؤذي أمّي؟ نظرتُ حولي في غرفة المعيشة بحثاً عمّا يمكن استخدامه كسلاح لمهاجمة الدخيل الذي يحكم قبضته عليها. التقطتُ في نهاية الأمر مزهريةً صغيرة؛ كانت إحدى الأشياء القليلة التي جلبتها أمي معها من حياتنا القديمة، وهي مزهرية باللونين الأبيض والأزرق منمنمةٌ على الطريقة الفارسية.

استحال الأنين صراخاً.

كان ثمّة متسوّل يجوب الأزقّة ليلاً، وإذ مشيتُ على أطراف أصابعي نحو باب غرفة النوم، تخيّلتُه يضع سكّيناً على رقبة أمّي مهدّداً إياها بالقتل إذا لم تعطِه كلَّ أموالنا (المحشورة داخل حقيبة في غرفة النوم - لم تكن بالشيء الكثير، لكنّنا كنّا نَعدُّها بانتظام).

كان عليَّ أن أتصرف. وضعتُ يدي على المقبض، أدرتُه وفتحتُ الباب.

في البداية، كان كلُّ ما استطعتُ رؤيته على المرتبة التي كنت أتشاركها مع أمّي هو كتلة ضبابية بلون بنّي فاتح؛ شيءٌ أشبه بلوح زبدة فاسد، أو بروزٍ متحرك. استغرق منّي الأمر دقيقة أو نحو ذلك لأستوعب أنَّ ما أراه كان ظهر رجل. ميّزتُ اتصال الساقين - طويلتين ومشعرتين - بالجسم، ورأساً بشعرٍ ليليّ اللون. وبينما كان هذا البروز البنّي الفاتح يتحرك لأعلى وأسفل، وللأمام والخلف، رأيتُ ما كان

يقبع تحته. كانت تلك أمّي، عاريةً تماماً، ممدودة الذراعين، وتعلو وجهها تعابير النشوة. صدح صراخها في الغرفة، وازدادت وتيرته، وعلا وتصاعد وصولاً إلى صرخة ثمَّ ارتعشتْ واستلقتْ ساكنة. ارتجف الرجل الذي كان فوقها هو الآخر، وأخذ ينخر بصوتٍ عميق مثل حيوان، ثمَّ انهار فوقها.

قرب المرتبة، كان ثمّة قبعة مخملية مطرزة تشبه إلى حدٍّ بعيد قبعة أبي الذي رحل منذ وقتٍ طويل. وأدركتُ فزعة أنَّ هذه القبّعة تخصّ شقيق والدي - الذي تدحرج الآن من فوق أمّي وانبطح فوق المرتبة. وبينما كان يتدحرج، رأيتُ كتلة ضخمة غير مألوفة أسفل بطنه، كانت أشبه بلسعة نحلة ساء حالها على نحوٍ رهيب.

كانت الغرفة عابقةً برائحة عرق وشيءٍ وحشي. كان واضحاً جدّاً أنّني تطفّلتُ على عالمٍ موازٍ، يتلألأ بالغموض. إحساس الهِينة والرضا في أطراف أمّي، ووجهها وهو يستدير نحو وجه العم مسعود لتقبله على شفتيه عندما رفع رأسه ثم عناقها له، كانت كلّها أفعالاً لم أقدر على فهمها. تجمّدتُ بفعل مزيج الحركات والأصوات والروائح المربكة ذاك. وحمدتُ الله لأنَّ ظهر العم مسعود كان إلى الباب.

انقلبتْ أمي مستلقيةً على جنبها، ليصبح كامل باب الغرفة حيث أقف ضمن مجال رؤيتها. شددتُ قبضتي على المزهرية وتراجعتُ بهدوء إلى الوراء. وعندها حلّت اللحظة التي ستلاحقني مدى الحياة - لحظةٌ ستنحت نفسها على جدار روحي وتجعلني أشكّك في كلّ ما اعتقدتُ أنّي أعرفه عن أمّي. ثانيةٌ واحدة؛ ثانيةٌ واحدة كفيلة بتشكيل عمرٍ من العذاب.

بعد ذلك، غادرت.

لم أغلق الباب. قلقتُ من أنّه قد يصدر صوتاً.

عدتُ إلى غرفة المعيشة، وجلستُ على الطراحة الأرضية. أطلق المؤذِّن نداء الصلاة بتأوّهٍ طويل مثقلٍ بالأحاسيس بدا أنّه إحياءٌ لذكرى ما رأيتُه يحدث للتو أيّا تكن ماهيّته. أو ربّما تخيّلتُ أنّني سمعتُ نداءً، إذ لم يكن هذا وقت صلاة - يُفترض أن تكون **نماز**، الصلاة قد أقيمت عند الظهر، وأوان الصلاة قد فات الآن. جلستُ أحدّقُ في الجدران. تراكم الصمت في غرفة المعيشة فوق بعضه حتى شعرتُ بأنّه قد يغمرني، ويغرق رأسي في غياهب محيطٍ غير مرئي. منزلنا الصغير المريح. المدرسة القريبة التي أحبّ. صديقتي هوما. مطبخ والدتها الحجري؛ ذاك الفضاء الكهفي العميق. شعرتُ - وأنا أصارع لأتنفس في لُجّة الصمت - بكلٍّ ذلك يصفق بأجنحته ويطير مبتعداً.

كنتُ بحاجةٍ للنوم. لم أستطع أن أتخيّل فعل أيّ شيءٍ آخر. كنتُ بحاجة إلى وضع رأسي على وسادتي وإغلاق عيني والغرق في النوم. لكن على نفس المرتبة التي سأستلقي عليها، كانت أمّي عارية مع عمّي ذي الساقين الطويلتين.

ما عجزتُ عن تفسيره - وأنا جالسةٌ أحاول تنظيم الوقت وإعادة ترتيبه وتغيير مساراته، والتنفّس بدلاً من الغرق التامّ - هو لماذا عندما التقطتْ أمّي نظرتي وأنا على وشك مغادرة الغرفة، ابتسمتْ وغمزتْ لي بعينها.

8

يوليو 1953

كانت أيّامي المتبقيّة في الحيّ تقترب من نهايتها. أعدّتْ أمّي قوائم بما سنأخذه وما سنتركه وراءنا. بالطبع، لم يكن من اللائق العيش مع العمّ مسعود تحت سقف البيت الكبير حيث زُفَّت أمي عروساً لأبي؛ هذا ما قالته بينما كانت تهذر بشأن الخطط الجديدة. لذا كان العم مسعود قد اشترى منزلاً عصرياً جديداً في أحد الأحياء الصاعدة في شمال المدينة الراقي - أكّدتْ لي أنّه كان جميلاً جدّاً. ووعدتني بأنّها ستحرص على أن تكون لي غرفتي الخاصّة.

لم أكن أريد غرفتي الخاصة. لم أكن أريد الانتقال. ولم أكن أريد مغادرة الحيّ الذي أحببته، والمدرسة الوحيدة التي عرفتُها في حياتي. وقبل كلّ شيء، لم أكن أريد ترك صديقتي.

كان العم مسعود يأتي لزيارتنا كل يومٍ تقريباً الآن. بدا أكثر خفّة وإشراقاً ممّا رأيتُه يوماً، وبدت أمّي لطيفةً ومتظاهرةً بالخجل. كان قد طلب يدها للزواج بعد أسبوعين من حادثة غرفة النوم المؤسفة التي شهدتُها. كانت لديّ شكوك في أنَّ مغامرات عريهما بدأتْ في ذلك اليوم لكنّها لم تنتهِ عنده. وضع العم مسعود في إصبع أمّي

خاتماً معيَّن الشكل بلون حبّات الرمّان، وكانت تحبُّ أن تؤكِّد على قيمة هذه الياقوتة.

لم أصدّق أنّها قبلتْ عرضه للزواج بالنظر لِما كانت تخبرني به عن كونها لا تطيقه. ذات ليلة، وبينما كنتُ مع أمّي على وشك النوم فوق فراشنا المشترك، استجمعتُ شجاعتي لأسألها بطريقةٍ مهذّبة قدر الإمكان ما الذي جعلها تغيِّر رأيها. كان لا يزال يفزعني التفكير في أنَّ العم مسعود اعتلى أمي على نفس الفراش الذي كنا ننام عليه أنا وهي كل ليلة. «مادر»، همستُ في الظلام.

- «نعم، يا إيلي؟».

- «لقد قلتِ له نعم».

- «لمن؟».

- «للعمّ مسعود. لقد وافقتِ على عرضه للزواج».

- «أعرف ذلك»، قالت وهي نصف نائمة.

تجرأتُ وقلت: «لكنّني اعتقدتُ أنّكِ لا تحبّينه. لطالما قلتِ أنّه عديم الأخلاق والأدب».

- «من؟ من الذي قلتُ عنه ذلك؟». جلستْ وقد بدا عليها القلق فجأة.

- «العمّ مسعود! من غيره؟».

- «أوه!». عاد صوتها مرتاحاً، واستلقتْ من جديد.

- «لطالما قلتِ إنّكِ لا تحبّينه».

حرّكتْ أمّي جسدها، ورأيتُ في ضوء القمر المتسلل من النافذة أنها انقلبت على جنبها، وأسندت نفسها على مرفقها كي تصبح في مواجهتي. «إيلي»، قالت لي، «ذات يومٍ ستفهمين أنَّ هناك أشياء

نضحّي بها لأجل الآخرين كي يحظوا بحياةٍ أفضل». ثمَّ تنهّدتْ وأدارت ظهرها لي.

أردتُ أن أطرح المزيد من الأسئلة. هل قبلتْ عرض العم مسعود بسببي؟ لكنّني كنتُ أعيش حياةً جيدة بالفعل. هنا في هذا الحيّ!

هبّتْ نسمةٌ عليلة من شقِّ النافذة الذي أبقيناه مفتوحاً. برَّدت تلك النسمة وجنتيّ وتغلغلت في شعري. كنتُ أتوسّل إلى أمّي كلَّ ليلة أن تبقي النافذة مفتوحةً قليلاً كي يدخل الهواء، وكلّ ليلة كانت أمّي تقلق من أنَّ أصغر شقٍّ سيعني أن يقتحم اللصوص منزلنا، أو نتعرض لغزوٍ من عصابة رجال، أو أن تخطفنا مجموعةٌ من الغرباء. هل سيكون قلبها أقلّ اضطراباً إذا ما انتقلنا عائدتين إلى ذلك القطاع من المدينة حيث لا يتجول المتسولون في الشوارع؟

بدأتُ أعتقد أنَّ هذه كانت خطّة أمّي منذ اليوم الذي اكتشفت فيه أنّني تغيّبتُ عن المدرسة وذهبتُ إلى السوق مع هوما، إذ لم يمضِ وقتٌ طويل بعد ذلك اليوم المصيري حتى كانت ذراعا أمي ممدوتين فوق المرتبة، ثمّ تمت خطبتها للعمّ مسعود بالخاتم ذي الياقوتة بلون حبّات الرمان. بدا كل ذلك منطقياً الآن؛ هدوؤها الغامض بعد انفعالي الفظّ عليها لدى مواجهتها لي بشأن نزهتي إلى السوق، وعدمَ عقابها لي. لقد حصلت أمّي على تذكرة خروجنا من ذلك الجزء من المدينة عبر موافقتها على الزواج بالعم مسعود. هل كانت هي المبادِرة؟ لن أعرف ذلك أبداً. لكن لم يبدُ أنَّ تلك الظهيرة في السرير قد حدثت ضدَّ إرادتها. تذكّرتُ كيف غمزت لي من المرتبة وأنا أتراجع خارجةً من الغرفة. كما لو كنّا معاً في هذه الخطّة. كما

لو أنَّ مكيدتنا المشتركة كانت أن نجعلها تستسلم للعمّ مسعود حتّى نتمكّن من مغادرة الحيّ الذي تعلّقتُ به كثيراً.

مشيتُ مجتازةً خنادق المياه العكرة التي تصطف على جانبي الشوارع، وبائع البنجر الذي ينادي على الناس كي يشتروا من عربته. لقد دخل الصيف بقوّة؛ وكان الهواء حارّاً وجافّاً جدّاً حتّى بدا أنَّ عظامي ستتصدّع تحت وطأة كلمات أمّي. **هذه الصداقات تأتي وتذهب، يا إيلاهيه. هذه الأشياء لا تدوم.**

وصلتُ فناء منزلها حاملةً هديّة الوداع: دفتر ملاحظات وردي داكن كتبتُ فيه عنواني الجديد وكبستُ بعض الزهور بداخله. كانت الزهور قد جفت وتسطّحت والتصقت على الصفحات. سأخبر هوما أنَّ بوسعها استخدام تلك الصفحات لكتابة الرسائل لي أو لتدوين الملاحظات في كلية الحقوق ذات يوم. حتّى لأجل وداعنا، لهذا اللقاء الشخصي الأخير (لِكم من الوقت؟ كرهتُ أنّني لم أكن أعرف) لم تسمح أمّي لهوما بالقدوم إلى منزلنا.

كان وقت شاي بعد الظهر حين دخلتُ عبر البوابة. كان والد هوما يجلس بجوار الـ **هوز**، البركة، متربِّعاً فوق بساط الـ **كليم**. كان يلبس بنطالاً أسود وقميصاً أبيض، ونظارته تلمع تحت شمس الفناء المتلألئة. كان يحمل كوباً صغيراً رفيع الخصر مملوءاً بالشاي الذي استحال كهرمانيّ اللون تماماً تحت أشعة الشمس. وبجانبه، جلستْ والدة هوما، منير خانم، شعرها كحاله دائماً، مجدولٌ في ضفيرة طويلة مميزة، ووجهها ورديّ اللون، وكان علي رضا نائماً في سلة بقربها. أما سارة، فوقفت عند حافة البركة تطعم الأسماك، وكانت ترتدي تنورة وردية مكشكشة، وتضع نعال والدها الذي بدا كبيراً على

نحوٍ يثير الضحك على قدميها العاريتين. تساءلتُ كيف هو شعور أن تسبح قدماك الصغيرتان داخل حذاء والدك؛ أن تدرك أنّك تقف في نعال شخصية تركتْ ضخامتُها بالغَ الأثر عليك. هل زلقتُ قدميّ في نعال أبي وترنّحتُ في الأرجاء عندما كنتُ في عمر سارة؟ هل شعرتُ بأنّني سخيفة ومحميةٌ تماماً في آنٍ معاً وقدماي غارقتان بالكامل في نعال أبي؟

خرجت هوما من المنزل وهي تحمل طبقاً. وإذ رأتني، هرعتْ راكضةً نحوي.

- «سوف توقعين التمر والبسكويت!»، صاحت والدتها، لكنَّ هوما وازنت الطبق في الهواء بصعوبة وعانقتني.

نظرتُ من فوق كتفها إلى عائلتها المتجمّعة فوق البساط. رفعتْ منير خانم إبريق الشاي الأبيض مع نقش الزهرتين الورديتين المألوف. كنتُ قد رأيتُ هذا الإبريق لأول مرة في مطبخ هوما يوم لعبنا أول لعبة حجلة لنا معاً. كان علي رضا الصغير يبرطم بلغةٍ خاصة به، فيما واصلت سارة إطعام الأسماك. نهض والد هوما وحيّاني بأدب قائلاً إنَّ عليَّ أن آخذ مكانه، وأن أجلس وأنضمّ إلى العائلة لتناول الشاي.

أردتُ أن أقبض على تلك اللحظة. أردتُ أن أهبط فوق ذلك البساط وآخذ مكاني الحميم بينهم جميعاً. أردت أن أغرق في محيط أمانهم ولطفهم. لربما يمكن لأمي أن تذهب مع العم مسعود إلى ذلك المكان الجديد الذي كانا متحمسَّين له أشدّ الحماس، ويمكنني أنا أن أبقى هنا. سأنظّف أرضية منزل هوما، وأساعد في الطبخ كل يوم في المطبخ الحجري، وأنام فوق حصيرة في زاوية الدرجات السبع وما كنتُ لأشتكي. أردتُ البقاء هنا. لم أكن أريد أن أقول وداعاً.

حشرتُ تلك الخيالات معاً وطردتُها من رأسي، وأصررتُ أن يحتفظ والد هوما بمقعده على البساط، مؤكِّدة بأنّني كنتُ مرتاحة حيث أقف وسرعان ما سأمضي في طريقي، وبالطبع، انخرط الوالد في الـ **تعارف** مباشرة، وقال لا، اجلسي رجاءً، اشربي الشاي، وابقَي لتناول العشاء حتى، وفي نهاية المطاف، وبعد الأخذ والردّ المطلوبين في هذه الحالة، مشيتُ إلى البساط. لكن حتّى وأنا أمشي تلك الخطوات، وهوما تثرثر بالقرب منّي، ووالدها يوجّهني بكلّ لطف، وحتى إذ جلستُ وأخذتُ من يد والدة هوما **إستكان**، كوباً من الشاي، كنتُ أسجّل تفاصيل المشهد في ذاكرتي، وأحفظها عن ظهر قلب.

سوف تمدّني هذه اللحظة بالقوّة في حياتي الجديدة في شمال المدينة الراقي. كنتُ أفتقد هذه العائلة بالفعل رغم أنّني كنتُ هنا معهم. ولكن كيف يمكن أن أفتقد ما لم يكن لي حقّاً؟ عرفتُ أنه قريباً - حين سأقيم في الشمال الراقي مع أمّي والعمّ مسعود في حيٍّ غريب متخم بالثروة والأضواء والأشخاص النافذين والمثقفين الذين يستمتعون بالمقاهي ودور السينما والرقصات - سيكون هناك جزءٌ منّي (كلٌّ مني) لا يريد شيئاً أكثر من أن أكون هنا، في هذا الفناء، مع هذه العائلة حيث الطفل غافٍ في سلةٍ، وسارة تقفز في الأرجاء، وهوما تتكلّم بلا توقّف.

- «قبل أن تشربي الشاي، أريد أن أريكِ شيئاً»، قالت هوما. «كنتُ سأعطيكِ إيّاه عندما... كما تعلمين... في النهاية. لكن يجدر بك رؤيته».

- «دعي الفتاة المسكينة تأكل وتشرب أوّلاً»، قالت منير خانم. «أنتِ مستعجلةٌ دائماً».

- «إيلاهيه لم تتناول التمر بعد أو حتى كعك الحمّص»، قال والدها.

لم أكن قد تناولتُ بعد أيّاً من حبات التمر المكتنزة في الطبق الذي أحضرته هوما فعلاً، كما أنني لم ألمس قطعةً من كعك الحمّص.

لكن هوما انحنتْ، ووضعت الطبق على البساط، ثم أقحمت يدها في جيبها وأخرجت كيساً صغيراً أحمر اللون. «هاك. لقد أحضرتُ هذا لكِ»، قالت، ووضعتْه في راحة يدي.

كان الكيس خفيفاً ورقيقاً، كاد يكون شفّافاً. هبَّتْ نسمات خفيفة من بين الأشجار، ورفعتْ خصلات شعر هوما المجعد. كنتُ قد تصوّرتُ إعطائي دفتر الملاحظات لصديقتي في نهاية الزيارة، ونحن نودّع بعضنا وحيدتين خارج البوابة. لم أكن أتوقّع هذا.

- «افتحيه!»، قفزتْ هوما قفزةً صغيرة إذ قالت ذلك.

أدخلتُ إصبعي في الكيس، وتحسَّستُ شيئاً معدنياً. قلبتُ الكيس رأساً على عقب فوق راحة يدي، فسقطتْ منه سلسلةٌ ذهبية تتصل بها تميمةٌ ذهبية اللون على شكل طائر. كان منقاره معقوفاً وله نهايةٌ حادّة، وكان جناحه عريضاً موشًّىً باللون الأزرق الفيروزي. كانت التميمة صغيرةً ورقيقةً جدّاً، لكنَّ التعبير على وجه الطائر حُفر بأدقّ التفاصيل. كان تعبيراً ينمُّ عن الشراسة.

- «هوما»، همستُ وقد انكمشتْ حنجرتي.

- «هذا هو الحال! فكّرتُ أنّه إن لم يتسنَّ لك أن تحظي بي، فيمكنكِ أن تحظي بسميِّي»، قالت لي.

نظرتُ إليها، فابتسمتْ لي، لكنَّ حزناً جديداً كان يملأ عينيها. حرّكتُ ضفيرتيّ بعض الشيء وأنا أضع القلادة وأشبكها خلف

رقبتي. استقرّتْ تميمة الطائر على نحوٍ مثالي في ثغرة النحر.

- «السلسلة ليست من الذهب الحقيقي؛ لا شيء منها كذلك»، قالت منير خانم معتذرة.

- «إنّها جميلة جدّاً»، قلتُ لها. «سوف أفتقدكِ كثيراً». نظرتُ إلى العائلة من حولي وأكملت: «سوف أفتقدكم جميعاً».

- «لسنا نحتضر. سنظلُّ في نفس المدينة! هيا بنا، لنأكل!»، قالت هوما، وجلستْ بجانبي. «يا **شكم**». لكزتني مستخدمةً لقب التحبّب لتلطيف الحالة المزاجية. عانقتُها بقوّة. وأفسحتْ والدتها المجال بحيث يتّسع المكان لنا جميعاً، وناولت هوما **إستكان** من الشاي. برطم علي رضا بلغته غير المفهومة، واقتربتْ سارة وحشرت نفسها بجواري على البساط، ثمَّ دسّتْ أنفها في كتفي. ذهب والد هوما إلى حافة بركة الـ **هوز** ووقف يتمعّنُ فيها.

حين أعطيتُ دفتر الملاحظات لهوما، قالت إنّها أحبَّته كثيراً، وقالت إنَّ فكرة الزهور المضغوطة كانت عبقرية، وإنّها بالتأكيد ستستخدم الدفتر لتدوين ملاحظات حول جميع القوانين - توقّفتْ للحظة ونظرت إلى والدها - التي تريد تغييرها. هزَّ والد هوما رأسه، لكن ليس كرافضٍ أو مشمئزّ، بل هزَّ رأسه كما لو أنّه لا يستطيع أن يصدّق كم كان حظه طيّباً ليحظى بمثل هذه الفتاة الرائدة. ارتشفتُ الشاي من كوبي، وأخبرتُ منير خانم أنَّ التمر وكعك الحمص كانا لذيذين. تجاهلتُ تجشّؤات علي رضا العالية، وتركتُ لسارة أن تعيد تضفير جهةٍ من شعري، ولم تفلح هوما في أن تكفّ لحظة عن الكلام.

حين قلت وداعاً، قلتها لهم جميعاً.

- «سوف نتبادل الزيارة»، قالت هوما.

- «بالطبع»، قلتُ لها. «وسوف نكتب الرسائل. لقد أدرجتُ عنواني الجديد في دفتر الملاحظات».

- «هذا جيّد. لا تنسينا!»، قالت لي.

- «لا يمكنني ذلك أبداً».

- «ضعي القلادة!».

- «دائماً. أعدك».

- «أحبّكِ بجنون!»، هتفت هوما.

إذ خطوتُ خارج فناء منزلهم وأغلقتُ البوابة خلفي وشرعتُ أمشي عبر الزقاق، شعرتُ وكأنَّ أحداً ما فتح أحشائي واقتلع كل شيءٍ بداخلي. كنتُ ضعيفة. خاوية. أدركتُ مع كلِّ خطوة أخطوها عائدةً إلى منزلي أنّني كنتُ أغادر بيتي. بيتهم. بيتي الثاني. اختنقتُ بغصّةٍ استقرّتْ في حلقي، واحترقت عيناي بالدموع. وضعتُ يدي على رقبتي، ولمستُ تميمة الطائر. تتبّعتُ حوافه الخارجية، وحفظتُ شكله، وأبعاده، حتّى حفرتْ كلُّ حافّةٍ دقيقة في أصابعي وتركتْ أثرها عليها.

الفصل الثاني

9

أواخر صيف العام 1960

- «كُفَّا عن ترديد اسمه!»، قلتُ لنيلو وسوسن بينما كنّا نحن الثلاثة نتمشّى باتّجاه **مطعم أندريه** لأجل بعض السندويتشات. لكنني لم أستطع التوقف عن الضحك.

- «اعتادي على ذلك، يا إيلاهيه جون»، قالت سوسن. «إنّه يحبك، وكلنا نعرف ذلك».

- «عسى أن تتزوّجي قريباً وتنجبي نصف دزينة من الأطفال الأصحاء الأقوياء الذين سيعمّرون طويلاً». لكزتني نيلو في خاصرتي.

- «لم يقل كلمةً واحدة عن حفل زفاف»، قلتُ، وأدرتُ رأسي بطريقةٍ مسرحية. أحببتُ ثقل تسريحة خلية النحل المرفوعة، وشعرتُ كما لو أنّني أضع تاجاً على رأسي.

كان ذلك آخر أسبوعٍ من عطلة الصيف، وأردتُ أن ألتهم كل قطعة مرحٍ ممكنة قبل بدء المدرسة ودخولنا الصف الثاني عشر. كان يمكنني بالفعل أن أتذوق طعم شطيرة **سلطة أوليفييه** الشهيرة من مطعم أندريه: الدجاج المقطع - البطاطس - البيض - الجزر -

البازلاء - المخللات مع صلصةٍ غنية من الليمون والمايونيز. كان أندريه يعدُّ أطيب السندويتشات في طهران كلّها.

سيكون في انتظارنا عامٌ دراسيٌّ صعب مع امتحانات القبول وكل ما إلى ذلك. لكن في الوقت الحالي، يمكننا أن نستمتع بقضاء يومٍ لذيذ من تناول السندويتشات في المطعم الذي رأيتُ فيه مهرداد لأوّل مرة.

- «كل فتاة مستعدّة للقتل من أجل أن يكون مهرداد حبيبها»، قالت نيلو.

كان جسده النحيل يحبس أنفاسي؛ شعره الداكن المموّج المفروق في المنتصف؛ ذاك الأنف الأملس المدبب، والعينان العسليتان الكبيرتان خلف نظارات من طراز صدفة السلحفاة.

أكملت نيلو تصريحها بالقول: «أنتِ أكثر الأميرات حظّاً يا إيلاهيه. حتّى إنك تبدين مثل الملكة فرح[1]».

- «بالطبع هي تبدو كالملكة. إنّها تنحدر من أصلٍ ملكيّ»، قالت سوسن.

- «نعم لكنَّ أصلها الملكي ليس مرتبطاً بالعائلة المالكة الحالية»، قالت نيلو.

- «لا تزال من أصلٍ ملكي مع ذلك!»، قالت سوسن.

نظرتْ نيلو إليّ وقالت: «أُعطي أيَّ شيء لأكون أنتِ، يا إيلي جون».

ارتعشتُ لهذا الإطراء - لعنة الله على آراء أمي بشأن العين الشريرة. «عيناك جميلتان، لذا تريان الجمال»، قلتُ لها مرددة

---

(1) ملكة إيران، زوجة الشاه محمد رضا بهلوي - المترجم.

إحدى عبارات الـ **تعارف** القديمة، ثمَّ أردفتُ: «هل اشتريتِ الكحل؟».

- «نعم، ويمكنني أن أرسم عينيكِ على شكل جناحين، يا إيلي جون»، قالت نيلو بفخر.

- «لا أقصد الإهانة، لكن ربّما من الأفضل أن أكون أنا من يضع لها الكحل، فيدي أكثر ثباتاً بقليل»، قالت سوسن وهي تمسك بذراعي. «وإذا ما استعرتِ نظارة والدتك الشمسية، وااااو! ستكونين حديث هذه المدينة».

تنهّدتْ نيلو. «كما لو أنها ليست كذلك بالفعل».

شبكتْ سوسن ذراعها بذراعي، وحذت نيلو حذوها. ومشيتُ بقيّة الطريق إلى مطعم أندريه محاطةً بصديقتيّ.

الحياة التي عرفتُها عندما كنتُ طفلة مع فتاة اسمها هوما نلعب الحجلة في الأزقة ونطبخ مع والدتها، بدت الآن وكأنّها حدثت في مكان بالكاد يمكنني أن أدرك كنهه. ففي السابعة عشرة من عمري، كنتُ أتمتّع بشعبية كبيرة، وقد نجحتُ في الارتقاء إلى مكانةٍ أُحسَد عليها في المدرسة. كانت سوسن ونيلو أقرب صديقاتي، لكنَّ أيّة فتاة في مدرسة **رضا شاه كبير** الثانوية كانت لترغب في أن تكون جزءاً من دائرتي الاجتماعية. كنتُ قد أصبحتُ ملكةً مصغّرة.

بدايةً، عندما انتقلنا بعيداً عن حيّ وسط البلد ومشيت عبر القصر الجديد الواسع الذي يتردّد الصدى بين جنبات جدرانه البيضاء وثريّاته المتلألئة، كانت الغصّة التي استقرت في حلقي يوم ودّعتُ هوما لا تزال باقية. وظلّتْ كذلك بينما كنتُ أساعد أمّي في تأثيث الغرف. وكانت لا تزال هناك عندما شهدت بلادنا في 19 أغسطس

1953 انقلاباً أطاح برئيس وزرائنا المنتخب ديمقراطياً[1] وعزّزَ من سلطة الشاه.

خلال الأسابيع القليلة التي سبقت الانقلاب، وعندما كنتُ أذهب مع أمّي للتسوق بغية شراء أغراض منزليّة جديدة، كنّا في كثيرٍ من الأحيان نضطر للهرولة هرباً من المظاهرات الصاخبة التي قد تكون خطيرة.

كان العم مسعود يعلم أنَّ والدتي تنحدر من نسل ملوك القاجار، ويعلم أيضاً أنَّ عائلة الشاه بهلوي كانت قد أطاحت بعائلتها القاجارية. لم تكن أمّي من محبّي هذا الشاه، لكنّنا كنا عمليين جدّاً في قصرنا الجديد الضخم ذاك. فقد كان لدى أمّي الكثير لتخسره إذا ما عبّرتْ عن مشاعرها أو آرائها السياسية صراحةً.

قالت أمّي إنَّ البلاد باتت منقسمة إلى ثلاثة فصائل سياسية: أنصار المَلكية، والشيوعيون، والموالون لرئيس الوزراء مصدّق. علّمتني ألّا أقول أيَّ شيءٍ من شأنه أن يخلّ بتوازن المركب. وأخبرتني أنَّ أولئك الذين خاطروا بحياتهم في الشوارع بسبب ولائهم لرئيس الوزراء مصدّق كانوا أشخاصاً شديدي التهوّر. وأوصتني بأن أنتبه لنفسي ولا أتورط في الإيديولوجيا. لم ترد للسياسة أن توسِّخ مستقبلنا.

ذات يومٍ من أيام أغسطس، وبعد أن استيقظنا من قيلولة بعد الظهر، شغّلَ العم مسعود المذياع، فأصدر طقطقةً ثمَّ جاء صوت موسيقى صاخبة، أعقبه الإعلان عن الإطاحة برئيس الوزراء مصدّق.

---

(1) اليوم الذي أطاح فيه الشاه بحكومة رئيس الوزراء مصدَّق المنتخبة ديمقراطياً - المترجم.

بدا أنّها أكثر من مجرّد مصادفة أن يكون الانقلاب الذي تسبّب في اضطرابات فوضوية أثرت على مقدَّرات أمّتنا قد حدث بعد فترة وجيزة من افتراقي عن هوما. رأيتُ ذلك كعلامة على أنَّ انفصالنا قد أدّى إلى تغيّرات كارثية. وكنتُ قلقةً على عائلتها. فقد تمَّ اعتقال أو قتل الكثير من الشيوعيين خلال الانقلاب. وصلّيتُ ألّا يكون والد هوما قد تورّط في المظاهرات. كنتُ أتصفّحُ صحيفة العم مسعود بحثاً عن اسم والدها، على أمل ألّا أراه في قائمة الموتى.

- «يا بنيّتي، هم لا يكتبون أسماء من قتلوهم بأنفسهم»، قال العم مسعود إذ أخبرته بقلقي على والد صديقتي القديمة. «معظم الصحف هذه الأيام مؤيّدة بالكامل للشاه. بالطبع، الكثير من الناس يقولون إنَّ البريطانيين والأمريكان يقفون وراء هذا الانقلاب»، تنهّدَ وأردف: «لكن أنتِ يا فتاتي العزيزة، عليكِ أن تبقي فمك مغلقاً بإحكام وأن تلزمي الحذر. لا تقولي أيَّ شيء ليس مديحاً للشاه. فهناك جواسيسٌ في كلّ مكان».

أضافت أمي قائلة: «هذا العالم مليءٌ بالكَذَبة والأوغاد الذين قد يفعلون أي شيءٍ لاستغلالك. لا تسمحي لهم بذلك. لا تدعي الناس يأخذون ما هو ملكٌ لك. فكري في نفسك أوّلاً. عِديني بذلك».

وعدتُها بذلك علّها تتوقف عن إلقاء المحاضرات أكثر من أيِّ شيءٍ آخر. لكنَّ كلماتها عششتْ بين ثنايا جسدي وكأنّها جمراتٌ من نار، فتشرَّبتُ تلك الكلمات، وتوصّلتُ للاعتقاد بأنّني كنتُ بحاجةٍ لحماية ما هو من حقي. لمَ لا أحصل على كلّ شيء؟ فقد كنتُ أستحقُّ الأفضل.

كنتُ في العاشرة من عمري عندما شبكتُ هدية هوما - القلادة

مع تميمة الطائر - حول رقبتي. وفي نفس اليوم، طلبت أمّي التي لم تعجبها القلادة مني أن أخلعها. **إنّها ليست ذهباً حقيقياً حتى. يا إلهي، إنّها مجرد سلسلة رخيصة؛ كيف لا يشعرون بالخجل من إعطائك قطعة خردة كهذه؟**

لم أخلع القلادة، بل جاءت معي عندما انتقلنا، وظلت حول رقبتي عندما كنّا نجهّز البيت بالأثاث المزخرف. وبينما كانت بلادنا تحت وطأة الانقلاب، ظلّت التميمة فوق حنجرتي قريبة من الغصّة التي استقرت فيها. وكنت مرتدية القلادة وأنا أعاني من الغثيان في يومي الأول في مدرسةٍ جديدة مع فتياتٍ غريبات متأنّقات يعرفنَ بعضهن جميعاً. وكانت القلادة هناك حين كنتُ أشتاق إلى صديقتي خلال أسابيع الحنين المضني الأولى؛ حين كنتُ لأعطي أيَّ شيء مقابل لكزة أو قرصة أو تبجّحٍ محبّب من هوما. كنتُ أفتقدها بشدّة وأبكي ليلاً متمنّيةً لو أعودَ إلى حيث كنتُ أنتمي مع معلّماتي القديمات والسيدة طبطبائي وفتيات وسط البلد والحياة التي عرفتُها هناك.

لكنني شيئاً فشيئاً، أُخِذتُ بواقعي الجديد. المدرسة الفاخرة: المعلمات المرموقات، الفتيات الفاتنات، الآفاق التي لا تنفكّ تتوسّع. وكلمات أمي. لا يمكنني أن أعلق في الحنين إلى الأبد. كان عليّ أن أجد سبيلي للنجاة. لذا، وبعد الحداد لبعض الوقت على خسارة مدرستي القديمة وهوما، بدأتُ أراقب وأتأقلم وأعمل بجدٍّ لأصبح الفتاة التي اندمجت في مجتمعها، والتي ارتقت مع الوقت وصولاً إلى قمة الدوائر الاجتماعية.

كان البلوغ عاملاً مساعداً على نحوٍ مدهش. لقد غيّرني من الطفلة الممتلئة والعادية نوعاً ما التي كنتُ عليها إلى فتاة جديدة

تجذب الأنظار. أصبحتُ ما يُطلق عليه **خوشجل**، حلوة. وأدركتُ أنَّ الناس سطحيون ويسهل التأثير عليهم - فقد عاملوني بطريقةٍ مختلفة جدّاً بناء على مظهري. لم يبدُ ذلك عادلاً. لكن كان يمكنني الشعور بارتفاع أسهمي بصورةٍ ملموسة.

وانخرطتُ في اللعبة. وإذ أصبحتُ في الثانوية، لم تكن حتى كلمة «حلوة» هي المستخدمة - بل باتوا يطلقون عليّ **زيبا** الآن، أي جميلة. رفعتُ رأسي عالياً؛ فخورةً وواثقة، وتركتُ لافتتان صديقاتي بي - نيلو وسوسن وكل البقية - أن يضخّم من غروري. لم يكف الأولاد في المدينة عن مضايقتي. كنتُ واعيةً لرغبتهم - فكيف لي أن أتجاهلها؟ شعرتُ أنَّ بعض الفتيات ملتصقاتٌ بي أيضاً. وأصبحتُ خبيرةً في استغلال ما لديّ كي أحصل على ما أريد. كنتُ أتظاهر بالخجل، وأغازل بخفّة ومهارة دون أن أسيء لأمّي أو عمّي مسعود. الإعجاب ولَّدَ الثقة، والثقة جعلتني أفعل ما كان يحلو لي تقريباً في عالمي البرجوازي المخلخل.

غادرت القلادة رقبتي في مرحلةٍ ما من الصف السابع، أي بعد ثلاث سنوات من حصولي عليها. أخذني إحساسٌ خاطفٌ بالذنب لكوني لم أفِ بوعدي لهوما بأن أضع القلادة دائماً، لكنّنا كنّا مجرّد طفلتين حين قطعنا ذلك الوعد، والأرجح أنّها نسيت أمري منذ أمدٍ بعيد. أقنعتُ نفسي أنّه من السخافة أن ألزم نفسي باتفاق طفولي، لذا أعدتُ القلادة إلى كيسها ووضعتُها داخل صندوق مجوهرات بجوار أساور وسلاسل ذهبية حقيقية وخواتم بأحجار كريمة كانت أمي والعم مسعود قد أهدياني إياها.

بعد سقوط رئيس وزرائنا في الانقلاب، استوعب عمّي الواقع الجديد ببساطة، واستغلَّ مهاراته للمضيّ قدماً في حياته المهنية

كمسؤولٍ إداريّ في شركة نفط. إنَّ المنطق العملي للعم مسعود ودهاءه عنَيا عدم التزامه بمبدأ أو استسلامه لكرب، بل استمراره بدلاً من ذلك في بناء ثروة بصورةٍ منهجية وثابتة.

كنتُ أعتقد أنَّ حياة أمّي معه عبارة عن اتفاقية عمل، وأنّها وافقتْ على الزواج منه فقط كي تنجح في إبعادي عن ذلك الحيّ وعن هوما.

لكن عندما كانت أمّي تقرص خدّ العم مسعود بعد الإفطار بينما تتدفق أشعة الشمس إلى مطبخنا، وعندما كانت تضع قبّعة صوف الحمل على رأسه مع ضحكةٍ خافتة فيربِّتُ إذ ذاك على مؤخرتها مازحاً، وعندما كنتُ أسمعهما يتهامسان بطريقة البالغين الحميمة خلال اللحظات التي اعتقدا فيها أنَّ الأطفال ليسوا في الجوار، بدأتُ أتساءل. لربمّا كانا في الواقع يروقان لبعضهما، أو حتّى يحبّان بعضهما.

كنتُ أتجنّبُ التفكير في ذلك لأنّه كان يثير اشمئزازي. لكنّني كنتُ حقاً أفكّر في هوما. كنتُ أفتقدها كثيراً.

لقد تبادلنا الرسائل بالفعل في بداية الأمر. كانت رسائل هوما تصل مكتوبة على أوراق الدفتر الذي أهديتُه لها حيث آثار الزهور المضغوطة مع الحبر الجاف الذي شكَّل خطّها المألوف. وكنتُ أكتبُ لها بدوري على الأوراق الرقيقة التي سرقتُها من مكتب العم مسعود. في تلك الأشهر الأولى بعد الانتقال، كانت رسائل هوما تجعل عيناي تغرورقان بالدموع.

هل التقينا؟ في البداية؛ ولمرّتين فقط. وقد رُتِّبَ لهذين اللقاءين بشقِّ الأنفس من قِبل والديها. لكن كيف لفتاةٍ في العاشرة أن ترتحل إلى وسط البلد بمفردها؟ كان تحقيق ذلك شبه مستحيل. لذا كنتُ

بالطبع مضطرةً أن أتحمّل عار التحدّث مع هوما ووالديها خارج الجدران الحجرية العالية لقصرنا، لأنَّ والدتي التي بالكاد أذنت بحدوث الزيارة لم تدعهم بالتأكيد للدخول. في زيارتها الأولى، تحدّثنا وتعانقنا وضحكنا مثل الأيام الخوالي. وفي الزيارة الثانية، تحدَّثنا وتعانقنا مرتبكتَين، ولم نضحك خلال لحظات الصمت الثقيلة.

وبعد ذلك، انقطع التواصل فيما بيننا.

كان يُفترض بالرابط بيننا أن يكون عصيّاً على التحلّل ومن ثمَّ التفكّك. لكن وإذ أخذ الزمن كلّاً منّا في اتّجاهٍ مختلف، فقد كان تلاشي هذا الرابط سهلاً بصورة مدهشة.

أقامت الفتيات في مدرستي الثانوية الحفلات في منازل أهاليهنّ حيث الطعام الوفير، والأغنيات تصدح من أجهزة الغراموفون، والخطط بشأن المستقبل جريئةٌ وجامحة. تبادلنا في تلك التجمّعات صور نجوم السينما الأمريكية، وتناقشنا بشأن تنانير كانت قصيرةً جدّاً وكيف سنرتديها. كانت كل الفتيات من حولي يرتدين أحدث صيحات الموضة من أوروبا، ويصفّفن شعرهن بتسريحات عالية - دون أن يكون مغطّىً بالحجاب. لم تكن العائلات في حيّي الجديد ومدرستي الجديدة - في معظمها - متدينةً جدّاً. ربّما كانت بعض جدّاتنا كذلك، لكنّنا كنّا فتيات الطليعة في إيران الجديدة. لقد أراد الشاه عصرنة البلاد، الأمر الذي اشتكى البعض من أنّه كان يعني إضفاء الطابع الغربيّ عليها. لقد أُسقِط الدين في دوائرنا الاجتماعية. أما أنا، فانحدرتُ من عائلة علمانية في الأساس؛ أي أنّنا لم نكن نؤدّي الشعائر الدينية.

وجدتُ أنّه يستحيل عليَّ مقاومة ذاك البريق اللامع الذي كان في متناولي. ماذا كان يسعني أن أفعل سوى أن أستسلم لعالم أمّي؟

لم أعد تلك الفتاة التي جاءت إلى الأحياء الراقية ومعها تميمة طائر تستقر فوق الغصّة العالقة في حلقها، بل كنتُ إيلاهيه زيبا، إيلي الجميلة، إيلي الملكة.

كنتُ شخصاً جديداً مرهِقاً بالكامل.

الأصدقاء يأتون ويذهبون، أليس كذلك؟ الحياة تستمرّ.

1

ربيع 1960

كان ثمّة توقٌ جديد يلتهم أيّامي الآن: ترقّبٌ دائم، ورغبةٌ متواصلة ومتجدّدة.

فقد وقعتُ في حبِّ فتىً.

لاحظتُه لأول مرة خلال استراحة غداء عندما كنتُ في الصف الحادي عشر، في مطعم أندريه الشهير حيث تهافتت الفتيات والفتيان من المدارس الثانوية القريبة على المطعم الشهير لتناول السندويتشات والعصائر. كان ذلك قبل أيّام من عطلة الربيع لعيد الـ **نوروز**، وكان المطعم يضجُّ بالإثارة استعداداً للعطلة المدرسية القادمة. كنتُ قد طلبتُ وحصلتُ على شطيرة سلطة أوليفييه المفضلة لديّ، وانتظرتُ قرب الجدار على الجهة اليمنى من الطابور ريثما تحصل نيلو على طعامها.

وإذ ذاك رأيتُه.

كان يقف منتظراً في الطابور كي يطلب وجبته. بدا وكأنّه في مثل عمري تقريباً، وكان يرتدي قميصاً أبيض بأكمام قصيرة وسروالاً داكن اللون. شعره الكثيف والمموّج كان مفروقاً من المنتصف، وقد أسرني هذا في الحال لأنَّ معظم الفتيان الذين عرفتهم كانوا يسرِّحون

شعرهم إلى الجانب. فوق أنفه المستدقّ جثمتْ نظارةٌ مدوّرة من طراز صدفة السلحفاة. لم يكن فيه شيءٌ مميّزٌ أو رائع إلى تلك الدرجة، بل يمكن القول إنّه لم يكن ثمّة شيءٌ على الإطلاق. مع ذلك، كان ثمّة شيءٌ مميز في طريقة وقوفه: قدماه متباعدتان، ورأسه يميل نحو الخلف بحيث يتمكّن من التمعّن في اللافتة المعلّقة فوق منضدة المطعم، ويداه مسندتان إلى وركيه بصورةٍ عفوية. كانت وقفته تدلّ على انعدامٍ تامّ لأي اضطراب أو انزعاج، وكأنّ التدافع والصخب من حوله لم يخلقا عنده أيَّ شعورٍ بالضيق أو الحاجة للاستعجال.

يا للهدوء الغريب الذي كان ذلك الفتى يتمتع به! هدوءٌ كان يوحي بشيءٍ من الجرأة حقّاً.

ثمَّ، وكما لو عرف أنني كنتُ أحدّقُ به، استدار ونظر في عينيّ مباشرةً، وابتسم.

لم تكن له أسنان حبيب سوسن - الكولونيل - الكبيرة الملطّخة بآثار التبغ، كما لم تكن له تلك الابتسامة البيضاء اللامعة لنجوم السينما الأمريكية. لم تكن ابتسامته برّاقةً على الإطلاق. لكن في تلك اللحظة، ووسط كل الفوضى والضجيج في المطعم من حولنا، استشعرتُ في وجهه عالماً من اللطف.

كان يُفترض بي أن أطرق برأسي، محرَجةً لأنّني ضُبطت وأنا أحدِّق، أو أن أشيح بوجهي، بعجرفة واعتدادٍ بالنفس. فبعد كل شيء، ألم يكن هناك فتيانٌ من مدارس مختلفة يحومون حولي كلّما سنحت لهم الفرصة؟

لكنّني لم أطرق برأسي، ولم أشح بوجهي. بل نظرتُ في عينيه مباشرةً أنا أيضاً، وألفيتُ ثغري يفترُّ عن ابتسامة بلهاء وسخيفة.

سرى دفءٌ عذب عبر صدري، وصولاً إلى أعلى رقبتي ووجهي بأكمله. وإذ مرَّر يده في شعره وأطرق برأسه خجلاً، ذبتُ حتى آخر ذرّة في كياني.

- «هيا، يا إيلي!». أمسكت نيلو بذراعي وسحبتني خارج محل السندويتشات. «فلنأكل!».

ظللتُ لعدّة أيّام أسترجع في رأسي تلك اللحظة في مطعم أندريه. لمَ ابتسمَ لي هكذا؟ لمَ اهتممت؟ كان مجرّد فتىً آخر، ولم يكن حتّى الأكثر وسامة بينهم! كلُّ ما كنتُ أعرفه أنّني لن أراه مجدّداً.

لكن كان الربيع هو ما يَسَّر حدوث ذلك. الربيع واحتفالات البلاد به. ففي اللحظة المحدّدة للاعتدال الربيعي، أي عندما تكون الشمس فوق خط الاستواء تماماً ويتحوّلُ إذ ذاك الشتاء رسميّاً إلى ربيع، تبدأ السنة الجديدة. في لحظة **سال تحويل**؛ اللحظة التي يحلُّ فيها الـ **نوروز** رسميّاً - رأس السنة الإيرانية الجديدة، وقفتُ وأمّي والعمّ مسعود حول طاولة **هفت سين**[1] المزدانة بأشياء تبدأ بحرف السين الذي يرمز بالفارسية إلى الولادة الجديدة، والتجدّد، والحظّ السعيد. كنّا طيلة الأسابيع التي سبقتْ حلول الربيع نعمل على تنظيف منازلنا لتبدو في أبهى حلّة، ثمّ ارتدينا جميعاً الملابس الجديدة لأجل اليوم الأول، وقفزنا حول طاولة **هفت سين** لحظة حلول الربيع، وقبّلنا بعضنا البعض، وقرأنا أبياتاً من الشعر القديم

---

(1) أي السينات السبع، وهي السفرة التقليدية التي تحضَّر لإحياء عيد النورور، توضع على هذه المائدة سبعة أشياء تبدأ بحرف السين، مثل سبزه (خضار)، سركه (الخل)، سنجد (التمر)... إلخ - المترجم.

وآيات من القرآن. أحد عناصر السين على طاولتنا كان الـ **سابزي** - الحشائش التي حضّرتُها. كنتُ قد نقعتُ حبّات العدس في طبقٍ قبل أسبوعين من عيد النوروز، وسقيتُها كلّ يوم حتى نمت منها براعم صغيرة. راقبتُ بعجب كيف كانت البراعم تتطاول على مدار الأيام التالية حتى استحالتْ سيقاناً خضراء، وبحلول عيد الـ **نوروز**، كان العدس قد تحوّلَ إلى حزمة مدوّرة خصبة من نِصالٍ رفيعة شبيهةٍ بعشب المروج. **تجدّد. ولادة جديدة.**

خلال الثلاثة عشر يوماً التي تلت رأس السنة الجديدة، زرنا الأقارب والأصدقاء عملاً بتقليد **ديد او بازديد** - أن نرى أحبّاءنا ونعاود رؤيتهم مجدّداً. من ثمَّ، في اليوم الثالث عشر، خرجنا في نزهة **سيزده بدر**[1] الكبيرة، للخروج من المنزل هرباً من نحس الرقم ثلاثة عشر. وحرصتْ أمّي على إحضار طبق الـ **سابزي** معنا.

بعد ما يزيد قليلاً عن أسبوعين من رؤيتي لمهرداد لأول مرة في مطعم أندريه، حمَّلنا - أنا وأمي والعمّ مسعود - سيارتنا بسلة نزهة مليئة بعجّة الأعشاب **سابزي كوكو**، وفطائر لحم **الكوتليت** المقليّة، والخبز، والفجل، وحلويات رأس السنة، ووجبات خفيفة أخرى، وترمس ضخم من الشاي الساخن لنزهة **سيزده بدر**. وكدّس العم مسعود في صندوق السيارة البُسط الصغيرة التي اعتدنا أن نجلس عليها ومجموعة نرد الطاولة المفضّلة لديه. كانت الرحلة إلى خارج المدينة وعرةً وزاخرةً بالمناظر الخلابة. خرجتْ أعداد هائلة من السيارات لتأدية طقس النزوح نفسه، واكتظّت الحافلات حتى كاد الركاب يسقطون منها مع توجههم إلى الطبيعة والمتنزهات.

---

(1) عيد يوم الطبيعة - المترجم.

حال وصولنا إلى بقعتنا الخضراء المفضّلة تحت مجموعة من الأشجار بالقرب من نهر **كارج**، جهّزنا المخيم. فرشنا البُسط وأخرجنا الطعام وتجاذبنا أطراف الحديث وأكلنا. وحولنا في كل مكان، كانت العائلات الأخرى تفعل الشيء نفسه، إذ انشغل بعض الرجال بشواء اللحوم فوق شوّايات الفحم، ووضعت النساء أباريق الشاي فوق السماورات التي أعددنها. ركل الأطفال الكرات، وركضوا في الأرجاء مطلقين صيحات الابتهاج. امتزج هواء الريف العطر بالدخان المنبعث من الشوايات، وتمايلتْ أوراق الجمّيز مع النسيم. كنتُ قد ارتديتُ تنورتي الوردية الجديدة التي تصل إلى الركبة. لم يكن من العملي الجلوس بها على بساطٍ، لكنّها كانت هديّةً من أمّي، وكنتُ مفتونةً بقطنها الناعم لدرجة أنّني لم أتمكّن من تجاهلها في هذه المناسبة.

بعد الغداء، أراح البعض رؤوسهم على البسط أو البطانيات التي أحضروها معهم وأخذوا قيلولة بعد الظهر، فيما تمشّى آخرون في مجموعات للاستمتاع بالبساتين القريبة. أمّا الأطفال، فلم يتوقفوا عن الجري واللعب.

حثّتني أمّي على أن آخذ الـ **سابزي** التي كنتُ قد زرعتُها، وأعقد نِصالها العشبية، وأتمنّى الحصول على زوج، ثمّ ألقي الـ **سابزي** في النهر كي تتحقّق أمنيتي - بحسب التقليد المتبّع. وإذ نهضتْ كي تصطحبني إلى النهر، توسّلتُ إليها ألّا ترافقني. سأفعلُ ذلك بمفردي، قلتُ لها وغمغمتُ متذمّرةً من هوسها بالخرافات. لحسن الحظ، لم تسمع تذمّري، ووافقتْ أن أذهب لوحدي واستلقتْ لتأخذ قيلولةً تحت الأشجار.

حملتُ نفسي وبطني الممتلئ على النهوض.

تبعتُ صوت النهر الهادر. لم أكن أشعر بحاجةٍ إلى زوج بعد، لكنّني لم أرد أيضاً في أن أتسبب بالنحس لنفسي عبر نبذ تقليد الحظ السعيد. إذ وصلتُ إلى ضفة النهر واستطعتُ رؤية الحصى الصغيرة القابعة في قاع المياه الصافية، ركعتُ وأخذتُ بحرصٍ وتفانٍ أعقد بعض أوراق الـ **سابزي** معاً. وكنتُ على وشك أن أترك كامل حزمة النصال الخضراء تنزلق من الطبق لتسقط في الماء عندما سمعتُ صوتاً يقول: «لم أحسب أنك قد تكونين مؤمنةً بالخرافات».

استدرت.

على بعد بضعة أقدام من حيث كنتُ جاثية، اتّكأ جسد فتىً نحيف على شجرة جمّيز كبيرة. كان يرتدي قميصاً أبيض وسروالاً رمادياً داكناً، وقد شبك ذراعيه على صدره.

حدّقتُ بعينين نصف مغمضتين.

كان ذلك الفتى من مطعم أندريه. تنبّهتْ حواسي إلى أقصى حدّ، وشعرتُ بمعدتي وكأنّها تؤدّي شقلبة داخل بطني. كان صوته بكل تأكيد أعمق ممّا تخيّلت.

- «أنا لا أؤمن بالخرافات»، قلتُ وأنا أحاول أن أبدو واثقةً من نفسي.

- «**فلش كن**، أسقطي ذلك».

نظرتُ إليه متفاجئة. هل كان يشكّكُ في كلامي؟

لا بدَّ أنّه لاحظ ارتباكي، إذ سرعان ما أكمل قائلاً: «أقصدُ الـ **سابزي**، دعيها تمضي إلى النهر. طبيعةٌ تعود إلى الطبيعة. إنّه **سيزده بدر** بعد كلِّ شيء».

ترك موقعه عند جذع الشجرة، وجاء وجثا بجانبي ليستقرَّ بحيث

تكون عيوننا متقابلة. كانت له رائحة الليمون، وبدت عيناه خلف النظارات بلونٍ عسليٍّ فاتح.

حبستُ أنفاسي رغم تسارع نبضي.

- «هيّا»، قال لي.

رفعتُ طبق الـ **سابزي** بعناية، وألقيتُ النِصال الخضراء في النهر، ثمَّ وضعتُ الطبق جانباً بيدٍ مرتعشة. لم أكن يوماً بهذا القرب الجسدي من فتىً، وقد أقفز خارجةً من جلدي إذا بقيتُ جاثية بقربه للحظةٍ أخرى. شعرتُ بتوترٍ شديد، وحسبتُ أنّني قد أنقلب وأسقط في الماء، ويجرفني التيار مع نصال الـ **سابزي** المعقودة التي كانت تطفو على صفحة الماء الآن.

نهضتُ واقفة.

نظر إليَّ وهو لا يزال جاثياً. «أنا مهرداد توكّلي»، قال لي. «وأنا محظوظٌ لأنّني التقيتُ بك».

- «إيلاهيه سلطاني»، قلتُ له.

هبّتْ ريحٌ طيّبة. كان الهواء بالقرب من النهر عابقاً برائحة الزهور البرية والتربة الطازجة. نفخ النسيم تنّورتي لبضع ثوانٍ، ثم أخذت ترفرفُ على ساقيّ. وللحظةٍ وجيزة، حملَ الهواء معه قطرات ماء صغيرة من النهر.

نهض ووقف قبالتي. لم نكن في مطعمٍ مزدحم حيث يتدافع زملاؤنا الطلاب من حولنا. ولم يكن ثمّة هرجٌ ومرج وفوضى. لم يكن ثمّة شيءٌ سوى خرير الماء في النهر وزقزقة الطيور على الأغصان.

- «أنتِ تحبّين شطيرة سلطة أوليفيه، أليس كذلك؟». تقطَّع صوته بينما كان يتحدّث.

لا بدَّ أنّني بدوتُ مرتبكة لأنّه احمرَّ خجلاً وقال: «الأمر فقط أنّني رأيتكِ تطلبين واحدةً منها في مطعم أندريه ذلك اليوم، هذا كل شيء. أنا لستُ جاسوساً أو عرّافاً!».

لم أستطع منع نفسي من الضحك. «أيَّ مدرسةٍ تقصد؟».

- «ثانوية البُرْز».

- «أنا في ثانوية رضا شاه كبير».

- «في أيِّ صف؟».

- «الحادي عشر، وأنت؟».

- «وأنا أيضاً».

ربّما كنا سنظلُّ على تلك الحال عند ضفة النهر، تفصل بيننا مسافة ذراع واحد، حذرَين لكن متلهّفَين لمواصلة حديثنا. فقد كانت رائحة الأرض من حولنا تحمل الوعد بالتجدّد والولادة الجديدة. أردتُ للحديث أن يستمرّ. أردتُ أن أعرف أكثر. ورغم أنَّ قلبي كان يخفق بسرعة كبيرة، إلّا أنّني لم أكن أرغب في المغادرة.

لكن فجأة صدر صوت طرطشة من الماء بقربنا.

استدرنا نحن الاثنين باتّجاه مصدر الصوت.

برزتْ من النهر المفروش بالحصى هيئة أنثوية. خرجتْ من الماء وجاءت نحونا. قصيرةٌ ومكتنزة، وتلبس ثوب سباحة أزرق داكن مع زهرة أقحوان كبيرة من الكروشيه على صدرها، مشت المرأة مباشرة نحو مهرداد. «أوه، مرحباً يا عزيزي!»، قالت وجداول مياه صغيرة تنساب من شعرها نزولاً على طول جسدها.

استحال وجه مهرداد أحمر قانياً.

وقفتُ هناك ذاهلةً ومرتبكة.

- «ماما، لا ينبغي بك أن تسبحي بمفردك، قد يكون الأمر خطيراً»، قال مهرداد.

- «أوه، يمكنني أن أؤكّد لك أنَّه ليس ثمة ما يدعو للقلق بشأن السباحة في هذا النهر المنعش»، ثمَّ استدارت باتّجاهي وقالت: «ومن لدينا هنا؟».

- «أمم...»، تنحنح مهرداد. «**ماما جون**، هذه إيلاهيه سلطاني وهي... في مدرسة رضا شاه كبير الثانوية».

- «تشرّفتُ بلقائك»، قالت والدة مهرداد وهي تعصر الماء من شعرها بيديها الاثنتين وتنظر إليّ. كانت لها عينا مهرداد العسليتان نفساهما. لمعتْ في الشمس المتلألئة خصلات رمادية من شعرها، ذكَّرتْني بالخيوط الفضية التي نجدها في أفضل مطرّزات الـ **تيرمه** الجدارية.

- «المكان جميلٌ هنا، أليس كذلك؟»، سألت الأم.

أومأتُ برأسي موافِقة. لم أعرف ماذا أقول لهذه المرأة في منتصف العمر التي تخرج من الماء مثل حورية البحر السعيدة، وتستمتع فحسب وبصورة عفوية ببرودة النهر المنعشة. كانت أمّي لتشعر بالقلق من البكتريا، ومن الغرق، ومن أن تجرفها تيارات مفاجئة وتلقي بها فوق الصخور ذات الحواف الناتئة. ناهيك عن كون أمّي لن ترغب بالتأكيد في أن يراها الغرباء في ثوب سباحة.

أكملتْ والدة مهرداد عصر شعرها. «يجب أن تجرِّبي السباحة هنا»، قالت لي.

- «أوه، لا بأس، أنا... لم أحضر بذلة السباحة»، قلتُ متلعثمة.

نظرت الأمّ إليّ، ثمَّ إلى مهرداد، ثمَّ إلى السماء. «المكان

جميلٌ هنا»، قالت برقّة. «عليَّ أن أذهب لتجفيف نفسي. أنتما الاثنان، أكملا حديثكما».

- «كنا نلقي الـ سابزي في الماء وحسب»، قلتُ لها وهي تمضي مبتعدة.

رفعت يدها فوق رأسها ولوّحتْ، وكأنّها لا تريد أن تسمع أيّ تفسير قد أشعر أنّني مضطرة لتقديمه، ثمَّ اختفت في كثافة الأشجار.

أخذ مهرداد نفساً عميقاً وقال: «إذاً، ها قد التقيتِ بوالدتي».

- «بالفعل! وهي سبّاحة!»، كان هذا كلُّ ما استطعتُ التفكير في قوله.

هزَّ كتفيه وابتسم؛ تلك الابتسامة المحمَّلة بكلِّ اللطف في هذا العالم.

- «إنّها محقّة بشأن شيءٍ واحد»، قال وهو ينظر في عينيّ مباشرة. «المكان جميلٌ هنا، هذا أمرٌ لا شكَّ فيه».

11

سبتمبر 1960

كانت مدرسة رضا شاه كبير للبنات تقع عند تقاطع جادة حافظ مع شارع فرنسا، ليس بعيداً عن مدرسة البرز الثانوية المرموقة للبنين، وقد اشتملت على الصفوف من السابع إلى الثاني عشر. كانت بناءً يزخر بالأعمدة والسلالم العريضة، مع مدخلٍ مزيّن ببلاطٍ مذهل.

أولئك منّا اللواتي حظين بشرف الالتحاق بهذه المدرسة المرغوبة والتنافسية لم يستخففن بالتوقعات التي كانت ملقاةً على عاتقنا بشأن حتمية التفوق. وفي حين كانت البعض منا مشتّتات الذهن بالموضة والرومانسية (كنتُ واحدةً من أسوأ الآثمات في هذا المجال)، فقد تمَّ تذكيرنا على نحوٍ دائم بأن الفرص المتاحة لنا ليست بالأمر المسلَّم به.

بحلول الوقت الذي بدأ فيه العام الدراسي للصف الثاني عشر، بدت إمكانية الالتحاق بالجامعة واردةً جدّاً. كنتُ أحظى بالتشجيع اللازم - فقد أثبت العم مسعود أنّه زوج أمٍّ منصف ومجتهد، وقد كان شخصاً تقدمياً ومنفتحاً حين يتعلّق الأمر بحقّ المرأة في التعليم. أراد مني التقدّم لامتحانات القبول الجامعي. لكنَّ عقل أمّي كان في مكانٍ آخر، فقد كانت أولويتها تتمثّل في تسلّقي قمة هرم النخبة الاجتماعية

في طهران. وقالت إنَّ الزواج برجلٍ من نسبٍ عريقٍ وراقٍ هو ما قد يدفعني خطوات إلى الأمام وليس الجامعة. اصطادي شخصاً ما، كلّما أسرعتِ في ذلك، كان ذلك أفضل، قالت مشجِّعة إيّاي.

- «أصطادُ شخصاً؟»، سألتُها.

- «نعم، مثل صيّادٍ يستخدم شبكةً للإيقاع بفراشة. هذا الفتى مهرداد الذي التقيتِه في نزهة **سيزده بدر**؟ يبدو أنّه شخصٌ جيد، ويتحدَّر من عائلةٍ عريقة. لا تدعيه يفلت منك، يا إيلي. اصطاديه».

كان مهرداد قد أعطاني رقم هاتفه ذلك اليوم في النزهة. وكنا منذ ذلك الحين نرى بعضنا في مطعم أندريه بين الحين والآخر، وعلى نحوٍ متزايد في تجمّعات اجتماعية في منازل أشخاص حيث كانت تتم دعوة الفتيات والفتيان على حدٍّ سواء. وعندما علمت أمّي أنَّ مهرداد كان في مدرسة البرز الثانوية - وهي إحدى أفضل مدارس البنين في البلاد، ويتّسم طلابها عموماً بكونهم واثقين ومجتهدين، كما أنَّ معظمهم كان ينتمي إلى عائلاتٍ «راسخة» في العراقة - تبنَّتْهُ بقوّة على طول الخط.

- «أمّي، أنا لن ''أصطاد'' أي أحد. نحن في العام 1960. المرأة لا تحتاج للزواج كي تمضي قدماً».

- «أرجوك، يا إيلاهيه»، زفرتْ متأففة. «الأمور لم تتغير بقدر ما تعتقدين. انتظري أكثر من اللازم وستصبحين حامضةً ومخللة - **تورشيده**[1]. إنَّ زهوة الشباب تتبخّر من وجهك بالفعل. أخشى أنّكِ وصلتِ ذروة ألقك».

---

(1) إنه مصطلح يستخدم في المجتمع الإيراني لوصف النساء العازبات اللواتي اعتُبرن في سن الرشد ويمكن النظر إليهن بشفقة ونفور، وبمجرد منح المرأة هذا اللقب، فهذا يعني أنّها لم تعد مرغوبة - المترجم.

عندما كانت تقول أشياء كهذه، كانت تعود المخاوف التي كتمتها عمداً على مرِّ السنين لتطفو على السطح مجدّداً. هل كان جمالي عابراً - كما اعتقدتْ أمّي؟ هل ستتخلّى نيلو وسوسن عنّي إذا لم أعد جذّابة؟ هل سيتخلّى عني مهرداد؟ أردتُ أن أصدّق أنّه لن يفعل. لكن أُفرين ستتخلّى عني بالتأكيد.

كانت أُفرين مولوي الملكة المتوَّجة الحقيقية لمدرستنا، ولطالما طمعتُ في نيل استحسانها، حتّى إنَّ اسمها كان يعني «أحسنت!»، أو «برافو!». كانت أُفرين ابنة أختٍ بعيدة للشاه؛ شخصية متسرِّعة في إطلاق الأحكام، ثريّةٌ جدّاً، جميلةٌ للغاية، ولطيفةٌ إلى أقصى حدود اللطف عندما تريد ذلك - وعديمة الرحمة عندما لا تريد. كان رأي أُفرين مهمّاً للآخرين. كانت المعلِّمات يتملّقنها، والطالبات يتطلَّعن إليها. كان الجميع يريدون إمّا أن يكونوا مثلها أو أن يحصلوا على شيءٍ منها.

أثناء تحايلي للارتقاء صعوداً على السلّم الاجتماعي، كنتُ قد طوّرتُ بصمة السحر الخاصة بي، وأتقنتُ معرفة من يجب أن أثير إعجابه ومن يجدر بي تجاهله. لكنّني كنتُ لا أزال أقارن كل حركاتي وإنجازاتي مع أُفرين.

وقد أعددتُ قائمةً بهذا الشأن.

فمن ناحية المظهر، كنا على أرضيةٍ متماثلة إلى حدٍّ ما. أما من ناحية الثروة، فلم يكن ثمة مجالٌ للمنافسة، إذ كانت عائلتها غارقةً في أكداسٍ من المال. ومن حيث الدرجات الدراسية، فقد كنّا على ذات المستوى تقريباً طوال معظم الفترة التي قضيناها في مدرسة رضا شاه كبير الثانوية.

هذا لا يعني أنّني رغبتُ بملابس أُفرين (رغم أنَّ بعض فساتينها

كانت مصنوعةً في باريس ومنقولةً جوّاً إلى طهران) أو بأحمر شفاهها (حيث كانت خارج بوابات المدرسة تسحب ماسورة ذهبية صغيرة من حقيبتها وتدور باللون القرمزي الكريمي على فمها لترسم بيدٍ خبيرة شفتيها على شكل الرقم صفر) أو شعرها (قال الجميع إنَّ شعري هو الأجمل).

ما أردتُه كان سلطة أُفرين.

لذا، ذات يوم ثلاثاء في أوائل العام الدراسي للصف الثاني عشر، وضعتُ معطفي على الرفوف في الجهة الخلفية من غرفة فصل الأدب الخاص بالسيدة روشنفكر، حيث أُلحِق بكل مكتبٍ مقعدٌ لطالبين، وبالصدفة البحتة وببركة آلهة الإزعاج والسخرية، كان المقعد المخصص لي في هذا الفصل بجوار أُفرين. زلقتُ نفسي في مقعدنا المشترك وألقيتُ عليها التحية. ردّتْ بإيماءةٍ صغيرة وباردة - أشبه بأخذ العلم بحضوري دون أن يستلزم ذلك النظر باتّجاهي. كانت تفوح منها رائحة ثمينة (وكم تُقت لمعرفة اسم عطرها - أم أنّه كان نوعاً من الصابون الفاخر؟). كان دفترها موضوعاً على المكتب بالفعل. جلستْ منتصبةً مثل قصبة، جاهزةً للانطلاق. أخرجتُ دفتري، وقلم رصاصٍ مبريٍّ حديثاً وحضّرتُ نفسي للاستماع إلى صوت معلِّمتنا الرتيب.

كانت السيدة روشنفكر تحب أن تفاجئنا بالاختبارات أو تسألنا بغتة من حينٍ لآخر أن نشرح أبياتاً من قصيدةٍ قديمة. كانت حصّتها من الأصعب على الإطلاق. وكان نجم أُفرين يلمع فيها. في الأسبوع السابق على سبيل المثال، رفعتْ أُفرين يدها وصدحتْ بالبيت تلو الآخر من قصيدة قديمةٍ للسعدي، وقد جعل أداؤها السيدة روشنفكر تذوب من شدة البهجة وتصرخ: «أُفرين!»، ولم أعرف ما

إذا كانت تنادي باسمها أم تقول لها «برافو!». فلمجرِّد قول اسمها «أُفرين» كنّا أيضاً نكيل المديح لها!

عندما دخلت السيدة روشنفكر من الباب الخاص بالمدرِّسين في الجهة الأمامية من غرفة الفصل، وقفنا جميعاً على الفور احتراماً لها. كانت السبّورة الخضراء خلفها فارغةً - جاهزةً لتمتلئ بالأبيات الشعرية والنقاط التاريخية واللاهوتية والشعرية التي ستُكتب بالطباشير.

وازنتُ قلمي الرصاص فوق دفتري، مستعدّةً لنسخ ما ستكتبه على السبّورة. وإذا استُدعيت، فسوف أشارك ملاحظاتي حول دور الشعر في تشكيل الضمير الجمعيّ للبلاد. كنتُ قد حفظتُ اثنين وأربعين بيتاً عن ظهر قلب كي أثير إعجاب معلّمتنا وأتفوق على أُفرين.

علتْ ثرثرة الطالبات الأخريات بينما انشغلنَ بإخراج دفاترهنّ.

- «**ساكِت، ساكِت!** سكوت، سكوت، يا فتيات! لديَّ إعلانان مهمّان اليوم»، قالت السيدة روشنفكر. كانت تنّورتها المكشكشة تتطابق مع لون السبّورة الخضراء، وشفتاها المحددتان باللون العنّابي جعلتاها تبدو وكأنّها أتت لتوِّها على مصّاصة بنكهة الكرز. «**أفلا**، أوّلاً، وقبل كلِّ شيء، سوف نجري مذاكرتنا الأولى لهذا العام صباح الاثنين المقبل».

علا صوت تأوّهٍ جماعيّ. استدارت سوسن في مقعدها إلى الأمام مني ورمقتني بنظرة يأس، وأحسستُ أنَّ نيلو الجالسة بقربها كانت ترتعش قلقاً. كانت نيلو تكره صف السيدة روشنفكر أكثر من أيِّ شيءٍ آخر. أمّا أُفرين، فقد زهت منتصبة أكثر حتّى من ذي قبل كما لو أنّها سمعتْ أخباراً مثيرة. «**ساكت، ساكت!** الرجاء

الهدوء!»، قالت السيدة روشنفكر مجدّداً. «أولئك اللواتي عملن منكنَّ بجدّ وبقينَ مسيطرات على المقرَّر، لا ينبغي أن يواجهن أي مشكلةٍ على الإطلاق».

نظرتْ أُفرين حول الغرفة بفخر، كما لو أنّها مُيِّزتْ للتوّ، بينما غطّتْ نيلو وجهها بكلتا يديها وانزوت في مقعدها.

- «**دفما**، ثانياً»، قالت السيدة روشنفكر، «لدينا طالبةٌ جديدة ستنضمُّ إلينا هذا العام»، ثمَّ رفعت رقبتها باتّجاه الجهة الخلفية من غرفة الفصل وقالت: «ادخلي، لا تخجلي!».

هذا كان إعلاناً بحقّ. فليذهب الاختبار إلى الجحيم! لم يكن من السهل أبداً الالتحاق بمدرستنا، ونادراً ما كنّا نحظى بطالباتٍ جديدات. تحرّكت الأجساد داخل المقاعد، وأُسقِطت الأقلام فوق المكاتب الخشبية. جلتُ بنظري في الجهة الخلفية من الغرفة، لكنّني لم أرَ سوى الوجوه المألوفة للفتيات اللواتي عرفتهنّ منذ الصف السابع.

وكما لو أنّه خرج فجأة من بين رفوف المعاطف، ظهر رأسٌ بشعر داكنٍ مجعَّد ووجهٍ أسمر اللون يتّصلُ به جسدٌ طويل ونحيل. في نظرة تلك العينين الغامقتين، كان ثمّة تردّدٌ أولّي، ولكن أيضاً نزعةُ دفاعية شرسة وثقةٌ غريبة. أخذتُ نفسَاً عميقاً وحبستُه. ومضتْ أمامي نقطٌ سوداء صغيرة كتلك التي تظهر في مجال الرؤية بعد السقوط، ورفرفت معدتي كما لو أنّني مررتُ فوق مطبٍّ في سيارة مسرعة. تمتمت الفتيات الأخريات. وسعلتْ إحداهنّ.

لقد كانت هي: هوما من حيٍّ وسط البلد، أوّل فتاة أطلقتُ عليها صفة الصديقة؛ فتاةٌ ناضجةٌ بالكامل، طويلة ونحيلة، نزلتْ في غرفة فصلنا مثل طائر حطَّ من البرية بالخطأ.

مرَّتْ سبع سنوات منذ أن رأينا بعضنا آخر مرة. كنّا قد توقّفنا عن الكتابة بعد رسائلنا القليلة الأولى وتينك الزيارتين اليتيمتين، كما أننا لم نتواصل هاتفياً منذ ذلك الحين.

- «يا فتيات، أودُّ منكم أن ترحِّبوا بطالبتنا الجديدة، هوما روزبه، في مدرستنا».

حاولتُ ألّا أتوقف عن التنفس.

أنا واثقةٌ من أنَّ نيلو أظهرت وجهها الأكثر ترحيباً. ستجعل اللطيفات هنا هذه الغريبة تشعر بالترحيب، وستتفادى المتكبرات النظر إليها، وسيظهرنَ بمظهر من يشعر بالملل، أمّا أنا - فشعرتُ بنفسي مغمورةً داخل خزان مياه باردةٍ لدرجة تكفي لتجميد أعضائي.

مرّت هوما بقربي إذ أشارت لها السيدة روشنفكر بالجلوس في مقعد فارغ قبالة مقعد نيلو وسوسن. كان أيُّ شخصٍ آخر لينزلق في المقعد بهدوء ويحاول الاندماج في الجو الجديد، لكنَّ هوما شقت طريقها مباشرة إلى مقدمة الفصل واعتلت المنصّة الخاصة بالمعلّمة. لم يذهب من قبل أحدٌ إلى هناك دون أن يُطلب منه ذلك. على الأقل، لم تفعل ذلك طالبةٌ جديدة.

- «أنا سعيدةٌ جدّاً بوجودي هنا»، قالت هوما بصوتٍ عال. كانت تنظر إلينا جميعاً كما لو أنّها معلِّمةٌ مساعدة أو حتّى مديرة المدرسة. الجرأة! إنّها تسبِّبُ الذهول. «أنا محظوظةٌ جدّاً لوجودي في مدرسة رضا شاه كبير الثانوية - كان الالتحاق بهذه المدرسة حلماً بالنسبة لي، وقد حققتُه قبل التخرج، أليس كذلك؟».

كان صوتها لا يزال هو نفسه، وكان لا يزال يحمل ذات جِرس الوضوح والثقة الغرائبية. هل كانت تمزح؟ جلست الفتيات صامتات، وأفواههنّ مفتوحة من شدّة الذهول.

طارت يد أُفرين إلى فمها كي تغطّي ضحكتها.

وقفت السيدة روشنفكر مثل تمثالٍ على المنصة. وتحوَّل وميض النزق المألوف في عينيها إلى نظرة تسامحٍ قسرية ممزوجةٍ بالشفقة. كانت مدرستنا تفتخر بكونها مفتوحةً للطّلاب من جميع الخلفيات الاقتصادية والاجتماعية. وكان جليّاً أنَّ هوما قد قُبِلت - بطريقة ما - لإظهار التزامها تجاه الطبقات الفقيرة. سوف تشعر السيّدة روشنفكر وكأنّها شخصٌ أفضل لكونها تحمّلت الأسلوب الجلف لفتاة الـ دهاتي تلك.

شعرتُ بموجة ذعرٍ تجتاحني. كانت هوما تمثّل ماضيّ. ولم يكن يفترض بعالميَّ أن يتصادما.

إذ واصلت هوما الكلام - شارحةً مدى أسفها لتأخرها عن الفصل - أراد جزءٌ مني أن يمسك ذراعها بهدوء، ويقودها إلى مقعدها، ويبدأ في تعليمها أساليب هذا العالم الجديد رفيع الشأن، والذي كنتُ أتمسّكُ فيه بكل أنواع الأمل في مستقبلٍ طموح.

وإذ عدتُ إلى رشدي، التقطتُ نهاية خطاب هوما التعريفيّ الصغير، وسمعتُها تقول: «. . . ولهذا السبب أنا سعيدةٌ جدّاً لوجودي هنا، في هذه المدرسة مع الأعزُّ والأفضل في العالم كلّه: إيلاهيه سلطاني».

حدّقت أُفرين بي، وكانت تعابير وجهها كناية عن الصدمة الممزوجة بالكثير من التسلية.

عجزتُ عن الإتيان بأيّة حركة.

- «سلام، إيلاهيه جون!»، لوّحتْ هوما لي على نحوٍ محموم. «يسعدني جدّاً أن أعود لأكون معك دوست-ي عزيز، يا صديقتي

العزيزة!»، ثمَّ ملأت صدرها بالهواء، ووقفت شامخة كما لو أنّها فازت بأرفع وسامٍ في المملكة.

اهتزَّ كتفا أُفرين، وبدأت ضحكتها الحبيسة تفلت منها.

واصلت هوما التلويح لي بابتسامةٍ واسعة وعينين مشرقتين.

رفعتُ يدي، لكنّها كانت يداً من رصاص. وربّما كانت تلويحتي لها لتفوز بلقب التحيّة الأقل إقناعاً التي حاول أحدٌ إلقاءها على الإطلاق.

وإذ ذاك، انفجرت ضحكة أُفرين وصدحت في أرجاء الغرفة، فحذت العديد من الفتيات حذوها. وسرعان ما دخل الفصل في نوبة ضحكٍ كاملة.

ذابت دوافعي لحماية نفسي وتلاشت لتستحيل شعوراً بالإحراج الصرف.

- «صديقتي الطيبة!»، ختمت هوما خطابها بهذا الإعلان قبل أن تتّجه أخيراً إلى الكرسي الفارغ الذي كانت السيدة روشنفكر قد أشارت إليه قبل عشرة آلاف سنة.

تنهّدتْ السيدة روشنفكر تنهيدة امرأةٍ من عليّة القوم سئمت سريعاً من إحسانها للآخرين. «خيلى خوب، حسنٌ، دعونا لا نضيع وقتنا كلّه في تصريحاتٍ وجدانية. نحن نرحّب بطالبتنا الجديدة، لكنَّ التعلّم في الانتظار». ثمَّ أمسكت بقطعة الطباشير وشرعت تكتب على السبّورة. التقطت الفتيات الأخريات أقلامهنّ بينما مسحنَ أعينهنّ، وكانت بعض الضحكات لا تزال تنطلق من هنا وهناك.

نظرتُ إلى دفتري في الأسفل، وشعرتُ بوجهي يحترق. سيستغرق الأمر أسابيع كاملة لإصلاح الضرر الذي لحق بسمعتي هذا الصباح. لمَ كان هذا يحدث لي؟

حتى مع الإطراقة في رأسي والسخونة في وجهي، تمكّنتُ من رؤية هوما بطرف عيني وهي تخرج دفتراً ومقلمة من حقيبتها وتضعهما فوق مكتبها.

كان عليَّ أن أرفع عينيّ كي أتأكّدَ من أنَّني كنتُ أرى جيّداً.

كان دفتر ملاحظاتها ذو غلافٍورديٍّ باهت. إنّه ذاك الذي أعطيتُه لها عندما كنّا في العاشرة من عمرنا. لا بد أنَّ الزهور المضغوطة بداخله قد ماتت ألف مرة الآن.

استدارت هوما نحوي ورفعت الدفتر في الهواء وكأنّه الكأس الغالية، وابتسمت لي أوسع ابتسامة.

طارت المزيد من الأيدي نحو الأفواه، واهتزّتْ بعض الفتيات في مقاعدهنّ بضحكات مكتومة جديدة. لم تسمع السيدة روشنفكر شيئاً أو أنّها تظاهرت بعدم السمع - كانت تخربش على السبورة بسرعة وصخب.

ها هنا كانت صديقتي القديمة، صديقتي العزيزة. كان ينبغي بي أن أكون مبتهجة ومرحِّبة.

أمسكتُ قلمي. شرعتُ في الكتابة. وتجاهلتُ هوما تماماً.

في باحة المدرسة وقت الغداء، قالت نيلو إنّها كانت طوال الفترة الصباحية تتوق إلى تناول شطيرة الـ **كلباس**، السجق، في مطعم أندريه. قالت إنَّ الإعلان عن الاختبار القادم أصابها بالقلق وجعلها تشعر بجوعٍ شديد. قلبتْ سوسن عينيها متأففة، وطلبتْ من نيلو ألا تبالغ في ردّ فعلها؛ كان مجرد اختبارٍ سخيف في نهاية الأمر.

- «دعونا نذهب في الحال»، قلتُ لهما. لم أكن في مزاجٍ

مناسب للتسكّع في باحة المدرسة. كان لدينا ساعتان مخصصتان للغداء، وكثيراً ما كنا نتناول الغداء في المنزل مع عائلاتنا. لكن ولأنّنا طالباتٌ في الثانوية، كان بإمكاننا أيضاً البقاء وتناول طعامنا في كافتيريا المدرسة، حيث يمكننا أن نشتري الطعام من هناك، أو نأكل ما أحضرناه معنا من المنزل في علب الغداء. وإذا كان الطقس أجمل من أن نضيّع الاستراحة في تناول الطعام في كافتيريا الطابق السفلي، كنا نجلس على الأرض في باحة المدرسة ونتناول غداءنا تحت الأشجار. لكن بين الحين والآخر، كنّا ندلِّلُ أنفسنا، وننطلق في رحلة الخمسة عشر دقيقةٍ سيراً على الأقدام إلى مطعم أندريه.

كررتُ قائلة: «نيلو جائعة - يجب أن نذهب». كنتُ بحاجةٍ للابتعاد عن المدرسة قبل أن تظهر هوما.

- «دعيني أتحقّقُ ما إذا كانت محفظة النقود معي»، قالت نيلو وراحتْ تفتّش في حقيبتها.

- «على حسابي! دعينا نذهب فحسب!»، قلتُ لها. كنتُ لأدفع ثمن عشر شطائر **كلباس** بسعادة. كنتُ لأفعل أيَّ شيءٍ للخروج من هناك. لم أكن أعرف ماذا سأقول لهوما إذا ظهرت.

- «أوه، جيّد - ها هي ذي». أمسكتْ نيلو بمحفظةٍ سوداء صغيرة بقفل قبلةٍ ذهبيٍّ اللون.

- «فلنذهب إذاً»، قلتُ لهما.

- «إيلي!».

كنت أعرف ذلك الصوت.

ركضتْ هوما نحوي. اقتربتْ مني كثيراً، حتّى إنّني تمكّنتُ من رؤية الشامة أسفل عينها اليسرى. كانت تفوح منها رائحة الحلبة. هل كانت والدتها قد أعدّت الـ **قورمه سابزي**؟ يعلم الرب أنّني كنتُ

أعشق الـ **قورمه سابزي**، لكن يمكن لرائحة الحلبة أن تعشش في بشرتك وشعرك. وتذكّرتُ فجأةً كم كانت والدة هوما تحب الإفراط في استخدام الحلبة.

تراجعتُ إلى الخلف قليلاً. فاقتربتْ هوما أكثر.

كانت تجعيدات شعرها متيبِّسة كما لو أنّها خرجت من المحيط دون أن تشطف الماء المالح عنها. وكانت كنزتها - الطويلة الأكمام ذات الأزرار الأمامية، باللون الأسود الإلزاميّ للزي الموحد في مدرستنا - بالية. وكانت ترتدي تنّورة بثنياتٍ عريضة من قماش الـ **أرمك** الرمادي، لكنَّ تنّورتها كانت قصيرةً للغاية - بصورةٍ محرجة. لا بدَّ أنَّ كلَّ ما لديها كان مستعملاً من قبل، ولم يكن أيّ شيءٍ مكويّاً. أمّا بقيّتنا، فكان الخدم يكوون ملابسنا في المنزل. كيف لهوما أن تنجو في هذه المدرسة؟

تراجعتُ إلى الخلف مجدّداً، فاقتربتْ أكثر كما لو أنّها تستعيد أرضاً مسلوبة. انتبهتُ أنَّ أنفها كان منقَّطاً بالرؤوس السوداء. كانت أمّي - لبضعة مرات في الأسبوع - تجعلني أغطي رأسي بمنشفة ثم أضع رأسي فوق وعاء ماء مغليّ تتصاعد منه الأبخرة، حتّى أحافظ على نقاوة مسامي.

تسلّلتْ سوسن إلى جانبنا، ورمقتْ هوما بنظرةٍ متشككة وقالت لها: «كيف تعرفان إحداكما الأخرى؟».

- «كنّا معاً حين كنّا طفلتين!»، قالت هوما. «أترين؟ كنا أعزَّ صديقتين، وقد بدأ كلُّ شيء عندما. . .».

- «كان ذلك منذ وقتٍ طويل»، تمتمتُ قائلة.

توقّفتْ هوما. وبدا عليها الارتباك بسبب نبرتي.

تيبَّستْ سوسن في مكانها. «هكذا إذاً؟». كان والد سوسن قد

اختار لها كولونيلاً في الجيش، ثريّاً وفي منتصف العمر كي تتزوّجه، وكانا مخطوبين رسمياً بالفعل. كان الاستقرار والمكانة الرفيعة مضمونين مدى الحياة في حالة سوسن، أو هذا ما صدقناه بسذاجة آنذاك. «أين التقيتما عندما كنتما طفلتين؟»، قالت سوسن وهي تنظر إلى هوما من أعلى لأسفل.

قبل أن أتمكن من الرد على سوسن أو أي فتاة أخرى كانت تستمع إلى المحادثة (اجتمعت الفتيات في الباحة بالقرب منّا للاستماع إلى الدراما التي حصلت في غرفة الفصل وهي تُستأنف في الخارج)، سارت أُفرين وعددٌ من أتباعها نحونا.

شبكت أُفرين ذراعيها وكأنّها تستعدُّ لحضور العرض غير المتوقع - والذي سيجعل مني أضحوكة. «من اللطيف جدّاً مقابلة أعزُّ صديقةٍ لإيلاهيه!»، قالت ضاحكة.

خدش هواء الخريف الجاف حلقي، ومنعتُ نفسي عن السعال.

- «نعم، لقد التقينا حين كنّا في السابعة من عمرنا، وأصبحنا أعزَّ صديقتين على الفور، أليس كذلك؟»، قالت هوما. «لعبنا الحجلة في الزقاق قرب ——».

- «نيلو جائعة»، قلتُ لأقاطعها. «نحن بحاجة لتناول وجبة الغداء».

سكتت هوما للحظة، وأدركتُ أنّها لا تعرف حتى أيٌّ من الفتيات تدعى نيلو. تمعّنتْ هوما في ملامحي وقالت: «ألا يبدو ذلك وكأنّه حدث بالأمس فقط، يا إيلي؟».

أطرقتُ برأسي صوب أوراق الشجر الملونة على الأرض.

عوَّضت هوما عن صمتي بالقول: «لقد استغرق الأمر وقتاً طويلاً جدّاً للانتقال إلى هذه المدرسة. كان على أمّي أن تحرِّك

الجبال لتحقّق ذلك. لكنّني التحقتُ بها أخيراً! التنقّل من وسط البلد مسألةٌ صعبة - فالحافلات لا تصل في مواعيدها أبداً. لكنّني كنتُ أعرف أنَّ الأمر يستحقُّ كلّ هذا العناء». ثم سكتت للحظة، وأكملتْ قائلة: «لقد اشتقتُ إليكِ كثيراً، يا إيلي».

نظرتُ إليها. وشخرتْ أُفرين بصوتٍ عالٍ.

لم تتغير مطلقاً عدم قدرة هوما على أن تكون أيَّ شيءٍ بخلاف ذاتها الطيبة على نحوٍ خالص. أمّا أنا، فكنتُ قد أصبحتُ شيئاً - شخصاً - مختلفاً تماماً. لم يكن بمقدوري تعريض موقعي في القمة للخطر. سأكون مهذَّبة مع هوما، لكن لا شيء أكثر من ذلك.

قبل أن أتمكّن من الردّ، مدّت نيلو يدها إلى هوما مصافحة. «أنا نيلو مهران. سعيدةٌ بلقائك».

شبكت هوما يد نيلو بكلتا يديها. «هوما روزبه. تشرّفتُ بلقائك».

- «كنّا على وشك الذهاب إلى مطعم أندريه، تعالي معنا»، قالت نيلو.

- «مطعم أندريه الشهير؟ لطالما أردتُ أن أجربه! وأنا أحمل المال معي!». بدت هوما وكأنّها ستقفز في مكانها من فرط الإثارة.

شقشقت أُفرين ضاحكة بوجهٍ اكتستْ ملامحه الشفقة والذهول.

التفتتْ هوما نحوي. «فقط أرِني الطريق، يا إيلي جون!».

تردَّدت.

- «**بيا**، هيا بنا، يا إيلي جون»، قالت هوما، ثمَّ اقتربتْ وعانقتني.

لفَّتْ صديقتي القديمة ذراعيها حولي وسط باحة المدرسة حيث الجميع يشاهدون، ووقت استراحة الغداء يمرُّ شيئاً فشيئاً، والبطون

تقرقر جوعاً، وأوراق الشجر على الأرض هشّةٌ وسهلة الكسر تحت أقدامنا. عانقتني وكأنَّ سبع سنواتٍ لم تمرّ، وكأنّنا لم نتحوّل إلى شخصين مختلفين تماماً، وكأنَّ الزمن عاد ليلقي بنا في مطبخ والدتها الحجري حيث نستعدُّ للطهي والإبداع واللعب والثرثرة.

ذبتُ بين أحضانها المألوفة التي لا مثيل لها في العالم. خبّأتُ رأسي في كتفها - كانت أطول مني بكثير الآن، لكنّها كانت هي - هوما التي أعرف. الفتاة التي لطالما كانت تعيش ذاتها بالكامل دون أن تعتذر، دون أن تبرر، ودون أن تخجل.

في ساعة الغداء تلك، انطلقنا، أنا ونيلو وسوسن، إلى المطعم مع هوما. ولم يمضِ وقتٌ طويل حتّى تمكنت هوما من جعل نيلو تضحك على نكاتها، وحتى سوسن كانت تبتسم ويبدو عليها الفضول.

مشيتُ خلف هذا الثلاثي، أحاول تشكيل إدراك لمشاعري المختلطة. كانت رؤية صديقتي القديمة أمراً استثنائياً؛ أمراً مذهلاً ومزعجاً ومثيراً في آنٍ معاً. لقد عادت إلى حياتي. كانت تمتلك الكثير من الجرأة والشجاعة لتأتي إلى هنا.

وكانت مقاومتها أمراً مستحيلاً.

12

سبتمبر 1960

ضجَّ مطعم أندريه بالضحك والثرثرة فيما كنا نتدافع للدخول في الطابور. ميَّزتُ وجوه طلاب ليس من مدرستنا فقط، بل من المدارس الأخرى في المنطقة أيضاً.

جلتُ بنظري في أرجاء المطعم بحثاً عن مهرداد، ورغم أنّني لمحتُ بعض زملائه في المدرسة، إلّا أنّني لم أره.

انحنت نيلو للأمام قليلاً، وقرصت وجنتيها ونفشت شعرها خلسة، ثمَّ مالتْ للخلف مجدداً ورفعتْ حاجبيها وهي تنظر إليَّ كما لو أنّها تسألني إن كان شكلها على ما يرام. أومأتُ لها أن "نعم". أما سوسن فوقفتْ بأنفة، إذ خطوبتها للكولونيل حصَّنتها من الحاجة إلى إثارة إعجاب أي تلميذٍ في الثانوية.

وقفتْ هوما غير متأثرة أبداً بحضور الفتيان وكأنَّ تلك الرفقة لم تكن أعلى شأناً من عثّ الغبار. كانت مركِّزة بشدّة على ما هو معروضٌ في القائمة، وتبدو وكأنّها وصلت إلى المدينة الفاضلة.

بينما كنّا نمشي في جادة حافظ ثمّ انعطفنا يميناً إلى شارع شاه رضا، شرحت نيلو لهوما بالتفصيل عن شطائر سلطة أوليفييه، وسندويتشات الـ **كلباس**، وكيف أنَّ الطماطم في مطعم أندريه كانت

حلوةً وطازجة جدّاً، والمخللات عند مستوى الملوحة المثالي. كما وصفت لها خبز الـ **باغيت** الفرنسي، والخيارات المتنوعة لمشروبات الزنجبيل والليمون والصودا. بدتْ هوما مفتونة بكلمات نيلو، وطرحتْ أسئلةً محددة حول الخبز والمايونيز وتكلفة كل شيء.

لم يخطر ببالي أبداً أنّه يمكن للشطائر أن تكون مادّة حديث مثير أو طويل. لكنّنا خضنا في الماضي البعيد - أنا وهوما - نقاشات تفصيلية مماثلة حول الطعام مع والدتها عندما علّمتنا تقطيع البصل وكيف نجعل السكين تتموضع على نحوٍ محدّد بدقّة.

الآن، وبينما كنّا نقف في الصف، رحتُ أستنشق الروائح المألوفة للخبز واللحوم الباردة والسلطات اللذيذة. أحمدُ الله أنَّ أُفرين وصديقاتها لم تأتين؛ ليس كأنَّ أُفرين كانت ستتفضّل بقضاء وقت الغداء معنا، حتى لو كان ذلك يعني الحصول على معلومات مباشرة عن طالبةٍ جديدة.

حين جاء دوري أخيراً لأطلب، صرختُ طالبةً شطيرتيّ سلطة أوليفييه، فبدأ رجلٌ عرفتُه من أوقات سابقة كنتُ أتردّدُ فيها على المطعم بحشو خبز الباغيت خاصتنا بما لذَّ وطاب من الدجاج والبطاطس والجزر والبازلاء والمخللات مع المايونيز بنكهة الليمون. ولم يبخل الرجل أبداً على خبزنا بالإضافات. ووسط هذه الجلبة، سألتني هوما ما إذا كان الرجل دائماً كريماً على هذا النحو، فهززتُ كتفيّ وقلت: «إنّه يعرفني» (بفخرٍ زائدٍ قليلاً، دون ذكر أنّني كنتُ أحصل على الإضافات في العديد من الأماكن بسبب مظهري فحسب). طلبتْ هوما زجاجة من عصير الليمون، وطلبتُ «**كاه-نا-دا**»، وهو اختصارٌ لما كنّا نسمّيه «كا-نا-دا-دي-راي». لم أسمع أنَّ مشروبنا المفضَّل يُنطق «كندا دراي» إلّا بعد أن انتقلتُ إلى مدرستنا

فتاةٌ قادمة من الولايات المتحدة. أخبرتنا هذه الأخيرة أنَّ المشروبَ أمريكيٌّ بينما كنتُ طوال الوقت أعتقد بسذاجة أنَّ هذا المشروب الرائع يخصنا.

دفعنا المال، واستلمنا طعامنا، وتوجّهنا جميعاً إلى حديقةٍ قريبة.

جلستُ مع هوما على أحد المقاعد، وانسحبت نيلو وسوسن بلباقة نحو مقعدٍ آخر على بعد عدة أقدام. التقطتُ شذرات من محادثتهما: كانت سوسن قلقة من أنَّ حفل زفافها لن يكون مدروساً ومحضَّراً بما يكفي لإرضاء عائلة الكولونيل النيِّقة، وأكَّدت لها نيلو أنَّ حفل زفافها على العقيد سيذهل المدينة بأكملها.

فككتُ مع هوما غلاف ورق الشمع عن شطيرتينا بعناية.

- «هل سأستيقظ لأدرك أنَّ شيئاً من هذا لم يحدث بالفعل؟ أشعر بأنّني أعيش أجمل أحلامي الآن»، قالت هوما.

- «أنتِ تعيشين أجمل أحلامك لأنّكِ على وشك تناول شطيرة سلطة أوليفييه من مطعم أندريه». خرجتْ تلك الجملة من فمي بنفس النبرة التي كنتُ سأستخدمها حين كنّا صديقتين. كان يمكن لنا أن نكون جالستين على تلك الحافة قرب المظلة الحمراء والبيضاء لبائع المثلجات في البازار الكبير التي جلسنا عليها حين كنّا في العاشرة من عمرنا، نستأنف حديثاً لم ينقطع إلّا مؤخراً فقط. حتّى لو كانت قد مرت سبع سنوات منذ آخر مرة رأينا فيها بعضنا.

هزَّتْ هوما كتفيها وابتسمتْ بجذل.

وكان هذا كلّ شيء.

ما قصدتُه كان التأكد من أن تعرف أنّني لم أعد **شكم**، الفتاة

النهمة، بعد الآن؛ لم أعد إيلي الفتاة من وسط البلد، بل الملكة إيلاهيه: سيدة شابة راقية في مدرسة رضا شاه كبير الثانوية. لكنّني تخلَّيتُ عن لعب هذا الدور. فكيف يمكن لي الاستمرار في ذلك مع شخصٍ ربّما يعرفني أفضل مما أعرف نفسي حتّى بعد كلِّ هذه السنين من البعد؟

– «أنا فخورةٌ بكِ جدّاً، يا إيلي. أنتِ في أفضل مدرسةٍ ثانوية، وستتقدمين لامتحانات القبول الجامعية في نهاية العام بلا شكّ. ومن الواضح أنَّ الفتيات الأخريات يكنّون لكِ الاحترام».

كانت كلماتها مشبعة باللطف والكياسة، فما كان مني إلا أن طردتُ على نحوٍ واعٍ كلَّ مخاوفي بشأن العين الشريرة. كان ردُّ فعل أمّي حيال المجاملات هو إشعال البخور درءاً للحسد. وكان بوسعي دائماً فعل ذلك لدى عودتي إلى المنزل، تحسّباً لأي احتمالات سيئة.

– «لا أعرف إن كنت سأتقدّم لامتحان القبول في الجامعة»، قلتُ لها. الحقيقة أنّني كنتُ لا أزال حائرة. فربّما سيطلب مهرداد يدي للزواج أوّلاً.

– «لن أخبركِ بمَ يجب عليكِ فعله، لكن من المؤكد أنّه يجدر بك التقدّم لاختبار القبول ومعرفة الجامعة التي ستتمكنين من الالتحاق بها».

– «لقد أخبرتِني لتوِّك ما يجب عليّ فعله».

أخذتْ قضمةً كبيرة من شطيرتها. «أظنُّ أنَّ هذا ما فعلتُه».

– «هناك الكثير من المستجدّات، لكن دعينا نقول فقط إنَّ هناك شخصاً ما. وقد أتزوّج بعد التخرج من الثانوية مباشرةً»، قلتُ لها.

- «**تبريك!**» قالت مهنِّئة، ثمَّ مضغت طعامها بهدوء كما لو أنّني أخبرتُها بأنّني تغلبتُ على نوبة صداع أو وجدتُ قطعة نقود على الأرض.

- «إنّه أمرٌ هام نوعاً ما»، قلتُ لها.

- «متى موعد الزفاف؟».

- «ليس ثمّة زفاف بعد».

- «آه. لكن ثمّة عريس؟».

- «نعم، محتملٌ أنَّ هناك واحد. على أية حال، لمَ نتحدّث عن هذا الأمر، يا هوما؟».

- «أنتِ مَن أثار الأمر. لقد سألتُ عن امتحان الجامعة وحسب. آمل أنّني سأتقدّم إليه. لا يمكنني أن أخبرك كم مرة كان عليَّ أن أقدِّم طلباً للالتحاق بمدرستك الثانوية. لم يكن ثمّة أماكن شاغرة على الإطلاق. لكنّني نجحتُ في ذلك أخيراً، صحيح؟». رفعتْ شطيرة سلطة أوليفييه في الهواء بيد، ومدت الأخرى لتلتقط زجاجة عصير الليمون وتأخذ جرعة كبيرة. «لا أستطيع تصديق ذلك حتى الآن!».

- «لا بدَّ أنَّ عائلتك بأكملها شديدة الفخر بك»، قلتُ لها.

رسمتُ في ذهني صورةً لهم في فناء منزلها بجوار بركة السمك. والدها مرتدياً نظارته يجلس على بساط الـ **كليم**، ووالدتها تصبُّ الشاي من إبريق الخزف الأبيض ذي الوردتين. وسارة بتنّورتها المكشكشة، وعلي رضا ينام مطمئنّاً في مهده الشبيه بالسلّة. ما زال مجرّد التفكير في هذا المشهد يبعث الهدوء في نفسي.

- «أبي في السجن».

كِدتُ أختنق. «ماذا؟».

- «اعتقدتُ أنّكِ تعرفين»، قالت هوما. «أحد الاعتقالات العديدة التي حدثت في بيست و هشت مرداد[1]».

الثامن والعشرين من شهر مرداد، الموافق للتاسع عشر من أغسطس عام 1953، يوم الانقلاب الشهير.

- «والدك... كان هناك؟ لقد بحثتُ عن اسمه في الصحف...».

- «كان في الشوارع أثناء الانقلاب. لم يعد إلى المنزل في تلك الليلة، ولم تكن لدينا أيّ فكرة عن مكانه لأسبوعٍ كامل. ثم عرفنا أنّه في السجن. لقد اعتُقِل الكثير من الشيوعيين يومئذٍ».

- «لكنّه ...؟».

- «لا يزال في السجن»، قالت بنبرة واقعية.

لم أكن أحتاج لطرح المزيد من الأسئلة. كنتُ قد سمعت عن تلك الاعتقالات التي أعقب معظمها جلسات تعذيب لا يمكن تخيلها.

- «أنا آسفةٌ جدّاً، يا هوما».

نظرتْ في عينيّ مباشرةً وقالت: «كان ذلك قبل سبع سنوات، في الصيف الذي أعقب رحيلك».

سرت موجةٌ باردة عبر جسدي بأكمله. كنتُ قد رحلتُ، وبقيتْ هي. كنتُ قد دخلت أرض الحفلات والهدايا والاحتمالات الكبيرة. وكان والدها قد ذهب إلى السجن. «لكنّنا التقينا مرتين في الصيف، أتذكرين؟»، قلتُ لها، وكأنَّ تذكيرها بشيءٍ كهذا سيبرِّئني من إحساسي المفاجئ بالذنب حيال سنوات من انقطاع التواصل.

---

(1) مرداد: الشهر الخامس من التقويم الهجري الشمسي الفارسي - المترجم.

- «بلى، كان لقاؤنا الثاني قبل أسابيع قليلة من اعتقال بابا»، تنهّدتْ بهدوء. «كيف كان لنا أن نعرف في ذلك الوقت إلامَ سيؤول كل شيء؟ لم نكن نعرف إلا القليل جدّاً، أليس كذلك، يا إيلي؟».

كنتُ أتفقُ مع ذلك بالتأكيد. لكمْ كنتُ أحسد تلك العائلة المثالية على تقاربها وفرحها! وكم كنتُ أشعر بالغيرة من واقع أنّه كان لهوما أبٌ حاضرٌ دائماً في حياتها بينما كنتُ أفتقر لهذا الجانب بشدة. «أنا آسفةٌ جدّاً»، قلتُ مجدّداً.

هزَّت هوما كتفيها، وأخذت رشفةً من شرابها. «أتمنى لو بقينا على اتّصال. مرّتْ أشهر طويلة لم أرغب فيها بشيءٍ أكثر من التحدث إليك».

تذكّرتُ الغصّة التي استقرت في حلقي بعد أن انتقلت. وكيف أنّني لم أخلع قلادة الطائر لعدة سنوات. «لقد اشتقتُ إليك أيضاً»، قلتُ لها.

- «كان عليَّ أن أبقى على تواصل، أنا آسفة»، قالت هوما.

- «لا تكوني سخيفة. كان يمكنني أيضاً أن أحاول بجهدٍ أكبر... الأمر أنّه من السهل فقدان التواصل فحسب».

- «على أيّة حال، ها نحن هنا الآن، أليس كذلك؟». تغيَّر صوت هوما، وبات أكثر مرحاً. «ولهذا السبب أشعر وكأنّني في حلم».

جلسنا صامتتين للحظة، ثمَّ سألتُها: «كيف حالك... في غياب والدك. أقصد هل لديكِ أيُّ...».

- «مدخول؟ أوه، لقد بدأتْ والدتي بالعمل. وكذلك أنا. وسارة أيضاً. حتّى علي رضا يكسب بعض الفكّة! نحن نتعايش مع الظرف. تخيط أمي الفساتين والتنانير والملابس للنساء الثريّات.

أفضل خياطةٍ قد ترينها على الإطلاق. يُحتمل أنَّ بعض الملابس التي صنعتها قد شقتْ طريقها إلى شمال المدينة الراقي لترتديها أمّهات صديقاتك هنا. ربّما حتى أمّك! كيف حالها بالمناسبة؟».

تذكرتُ كيف رفضت أمّي فكرة العمل حتى بعد وفاة أبي. وكيف كانت تشعر أنَّ الوظائف للطبقات الدنيا. «إنها بخير»، قلتُ لهوما. «أين تعملين؟».

- «بعد اعتقال أبي، ساعدَنا المطعم الذي كان يعمل فيه كرئيس للندُّل لفترةٍ من الزمن. ثمَّ منحوني وظيفة. أنا أعمل في المطبخ مساءً. أساعد في غسل الأطباق، والتنظيف. حتّى إنّني أطبخ في بعض الأحيان!».

حدَّقتُ في الشطيرة التي في حضني، محاوِلةً استيعاب كل هذه المعلومات. كيف أمكنني نسيان هوما، وعائلتها؟

- «هل تعرفين ماذا تفعل سارة؟»، سألتْ هوما بحماس.

- «ماذا؟».

- «هي تأتي إلى شمال المدينة الراقي للمساعدة في تنظيف المنازل. إنّها واسعة الحيلة جدّاً، يا إيلي. في بعض الأسابيع، تجني أكثر ممّا أجني أنا».

فكّرتُ في منزلنا، وفي الـ **كلفت**، الخادمة التي كانت لدينا - مدبّرة منزل مقيمة تدعى بتول - امرأةٌ تقضي كلَّ لحظة أثناء صحوها في الاهتمام بمنزلنا، وأغراضنا، وبطوننا، وحتّى مشاكلنا. «أنا سعيدةً للغاية لأنَ سارة بخير»، قلتُ لها.

- «هل لا تزال القلادة لديك؟»، سألتْ هوما.

- «في صندوق مجوهراتي».

- «أو- أووه! لديك صندوق مجوهرات الآن؟ انظري إلى حالك، أيّتها السيدة!».

الأمر يكمن في الطريقة التي قالت بها ذلك؛ التحوّل في نبرة صوتها حين قالت «أو- أووه!»، مع اتّساع عينيها وإشراقة وجهها. كانت البادئة بذلك، إذ شخرت ضاحكة على الـ «أو- أووه!» عالية النبرة خاصتها، ثم قهقهتُ بدوري، وسرعان ما كنّا نضحك سوياً بلا سبب. بلا أيِّ سببٍ على الإطلاق.

اللوم يقع على السكر في عصير الليمون و كا-نا-دا الذي ضرب رأسينا.

اللوم يقع على الحاجة إلى عدم التحدّث عن والدها.

اللوم يقع على الراحة التي تأتي عندما يعود شخصٌ كان قد اختفى من حياتك للظهور مجدّداً، مستحضراً ذات السحر وباعثاً الحياة في رابط طال التوق إليه.

ضحكنا حتى تبلّل وجهانا بالدموع، وشطائرنا نصف المأكولة في حضنينا، وزجاجتا المشروب إلى جانبينا. كانت هوما تنظر إليَّ بين الفينة والأخرى وتكرِّر: «أو- أووه!»، لندخل مجدداً في نوبةٍ من الضحك الهستيري غير المبرر على الإطلاق.

اخترقت بهجتُنا البسيطة جدارَ السنوات الضائعة والأخبار الرهيبة التي نقلتها إليَّ للتوّ، وجعلت الأمر يبدو - على عكس كلِّ الاحتمالات - أنَّ العالم لا يزال أمامنا لنقبض عليه.

13

أكتوبر 1960

لم يتسنَّ لهوما الانضمام إلى الحفلات واللقاءات الاجتماعية. كانت تعيش بعيداً جدّاً، وكانت لديها وظيفة بعد المدرسة، ممّا جعلها على مسافةٍ شاسعة منّا. كانت الطالبات والمعلمات على حدٍّ سواء يشرن إلى هوما بـ «فتاة وسط البلد». الترجمة الأكثر حرفية عن الفارسية ستكون «فتاة قاع المدينة». كانت تبرز من ذلك الجانب الآخر، وتحضر الصفوف، ثم تختفي بسلام عائدةً إلى المكان الذي جاءت منه.

لكنّها وفي غضون أسابيع قليلة، كانت قد فازت بقلوب معظم الفتيات في صفِّنا، وبالتأكيد بقلوب المعلّمات أيضاً. كيف كنّ سيتمكّنّ من مقاومة حضورها الطاغي؟ كانت هوما لا تزال صاحبة نزعةٍ مثالية قوية، وقد أدّى اعتقال والدها إلى تعزيز طموحها القانونيّ، إذ كانت أمنيتها الأكثر توهّجاً هي أن تصبح قاضية، وأن توسِّع النطاق الحقوقيّ لجميع الإيرانيين - النساء منهم على وجه الخصوص - بحيث يكون عددٌ أقلُّ منهم مضطّراً لخوض كفاحٍ مرير لتغطية نفقاتهم كما حدث مع والدتها. كان من المستحيل ألّا يُعجب المرء بشجاعة هوما وحماسها المتّقد، حتّى لو كانت في بعض

الأحيان تتكلم بصخب على نحوٍ يسبب لي الصداع.

أخبرتني هوما برؤيتها لما فعله الشاه مذ توطّدتْ سلطته بعد انقلاب العام 1953 الذي أطاح برئيس الوزراء مصدّق. كان سماع طريقتها في التحدّث عن النظام الملكي صادماً. كانت أمّي والعمّ مسعود من المؤيّدين لشرعية الملَكيّة - على الأقلّ ظاهريّاً - وكانا يرتعدان خوفاً من التحدّث ضدَّ الملك. «يعمل الشاه على تعزيز دور الشرطة السرّية»، قالت هوما. «قريباً سوف يكونون في كل مكان، يتجسسون. علينا أن نكون حذرين، ولكن شجعان. علينا أن نقاوم الاستبداد في هذا البلد».

كنتُ أتمتم شيئاً ما بشأن خطط الشاه للإصلاحات وكيف لها أن تكون في صالح النساء.

- «حسنٌ، لكنّنا بحاجة إلى أكثر من مجرّد إصلاحات»، قالت هوما. «لا تنخدعي بالتغييرات المبهرجة، يا إيلي».

كيف كنتُ لأخبر صديقتي القديمة إنّني كنتُ سعيدة بالجلوس مسترخية دون فعل أيّ شيء؟ كنتُ قد عدتُ بقوةٍ إلى عالم الأثرياء الآن. وقد جعلتْ أمّي الأمر يبدو وكأنّه يمكن في أيّة لحظة أن تضيع ثرواتنا هباءً وأن نفقد كلّ شيءٍ كما حدث من قبل. أن أكون ناشطة سياسياً يعني أن أخلَّ بتوازن المركب. وما كنت لأجرؤ على خسارة كل شيء مرةً أخرى.

على النقيض من أيام الطفولة، حين كنّا نجتهد بذات القدر في المدرسة، باتت هوما تعمل بجدٍّ أكبر الآن. ولم يكن ذلك فقط لأنّها كانت تريد (وتحتاج) حياةً مهنية أكثر مني. بل لأنَّ افتتاني بمهرداد كان يستهلكني على نحوٍ متزايد. لم تكن أحلام يقظتي عن الجلوس في مدرجات الجامعة، بل عن تقبيل مهرداد في حفل زفافٍ ضخم

يعقبه وليمةٌ كبيرة وغناءٌ ورقص. وبينما كانت تشرح كيف أنَّ الحصول على أعلى درجةٍ ممكنة في امتحانات القبول الجامعية هو ما سيتيح لنا الالتحاق بأفضل البرامج الأكاديمية، كان كلُّ ما فكرتُ فيه هو حلاوة الزفاف الغامرة، وما إذا كانت أمّي ستفرك مخاريط السكر التقليدية فوق رأسينا في الحفل[1] مع الصلوات والتبريكات أو بقدرٍ كبير من المرح أو بكليهما معاً، كما فكّرتُ في فستاني وكيف سيكون منفوخاً عند الكتفين وضيّقاً عند الخصر ثمّ يصبح أوسع فأوسع نزولاً إلى الساقين، مع مراعاة العدد الدقيق للخرزات اللؤلؤية التي ستزيّن طبقات الأكمام. كنتُ أتخيّلُ اللحظة التي سيقحم فيها مهرداد خنصره المغمَّس بالعسل في فمي لينفجر الحضور بالهتاف للعريس والعروس.

- «هل تعلمين ماذا يحدث لأطفال المرأة إذا تطلّقت، يا إيلي؟»، سألت هوما. «إنّهم يذهبون تلقائيّاً للزوج. هل تعلمين كيف يشرّعون أكداساً من القوانين ضدَّ المرأة؟ هل تعلمين كم من قوانين الميراث تتحيّز للرجال على نحوٍ صارخ؟ هل ترين كيف يجب أن تتغيّر الأمور؟». كانت ترمي هذه الأسئلة ومثيلاتها في وجهي يوماً بعد يوم أثناء استراحة الغداء.

- «هذا فظيع»، كنتُ أتمتم.

- «ليس ثمّة مجالٌ لنا لنتقدم إذا بقينا جالسات على مؤخراتنا وحسب، يا إيلي. وفي حالتك، يبدو التفكير في عدم الالتحاق بالجامعة شيئاً لا يُصدَّق. فالتعليم وسيلتنا الوحيدة لإحداث التغيير. هل كنت تعلمين أنّه قبل خمسين عاماً، دخلتْ ثلاثمئة امرأة مبنى البرلمان وهنَّ يخبِّئن أسلحة تحت شادورهنّ؟».

(1) طقس فارسيٌّ يرمز إلى إضفاء الحلاوة على حياة العروسين - المترجم.

- «لم أكن أعلم بهذا الأمر».

كان الفرق بيني وبين هوما هو أنّها حالما تدرك ضرورة تغيير قانونٍ ما، كانت تركّز جلَّ اهتمامها عليه وتدرسه من جميع الزوايا وتصبح عازمةً على الوصول إلى مكانة تمكِّنها من جعل الإصلاحات تتحقق. في حين أنّني حالما كنتُ أعلم بأمر قانون يحتاج إلى تغيير - حسنٌ، كنتُ آمل أن يتمكّن شخصٌ ما من القيام بذلك؛ شخصٌ مثل هوما.

كنت الآن أعيش في جزءٍ من المدينة حيث كنتُ محاطةً بالإيرانيين الذين تمّت «عصْرنتهم» و«غرْبنتهم». خير مثالٍ على هؤلاء والدا أُفرين. كانا يسافران إلى أوروبا بانتظام، وقد سمحا لأُفرين بإقامة حفلات ضخمة في منزلهما. كانت أمّي والعم مسعود يتخوّفان من استضافتنا لتجمّعٍ كبير مختلط يمكن أن ينعكس عليَّ سلباً: فقد يجعلني أمرٌ كهذا أبدو متفلّتةً، وجامحةً، ومتحرّرةً أكثر من اللازم. لكنَّ والدتي كانت تسمح لي بحضور حفلات أُفرين لأنَّني سأكون على اتّصالٍ بالنخبة الثريّة هناك.

قبل أن ألتقي بمهرداد، أردتُ ببساطة الفوز بكلِّ قطرة دلال في هذه الحفلات. أردتُ أن أستمتع، وأن تكون ملذات العالم كلّها ملك يميني.

أفترض أنَّ هوما أيضاً أرادت العالم ملكاً لها، لكن فقط حتّى تتمكن من صياغته وإعادة تشكيله وجعله مكاناً أفضل لأولئك الأقل حظاً. الآن، بدا الأمر وكأنّها دخلت وأطفأت الموسيقى بينما كنتُ أرقص وسط الغرفة، فتجمّدتْ خطواتي، ويداي اللتان كانتا تغزلان بانسيابية في الهواء تعلَّقتا فوق رأسي، وعلِق وركاي في وضع الثبات، وأصبحتُ فجأةً واعيةً لكلِّ شيءٍ قبيح كنتُ أحاول تجاهله.

بعد ثلاثة أسابيع من عودة هوما إلى حياتي، أقامت أُفرين حفلةً ضخمة ليلة الخميس. وإذ كنتُ شديدة الامتنان لأنّني دعيتُ إليها، فقد خططتُ لملابسي بعنايةٍ فائقة: كنزةٌ مخملية قرمزية اللون، وتنورةٌ قصيرة مذهَّبة. صفَّفتُ شعري بتسريحة خلية نحل مبهرة بحجم بطّيخة. وقبل أن أغادر، تحقّقتُ من كحل عيني في مرآة الحمّام، ووضعتُ مزيداً من الحبر الأسود وصولاً إلى الطرف البعيد لزاويتيّ الجناحين اللذين كنتُ قد رسمتهما. كانت مجلات نجوم السينما العالمية تغطّي سريري، وكنتُ قد درستُ بعناية صور دوريس داي وشيرلي جونز وإليزابيث تايلور. لم أرد بالضرورة أن أكون مثلهنّ، لكنّني أردتُ رومانسيتهنّ التي كانت تظهر على الشاشة. أردتُ أن أقبَّل. أردتُ أن أُحمَل. أردتُ أن يدور بي شريكي في الرقص في أرجاء الغرفة أثناء حفلة أُفرين. وأردتُ لكلِّ هذا أن يحدث مع مهرداد، مهرداد، مهرداد.

أفضل ما في حفلات أُفرين بصدق هو أنَّ مهرداد كان جزءاً من جمهرة مدرسة البرز الثانوية الذين تتمُّ دعوتهم أيضاً. كان مجرّد التفكير فيه يشعرني وكأنَّ ثمّة حياةً لي خارج حياتي المحصورة بدور الفتاة المحمية التي تعيش في كنف أمّي والعمّ مسعود وتكافح لأجل مكانتها في مدرستنا ذات الطابع التنافسي. حين كنتُ أفكر في مهرداد، كان كل شيءٍ آخر يبدو أقلَّ صعوبة، وأكثر قابلية للسيطرة.

كان ثمّة طاولة مشروبات في غرفة معيشة أُفرين تلك الليلة. التقطتُ كأساً من **شربات** الكرز وبدأتُ أرتشف منه، وأجول بنظري في أرجاء الغرفة بحثاً عن مهرداد. كنتُ قد ارتكبتُ في إحدى حفلاتها خطأً تذوّق الكحول لأوّل مرة. لم أهتمَّ كثيراً بمذاق ذلك النبيذ، لذا لم أقدم على تناوله مجدّداً. كانت أُفرين الآن ترتشف

النبيذ بجرأة تامّة وهي تلعب دور المضيفة المثالية. حاولتُ أن أتجاهل الفتية الذين كانوا يحومون حولي. كنتُ فقط أريد رؤية مهرداد. فشققتُ طريقي عبر الغرفة بحثاً عنه.

- «مرحباً، أيتها السيدة الجميلة!».

استدرتُ وسط رائحة التبغ التي عبق بها المكان، فإذا بالكولونيل، خطيب سوسن، يقف خلفي. كان يرتدي زيّه العسكري المزيّن بشرائط تكريمية على كتفيه. لم أعرف يوماً لماذا كان الكولونيل يصرُّ على حضور الحفلات التي كنا نحن الأولاد نذهب إليها. لقد كان في سنِّ آبائنا تقريباً. افترضتُ مع ذلك أنَّ كونه خطيب سوسن قد منحه الحق في الحضور. لكنّني لطالما شعرتُ بعدم الارتياح حين أكون بالقرب منه. كان ثمّة شيءٌ مخيف ومريبٌ بعض الشيء بشأن الكولونيل. لم أفهم ماذا رأت فيه سوسن. كان ثريّاً - أكثر ثراءً من معظم الكولونيلات أو العسكر. فمن الواضح أنّه كان يملك موارده الخاصة من أموال العائلة القديمة. كنتُ أكره التفكير في أنَّ سوسن كانت معه لأجل المال. كان لديها ما يكفي من مال عائلتها الخاص، هذا ما كنتُ أعرفه. ربّما كان الحب. لكن ما الذي جعلها تحبُّ هذا الرجل المثير للأعصاب؟

- «مرحباً، حضرة الكولونيل»، قلتُ له.

- «إيلاهيه خانم»، قال وهو يميل نحوي، وكانت أنفاسه تفوح برائحة التبغ العطنة. «هل تجري هذه الأمسية كما تشتهين؟». ابتسم ابتسامةً عريضة، وكانت أسنانه الضخمة صفراء وبنّية بسبب التدخين.

- «نعم، إنّها كذلك»، تمتمتُ قائلة.

- «من الرائع معرفة ذلك!».

قبل أن يتسنّى للكولونيل المتابعة، هرولتْ سوسن إليّ، فقبّلتْ خدّي وألقت التحيّة، ثمَّ شبكت ذراعها في ذراع الكولونيل بلطف، وقادت خطيبها إلى طاولة المشروبات، وبعيداً عني، فغمرني شعورٌ بالارتياح.

صدحت من مشغل أسطوانات موضوع على حاملٍ جانبيّ أغنية رومانسية لموسيقيٍّ أمريكي كنتُ أعرفه من مجلاتي يدعى نيل سيداكا. وإذ ذاك، دخل مهرداد، ولم يعد لما تبقى من الحفلة أيّة أهمية.

بهتت الأنماط الهندسية المعقدة على سجاد أُفرين باهظ الثمن، واللوحات الفاخرة على الجدران التي لطالما ادَّعتْ أنّها تستحق التواجد في متحف، ونبرة صوتها المتكلفة وهي تتباهى بالملابس التي أحضرتها والدتها من أوروبا؛ ذوى كل ذلك وتلاشى. حتى الكولونيل وسوسن تبخّرا من رأسي.

نظر مهرداد إليَّ حال دخوله من الباب. كان يرتدي قميصاً بلون الفستق وسروالاً داكناً، وكان شعره المموّج مفروقاً من المنتصف كحاله دائماً، ولسببٍ ما كان بخار الماء قد تكاثف على عدستي نظارته من طراز صدفة السلحفاة. جعلتْ رؤية جسده النحيل الممشوق نبضي يتسارع. وعندما التقطَ نظرتي، شعرتُ بساقيَّ تذوبان مثل الآيس كريم. مشى مهرداد إليّ، ثمَّ انحنى قليلاً وأمسكَ بيدي.

كانت تفوح منه رائحة صابون بنكهة الليمون، وكانت لا تزال هناك غشاوةٌ على نظارته حين بدأنا نرقص. كنتُ شبه ملتصقة بصدره، وكان قميصه فستقيّ اللون متغضِّناً وضيّقاً، ولكم رغبتُ في أن أريح خدي عليه، لكنّني كنتُ أعرف أنَّ بقيّة الحفل سيرون أنَّ تلك حركةٌ مبالغٌ فيها كثيراً. انزلقتْ حبّات العرق نزولاً على ظهري

بينما كنّا نرقص. كنتُ متوتّرة لكنّني شعرتُ أيضاً بسلامٍ غريب، لأنّه لم يكن هناك في العالم كلّه رجلٌ مثل هذا الذي رأيتُه لأوّل مرة في مطعم أندريه، وتحدّثتُ إليه في نزهة سيزده بدر، وتعرّفتُ إليه جيداً في تجمّعات وحفلات كهذه حيث يتسنّى للفتية والفتيات في المدارس الثانوية مثلنا الاختلاط. إذا كانت هناك كلمة واحدة لوصف ما شعرتُ به حين أكون مع مهرداد، فلا بدَّ أنّها: متفائلة. لقد جعلني متفائلة ومفعمةً بالأمل.

وبينما كانت الأنغام تخرج من مشغل الأسطوانات وتنساب طافيةً في الهواء، وبينما كان الآخرون من حولنا يتمايلون ويرقصون، وبينما كانت ضحكة أُفرين تجعل الهواء أكثر كثافة، عرفتُ - بطريقةٍ ما - في الأعماق السحيقة من روحي أنّه إذا تسنّى لي البقاء بين ذراعيّ هذا الرجل، إذا تمكّنتُ ببساطة أن أكون معه، فسيكون ثمّة أمل. لن تنتهي فظائع هذا العالم. لكن سيكون ثمّة أملٌ لي. فلطالما جعلني أشعر بأنّه يمكنني أن أكون أكثر وعياً بذاتي وإدراكاً لكياني.

تفحّصتُ زرّ قميصه العلوي، وتنشّقتُ رائحة الليمون التي تفوح منه، وتجرّأتُ، وتجرّأتُ، وتجرّأتُ على أن أحلم بالزواج منه ذات يوم.

كانت هوما الشخص الوحيد الآخر الذي جعلني أشعر بالأمل على هذا النحو. لقد تشاركنا الكثير من الفرح معاً في طفولتنا، وجعلتني أشعر أنّه يمكن للعالم أن يكون ملكاً لنا. لكنّها لطالما أرادت تغيير العالم وتحسينه وإصلاحه وجعله مكاناً عادلاً. معها، شعرتُ بأنّني تنافسية رغماً عني. أحببتُ أن أكون مع هوما لكنّني غالباً ما شعرتُ بأنّني أكثر ضآلة عندما أكون بجوارها، كما لو أنَّه كان عليَّ أن أواكب ذكاءها وقوّتها وشخصيتها الطموحة.

لكنّني إذ رقصتُ مع مهرداد، أدركتُ أنه مع مهرداد شعرتُ بأنّني كنتُ كافية.

عندما انتهت الرقصة، أفلتني وابتسم خجِلاً.

كنتُ أترنّح في طريقي وصولاً إلى طاولة المشروبات، ورأيتُ نجوماً تطفو في الهواء؛ نجوماً صغيرةً جدّاً. وشعرتُ وكأنَّ أطرافي باتت عديمة الوزن.

1

أكتوبر 1960

بعد حوالي الشهر من التحاق هوما بمدرستنا، كنا نجلس متربعتين على العشب تحت شجرةٍ كبيرة في أرض مدرسة رضا شاه كبير، حيث كانت كلٌّ منا تضع علبة غدائها في حضنها.

انبعثت من علبة هوما رائحة البطاطس المقلية إذ شرعتْ في فتح الطبقات المكدّسة فوق بعضها. رأيتُ خبز اللافاش في الطبقة السفلية، والبطاطس في الوسط، وبعض حبات الفجل الذابلة في القسم العلوي. لم أكن واثقة ممّا تحتويه علبتي، فقد كانت مدبرة منزلنا بتول هي التي تملؤها في العادة. وكان من دواعي سروري أن رأيتُ أرزّ الزعفران المنفوش في الأسفل، وكباب اللحم والدجاج في الوسط، بينما وضع الفجل الطازج وحشائش الـ **سابزي** المتنوعة.

غرفتْ هوما بعض البطاطس بلقمة خبز. «إذاً»، قالت لي، «متى سأتعرَّفُ عليه حقاً؟».

– «مَن؟»

– «هذا المهرداد».

تردّدتُ للحظة بفعل المفاجأة. ثمَّ قلت: «لقد قدَّمتكِ إليه! حين كنّا في مطعم أندريه للمرة الثانية».

- «إنَّ إلقاء التحية على صبيٍّ وسط مطعمٍ مزدحم بينما هو محاطٌ بزملائه والانصراف سريعاً لا يعدُّ في الحقيقة لقاءَ شخصٍ. ألا يجب أن أتعرف عليه جيداً؟ أحتاج أن أعرف من يكون في العمق. هل يمكن الوثوق به؟ أنا أعزُّ صديقة لديك في نهاية المطاف».

كانت قد عادت إلى حياتي منذ شهرٍ واحد فقط، وما انفكَّت جرأتها تبهرني. «بالطبع يمكن الوثوق به»، قلتُ لها. «ألا تؤمنين بقدرتي على الحكم؟». وكما لو أنّني ضُبطت على وضع القيادة الآلية، عدَّدتُ لها السمات التي تهمُّ أمّي. «إنّه متعلّم، ومن عائلةٍ عريقة».

- «عريقة!»، شخرتْ هازئة. «لا يخبرني هذا بأيِّ شيء».

- «عائلته هي...».

- «كيف هي روحه؟». رفعتْ عينيها نحوي.

- «إنّها على خير ما يرام. شكراً لك».

- «أحتاج أن أنظر في عينيه - أن أنظر فيهما جيّداً - كي أعرف على وجه اليقين»، قالت لي. «يمكنني أن أحكم على روح الشخص بالكامل من خلال النظر في عينيه».

- «حسنٌ إذاً، كان عليك النظر فيهما عندما التقيتِ به في مطعم أندريه!».

- «كل شيءٍ هناك صاخب وعلى عجل دائماً. أحتاج أن أحظى بالهدوء والوقت كي أحصل على نظرةٍ فاحصة وعميقة». ثمَّ تنهّدتْ قبل أن تكمل قائلة: «كلُّ ما أقوله هو أنَّ بوسعي أن أوفّر عليكِ سنواتٍ من عذاب القلب، يا إيلي. ماذا لو كنتِ مخدوعةً بسحره ومظهره الجميل بينما هو في الواقع الشخص الخطأ لك؟».

تذكَّرتُ رقصتي مع مهرداد في حفلة أُفرين الأخيرة. بعد تلك الرقصة، ظلَّ قريباً من الباب وكأنّه لا يطيق انتظار أن تنتهي تلك الأمسية. «شكراً جزيلاً لكما»، قال لوالديّ أُفرين. «شكراً على هذه الأمسية الرائعة». وابتسم وهو ينظر في اتجاهي. لم تكن لدى هوما أيّة فكرة كم كان مهرداد رائعاً وصادقاً بحقّ. كنتُ واقعةً في حبّه. ولم يكن هذا أمراً عابراً.

- «إلّا إذا كنتِ تخجلين بي»، تابعت هوما. «ولهذا السبب لا تريدينني أن أتعرف إليه».

- «هذا أسخف شيءٍ سمعته»، قلتُ بسرعة. «الأمر فقط أنّك... لا تتواجدين في الحفلات».

- «فهمت»، قالت هوما ببطء.

- «حبّاً بالله يا هوما، أنتِ لا تحبّين أيّاً من تلك "اللقاءات السطحية التافهة" كما تسمّينها، أليس كذلك؟ فأنتِ تكرهين الزيف والمظاهر المادية».

- «به درد من نميخوره. كلُّها أشياء لا تنفعني». جلستْ تأكل في صمتٍ لبضع دقائق، ثمَّ قالت: «لا بأس. سأقابله في حفل زفافك. إذا كنتُ مدعوةً، بطبيعة الحال».

- «بالطبع سوف تكونين مدعوّة. لكن عليه أن يطلب يدي أولاً...».

- «هذا إن سمحتْ والدتكِ بذلك»، قالت مع ابتسامةٍ باهتة.

- «الزواج منه؟ إنّها تعشق مهرداد. الأمر غريبٌ للغاية، إنّها فخورة جدّاً بعائلته...».

- «لا تكوني سخيفة. أقصد إذا سمحت لي والدتك بالتواجد

في حفل زفافك. هي لا تزال بعد كل هذا الوقت تعتقد أنَّ وجودي في حياتك أمرٌ سيء، ألستُ محقّة؟».

كانت الحقيقة أنَّ نفور أمّي من صديقتي قد تعاظم مذ اكتشفتْ أنَّ هوما عادت لتدور في فلكي، واستحال عدم تصديقها لالتحاق هوما بمدرستي ارتياباً. **الأمر كما لو أنَّ تلك الفتاة واقعةٌ في حبّك**، قالت أمي. وبدتْ وهي تقول ذلك مرعوبةً بشكلٍ يبعث على السخرية، وبأسلوبٍ لا يتقنه أحدٌ غير أمّي. كنتُ أعرف العديد من الفتيات في مدرستنا اللواتي كنَّ مفتونات بفتياتٍ أخريات أو بمعلِّماتنا. كنا نسمي افتتان الفتيات ببعضهنّ **باروني**. كانت **البارونيات** يصبحن بسرعة صديقات، وأكثر من ذلك. لكن أمّي كانت مخطئة، إذ لم يتخطَّ إخلاص هوما وعاطفتها نطاق الصداقة أبداً.

- «ألستِ معجبةً بأحد؟»، سألتُ بحذرٍ شديد الآن.

أخذت هوما قضمة من الـ **كوكو** ومضغتْها بهدوء، ثمَّ ابتلعتها وقالت: «لا أحد على الإطلاق».

- «أليس ثمّة فتىً من مدرسة **البرز** الثانوية؟ أو من الحيّ؟».

- «لا أحد. وهذا وضع مريح لأكون صريحة». أطرقتْ برأسها. «إنّه يحررني حتّى أتفرَّغ للدراسة والعمل»، قالت بخفّةٍ بدا أنّها قسرية.

- «مزيدٌ من الوقت للدراسة من أجل امتحانك المحبوب للقبول الجامعي!»، سايرتُها ممازحة.

- «أتعلمين؟»، قالت ونظرتْ في عينيّ مباشرة، «أنا لا أشعر بذلك يا إيلاهيه. أنا... لا أفهمه وحسب. هذا الانجذاب/ الإلهاء الذي تشعرنَ به جميعاً. إنّه... ليس لديّ».

ألم تكون هوما محظوظة لكون هذه البعوضة لم تعضّها؟ كانت هوما أقلّ سطحيةً بكثير منّا نحن فتيات الثانوية، ولم تكن حتى من النوع الذي قد يأتي ويتحدّث عن مظهر الأولاد وكيف يبدون.

أردتُ أن أسألها لمَ كانت ضدَّ الرومانسية. افترضتُ أنَّ طموحها كان السبب: رغبتها الجامحة في الدراسة وأن تجعل من نفسها شيئاً ما. كانوا كلَّ يوم يخبروننا في المدرسة عن الحافة التي كنا نجلس عليها. حافة التحول الثقافي. فقد كنا فتيات في مدرسةٍ ثانوية أُحدِثت بحيث نكون قادراتٍ على النجاح. فتياتٌ من جيل يحظى بموارد تعليمية غير مسبوقة في بلادنا. فتياتٌ سيصبحن الجيل الرائد من النساء المحترفات.

فكّرتُ كيف كانت سوسن تسهر الليل قلقةً بشأن حياتها المستقبلية مع الكولونيل: خططها ومخاوفها بشأن تجربة الليلة الأولى في غرفة النوم وكيف ستتدبّر أمرها أثناء ذلك. فكّرتُ في نيلو وقد أخبرتني كيف أنَّ هذا الصبيّ هومان، الذي التقتْه في الكنيس كان قد كتب لها رسالة حبّ وسلّمها لها عبر دسِّها بين صفحات كتاب. كانت عائلة نيلو يهودية، ولم تستطع أن تصدِّق أنّها عثرت على فتاها في المعبد، من بين كل الأماكن. فكّرتُ في مهرداد، وكيف كانت ترتفع حرارة جسمي وأشعر بدوّارٍ خفيف حين كان يظهر مع أصدقائه في مطعم أندريه، أو في حفلة نهاية أسبوع أو في مكتبتنا الجديدة المفضلة.

لكنَّ النظرة على وجه صديقتي في تلك اللحظة كانت نظرة لا مبالاة. أحنتْ رأسها وركّزتْ في علبة غدائها.

- «لا تقلقي، بمجرّد أن ننتهي من هذه السنة الأخيرة ونتقدّم لامتحانك الجامعي المحبوب...».

أضاء وجهها بالكامل. «هل ستتقدمين له؟».

- «كيف لي ألّا أتقدّم؟ فأنتِ لا تكفين عن الغناء في أذني حول ضرورة أن ألتحق بالجامعة. أضف إلى ذلك، العمّ مسعود وأمّي ليسا ضدَّ الأمر». لم أستطع أن أخبرها أنَّ أمي لم تكن "ضد الأمر" لأنّها باتت على قناعة بأنَّ تلك كانت تذكرتي لتأمين علاقتي بمهرداد، إذ كان هذا الأخير قد أوضح أنّه يشاطر جمهور المتنورين الذي ينتمي إليه آراءهم بشأن الإصرار على الزواج بنساء لديهن مؤهلات وحاصلات على درجات علمية. بدا أنَّ كليهما، مهرداد وهوما، أرادا لي أن أذهب للجامعة.

- «هذا رائعٌ للغاية! آمل أنّكِ كنتِ تجهدين نفسك في الدراسة. فكلما ارتفعت درجاتنا، زادت فرصنا في الالتحاق بجامعة طهران. فكري وحسب، يا إيلي، إنّنا خلال أقل من عام من الآن، يمكننا أن نكون طالبتين هناك!». تغيّرَ مزاجها بالكامل وأشرق وجهها. «أريد من كل قلبي أن أدرس القانون هناك!»، قالت ونظرت إلى السماء وكأنّها تضع أمنيتها عند الله.

- «حسنٌ، وفقاً للمستوى الذي تحضّرين به للاختبار، لن يكون لدى برنامج القانون في أفضل جامعة أي خيار سوى قبولك فيه. أراهن أنّكِ ستحرزين أعلى الدرجات».

- «كم أنتِ لطيفة لقولك ذلك. أنا سعيدةٌ جداً لأنكِّ غيرتِ موقفك أخيراً، يا إيلي! سوف تلتحقين بالجامعة، أنا أعلم ذلك. وسوف أساعدك!».

شعرتُ في أعماقي بإثارةٍ صغيرة حيال مستقبلٍ لم أكن أجرؤ على تخيّله حقاً. «حلم مهرداد هو الدراسة في برنامج العلوم هناك»، قلتُ لها. «ماذا لو قُبلنا نحنَ الثلاثة في جامعة طهران؟ يمكننا أن

نخرج للتنزه سيراً في جبل البرز صباح يوم الجمعة مع زملاء الدراسة. يتنزّه مهرداد مع أصدقائه في الجبال كل يوم جمعة حتى الآن. إذا أصبحنا في الجامعة، يمكننا جميعاً أن نذهب معاً».

- «لحظة، هل سبب رغبتك في الالتحاق بجامعة طهران هو أنَّ مهرداد قد يذهب إلى هناك؟». بدت هوما محبَطةً فجأة.

- «بالطبع، أعني بالطبع لا».

هزّتْ رأسها وقالت: «لا يهمني ما هو دافعك لذلك؛ أنا سعيدة وحسب لكونك صححتِ مسار تفكيرك في هذا الموضوع. سوف نُقبَل جميعاً هناك. إن شاء الله».

- «إن شاء الله»، قلت مردّدة.

بدأت توضِّبُ علبة غدائها، ودون أن ترفع عينيها نحوي سألت بهدوء: «لماذا ترغبين في الزواج؟».

- «هذا سؤالٌ سخيف. لمَ قد لا أريد ذلك؟».

- «أنا لن أتزوج، أبداً».

هوما وأجندتها المتطرفة. هوما التي تتطرق باستمرار إلى كلِّ جانبٍ من جوانب مجتمعنا. «أنتِ سخيفةٌ، يا هوما».

- «انتظري وسترين. أنا لستُ بحاجةٍ إلى زوج. وسبب ذهابي إلى الجامعة ليس كي أتمكّن من الذهاب للتنزّه مع الفتيان».

- «ليس هذا ما قصدتُه».

- «أو كي ألتقي بهم. أو أكون معهم».

- «قلتِ إنّكِ تريدين التعرف على مهرداد»، ذكّرتُها.

تفحّصتني للحظة ثمَّ قالت: «هذا لأنّني أريد التأكد من أنّه مناسبٌ لك».

كان مهرداد قد نجح في اجتياز معايير أمي التمييزية والمتشدّدة.

ومعايير العم مسعود. كلاهما أحبَّه. الجميع أحبَّه. لكن ها هي هوما تصرُّ أن يكون لها رأيٌ في الأمر.

- «هل قلتِ إنّه يذهب للتنزه مع أصدقائه كل يوم جمعة؟»، سألتْ ثمَّ فرقعت أصابعها فجأة. «فلنذهب إذاً! هذه الجمعة. يمكنك أن ترتبي الأمر بحيث نلتقي بهم هناك».

- «هوما، كيف بحق السماء...». لطالما كانت لديها تلك الخطط الغرائبية. «لا يمكننا ذلك».

- «ولمَ لا؟».

- «ما كانت أمي لتسمح لي ببساطة أن أذهب للتنزه في التلال مع ——». منعتُ نفسي من المتابعة. «ألا تعملين يوم الجمعة؟».

- «يمكنني أن أجد من يغطي عني. هل تعرفين أنّني لطالما أردتُ التنزه هناك، يا إيلي؟».

لم أكن أعرف ذلك.

- «نعم، لكن لا يمكنني ببساطة أن أقول إنّني خارجةٌ للتنزه مع...».

- «معي؟».

- «ليس هذا ما قصدتُه»، قلتُ بشيءٍ من الإحساس بالذنب.

- «أخبريها أنكِ ذاهبةٌ مع سوسن أو نيلو، أو مع كليهما!».

ومضتْ في رأسي صورة هوما وهي تقنعني بالتغيب عن المدرسة للذهاب إلى البازار الكبير.

- «هواءٌ نقيّ!»، قالت هوما وكأنَّ دوّاراً أصابها. «سأستقلُّ حافلة الصباحِ الأولى. سنبدأ النهار من أوّله. لديَّ بعض المال المدخَر. سأبذِّره بكل سرور على وجبة إفطار في أحد تلك المقاهي

في دربند[1] على سفح جبل البرز. لقد سمعتُ الكثير عنها». ثمَّ نهضت مفعمةً بطاقةٍ جديدة عنوانها الإثارة والحماس. كان هذا مهمّاً لها؛ أن تلتقي بمهرداد، أن تكون جزءاً من حياتي، أن تصعد التلّ، وأن تعطي رأيها.

كانت لدى هوما خططٌ دائماً. ولطالما بدت وكأنّها تفكر في الأمر الكبير التالي. كان ذلك مذهلاً بحقّ. فقد كان والدها في السجن، ولم يكن لديهم أيّ شيء. لكنّها دائماً ما بدت متفائلة.

كان ابتهاجها معدياً. وكانت أكثر شخصٍ عرفته في حياتي لديه مثل هذه القدرة على الإقناع.

- «بالتأكيد، يا هوما»، قلتُ لها. «سنخرج للتنزّه. يمكنكِ لقاء مهرداد هناك. يمكنك حتى التعرف ببعض أصدقائه».

- «أخبرتكِ بأنّني لستُ مهتمة بلقاء الفتيان».

- «حسنٌ، رغم أنني ما زلتُ أجد بعض الصعوبة في تصديق ذلك»، قلتُ لها. «لكنكِ لا تعرفين أبداً ما الذي قد يحدث في تلك التلال».

قلتُ لها ذلك، حتّى إنّني غمزتُ بعيني.

---

(1) منطقة سياحية تقع أقصى شمال طهران، متربعة على أحد سفوح جبل البرز - المترجم.

15

أكتوبر 1960

لم يكن الطقس في معظم الأحيان مثالياً كما كان في صباح يوم الجمعة حين التقينا لنخرج للتنزّه. وصلتْ هوما في الموعد المحدد إلى سفح جبل البرز شمال المدينة. وإذ تعانقنا وحيّتْ إحدانا الأخرى، كانت مجموعات المتنزهين في كل مكانٍ من حولنا، بعضٌ منهم انحنى ليشدَّ رباط حذائه، وآخرون كانوا يمارسون تمارين التمدّد، ويستنشقون بأنفاسٍ عميقة هواء الصباح المنعش.

كنتُ قد ذهبتُ للتنزه في **دربند** بضع مرات فقط من قبل، وكانت كلها مع أمي والعم مسعود. كانت لدى أمّي وجهة نظر ارتيابية حيال الإفراط في ممارسة الرياضة بالنسبة للشابات، إذ شعرتْ أنَّ ذلك قد يتسبب في ارتخاء مناطق لا يفترض بها أن تكون رخوة. ولهذا السبب، كانت أيضاً تقلق من أن يخطر ببالي ذات يوم أن أركب الدراجة أو أمارس الكثير من التمارين القاسية، أو أؤدي - لا سمح الله - تمرين فتح الحوض. لكنّني تمكنتُ في ذلك اليوم من الحصول على إذنها لأنّني كذبتُ عليها. فقد أخبرتها أنني سأخرج للتنزه مع سوسن ونيلو. ولو ألمحتُ أنّني كنت «سأقابل» مهرداد أعلى الجبل، أشكُّ في أنَّ أمّي كانت ستمانع ذلك حقاً، إيماناً منها

بأنَّ كل لقاء كان سيجعلني أقرب للفوز بعرض الزواج المنتظَر.

لطَّف الهواء النقيّ والمناظر الطبيعية الشاسعة إحساسي بالذنب إلى حدٍّ ما. وبفضل هوما وجرأتها، كنا على وشك أن نبدأ مغامرتنا.

ابتلعتْ هوما الهواء ابتلاعاً. «اشربيه، يا إيلي. هذا ما تدور حوله الحياة. هذا الهواء. هل يمكنكِ الشعور به؟ استنشقيه إلى أن يملأ رئتيكِ بالكامل. وكلّما صعدنا هذا الجبل، سيصبح كلُّ شيءٍ أفضل فأفضل».

- «كيف تعرفين ذلك؟».

- «لأنَّه»، سكتتْ ثمَّ قالت: «يجب أن يكون كذلك ببساطة».

أخذتُ أعمق نفسٍ استطعتُ أخذه.

- «لقد أخبرتِه، أليس كذلك؟ إنّه قادم؟»، سألتْ هوما وكأنّها تراجع خطّة سطوٍ على بنك.

- «نعم، سوف يلتقي بنا في المقهى. لن يكون من المناسب السير معه ومع أصدقائه الأربعة على طول الطريق صعوداً».

- «آه».

- «إنهم جميعاً لطيفون حقاً».

- «لستُ مهتمّةً بزمرة أصدقائه. أريد أن أقابله وحسب».

- «حسنٌ، إنّه يتنزه معهم وهذا أقل إثارةً للريبة من مقابلته بمفرده».

ابتسمتْ هوما وقالت: «بالطبع، فنحن لسنا هذا النوع من الفتيات لا سمح الله، أليس كذلك يا إيلي؟ لكن لا بأس بالتسلل معه إلى مقعدٍ في حديقة قريبة من مطعم أندريه والرقص معه في حفلات أُفرين الفاسقة، صحيح؟».

أدركتُ حجم النفاق الكامن في «قواعدي» المتعلّقة بالمغازلة. أو ربّما كانت تلك قواعد أمّي.

- «لا تدفعي أيّاً من أصدقائه نحوي»، قالت هوما.

فهززتُ كتفيّ.

- «على الأقل سيكون ثمّة خصوصية في المقهى»، قالت هوما. «أتعلمين؟ غالباً ما يجتمع أعضاء حزب **توده**(1) الشيوعي هناك للتحدّث. هذه الأماكن أكثر أماناً. أكثر عزلة، وبعيدة عن أعين الجواسيس والشرطة السرية».

- «هوما، لا حديث في السياسة اليوم، أرجوك. سنتنزَّه، وسنلتقي بمهرداد في المقهى. يمكنك أن تأخذي وقتك وأنتِ تنظرين في عينيه لتتأكدي من أنّه ليس الشيطان بعينه، ومن ثمَّ سنهبط الجبل عائدتَين، اتفقنا؟».

- «نعم، حضرة الرقيب»، قالت وهي تؤدي التحية العسكرية. ثمَّ لوَّحت بذراعيها وحركت ساقيها وراوحت في المكان للحظة وقالت: «ما الذي ننتظره؟ دعينا نذهب!».

فانطلقنا معاً.

كانت وجنتاها ورديتين بفعل برودة الصباح، وكانت قد رفعت شعرها بعقدة ذيل حصان عالية ربطتها بواسطة وشاح فيروزيّ منقّطٍ بالأسود. كان وشاحاً من النوع الذي قد يبدو باهتاً أو رخيصاً على أيِّ شخصٍ آخر، لكنّه بدا أنيقاً وغير تقليدي في حالة هوما. كان معطفها مربوطاً بإحكام في وسطه، ما جعل خصرها يبدو نحيلاً

(1) حزب شيوعي تأسس بدعم من الاتحاد السوفييتي في العام 1941، كان ينشط سراً بسبب حظره قانوناً من الحكومة الإيرانية - المترجم.

بصورةٍ إيجابية. كنّا في المدرسة وفي معظم فترات حياتنا اليومية نرتدي القمصان والتنانير، لكننا كنا اليوم نرتدي بنطالين ضيّقين ونحمل حقيبتين خفيفتين بأحزمة على الكتفين. وبينما كنا نصعد التل، شعرتُ مجدداً بسهولة الحركة التي توفرها السراويل، وفهمتُ لماذا كانت القرويّات اللاتي يعملن في الحقول يلبسن السراويل تحت أثوابهنّ.

في البداية، كان المسار في أغلبه مستوياً ومغطّىً بأوراق الشجر البرتقالية والصفراء والحمراء الفاتحة. كانت الألوان تحت أقدامنا مسكِّرة. لكن لم يمضِ وقتٌ طويل حتى أصبح المسار فجأةً شديد الانحدار، فصار قلبي يخفق بسرعة، ليس فقط بسبب التسلق صعوداً، بل أيضاً بسبب لقائي المرتقب بمهرداد. **قابلني هناك تمام الساعة الثامنة والنصف**، هذا ما قلتُه له بينما كنا نجلس على مقعد الحديقة، ونفتح أغلفة شطائر أندريه لنتناول غداءنا سريعاً قبل أن ينطلق مجدداً مع أصدقائه. **سوف أحضر صديقتي هوما. هي تريد أن تقابلك.**

نظرتُ إلى صديقتي. كان النسيم قد رفع أطراف الوشاح الذي ربطت به عقدة ذيل الحصان، وكانت ساقاها الطويلتان تأخذان خطوات واسعة أعلى التل بينما هي تتنفس بعمق. لم يبدُ عليها أبداً أنّها تقلقُ بشأن العواقب. وكنتُ أحسدها على ذلك.

- «لِمَ لا نقوم بهذا كلَّ يومٍ، يا إيلي. من الرائع التواجد هنا. هل ثمّة معشرٌ من الناس يستيقظون باكراً ويستنشقون هذا الهواء ويشعرون بقلوبهم وهي تنبض فحسب، ويتنعَّمون بكلٍّ...». سكتت للحظة واستغرقت في هيئة الأشجار، وفي الأوراق بلون النيران على الأرض، وفي انحدار التل، ثمَّ أكملتْ: «بكلِّ هذا».

- «حسنٌ، إنّهم يفعلون ذلك يوم الجمعة، أولئك الذين يستطيعون»، قلتُ لها. «فالأمر ليس بهذه السهولة خلال أيام الأسبوع عندما يكون هناك عملٌ ومدرسة».

- «عِديني حين نصبح في الجامعة بأنّنا سنقوم بهذا كل أسبوع، يا إيلي. عِديني بأنّنا لن نتعفّن في الداخل مع الكتب والفروض المنزلية. نحتاج إلى أن نقوم بهذا النشاط قدر الإمكان».

- «أنتِ مَن سخر من اقتراحي بأنَّ التنزّه في الجبال هو أحد المكاسب الجانبية لكوننا في الجامعة! أنتِ المهووسة بالكتب والواجبات هذه الأيام، يا هوما. ليس أنا».

توقفتْ عن المشي، أمالت رأسها للخلف، وأغمضتْ عينيها، ثمَّ أخذتْ نفَساً عميقاً. انتظرتُها أن تزفر ذلك النفَس. في النهاية، أطلقتْ زفيراً بطيئاً، طويلاً وعميقاً. «لا تسمحي لي بالتورط في خططي مجدّداً، يا إيلي، فقد أحببتُ هذا المكان! أريد أن أكون في الجبال!».

ضحكتُ. «نعم بالطبع، الخانم المحامية والقاضية التي ستغيّر كل القوانين السيئة بمفردها! التي ستغيّر هذا البلد».

- «أنا سعيدةٌ لأنّنا هنا الآن، هذا كلُّ ما أقوله».

استأنفنا المسير.

- «أعلم أنّكِ تعملين أيّام الجمعة. سعيدةٌ لأنّكِ تمكّنتِ من الابتعاد عن العمل اليوم»، قلتُ لها.

ظلّتْ صامتةً للحظة، ثمَّ قالت: «ليس كلَّ أيام الجمعة. فأنا أقصدُ المسجد في بعض الأحيان».

- «أنتِ؟ تذهبين إلى المسجد؟».

- «أحبُّ الذهاب إلى المسجد الكبير وسط البلد بالقرب من

البازار الكبير. وحين أشعر بالإحباط أو تنتابني رغبةٌ في الابتعاد عن كلِّ شيء، أذهبُ إلى فناء البازار وأجلس على تلك الحافة».

- «حيث جلسنا وأكلنا شطائر المثلجات حين كنا طفلتَين؟».

- «تلك هي».

- «ماذا عن... والدك...»، بدأتُ بالقول. «أنتِ لا تتطرقين إلى الأمر أبداً، يا هوما. يمكنك التحدث عنه معي».

- «أبي لا يؤمن بالله حقّاً. إنّه شيوعيٌّ حقيقي. لكن منذ أن اعتُقل... لا أعرف. أعتقد أنّه يمكنكِ القول إنَّ أمّي اهتدت للدين من جديد».

- «هل أمكِ تصلي؟».

- «خمس مراتٍ في اليوم».

- «وأنتِ؟».

نظرتْ للأسفل نحو يديها. «لا، أنا شيوعية، أتذكرين؟».

كنا مسلمتين، ولسنا يهوديتين كعائلة نيلو أو مسيحيتين كبعض الفتيات الأرمنيات في مدرستنا. لكنَّ عائلتي كانت علمانية ولم تكن تمارس الشعائر الدينية. ولطالما افترضتُ أنَّ عائلة هوما كانت علمانيةً أيضاً.

- «لم أكن أعلم أنَّ والدتكِ متديّنة»، قلتُ لهوما. تذكرتُ رؤيتي لوالدتها مرتديةً الشادور المنزليّ الخفيف، لكنَّ ذلك لم يكن علامةً على الالتزام الديني الكامل.

- «ها قد عرفتِ»، قالت هوما.

في تلك البرهة من الزمن، كانت صديقتي التي اعتقدتُ أنّني أعرفها بالكامل - من الداخل والخارج - غريبةً عني تماماً. صحيحٌ أنّنا كنّا قد استأنفنا صداقتنا من حيث توقَّفتْ، لكن كانت هناك

تغييرات جسيمة حدثت خلال سنوات انفصالنا ما انفكتْ تطفو على السطح.

وقبل أن يتسنّى لي طرح المزيد من الأسئلة، زقزق سربٌ من الطيور فوق رأسينا، فصرختْ هوما: «**ساكت، ساكت!** سكوت جميعاً، سكوت!». جعلني تقمّصها اللحظي لشخصية السيدة روشنفكر أغرق في الضحك.

إذ تسلقنا المنحدر صعوداً، تراجع إيقاعنا أمام متنزهين أكثر لياقة وسرعة. لمس الرجال قبعاتهم لدى مرورهم بنا على الطريق، وحيّتنا النساء بابتساماتٍ سريعة.

أخيراً، وصلنا إلى سهلٍ واسع ومنبسط. وقفنا نلتقط أنفاسنا في صمت. ومن هذه الإطلالة مترامية الأطراف، ملأنا أعيننا بمنظر أسطح منازل طهران المتكتلة بصورةٍ عنقودية، والطرق والجادات الواسعة، والأزقة المتعرجة، وأبنية الطوب الحديثة. كان إحساساً محرِّراً أن ترى مدينةً مبعثرة على ذلك النحو؛ مدينة كاملة، بكامل مجدها وفوضاها وارتباكها وإمكاناتها.

مالت هوما نحوي ووضعتْ ذراعها حول كتفي. «هل كنتِ تعلمين؟»، قالت لي، «**دنيا ماليه ماست.** أنَّ العالم ملكنا».

وقفنا هناك، وكلٌّ منا تسند رأسها على رأس الأخرى. كان ما قالته سخيفاً، فقد كان العالم شاسعاً ومحطَّماً ومثقلاً بالصراعات. كان مكاناً فوضوياً وتعود ملكيته للرجال. وليس لنا.

تطاير وشاح هوما الفيروزيّ المنقّط ورفرف فوق شعري. «**دنيا ماليه ماست**»، كررتْ هوما.

ربما كان تدفق الهرمونات الكيميائية في دماغي قد ازداد بسبب جهد التسلق، لكننا إذ وقفنا هناك، عند تلك الإطلالة حيث شعرنا

أنه يمكننا لمس السماء بأيدينا، والشوارع تبدو كخطوط رسمها طفلٌ على الأرض بقلم تلوين، والمباني التي تبدو شاهقةً في العادة وقد تحوّلتْ إلى كتلٍ صغيرة، بدا - ولو في تلك اللحظة فقط - أنَّ هوما ربّما كانت على حق.

- «**شايد**، ربّما»، قلتُ لها.

لوّح لنا رجلٌ مسنّ وقال: «هل ترغبان في صورة؟».

بدا على هوما الارتباك.

- «هذه تسمى كاميرات بولارويد»، قلتُ لها. «إنّها رائجةٌ جدّاً الآن. وهي تلفظ صورتك على الفور».

- «إذا كان الأمر كذلك، فنعم، شكراً لك!»، قالت هوما للرجل.

أخذنا وضعية التصوير وابتسمنا، ثم راقبنا في عجب بينما كانت الورقة المربعة الفارغة تتشبّع شيئاً فشيئاً بصورتنا.

- «شكراً لك»، قلتُ له. أخذتُ الصورة ودسستُها بعناية بين طيات المنديل المكويّ حديثاً داخل حقيبة يدي. أومأ الرجل لنا ومضى في طريقه.

- «انظري»، استدارت هوما وهي تشير خلفنا.

استدرتُ بدوري.

مغروزاً في خاصرة الجبل، وكأنّه نُحِتَ داخل الشقوق الصخرية، كان ثمّة هيكلٌ من خشبٍ وحجارة. كانت اللافتة أعلاه تشير إلى: **مقهى جبل البرز**.

نظرتُ إلى ساعتي، كنا متأخرتين عشر دقائق.

لبضع ثوانٍ إضافية، ملأنا أعيننا بذلك المنظر المهيب. تشرّبنا مشهد المدينة في الأسفل بكلِّ حواسنا وليس بنا رغبة في ترك تلك

الإطلالة - ذلك الموقع-الجائزة التي تُربح بصعوبةٍ بالغة، وتتلاشى بسهولة.

في النهاية، مشينا بذراعين متشابكتين إلى مدخل المقهى.

عاد قلبي ليخفق بذات السرعة الجنونية التي خفق بها أثناء التسلق الشاق.

كان مهرداد وأصدقاؤه ينتظرون في الداخل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

16

أكتوبر 1960

دخلنا المقهى ضاحكتين، مفعمتين بالإثارة. لكن لدى التفكير في رؤية الأولاد، شعرتُ بالقلق من أنَّ أنفي كان يسيل، وشعري يبدو أشعثَ بفعل الرياح الجبلية، ووجهي قد أصبح مبقَّعاً على نحوٍ سيّء بسبب الإجهاد. نظرتُ إلى هوما، فوجدتُ أنّها احتفظت بالمكانة المهيبة لشخصٍ سوف يمتلك العالم.

داخل المقهى، رُتِّبت المقاعد الخشبية الواطئة المغطاة بالسجاد الفارسي بجوار الطاولات المغطاة بقماش **بيزلي** المزركش. عبقَ الهواء برائحة شاي الـ **برغموت** ودخان الشيشة والبصل المقليّ. وعززتْ نافذةٌ كبيرة مفتوحة في الأمام من اتّساع المشهد.

استقبلنا نادلٌ في سترةٍ سوداء فوق قميص أبيض وسروالٍ أبيض فضفاض، وأشار إلى طاولة في الخلف.

- «إيلي!».

التفتْتُ على وقع صوته إذ نادى باسمي. ومن زاويةٍ عند المدخل - كيف لم نره؟ - لوَّحَ مهرداد من على مقعده المغطى بالسجاد. كان برفقة صبيٍّ آخر لم أتعرّف عليه.

عندما لوّحتُ له، قفز مهرداد من مقعده. كان يلبس قميصاً

سماوياً وبنطالاً من قماش الكاكي. لوَّحَ لي بدوره مشجعاً إياي على الاقتراب.

كان الفتى الذي برفقته يكافح كي يتمكن من النهوض، وبدا غير مرتاحٍ بالمرة في ملابسه الضيقة جداً. كان - بشعره الأسود الذي يغطي أعلى عينيه - أشبه بكلبٍ ضالّ من فصيلة كلب الراعي. وإذ نجح أخيراً في الوقوف منتصباً احتراماً لنا، أخذ يتفحّصُ قدميه.

أخبرتْ هوما النادل ببرود أنّنا سنجلس مع «الولدين الجالسين في الزاوية»، فاحمرَّتْ وجنتاي خجلاً. نظر النادل إلينا بلا مبالاة وقال: «كما تشاءان»، ثمَّ انصرف مبتعداً.

كانت ابتسامة مهرداد تصبح أعرض فأعرض مع اقترابنا من الطاولة. مجرد رؤيته بعثت في أوصالي الدفء، وتسببت لرأسي بدوار، ولم أملك بالمقابل إلّا أن أرسم على شفتيّ ما كان على الأرجح ابتسامتي البلهاء تلك مجدّداً.

- «تفضلا بالجلوس، رجاءً»، قلتُ لهما، فقد كان مهرداد ورفيقه لا يزالان واقفين.

جلسنا جميعاً، وأخذ مهرداد زمام المبادرة، وبدأ يتحدّث بسرعة. كان هو أيضاً يبدو متوتراً؛ أمكنني رؤية ذلك من طريقته في الابتسام وتحريك رأسه. قدّم لنا صديقه باسم عبدول، وهو زميلٌ له في مدرسة البرز الثانوية.

قلنا - أنا وهوما - إنّنا تشرفنا بلقاء عبدول، ثمَّ أجابت هوما على أسئلة مهرداد حول رحلة المسير التي خضناها، واصفةً ما رأيناه من طيور والأنماط المتلونة من أوراق الشجر، والانعطافات في المسار، وذلك الهواء، ذلك الهواء، ذلك الهواء.

لماذا أحضر مهرداد صديقاً واحداً فقط؟ كان في العادة يتنزه ضمن مجموعة من أربعة أصدقاء. مَن كان هذا الفتى الخجول الذي لم أسمع به ولم أقابله من قبل؛ هذا الذي جلس صامتاً متجهّماً بينما كان مهرداد يتحدّث بكل تهذيب؟ هل كانت تلك فكرة مهرداد ليعرّف هوما عليه؟

عاد النادل إلى طاولتنا وسأل ماذا نريد أن نطلب. سمّى مهرداد بعض الأشياء المفضّلة التي يقدمها المقهى، ونظر إلينا في انتظار بعض الدعم، فأومأتُ بلهفة بينما أبقى عبدول عينيه مركزتين على نمط الزركشة في قماش مفرش المائدة.

- «هل يبدو كل شيءٍ جيداً بالنسبة لك، عبدول **جان؟**»، حثّه مهرداد على قول شيءٍ ما.

انتفض رأس عبدول إلى الأعلى، واهتز قليلاً ليشير بنعم. ثمَّ نظر باتجاه هوما، فاحمرَّ وجهه وأخذ يعبث بأصابعه، وعاد سريعاً للتركيز في الأنماط على مفرش المائدة. تجاهلته هوما في العموم، وكان من الصعب ألّا تشعر بالأسف عليه.

لم تقضي هوما وقتاً في قراءة مجلّات الأفلام والتنهّد لرؤية صور ممثّلي الأفلام الأجنبية كما كنتُ أفعل، لكن لو كنا سنتحدث بشيفرتنا الخاصة، كنتُ سأميل نحوها وأقول: ليس الأمر وكأنني كنتُ أتوقع أن نلتقي بكاري غرانت، لكنني لم أتوقع هذا الشخص بالضبط. وكانت بأسلوب هوما الفريد من نوعه، ستنظر في عينيّ وتسألني مَن يكون كاري غرانت هذا.

- «عبدول صديقٌ عزيز»، قال مهرداد وكأنه يستجيب لمحادثتي المتخيلة. «إنّه جديدٌ في البُرز؛ المدرسة وليس الجبل!».

إذ تلاعبَ بالكلمات على هذا النحو، ضحكتُ بقوةٍ بعض الشيء في محاولةٍ لجعل مهرداد يشعر بالارتياح، ليس فقط حيال توريته اللفظية، بل أيضاً حيال اختياره لرفيقه.

حدّقتْ هوما في مهرداد، ولم تمنَّ على عبدول حتى بنظرةٍ صغيرة.

لم يضحك عبدول أبداً.

تنحنح مهرداد، وأكمل قائلاً: «كما كنتُ أقول، عبدول جديدٌ في مدرستنا، كحال هوما **جان** تماماً على ما أعتقد، بحسب ما أخبرتني إيلي... أنتِ أيضاً جديدة في مدرسة رضا شاه كبير؟ حسنٌ، وأنتما الاثنان تنحدران من... وسط البلد»، سعل مهرداد مع نهاية الجملة الأخيرة.

انكمشتُ على نفسي حين قال «وسط البلد». هل عثر مهرداد على طالبٍ زميل «فقير» كي يحضره إلى اللقاء مع هوما، اعتقاداً منه أنّه لن يكون مناسباً لأصدقائه من النخبة الخروج في هذه النزهة اليوم؟ لا بدَّ أنّني بدوتُ محبطةً من مهرداد لأنَّ هوما مالت نحوي وقالت: «**خوبي**؟ هل أنتِ بخير؟».

- «نعم، أنا بخير، شكراً هوما».

ثمَّ، وبصوتٍ عالٍ على نحوٍ واضح، قلت: «كنتُ أتساءل ما إذا تسنّى لكِ الوقت للنظر في عينيّ مهرداد؟». ها قد قلتُها؛ ماذا يهمّني؟

نظر مهرداد إليّ وقد بدتْ عليه الحيرة، لكن وقبل أن تتمكن هوما أو أي أحدٍ آخر من الردّ، وصل النادل ومعه صينية كبيرة مدوَّرة.

فوق الصينية، كان ثمّة أكواب صغيرة رفيعة الخصر من الشاي

الداكن، ووعاءٌ من مكعبات السكر، وطبقٌ من التمر والجوز، وآخر يحتوي عجّةً ساخنة: بيضٌ مطبوخ في صلصلةٍ غنية من الطماطم والبصل المحمَّرَين. وخلال لحظة، انقلب حال مجموعتنا، وأخذتنا الحماسة جميعاً.

وضع النادل الطعام على الطاولة، وقبل أن أدرك أنّه غادر، كان قد عاد ومعه صينيّةٌ أخرى عليها خبز سنگك الطازج الساخن، وطبقٌ صغير من جبن الفيتا، ومربّى الكرز الحامض، ومربى السفرجل، وطبقٌ من الخيار المقطَّع.

- «أعتقد أنّني في جنّات النعيم»، قالت هوما. وكنتُ متّفقةً معها من كلِّ قلبي.

بدا عبدول منتعشاً وأكثر إيجابية بعد أن تناول الجبن الملفوف في الخبز الطازج، ومصَّ مكعباً من السكر وهو يرتشف الشاي. فقد ابتسم ومازح مهرداد قليلاً، وشارَكنا الحديث عن المدرسة وامتحان القبول نهاية العام. قال عبدول إنّه سيتقدّم أيضاً للامتحان، وأنّه يرغب في دراسة القانون. كان صوته خشناً، لكنّه رصين.

- «هل هذا صحيح؟»، سألتُ عبدول. لم ينفكّ الشاي والفطور يرفعان حالتي المزاجية بصورة ملحوظة. ربّما لم يكن هذا الصبيّ بذلك السوء. كان شخصاً جدّياً بالتأكيد. وكان ينبغي به أن يكون مجتهداً ليتمكن من الالتحاق بمدرسة البرز. «هذا رائعٌ جدّاً، لأنَّ هوما تريد أن تدرس القانون أيضاً!»، أعلنتُ ذلك كما لو أنّني أستحقُّ أن يُنسب إليَّ بعض الفضل في طموحات صديقتي.

رفعتْ هوما عينيها وفمها ممتلئٌ بالطعام. ابتلعتْ ما في فمها، ونظرتْ إليَّ، ثمَّ إلى عبدول، ومن ثمَّ إلى مهرداد. وكما لو أنَّ وحياً قد نزل عليها، التقطت صحن مربى السفرجل وتنشَّقتْه من مسافةٍ قريبةٍ

جداً، بحيث لامس بعض المربى أرنبة أنفها. «يمكنني القول إنَّ هذا المربّى مصنوعٌ من حبات سفرجل طازجة، وناضجةٍ تماماً. يمكنني معرفة ذلك ببساطة. شمِّيه، يا إيلي»، قالت ودفعت صحن المربى أسفل أنفي.

تراجعتُ وحاولتُ تجنّب أن يلمس المربّى أنفي، ثمَّ أبعدتُ يدها وأنا أضحك بعصبية، وأخبرها بأنّني أتفق معها.

مضتْ هوما قدماً، وشرعتْ تشمُّ مربّى الكرز الحامض. قالت إن الكرز الذي تحضّره والدتها هو الأفضل في العالم. وبينما كانت تتحدث، حشت فمها بالخبز، وكسّرتْ قطع الجبن بأصابعها - دون أن تستخدم السكين ذا المقبض الأصفر الذي كان النادل قد وضعه على الصينية. ثم أخذتْ تحشر أصابعها في فمها وتلعق كل واحدٍ منها مصدِرةً صوتاً مزعجاً. بعد ذلك، التقطت كوب الشاي، واجترعتْه بطريقة لا تمتُّ للياقة بصلة، ثمَّ أعلنت أن شاي الـ **برغموت** المستخدم هنا كان جيداً جداً. وإذ التقطتْ مكعب سكّر من الوعاء، كان ذلك بذات الأصابع اللزجة التي مصَّتْها للتوّ. ولم تلتقط مكعّباً وحسب، بل نبشت الوعاء بحثاً عن مكعب السكر المثالي.

رأيتُ مهرداد وقد بدا عليه الإجفال، بينما كان عبدول يتابع باهتمام كل حركةٍ من حركاتها.

واصلتْ هوما الحديث عن مطبخ والدتها، وتحضير المواد المعدَّة للحفظ. كانت بقايا الطعام تسقط من فمها على مفرش المائدة وبقيّة الأطباق، ثمَّ أنهت مونولوجها بالقول إنّها كانت تلقبني بـ «**شكم**» عندما كنا صغيرتين، ولكزتني في بطني - بقوة - بإصبعها، وانفجرتْ ضاحكة حتّى إنَّ بعض كسرات الخبز تهاطلت فوق طاولتنا.

حدّقَ مهرداد في هوما بعينين واسعتين وذاهلتين. فأخذتُ نفساً عميقاً وقلت: نعم، نعم، كان اللقب الذي اختارته لي هو شكم لأنّني كنت أحبّ الأكل. لكمْ تمنّيتُ لو أنَّ بوسعي إخبار هوما تخاطرياً أن تهدِّئ اللعب قليلاً بحقِّ السماء.

ضحكتْ هوما وفمها مفتوحٌ على مصراعيه بحيث تسنى لنا جميعاً رؤية ما بداخله من طعام.

شعرتُ بإحراجٍ شديد بسببها.

لكنّني انتبهتُ إذ ذاك إلى عبدول الذي كان غير قادرٍ على أن يرفع عينيه عنها. كان يستمع مبهوراً إلى كلِّ كلمة، إلى كل نكتة قالتها. كان وجهه أحمر اللون، لكنّه بدا أكثر سعادة مما كان عليه عندما وصلنا. بدا وكأنَّ صاعقةً نزلتْ به.

بعد أن ودّعنا مهرداد وعبدول، وبدأنا نشقُّ طريقنا نزولاً إلى أسفل الجبل وقد امتلأت معدتانا حتى أنَّ حزام خصري كاد ينقطع، سألتُ هوما لمَ فعلتْ ذلك.

- «فعلتُ ماذا؟»، قالت وهي تنظر إليّ ببراءةٍ تامة وبملامح جدّية لدرجة أنني عجزتُ عن صياغة الكلمات.

لم أكن متأكدة ما الذي يجدر بي قوله. أوه، لا أعرف، هل أقول: لقد تحدَّثتِ وفمكِ ممتلئ وكان المنظر مقرفاً مع الطعام بالداخل، وأقحمتِ أصابعكِ التي كنتِ قد لعقتِها لتوِّك بين مكعبات السكر، أشياءٌ كهذه ربما. لكنّني لم أرد أن أظهر بمظهر النخبوية المتعجرفة التي تثير موضوعاً من قبيل آداب المائدة. «لا شيء»، قلتُ لها أخيراً.

واصلنا سيرنا نزولاً دون أن نقول شيئاً.

- «هل أعجبكِ؟»، قلتُ أخيراً. «من الواضح أنّه كان يشعر بالخجل، لكن هل تظنّين أنّه لطيف؟».

- «مهرداد؟ أوه، لا أعرف إن كنتُ سأصنِّفه كشابٍّ خجول. لقد تولّى زمام الأمور بصورةٍ طيّبة...».

- «لا أيتها الغبية، ليس مهرداد، بل صديقه! هل ——»، بدت نبرتي متكلفة. «أعجبك؟».

- «أوه! هو؟ لقد بدا لطيفاً بما فيه الكفاية على ما أعتقد. إنّه شابٌّ هادئ».

- «لكن هل أعجبكِ؟».

- «بالتأكيد، لمَ قد لا يعجبني؟».

- «لا، أعني...».

تجمّدت هوما في مكانها فجأة. «إيلي؟».

- «نعم؟»، قلتُ لها مشجعة. «يمكنكِ إخباري».

- «لقد نظرتُ!»، قالت وكأنّها تذيع نبأً عاجلاً. «نظرتُ حقّاً في عينيّ مهرداد».

أنا أيضاً توقّفتُ في مكاني، وأخذتُ أفتّشُ في ملامح هوما علّها تخبرني بشيء. كنتُ مشتّتةً تماماً جرّاء سلوك هوما على الطاولة لدرجة أنّني كدت أنسى السبب الذي خرجنا من أجله في المقام الأول.

ابتسمتْ هوما. «رأيتُ رجلاً مثالياً. رأيتُ اللطف والطيبة في كلِّ تفصيل وبأعلى درجة».

رفرف قلبي فرحاً لسماع تلك الكلمات.

- «رغم أنّه كان يرتدي النظارات. فقد بذلتُ قصارى جهدي.

فحصتُ روحه بأفضل ما استطعت حتى وهو يضع نظارات صدفة السلحفاة تلك».

كانت عقدة ذيل الحصان قد ارتخت، لكن دون أن يؤثّر ذلك على روعة ذلك الوشاح الفيروزي المنقّط بالأسود.

- «إنّه رجلٌ على خلق»، قالت هوما. «أرى السعادة».

أردتُ أن أشكرها. أردتُ أن أضحك من الحبور حيال كل شيء. ما زلتُ لا أصدق أنَّ هوما عادت إلى حياتي. ستكون هي ومهرداد الآن جزءاً من حياتي إلى الأبد.

وقفنا على الدرب ساكنتين.

ثمَّ عانقتني طويلاً قبل أن تفلتني وتتراجع للخلف قليلاً وتقول: «لكِ».

- «ماذا؟».

- «لك. أرى السعادة لك في حياتك».

- «آمل ذلك لكِ أيضاً، إن شاء الله».

استأنفنا سيرنا.

قبل أن تتاح لي إثارة موضوع عبدول مجدداً، بادرتْ هوما بالقول: «إذا كنتِ تعتقدين للحظة بأنّني سأقترن بصديق مهرداد، فإنتِ مخطئة تماماً. لا أقصد الإساءة له؛ لقد كان لطيفاً، ومن الواضح أنّه مجتهدٌ وجدّي، لكن لا تحاولي الإيقاع بي، يا إيلي. فلديَّ دراستي. لديَّ أمي وسارة وعلي رضا. لا أحتاج فتىً في حياتي. لديَّ أهداف محددة وأنا على الطريق لتحقيقها. لديَّ خططي الواضحة. آمل بالتأكيد أنَّ طريقتي الفظة في الأكل جعلتْه يحجم للأبد. ليس لدي وقتٌ لهذا الهراء».

إن كانت ثمة امرأةٌ في كل إيران يمكن لها أن تكسر القيود وتتخطى الحواجز وتصبح قاضيةً ناجحة، فهي هوما بكل تأكيد. كانت تملك القوة. وكانت تملك الجرأة والشجاعة. وبدعم مدرسة رضا شاه كبير الثانوية، سوف تدرس وتلتحق بالجامعة، وسوف تنقذنا جميعاً. هذا ما خطر ببالي بينما كنتُ أهبط الجبل مع صديقتي في ذلك اليوم الخريفيّ.

17

1963-1961

في يوم الامتحان، جلسنا خلف مكاتب خشبية في القاعة الكبيرة، وأجرينا الاختبار. التصق قميصي بأسفل إبطيّ فيما كنتُ أتصبّبُ عرقاً مع كل دقيقةٍ تمرّ، مدركةً تماماً أن نتائج هذا الاختبار لن تحدّد شيئاً أقل من مكاننا في هذا العالم.

كانت قدرة هوما على الإقناع فعالة لدرجة لا يمكن تجاهلها. وبفضل إصراراها وتوجيهاتها ورفقتها، كنتُ خلال الأشهر الماضية أجتهد كثيراً في الدراسة.

حالما علمتْ بأمر النتائج، اتّصلت بي هاتفياً وكانت تصرخ لشدّة حماسها.

أما أنا، فأخذتُ أقفز بقوة حتى أنَّ أمي هرعتْ إلى غرفة المعيشة وهي تحمل شبشبها، مستعدة لتتعامل مع أي صرصور افترضتْ أنّني كنتُ قد رأيتُه.

دام ابتهاجنا بالأمر لأسابيع. كنّا نشعر بأنّنا نضجنا كثيراً، وأصبحنا أكثر تمكّناً بصورةٍ لا تضاهى.

دخلنا الجامعة في خريف السنة التي بلغنا فيها عامنا الثامن عشر. قُبلتْ هوما في قسم الحقوق، وقُبلتُ في قسم الآداب

واللغات. كنتُ سأدرس اللغة الإنجليزية، وسأصبح مدرِّسة أو مترجمة. أما مهرداد، فقد قُبل ولله الحمد في قسم الكيمياء.

لم يكن من المعتاد أن يقيم الطلبة المحلّيون في مهاجع السكن الجامعيّ. لذا عشتُ في البيتُ، وكنتُ أتنقّل إلى الجامعة طوال أربع سنوات كاملة. كنا نشير إلى زملائنا الطلبة بـ «**بجه ها**» أي الأولاد، وكنا نؤمن بصدق بأنّنا القادرون على تغيير المستقبل. ومستعدون للتعامل مع أيِّ شيءٍ ترسله الأقدار لنا.

خلال أسابيع قليلة، كنا قد خَبِرنا، أنا وهوما، ذلك الحرم الجامعي جيداً: أفضل غرف الدراسة، أكثر زوايا المكتبة هدوءاً، وأكثر الأشجار ظلّاً للقراءة تحتها والدردشة والمجادلة. وفي الكافيتريا، كنا نفتح أكياس رقائق البطاطس بينما تلقي عليّ هوما محاضرتها حول آخر نشاطات حزب **توده** الشيوعي.

كان نفور هوما من الشاه قد تحوّل إلى سخطٍ خالص. قالت إنَّ محاولات الشاه للتحديث أخذتنا بعيداً عن ثقافتنا، وإنَّ سياساته لم تكن منصفة، وإنّه ضيّقَ الخناق على منتقديه عبر إصدار الأوامر لشرطته السرية «السافاك» بزجِّ الناس في المعتقلات.

مع انطلاقة عامنا الدراسي الثاني في الجامعة، كانت هوما قد كرّست نفسها كزعيم للحركة الشيوعية الطلابية التي كانت تنظم المسيرات والمظاهرات، وتعقد الاجتماعات لمناقشة إيديولوجياتها ونشاطاتها. تعلمت ألّا أجادل في اختلافاتنا السياسية، فقد أرادت هوما أن تكرِّس حياتها للسياسة، بينما أردتُ أن أستمتع بحياة خاليةٍ منها.

رغم أنّني كنتُ أعلم أنَّ ذلك كان هو المستحيل بعينه في إيران.

ذات يوم جمعة أثناء الفصل الثاني من السنة الدراسية الثانية، تغيّرت حياتي جذرياً عندما دعاني مهرداد للخروج لتناول الـ **تشيلو كباب** على الغداء.

كنت في غاية الامتنان لأمي لأنّها أذنت لي ولمهرداد بهذه الوجبة الثنائية، حتّى أنّني لم ألقِ بالاً وهي تنتقد شعري وترثي لحال أظافري لأنّها كانت قصيرةً جدّاً وغليظة. «لَم لم تدرِّميها وتعتني بها يا إيلي؟». رمقتُها بنظرةٍ تنمُّ عن الارتباك وقلت: «لمَ قد أفعل ذلك وأنا ذاهبةٌ إلى مطعم **تشيلو كباب**؟». هزّتْ أمي رأسها غير راضية.

منذ اللحظة التي اصطحبني فيها مهرداد بسيارته (والتي كانت أمي سعيدة للغاية بمعرفة أنّه يمتلكها بالفعل)، حبستُ أنفاسي طوال الرحلة وصولاً إلى مطعم **نايب** الشهير، والذي كان يقع في قلب البازار الكبير.

ربّما كان لدى أمّي الحدس اللازم لتعرف بأنَّ غداء يوم الجمعة هذا لن يكون عادياً أبداً. فحالما أخذنا أماكننا داخل المطعم (كان مهرداد قد سحب لي بطريقةٍ احتفالية الكرسي ذا الظهر المخملي الأحمر كي أجلس، ثمَّ دفعه بلطف قبل أن يذهب ليجلس على الجهة المقابلة من الطاولة ذات المفرش الأبيض) نظر إليّ وقال: «إيلي، كنتُ آمل أن نتمكن من مناقشة مستقبلنا».

مستقبلنا.

شعرتُ بدوخةٍ وارتباك، وبدفءٍ يشعُّ من كلِّ أنحاء جسمي.

وقبل أن أتمكّنَ من سؤاله ما الذي يعنيه **بمستقبلنا**، جاء نادلٌ شاب إلى طاولتنا، وأخذ طلباتنا.

ذهب سحر تلك اللحظة بطريقةٍ ما أدراج الرياح.

بعد أن غادر النادل، تحدّثنا عن المطعم فحسب، كم كان

يعطي إحساساً بالحميمية، وكيف كان الهواء عابقاً برائحة الأرز بالزعفران والكباب اللذيذ.

لم أرد أن أبدو وقحة، أو أن أظهر بمظهر اليائسة أو المتلهّفة للفوز بعرض زواج، لذا جاريتُه بعفوية عندما قلب الموضوع ليصبح عن الامتحانات والأنشطة الدراسية، وكيف كانت أحوال دراسته للكيمياء، وكيف كان إتقاني للإنجليزية يزداد بمرور الوقت، وكيف أنه من المرجح أن ترتفع الأسعار في السنة القادمة.

تحدّثنا عن الطقس. عن هوما والشاه. تحدثنا عن كلٍّ شيء على هذا الكوكب باستثناء مستقبلنا. كان مهرداد يعبث بين الفينة والأخرى بمنديله، ويحرك أدوات المائدة فوق المفرش جيئةً وذهاباً، حتّى أنّه أتى على ذكر عناصر في جدول الكيمياء الدوري.

ثمَّ وصل الطعام.

وضع النادل على طاولتنا طبقين من أسياخ المشويات - **كباب برغ**، كباب العجل المشوي لمهرداد، و **جوجِه كباب**، أفخاذ الدجاج المتبلة بالليمون والزعفران لي - مع صحن من الأرز بالزعفران على شكل هرم تعلوه شريحة زبدة وحبة طماطم مشوية. وكان هناك وعاءان صغيران، في كلٍّ منهما كان ثمّة بيضةٌ نصف مقشورة تُرك منها الصفار فقط. كما وضع النادل أمامنا إبريقاً من لبن الـ **دوغ** المالح الممدَّد.

صفّى البخار المنبعث من الأرز بالزعفران رأسي وجيوبي الأنفية. إذ خلطتُ صفار البيض مع الأرز الأبيض أمامي، وغرزتُ شوكتي في حبة الطماطم المشوية، ورششتُ السماق القرمزي الداكن فوق كباب الدجاج، وصبَّ مهرداد لبن الـ **دوغ** في كأسي، شعرتُ بمتعة خالصة وأنا أتذوق لقمتي الأولى من الطبق الوطني أمامنا.

استمتع كلانا بالطعام، وأشدنا بطراوة الكباب وبمثالية عصارية الطماطم، ثمَّ وكما لو أنّنا نقوم بحركات لا إرادية، أتينا على الـ **تشيلو كباب** كلّه. كان رواد المطعم من حولنا يضحكون ويثرثرون، وأدوات المائدة تنقر على الأطباق، والنُدُّل يطوفون جيئةً وذهاباً في أنحاء الغرفة الواسعة وكأنّهم يؤدون رقصةً ما.

كنتُ أرفع ملعقة من الأرز مع الزبدة والدجاج والطماطم إلى فمي حين ترك مهرداد شوكته تنزل في طبقه.

- «إيلي»، قالها بطريقةٍ توحي بأنّه على وشك أن يطرح سؤالاً، «هل تقبلين الزواج بي؟».

كانت نبرته مباشرةً جدّاً، وجدّية لأبعد الحدود.

تجمّدتُ بلا حراك، ملعقتي عالقةٌ في الهواء، وفمي نصف مفتوح إلى أن التقطتُ النظرة في عينيّ مهرداد. تانك العينان خلف نظارات صدفة السلحفاة، اللتان تسلّقت هوما جبلاً لأجلهما. وحين نظرتْ فيهما، رأت الخير الحقيقي. وتنبّأت لي بالسعادة.

أعدتُ ملعقتي إلى الطبق. كان جسمي مثل ريشةٍ تطفو في الهواء، وشعرتُ وكأنه مغطّى بفقاعات كتلك التي تبقبق على سطح لبن الـ دوغ. مال مهرداد فوق الطاولة وأمسك بيدي.

- «إيلي»، قال مهرداد، «مذ رأيتكِ أول مرة ذلك اليوم في مطعم أندريه، حين كان الحشد يتدافع في الطابور للحصول على الغداء، ومذ أن تحدثنا بعد ذلك في سيزده بدر عند ضفة النهر، بات لديَّ رغبة واحدة بسيطة؛ أن أكون معك. لا أعرف كيف أعبّر عن الأمر بغير هذا. هل تقبلين الزواج بي؟ هلّا أصبحتِ زوجتي؟ أعلم أنّه ينبغي بي أن آخذ موافقة عمّك ووالدتك، لكن فكّرتُ... فكّرتُ وحسب...»، تنحنح ثمّ أكمل قائلاً: «أنه يمكننا أن نحظى بهذه

اللحظة أولاً. أردتُ أن أقول لك - وجهاً لوجه وبخصوصيةٍ تامة - بأنّني أعشقك. أنا أحبّكِ، يا إيلي».

شعرتُ كما لو أنَّ قلبي أدّى حركة شقلبة هوائية. شعرتُ بالدماء تتدفق بقوة في ذراعيّ؛ وشعرتُ وكأنَّ ثمة قرعُ طبولٍ في صدري تردّد صداه قصفاً في أذنيّ. **شعرتُ** بالمستقبل مع مهرداد. وعرفتُ إذ ذاك أنّه كان ما أرغب فيه أكثر من أيِّ شيء آخر.

- «نعم»، قلتُ له. كنتُ مأخوذةً بعاطفتي لدرجة أنَّ صوتي بدا وكأنّه جاء من تحت الماء. كان بابٌ صغير من الأمل ينفتح على حياة بأكملها.

ترك مهرداد يدي، ومشى إلى جهتي من الطاولة. انحنى نحوي، ثمَّ أمسك وجهي بكلتا يديه، وبرقّةٍ وحنان ليس كمثلهما شيء، قبّلني.

ربّما دامت تلك القبلة لثانيتين؛ ربّما لساعتين، من يعلم؟ لكنّها بالنسبة إليّ، كانت الدنيا وما عليها.

تناولنا بقية وجبتنا بتلذذ. ناقشنا خططنا بشأن المستقبل. كنا سننتظر إلى ما بعد التخرج، رغم أنّه كان لا يزال هناك ما يزيد قليلاً عن سنتين حتى ذلك الحين. «أعلم أنّه وقتُ انتظارٍ طويلٍ جدّاً»، قال مهرداد، «لكن آمل إنّني عند التخرج، سأكون قد حصلتُ على وظيفةٍ جيدة في المختبر، وقُبلتُ في برنامج الدكتوراه. يمكن أن يكون لديَّ دخلي الخاص أثناء انشغالي بالدراسات العليا. وهكذا نبدأ حياتنا في مكانٍ خاصٍّ بنا».

خفق قلبي بشدة لاحتمالية أن نحظى بفضائنا الخاص. وإذا تزوجنا الآن، فسيتعين علينا أن نقيم مع إحدى عائلتينا، وبقدر ما استمتعتُ بلقاء والدة مهرداد (التي التقيتُ بها بضع مرات منذ ذلك

اليوم حين خرجت من النهر مثل الحورية) وأحببتُ والده اللطيف، إلّا أنّني لم أكن أريد العيش معهما. وكانت التقاليد تقضي بأن تعيش العرائس الجدد مع أهالي أزواجهنّ.

- «نعم، دعنا بالتأكيد ننتظر ريثما نتمكن من الحصول على مكانٍ خاصٍ بنا».

نظر مهرداد إلى مفرش المائدة وقال: «لا يمكنني... لا يمكنني وصفُ هذا الشعور. لا أطيق صبراً حتى أخبر والديّ! سوف نحدّد موعداً بالطبع للحضور والتحدث إلى عمك ووالدتك، والحصول على موافقتهما بصورة رسمية. لكن ——»، سكت للحظة ومررَ أصابعه في شعره، «كنتُ أريد أن نحظى بهذه اللحظة الخاصة فحسب، كي أتمكن من سؤالك أولاً».

- «سعيدةٌ لأنك فعلتَ ذلك. ولا تقلق، فوالدتي هي أكبر الداعمين لك. وسوف تبدأ في إعداد قائمة مهام اعتباراً من اللحظة التي ستأتون فيها لطلب الموافقة رسمياً. أعتقد أنّها ستستحسن فكرة المهلة الطويلة حتى يتسنى لها التخطيط لكلِّ شيء بحسب ما ترغب؛ كتأمين الفستان المناسب، ورجل الدين المناسب للاضطلاع بالشعائر...».

- «آمل أنه لن يكون رجل دينٍ محافظاً؟»، سأل مهرداد بحذرٍ شديد.

- «الأرجح أنّه سيكون معتدلاً. لنكن واقعيين؛ لا أحد منا متديّنٌ حقّاً»، قلتُ لمهرداد.

- «كم من المريح معرفة أنّنا متفقان في ذلك»، قال مهرداد.

أومأتُ برأسي موافقة.

- «بالمناسبة يا إيلي، بما أنّنا نتحدث عن كل الأشياء المهمّة،

هل نحن على نفس الموجة فيما يتعلّق بـ. . . البقية؟».

- «أية بقية؟».

بدت عليه الجدية. «إيلي، أعلم أنّكِ تدرسين بكل جد. وأنا أحترم كثيراً تفوقك الأكاديمي، وطموحاتك. لكن. . . أنتِ. . . تريدين إنجاب الأطفال، صحيح؟».

- «هل أريد أطفالاً؟ أريدُ خمسةً منهم!».

انفرجت أسارير مهرداد وارتسمت على وجهه ابتسامة تنم عن الارتياح. «هذا مؤسف! لأنني أريد ستة!».

- «إذاً، من الأفضل أن نباشر العمل بعد الزفاف مباشرةً!»، قلتُ بجرأة.

احمرَّ مهرداد خجلاً إثر تلميحي الجريء، واستحال وجهه أحمرَ بالكامل على نحوٍ جعلني أرغب بالقفز فوق الطاولة وعضّه.

- «سوف نجعل الأمر ينجح، يا إيلي. ربّما يمكن لأمّي أو لوالدتك - إذا وافقتْ - المساعدة في رعاية أطفالنا إذا كنتِ تريدين أن تعملي بدوامٍ كامل. تعلمين أنّني سأدعمك تماماً في ذلك. سوف نجد حلاً لكلِّ شيء». ثمَّ راح مهرداد ينظر حوله مبتسماً، وكأنّه قد ينفجر مخبِراً الجميع بكلِّ ما كنا نتناقش بشأنه. وإذ جاء النادل ليرفع أطباقنا، أمسك مهرداد بذراعه وقال: «آغا، لقد طلبتُ يدها للزواج، وقد وافقتْ، وافقتْ، وافقتْ!».

قدّم لنا النادل الكثير من التبريكات، متمنّياً لنا حياةً ملؤها السعادة والصحة، ثمَّ رفع أطباقنا الملطخة بآثار صفار البيض، ووازنها فوق العديد من الأطباق الأخرى على ذراعه، فبدا وكأنّه فنان سيرك أتقن خدعةً مستحيلة.

في يوم الجمعة التالي، جاء مهرداد مع والديه إلى منزلنا في زيارةٍ لطلب يدي رسمياً من عائلتي. كانت أمي في حالة هرجٍ ومرج طوال فترة الصباح. طلبت مني أن أزرِّر لها أفضل فستان لديها وكان فيروزيّ اللون، وأن أساعدها في جمع شعرها على شكل كعكة أنيقة، وأن أحرص أن يكون لون وجهها بالدرجة المناسبة تماماً. كما أجبرتْ العم مسعود على ارتداء بذلة من ثلاث قطع باللون البني الفاتح (فتنهّد ونفّذ أوامرها)، ووجهت الأمر تلو الآخر صياحاً لمدبرة منزلنا بتول. كانت هذه الأخيرة قد اشترت بالفعل أكبر كميات من البرتقال والتفاح والعنب والخيار، ورتّبتها في طبقٍ ضخم، وسكبت حسب توجيهات أمي الـ **آجيل**، خليط اللب والمكسرات في أوانٍ زجاجية مجوَّفة. وخمَّرت الشاي بدرجةٍ مثالية. وكان أثاث المنزل يبرق من شدة تلميع بتول له.

تمنّيتُ أن تحسن أمّي التصرف أمام عائلة مهرداد، وألّا تبالغ في إظهار حماستها لفكرة زواجنا. فقد كانت أمّي تتوق لهذا اليوم كثيراً. ولم أرد أن تحرجني بعبارات الاستحسان المبالغ فيها.

وصل مهرداد رفقة السيد والسيّدة توكّلي حاملين باقةً كبيرة من الزهور وعلبةً كرتونية ملفوفةً بخيوطٍ تزيينية، وعرفتُ من الملصق على العلبة أنّها تحتوي على أفخر أنواع الحلويات. كنتُ سعيدةً برؤية السيدة توكّلي في تنورةٍ بسيطة باللون الكحلي، وكنزةٍ باللون البيج - جعلني ذلك أشعر بتحسّن لأنّني تمسّكتُ بحدسي وارتديتُ كنزة جميلة لكن بلا زركشة وتنّورة بسيطة رغم اقتراحات أمي بأن أتأنّق أكثر. كان مهرداد قد حلَق ذقنه قصيرةً جداً؛ وكان شعره مسرَّحاً بعناية، لكنّه كان أيضاً يرتدي مزيجه البسيط المعتاد - قميصٌ فاتح، وسروالٌ داكن.

ذهبنا جميعاً إلى غرفة المعيشة، حيث جلس مهرداد بين والديه على إحدى الأرائك، وجلستُ على الأريكة المقابلة بين أمّي والعمّ مسعود. تبادلنا - أنا ومهرداد - نظرةً خاطفة. شعرتُ وكأنّنا طفلين صغيرين يُتوقَّع منهما الجلوس بتهذيب دون أن ينبسا ببنت شفة. غمز لي مهرداد بعينه، وكأنّه يحاول أن يقول لي إنّنا سنجتاز هذه الشكليات، وسنكون على ما يرام.

بعد ذلك، دخلت بتول بصينية الشاي مع التمر ومكعبات السكر والبقلاوة، وأخذ الجميع **إستكان** من شراب العنبر مع التحلية التي اختاروها. شكرَنا السيد توكّلي على الاستضافة، وأدلى بتعليقٍ مهذب حول حالة الطقس، وشاركت السيدة توكّلي في الحديث عبر إلقاء مقطعٍ من الشعر الفارسي القديم يصف هيئة السحب، فردَّ عليها العمّ مسعود في الحال بقصيدة أخرى عن أشعة الشمس.

ضحكت السيدة توكّلي بحبور إثر تلك اللحظة الدرامية من تبادل المقاطع الشعرية. رمقتُها بنظرةٍ فاحصة؛ هي ذي امرأة في الخمسينيات من عمرها، متصالحةٌ جدّاً مع نفسها. لا تجهد، ولا تحاول أن تغطي على عمرها، لكنّها مع ذلك تبدو متألّقة ببساطة. بدا أنّها تتمتع بوقارٍ فطري، وطبيعة طيبة غير متكلّفة. تنهّدتُ وتساءلتُ - وليس لأول مرة - كيف قد يكون الحال حين تحظى بأمٍّ كهذه. أمٌّ لم تجلد ذاتها بالقلق إلى ما لا نهاية. أمٌّ لم تكن ترى العالم بؤرةَ فجورٍ ورذيلة يجب القضاء عليها.

هل كانت أمّي لتكون شخصاً مختلفاً لو ظلَّ أبي على قيد الحياة؟ لو أنّه هو الذي جلس بجواري وليس أخيه، هل كانت أمي لتكون شخصاً آخر؟ ما كنتُ لأعرف أبداً. نظرتُ إلى عمّي الذي كان الآن مشغولاً بمسح جبهته بواسطة منديلٍ مضغوط. كان الرجل

يحاول. كان - جزاه الله خيراً - يحاول دائماً. لم يكن لديَّ ما ألوم عمّي عليه. كان يفعل كلَّ ما بوسعه. وبدا أنّه يحبُّ أمّي بصدق؛ كنتُ أدرك هذه الحقيقة أكثر فأكثر مع مرور كل عام.

- «يجب أن تأكلوا الفاكهة! بالله عليكم، لا تجعلوني أقشّر وأقطّع كل حبّة وأحملكم على تناولها!»، قالتْ أمّي، وأخذت بعض الأطباق الصغيرة التي كانت بتول قد وضعتها على الطاولة، وراحتْ تملأ كلاً منها بأنواع الفواكه، وتوزّعها على الضيوف. أخذت السيدة توكّلي طبقها بلطف، وشرعت في تقشير البرتقالة كما لو كان ذلك نشاطها المفضّل في العالم كلّه. قبِلَ السيد توكلي ومهرداد ما عُرض عليهما أيضاً، وأكلا بعض حبّات العنب على الفور. كنتُ أعرف أنَّ الـ **تعارف** الملحاح الذي كانت تمارسه أمّي - توسّلها إلينا كي نأكل - ينبع في الأساس من نوايا طيبة. مع ذلك، لم يسعني إلّا أن أشعر بالحرج. ثمَّ انكمشتُ مجفلة حين التقطت أمي خيارة، وشرعتْ تقضمها بصوتٍ مسموع. في حين قطّعت السيدة توكّلي الخيار في صحنها بعناية. هل كنتُ الوحيدة التي شعرتْ بذلك في تلك اللحظة، أم أنّ أمي دائماً ما كانت تمضغ بصوتٍ عال؟

فجأة، بادر مهرداد إلى الكلام وقال: «السيد والسيدة سلطاني، إذا سمحتما لي. . .»، بلع ريقه بصعوبة، «أودُّ أن. . . أتمنّى من كل قلبي. . . الزواج من ابنتكما إيلاهيه. أعدكما بأنّني سأبذل كلَّ ما في وسعي للحرص على أن تكون حياتنا معاً على قدر الاهتمام والرعاية والسعادة التي تستحقّها».

أطرقتُ برأسي، وأنا أحترق حبّاً وفخراً به. سمعتُ العم مسعود يتنحنح. كان على الأرجح يتحضّر للردِّ رسمياً ومنح موافقته.

- «أنا لا. . . فقط لا. . .»، جاء صوتُ أمّي أجشَّ.

تدفقت الدماء بقوة إلى رأسي. كنتُ قد تخيلتُ أمي وهي تصفّق بيديها فرحاً بإمكانية أن يصبح زواجنا أمراً واقعاً. تخيّلتُها وهي تهتف بأعلى صوتها: «سيكون أهم احتفال في هذه العشرية! مهرجانٌ حقيقي!».

بدلاً من ذلك، كانت تمسك خيارتها بيدٍ مترهّلة، وقد بدا عليها الشحوب.

- «هل أنتِ بخير؟»، سأل العم مسعود.

حدّقتْ أمّي في طاولة القهوة. «لقد تخيّلتُ الأمر. ربما تخيلتُ هذه اللحظة في رأسي خمسة وخمسين مرة. وتوقّعتُ الفرحة التي ستغمر روحي. أنتَ ——»، نظرتْ إلى مهرداد، «أنتَ شابٌّ طيب»، ثمَّ أومأت برأسها للسيد والسيدة توكّلي. «لقد ربَّيتُما شخصاً طيباً. الأمر فقط. . .»، التفتتْ إليّ. نظرتْ في عينيّ، وبدتْ غير قادرة على المتابعة.

حبستُ أنفاسي. شعرتُ بوخزٍ في فروة رأسي. لكن حاولتُ أن أعطي إيحاءً بالهدوء والاتزان رغم أنَّ قلبي كان يخفق بشدّة.

- «أنتِ طفلتي الوحيدة»، قالت أمّي أخيراً بصوتٍ متهدّج. «أنتِ لي».

صدمني سلوك أمّي بالكامل. ألم تكن قد وافقت على هذا الاقتران مئة مرة من قبل؟ لقد كانت أكبر المعجبين بمهرداد. لقد أرادت أن يصل عرض الزواج، بل أرادت منّي أن أصطاد مهرداد، بحسب تعبيرها. لمَ كانت أمّي تفعل ذلك؟

- «إنّها لي»، همست أمّي، وبدت كعكة شعرها وكأنها ستنحلّ فوق وجهها ورقبتها المتعرِّقين. «إنّها طفلتي».

لم أعرف ماذا عساي أفعل أو أقول. فتحتُ عينيّ على

اتّساعهما، ونظرتُ إلى مهرداد. ويا لعظيم دهشتي، إذ رأيتُ عينيه قد اغرورقتا بالدموع.

انحنى العم مسعود نحو أمي، ووضع ذراعه حولها.

نهضت إذ ذاك السيدة توكّلي، ومشت إلى أريكتنا. انحنتْ، وأخذت يد أمي بين يديها. «ستكون دائماً طفلتك، أليس كذلك؟»، قالت بلطف. «هذا لن يتغير».

تنفَّست أمّي بعمق، ثمّ ظلَّتْ هادئة لبضع دقائق. «شكراً لأنّكِ تفهمين ما يعتمل في قلب أمّ»، همستْ أخيراً.

ثمَّ مسحتْ أمّي عينيها براحتيها، ودفعت كعكة شعرها للأعلى، وربَّتتْ عليها لتعيدها إلى مكانها قدر الإمكان. ثمَّ جلست منتصبة. «سوف نحظى بزفاف القرن!»، قالت بصوتٍ عالٍ زيادة عن اللزوم. «أليس كذلك؟ يعلم الرب أنَّ لدينا ما يكفي من الوقت للتخطيط له كما يجب!».

ضحك الآخرون. نظرتُ إلى كلِّ واحدٍ منهم على حدة، ثمَّ نظرتُ إلى أمّي، وفكرّت: رغم أنّني قد بلغتُ العشرين من عمري، إلا أنّني ما زلتُ أجد صعوبةً في فهم والدتي هذه.

كانت شخصاً مرهِقاً، ومربِكاً، وخانقاً في بعض الأحيان. لمَ كانت تجعل كلّ شيء يتمحور حولها؟

هل سأتمكن من فهمها على نحوٍ أفضل عندما أصبح - بمشيئة الله - أمّاً؟

- «بتول!»، هتفتْ أمي بجذل. «تعالي هنا مع مزيدٍ من الشاي. ضيوفنا يشعرون بالظمأ، **واي خدا**، يا إلهي، إنّهم بالتأكيد بحاجة إلى المزيد من الشاي!».

إذ عاد الآخرون ليدردشوا معاً من جديد، مالت أمّي نحوي

وهمستْ: «سامحيني. أريد لكِ أن تكوني سعيدة. أريد هذا بشدّة. المسألة فقط أنَّ الأشياء ستأخذ منحىً مختلفاً حالما تتزوّجين، هذا كل ما في الأمر. وسأفتقد كونك لي بكلّيتك. لكنّني أتقبّل ذلك! أنا أتقبّله». امتصَّت الهواء من بين أسنانها، ثمَّ صفرت بصوتٍ بالكاد كان مسموعاً. «في بعض الأحيان أشعر بالقلق من أنّني قد أصيبكِ بالـ جشم، بالعين أيضاً. لا أريد أن تكون لي عينٌ شريرة. أريد لكل شيء أن يكون مثالياً تماماً لك. لا يمكن لأحدٍ أن يفسد طريقك إلى السعادة. لا أحد على الإطلاق. كوني شديدة الحذر، أرجوكِ، يا إيلي».

انكمشت على نفسي حتى بدوت وكأنّني أغرق داخل الأريكة. لكم تمنّيتُ أن أمحو مفهوم العين الشريرة من هذا العالم. لكم تمنيتُ ألا أضطر إلى أن أكون دائمة القلق بشأن أن يلحق بي النحس جرّاء نظرة عين شريرة.

- «حتّى أولئك الذين يحبونك جدّاً قد يدمّرون حياتك، يا إيلي»، قالت أمّي. «حتّى أولئك الذين تثقين بهم إلى أقصى الحدود».

18

مارس 1963

جلست هوما في الكافتيريا، ومعها شطيرة سلطة أوليفييه، وكيس من كرات الذرة المنفوشة بنكهة الجبن، وزجاجة ليمونادة. وبين لقمةٍ هنا ورشفةٍ هناك، شرعتْ في إلقاء خطاب شديد اللهجة حول مثالب حكومتنا وأمراضها المستشرية. فرددتُ عبر الدفع بحجّة ضعيفة عن «النظر إلى الأمر من زاوية الطرف الآخر». رغم أنَّ أمّي والعم مسعود كانا في الأشهر التي تلت انقلاب 1953 الذي أطاح برئيس الوزراء مصدق قلقين من الدور الذي يلعبه الملك حيال توسيع سلطته وتمكينها، إلّا أنّهما نظرا حولهما بعد عقدٍ من الزمان، وقرَّرا أنَّ الملك كان قد فعل الصواب لأجلهما. كانا ثريّين، وبصحّةٍ جيدة، ويحبّان الاتجاه الذي تسير به البلاد.

كنتُ أرزح تحت ضغط رغبة هائلة في تغيير الموضوع عندما أظلمت الدنيا فجأة. كان أحدٌ ما قد غطّى عينيّ.

سمعتُ هوما تضحك.

انبعثت رائحة مألوفة لصابون بعطر الليمون من تلك اليدين اللتين تسبَّبتا في حجب رؤيتي. مددتُ يديّ ونزعتهما بسرعة عن وجهي، واستدرتُ في مكاني. كان مهرداد يقف ورائي، وبجانبه عبدول.

فالحقيقة أنّنا لم نكن - أنا وهوما ومهرداد - الوحيدين الذين درسنا بجدّ وحالفنا الحظ لنتمكّن من الالتحاق بتلك الجامعة؛ عبدول أيضاً نجح في تحقيق ذلك. صحيحٌ أنَّ درجاته لم تؤهله للالتحاق ببرنامج القانون كما كان يرغب، لكنّه تمكن من بدء دراسته في حقل الجغرافيا.

بعد أن رفعتُ يديّ مهرداد عن عينيّ، قفزتُ من مقعدي، فعانقني.

غمغمت هوما بما يشبه السخرية، وتنحّيتُ مبتعدةً عن مهرداد وعن ذلك الإشهار العلنيّ لعاطفتنا.

وضعت هوما زجاجة الليمونادة جانباً، وقالت: «بالمناسبة، لن أتمكّن من حضور مهرجان **جهار شنبه سوري** للاحتفال بالنار. لدينا اجتماع».

كلّ مرة قالت هوما **لدينا اجتماع**، كنتُ أعرف أنّها تتحدّث عن حزب **تودِه** الشيوعي. لم أحضر اجتماعاً قطّ، رغم أنَّ هوما كانت تدعوني بين الحين والآخر للانضمام إليهم. كنتُ أتخيل مجموعة من الطلبة المتنوّرين المثقفين مجتمعين على شكل حلقة، ويناقشون كيف أنَّه يجب على البريطانيين رفع أيديهم عن إيران، وكيف أنَّ الشاه يتصرّف على نحوٍ يتجاوز كلَّ سلطاته، وكيف يمكن لمجتمعٍ اشتراكيٍّ مثالي أن يكون المنقذ لثقافتنا التي تحيق بها الأخطار من كل حدبٍ وصوب.

- «لا تذهبي»، قلتُ لها. «ولا تطرحي قضاياك بصوتٍ عالٍ». نظرتُ حولي بعصبية في أرجاء الكافتيريا. «ألستِ من تقولين دائماً أن لدى الشاه جواسيس في كل مكان؟».

- «حسنٌ»، قالت. «لدي اجتماعٌ على جانبٍ كبير من الأهمية»، أضافتْ بصوتٍ هامس.

- «لا يمكنكِ أن تفوّتي **جهار شنبه سوري**. لقد خططنا لليلةٍ عظيمة»، تدخَّل مهرداد.

- «هوما خانم، يجب عليكِ أن تأتي»، قال عبدول بهدوء.

في سنتنا الجامعية الأولى، طلب عبدول يد هوما للزواج. كان والده قد توفي عندما كان طفلاً، لكن بإمكان الوالدة أن تنوب عن الأب المتوفي، وتذهب مع ابنها لطلب يد الفتاة من عائلتها بصورةٍ رسمية.

رفضتْ هوما عرض الزواج.

بعد بضعة أشهر، عرض عليها عبدول الزواج مرّةً ثانية. كانت والدته قد توفيت للأسف بحلول ذلك الوقت نتيجة قصورٍ في القلب، لكن جواب هوما لم يتغير. أرادت أن يكونا زميليّ دراسة فحسب. صديقين. لكنّها لم ترد أن تكون زوجته. وأخبرتني كيف أوضحت له تماماً بأنّها لا ترغب في الزواج؛ مطلقاً. خرج عبدول من ذلك الرفض الثاني محطّماً تماماً. ولأسابيع كان يبدو مرهقاً، وعيناه ساهمتان. لكنّه كان يحترم هوما لدرجة أنّه لم يسألها مجدّداً. لقد تقبّل قدره القاضي بأن يكونا «مجرّد صديقين».

كان عبدول الآن يميل مستنداً على كعبيه تارةً إلى الأمام وتارةً إلى الخلف. «كلُّ الـ **بجه ها** - الأولاد - سيكونون هناك لحضور **جهار شنبه سوري**. سيكون بعض الهواء النقيّ مفيداً لك».

تنهّدتْ هوما. «لديَّ أمورٌ أهم لأقلق بشأنها، ألا ترون ذلك؟ بلادنا تمرُّ بأوقات مصيرية».

- «متى لم تكن هذه البلاد تمرُّ بأوقات مصيرية؟»، سأل مهرداد، ثمَّ جذبني إليه وقبَّل أعلى رأسي بحنان.

من زاوية عيني، رأيتُ وجه عبدول قد اصطبغ بالحمرة.

كان عبدول ينحدر من خلفيةٍ تقليدية محافظة. كان متديّناً، وكل النساء في عائلته يرتدين الحجاب الصارم. يبدو أنَّ عدم ارتداء هوما للحجاب لم يمنعه من الوقوع في حبها والرغبة في الزواج منها، لكن لم يراودني أدنى شك أنّه حتى لو وافقت هوما على عرض عبدول، فما كان ليلمسها قبل أن يكون مصرَّحاً به من خلال شهادة الزواج.

كنتُ أحمل نفسي على أن أكون أقلّ تشدّداً حيال إظهار مهرداد لعاطفته تجاهي. كان هذا العام 1963. كانت هذه إيران الجديدة. وكنا مخطوبين، حبّاً بالله.

- «سيكون هناك دائماً اجتماعٌ آخر، ومظاهرةٌ أخرى»، قلتُ وأنا أحاول تغيير رأي هوما. «أما **جهار شنبه سوري** فيحدث مرة واحدة في السنة فقط. أنتِ بحاجةٍ إلى استراحة من تلك الاجتماعات. تعالي وحاولي أن تحظي ببعض المرح».

- «هذا الاجتماع مهم. لا يمكنني أن أتجاهل احتياجات أولئك الذين لا حصانة لهم. أنا آسفة».

حدّق عبدول في هوما برهبةٍ لا يشوبها أيُّ أرتباك.

كرَّرَ مهرداد دعوته لهوما، ثمَّ قال إنَّه وعبدول يجب أن يغادرا. قبّلني مودِّعاً - كانت مجرد قبلةٍ سريعة على خدي هذه المرة.

بعد أن غادر الولدان، عدتُ للجلوس بجوار هوما على مقعد الكافتيريا.

- «لِمَ لا يمكنكِ تفويت هذا الاجتماع؟»، سألتُ بصوتٍ منخفض. «لماذا يُعقد في عطلةٍ مهمّة كهذه؟».

- «اسمعي، لدينا مسيرات تلوح في الأفق؛ احتجاجاتٌ ضخمة. لدينا خطّةٌ كاملة. وأحتاج إلى ترجمة بعض الأشياء». أطرقتْ برأسها، وأخذتْ تحدّق في حضنها. «لا تغضبي، لكنَّ أُفرين تساعدني».

- «مَن؟»، سألتُ غير مصدِّقة.

- «أُفرين مولوي».

- «من المدرسة الثانوية؟ أُفرين المتعجرفة؟».

- «نعم أُفرين من المدرسة الثانوية. وهي ليست متعجرفة، يا إيلي. لقد تغيَّرتْ. أعلم أنّها لم ترق لكِ أبداً، لكنّها لا تتحدّث عنكِ مطلقاً. حتى أنّها بالكاد تمكّنت من تذكّري. إنّها ترغب في المساعدة. وهي واحدةٌ منا الآن».

فكّرتُ في الحفلات المسرفة التي كانت تقام في منزل أُفرين. الطعام، الكحول، ووالداها اللذان كانا يتجولان في أرجاء أوروبا معظم الوقت. «أُفرين تساعد القضية الشيوعية؟ يا لها من قصة مثيرة للضحك!»، قلتُ بسخرية عميقة.

- «لقد رأت النور، يا إيلي. لقد سئمتْ من كلِّ هذه السموم الغربية لدينا. منذ أن التحقت بجامعة بازركاني، والتقت بذلك الشاب اليساري الوسيم، ارتقى مستوى وعيها كثيراً. لذا نعم، هي تساعد في الترجمة». اقتربت هوما مني أكثر وهمست قائلة: «ثمّة صحيفة تروتسكية[1] تُطبع في إنجلترا. لقد قاموا بإصدار بعض المنشورات التي تحدّد بعض النظريات الأساسية وكذلك الخطوات

(1) تيارٌ شيوعي أسسه ليون تروتسكي، نادى بشكلٍ رئيسي بضرورة أن تأخذ الثورة الاشتراكية طابعاً أممياً - المترجم.

المحدّدة لما هو مطلوبٌ تالياً في إيران من أجل قيام الثورة».

هوما، المثالية دائماً وأبداً. فلا شيءٌ من كلِّ ذلك لم أكن قد سمعتُه من قبل مراراً.

- «لن تتمكنوا من القيام بثورةٍ أبداً»، همستُ ردّاً عليها.

- «لا، يبدو أنَّ هذه المنشورات توضِّحُ كلّ شي. يُفترض بها أن تساعد في تحفيز كل شيء وإطلاق شرارة الانطلاق، يا إيلي. لكنّنا نحتاج أن تكون باللغة الفارسية حتّى تنتشر الكلمة في عموم إيران. ولغة أُفرين الإنجليزية ممتازة. ستكون ترجمتها لهذه المنشورات بمثابة خارطة طريق لمجموعة من الاحتجاجات التي ستؤدي إلى تغييرٍ لا رجعة فيه».

ها هي هوما تعيد الكرَّة، وتخاطر كثيراً عبر ذِكر عدوّتي القديمة. تذكّرتُ وجه أُفرين الذي كان صورةً حية للغطرسة والإعجاب بالنفس. وكيف كانت تشبك ذراعيها وتبتسم كما لو كانت مهرِّجاً يؤدي عرضاً ترفيهياً. لمَ كانت هوما تتحدث معها حتى؟

- «ماذا تقصدين بقولك إنَّ لغة أُفرين الإنجليزية ممتازة؟ تعلمين جيّداً أنّني أدرس اللغة الإنجليزية. لمَ لم تطلبي مني القيام بذلك؟».

- «ما كنتِ لتترجمي منشوراً سياسيّاً أبداً! وكانت أُفرين تحضر اجتماعاتنا مع. . . صديقها. لأكون صادقةً، يا إيلي، لقد أُعجبتُ بها كثيراً. إنَّ لها عقلاً متّقداً بحقّ».

شعرتُ بحرارة جسدي ترتفع، ورغبتُ في صفع أُفرين بقوة. «حقّاً؟ عقلٌ متّقد؟».

- «ولغتها الإنجليزية رائعة. إنّها مثالية. أعني لهذه المهمّة».

- «سأفعلُ ذلك!»، قلتُ لها.

- «ماذا؟».

- «سأترجم المنشورات لك. لا أستطيع أن أصدّق أنّكِ لم تطلبي مني ذلك حتى»، قلتُ متذمّرة.

- «أنتِ دائماً تقولين إنّك لا تريدين التورط».

- «أعطني تلك المادة وسأقوم بترجمتها. يمكن لأُفرين مولوي أن تعود إلى هرائها وحفلاتها البرجوازية. حتّى أنتِ نجحتْ في خداعك، يا هوما».

- «اسمعي، أنا لم آتِ مطلقاً على ذكر مسألة انضمامها إلى منظّمتنا لأنّني أعلم أنَّ لكِ موقفاً منها. لكن يبدو أنّها فازت بجائزةٍ مخصصة لكتابة المقالات باللغة الإنجليزية...».

- «قلتُ أعطني المادة وسأفعل ذلك من اجلك!».

رمقتني هوما بنظرةٍ فاحصة. «قد تقعين في ورطةٍ كبيرة».

- «أرغب في مساعدتك. ستكون الترجمة بحوزتك في الغد. هل تستطيع أُفرين القيام بذلك؟ هل يمكنها أن تنجز مهمة كهذه في يومٍ واحد؟».

- «حسنٌ، حسنٌ»، قالت هوما، ثمَّ دسّتْ يدها في حقيبتها وأخرجتْ ثلاثة كتيّبات زرقاء صغيرة. «أبقي الأمور هادئة فحسب. تذكَّري أنَّ هذه موادٌ محظورة بنظر الحكومة. لا تريها لأحد».

19

مارس 1963

كان القمر معلَّقاً مثل قلادة في السماء الأرجوانية، وكانت تفوح من الهواء رائحة دخان الخشب والمكسرات المحمّصة. تجمَّع الآباء والأشقاء والعمّات والأعمام وأبناء العم والجيران في الشوارع. تناول بعضنا الشمندر الحلو الذي اشتريناه من عربة بائع الشمندر، بينما كان آخرون يلقون بحبّات اللوز المحلّى في أفواههم.

كنّا في ليلة الثلاثاء الأخير قبل حلول الاعتدال الربيعي الذي يمثّل رأس السنة الفارسية، نشعل النيران. كان تقليداً يتمحور حول الركض إلى النيران والقفز فوقها لتحرير الطاقة السلبية الحبيسة واستحضار الخير والحيوية في العام الجديد.

والآن، كان هذا الشارع - هذا الشطر من الليل - ملكاً لنا. حيث وقف طلاب من جامعة طهران، وجامعة البوليتكنيك، وجامعة بازركاني في مجموعات. كنا في غالبيتنا - نحن الفتيات - مرتدياتٍ السراويل. وكنتُ أقفز في مكاني، أحاول أن أبقى دافئة في معطفي الأزرق الداكن، ووشاحي، وقفّازيّ القرمزيين.

انحنى مهرداد بجانبي لاهثاً وقد أسند يديه على ركبتيه. «إنَّ القفز ليس بتلك الصعوبة حقاً، يا إيلي»، قال بين نفَسٍ وآخر.

«ترقُّبُ الأمر والتوجّس منه أكثر رعباً من القيام به في الواقع».

كنتُ قد قفزتُ فوق عددٍ قليل من النيران الأصغر حجماً تلك الليلة، لكنني شعرتُ بالذعر من ألسنة اللهب الطويلة لأكبر النيران. لم يتجرّأ سوى عدد قليل من الفتيات الشجاعات على تجربة القفز فوق «أمّ النيران»، وكانت أولئك اللواتي فعلن ذلك رياضياتٍ ممّن يتمتّعن بتحكّمٍ تام بأطرافهنّ، وثقةٍ في لياقتهنّ البدنية، وحاجةٍ ماسة إلى الأدرينالين.

- «يبدو هذا مستحيلاً»، قلتُ له.

وقف مهرداد منتصباً ولمس خدّي. «ما كنتُ لأكذب عليك. ستكونين على ما يرام. اذهبي وقفي في الصف. وسوف أشجّعك وأهتف لك من هنا».

إذا كان يعتقد أنَّ بوسعي القيام بذلك، فربّما أنا كذلك بالفعل. ما كان مهرداد ليعرضني للخطر، أليس كذلك؟ أمسك بيدي وضغطَ عليها مطمْئناً، ثمَّ أفلتَها.

مشيتُ نحو المجموعة حيث ينتظر الجميع دورهم للقفز فوق النار الكبرى، وأخذتُ مكاني في الصف خلف فتاةٍ ميّزتُ أنّها كانت معي أيّام الثانوية. أومأتْ برأسها وكأنّها تقول «مرحباً»، فرددتُ بابتسامة عصبية.

وقفتُ في هواء الليل الصقيعيّ، أفركُ قفّازيّ معاً. أحرقَ الدخان حلقي، وملأ رئتيّ. كنتُ أتوق لدفء النار وأخشاه في آنٍ معاً. ماذا لو مسَّت ألسنة اللهب طرف حذائي واشتعلت النيران في جسدي بالكامل؟ ولمَ لم تكن هوما هنا؟ لمَ كانت تهتمُّ باجتماعاتها الماركسية أكثر من اهتمامها بتقاليدنا الفارسية؟

تحرّك الطابور للأمام. وسرعان ما سيصل دوري. بدأتُ أشعر

بأنّني ارتكبتُ خطأً فادحاً، ورحتُ أنظر على الجانبين بحثاً عن مهرداد. لكن الرؤية كانت تصبح ضبابية جداً على بعد بضعة أقدامٍ فقط.

حُملت أصوات الضحكات التي ستدخل العام الجديد - أصوات فرحٍ فتيٍّ يولد من رحم اعتقادٍ راسخ بأنَّ العالم قد هُيِّئ لأجلك، لأجل لهوك ومتعتك وخططك - على متنِ ريحٍ جافةٍ جدّاً لدرجة تكاد تسمع طقطقتها.

شعرتُ فجأة بأنّني دُفعتُ وحُشرتُ أكثر داخل الطابور حتى كدتُ أسقط. «هل سبق لك أن جربتِ ذلك، يا إيلي؟».

كانت ترتدي بنطالاً أسود ومعطفها الأسود المعتاد الخالي من أية زخرفات، وكان شعرها يؤطِّر وجهها بغرَّةٍ مجعّدة، وصوتها يشتعل حماساً وبهجة.

عانقتُها. كانت رائحتها أشبه برائحة دخان الشيشة. «ماذا حدث؟ هل غدا اجتماعك الشيوعي مملّاً للغاية؟».

- «لم تكن هناك مشكلةٌ في الاجتماع»، لكزتني هوما بوركها، «لكنني لم أرغب في أن يفوتني هذا الطقس معك».

لم تكن ترتدي القفازات. وفكرتُ أنّها يجب أن ترفع شعرها؛ فقد قلقتُ من أن تشبَّ النار فيه حين تقفز. «يقول مهرداد إنَّ التفكير في مدى صعوبة الأمر أسوأ من القام به في الواقع».

أخذت هوما يدي المحتمية بدفء القفاز بيدها العارية. «كلانا سنفعل ذلك!».

- «هل تريدين أن تنطلقي أولاً؟».

- «سوف نقفز معاً».

- «لا مجال لذلك. سنصطدم ببعضنا، وسيخفف ذلك من زخم انطلاقتنا».

تقدّمنا في الصف بينما كنت نتحدث.

كانت الفتاة التي أمامنا تؤدي تمرين الجري في المكان استعداداً لانطلاقتها الانفجارية. كم حسدتُها على ثقتها بنفسها. اندلعت هتافات المتفرجين إذ اندفعت مسرعةً نحو النار وطارت فوقها مثل لاعبة وثبٍ عالٍ أولمبية.

ثمَّ كنا نحن التاليتين. أحكمت هوما قبضتها على يدي وانطلقنا. لم يكن لديّ خيار سوى الركض معها. اندفعنا إلى النار مسرعتين إلى أن تغيّر حال الريح من باردةٍ جداً إلى حارقة وانتشرت السخونة في كامل وجهي. بدا الأمر وكأنّنا سنغرق في ألسنة اللهب وندخل مباشرة في قلب النار.

بحكم العادة، والتقاليد، وبتحريضٍ من الذاكرة القابعة في جينات أسلافي، صرختُ ملء حنجرتي بالترنيمة التقليدية «**سرخي تو از من، زردي من از تو!**»، راجيةً النيران أن تمنحني طاقتها وحيويتها وتزيل عنّي التعب والبلادة. لم يكن صوتي وحيداً - بل كان صوت هوما متناغماً معه. كنّا على وشك مواجهة النار الآن. وكان علينا إمّا أن نندفع نحوها بجنون أو أن نقفز من فوقها.

قفزنا.

تباطأ الزمن. انتفضَ جسدي وكأنّه صُعق بتيارٍ كهربائي، ثمَّ هدأ كما لو أنّه أدخل نفسه في حالة سبات. والدم في عروقي بات مشحوناً بطاقةٍ جديدة.

نطفو معلَّقتَين في الهواء، وقد أعتم العالم بالكامل من حولنا - كنّا هناك في الأعلى وحسب، نطير، وألسنة اللهب تلعق أحذيتنا،

والهواء ضبابيٌّ حالم، والدخان يتغلغل في شعرنا، وشراذم من نار تهبط فوق كاحلينا بهدوء مثل يراعات. كنّا نعتق أنفسنا من سموم وأعباء الماضي لندخل العام الجديد مطهَّرتَين. مطهَّرتَين بدخان النار. مطهَّرتَين بزخم اندفاع الأدرينالين في أطرافنا. مطهَّرتَين بالقفز عالياً. وإذ كنا نحوم محلِّقتَين فوق كل شيء على تلك الشاكلة، بدا العالم كله ملكاً لنا.

ثمَّ هبطنا هبوطاً عنيفاً على رُكبنا. التوى معصمي إذ حاولتُ التخفيف من شدة الاصطدام؛ وافترش جسد هوما الأرض. كافحتْ مستعينة بأطرافها الأربعة لتنهض وتساعدني على النهوض، ثمَّ وقفنا معاً منتصبتي القامة، وبدأنا نترنح مبتعدتين كي نفسح المجال للشخص التالي ليهبط خلفنا.

مشينا إلى أن رصدنا هيئة مهرداد على الخطوط الجانبية، فأمسكتْ هوما بذراعي ولوّحتْ بها للأعلى معلنةً الانتصار.

استنشقتُ هواء الليل، مذهولة، ومأخوذة بصفعة السعادة الناجمة عن طيراننا العصيِّ على الاستيعاب.

لم أكن أعرف أنّه سيكون الأخير لنا.

20

نوفمبر 1963

كان الحدث الكبير الذي تطلَّعنا إليه جميعاً خلال الفصل الدراسي الأول من السنة الثالثة في الجامعة هو حفل خطوبة نيلو. كان من المخطط أن يُحتفل بزفافها على خطيبها هومان بعد التخرّج، تماماً كما كان مخططاً لزفافنا أنا ومهرداد. ولكن للاحتفال بخطوبة نيلو، كانت سوسن قد أصرَّتْ على استضافة حفلٍ ضخمٍ لهما في قصرها.

كان لدى سوسن الآن طفلٌ صغير، ورضيعٌ حديث الولادة. كانت قد تزوّجت من الكولونيل بعد الثانوية مباشرة في حفل زفاف اتّسم بالفخامة والإبهار وبهارجه الكثيرة. لم تلتحق سوسن بالجامعة على الإطلاق. كانت جامعتها عالماً لم نكن أنا ونيلو قادرتين على استيعابه بعد: عالمٌ يتمحور حول الأمومة و استضافة الحفلات للكولونيل وشبكة علاقاته الواسعة من عائلةٍ وأصدقاء.

تفاجأتُ حين وافقتْ نيلو على استضافة سوسن لحفل خطوبتها.

- «ماذا يسعني أن أقول، يا إيلي؟ سوف نتخرج العام القادم، وهذا كل ما يستطيع والداي فعله كي يتدبّرا تكلفة كل شيء إضافةً إلى حفل زفافي القادم. كما أنَّ سوسن تستمتع بالتخطيط والإعداد

للحفلات، وهي متحمسةٌ لأن تقيم لي أمسية مميَّزة. سيكون الأمر ممتعاً».

حتّى هوما رضخت لفكرة حضور حفل نيلو، فقط لأنَّ ذلك عنى الكثير لهذه الأخيرة. وسوف تكون هوما حسنة الهندام في الحفل بفضلي. فقد أسرَّتْ لي بأنّه ليس لديها شيءٌ لائق لتلبسه في حفلة نيلو، إذ كانت كل الأقمشة والفساتين التي تخيطها والدتها محجوزةً للسيدات الثريّات في الأحياء الراقية. لذا أحضرتُ معي إلى الحرم الجامعي فستاناً بنّياً كان العمّ مسعود قد اشتراه لي في لندن. فستانٌ بسيط، لا شيء مترف فيه. كان مثالياً لهوما.

- «أوه، إنَّ عمّك يتحول إلى جاهلٍ حقيقيّ حين يتعلّق الأمر بالموضة»، قالت أمي. «لم يفكّر في إحضار القياس المناسب. إنّه طويلٌ جدّاً عليكِ، يا إيلي، كما إنّه بسيطٌ جدّاً ومحتشم - وبالتأكيد لا يستحق العمل على تقصيره. دعينا نعطيه لبتول، يمكنها أن تأخذه إلى أقاربها في القرية».

قلتُ لأمّي إنّني أعرف أحداً في الجامعة يمكنه الاستفادة منه.

- «أهي هوما تلك التي لا تزالين مصرّةً على صداقتها؟ بالطبع، إنّها مَن تريدين أن تعطي الفستان لها. أنتِ تحاولين دائماً مساعدتها، أليس كذلك، يا إيلي؟ ألم تسمعي بالمثل القائل ''اتَّقِ شرَّ من أحسنتَ إليه''؟»، ثمَّ أشرق وجهها. «حسنٌ، إنّه ثوبٌ قبيح. لا بأس، أعطيه لصديقتك تلك كي يكون لديها ما ترتديه في حفل خطوبة نيلو. وبهذه الطريقة ستتماهى مع الجدران ولن يلاحظها أحد، ولن تحظى بفرصةٌ لتتفوّق عليكِ في أيّ شيء».

- «أمّي، ما الذي تتحدثين عنه؟».

- «أوه، يا حبيبتي»، قالت أمّي وهي تهزُّ رأسها. «لا يزال

أمامك الكثير لتتعلّميه. سوف ترغب في التفوق عليكِ لسببٍ بسيط للغاية». فتحت أمّي ذراعيها على اتّساعهما كي تشير إلى كل ما يحيط بنا: الأريكة الفاخرة، الطاولات الجانبية المصنوعة من الرخام، المزهريات ذات النقوش الدقيقة. «إنّها تغار منكِ! لمَ قد لا تكون كذلك؟ أنتِ التي لديكِ مهرداد الوسيم! أنتِ التي تملكين كل الثروة. أنتِ التي تتمتّعين بالجمال. هل خطر ببالك يوماً أنّها ترغب بما لديكِ؟».

في الأسبوع الذي سبق الحفل الكبير احتفالاً بخطوبة نيلو، جلسنا - أنا وهوما - في غرفة فصلٍ دراسيّ فارغة داخل الحرم الجامعي، والكتب مبعثرةٌ أمامنا على طاولة الدراسة. كانت كلتانا تحضّر للامتحانات. وكان مهرداد مشغولاً بالعمل في المختبر وبدراساته الخاصة؛ لم أكن قد رأيتُه لأيّام. وكنتُ أشعر بإعياءٍ شديد نتيجة محاولتي الحثيثة لأن أبقى مواكِبةً لدروسي، مع ما كان يقتضيه ذلك من نقصٍ في النوم، واستغراقٍ في أزمان الأفعال وقواعد اللغة الإنجليزية. شعرتُ في بعض الأحيان بأنّني كنتُ أعملُ على تنفيذ خطة هوما، وليس خطّتي أنا. أليستْ هي من أرادت منّي أن ألتحق بالجامعة حتى أشارك في إحداث التغيير؟ كان طموحها - وليس طموحي - هو الذي أوصلنا إلى هنا. وغالباً ما شعرتُ وكأنّني محتالة تمَّ قبولها عن طريق الخطأ، إذ لم يكن لديّ شغفٌ باختصاص اللغات الذي أقحمتُ نفسي فيه كالذي لدى هوما بحقل القانون.

رفعتْ هوما عينيها عن دفترها المدرسي، وقالت: «النفاق هو أكثر ما يثير حنقي».

هل قرأت بطريقةٍ ما أفكاري؟ هل عرفت كم كانت صيغة الشرط

في الأفعال الإنجليزية - والتي كان عليَّ أن أدرسها لامتحاني في اللغات - لا تهمّني في شيء؟

تمتمتُ قائلة: «ماذا؟».

- «ثورة الشاه البيضاء».

في شهر يناير من العام 1963 بحسب التقويم الغربي، أعلن الشاه عن سلسلةٍ من الإصلاحات على مستوى البلاد أطلق عليها اسم «الثورة البيضاء». سُمِّيتْ الإصلاحات بهذا الاسم كي ترمز إلى التغيير دون إراقة الدماء.

- «ولِمَ الثورة البيضاء منافقة؟ أرجوكِ أخبرينا».

- «أوه، بالله عليكِ، إنّها مبنيةٌ على النفاق!»، قالت هوما بنبرةٍ متغطرسة كرهتُ وقعها على أذنيّ.

- «حبّاً بالله، يا هوما. ماذا عن الإصلاحات المتعلقة بملكية الأراضي، وتقاسم الأرباح، وحصول المرأة على حق التصويت، وتأميم الموارد المائية؟ هل كل هذا نفاق؟ أليس هذا ما أردتِه أنتِ ومنظّمتك؟ لا شيءٍ من كل هذا جيّدٌ بما يكفي لإرضائكم؟».

- «إيلاهيه»، نطقت اسمي الكامل بنبرة لا تصدر إلّا عمَّن يشعر بالإشفاق. «بالطبع يسعدني حصول النساء على حقّ التصويت. كان يجب أن نحصل على هذا الحق منذ زمنٍ بعيد لنكون صادقين. لكن لا تنخدعي، إنَّ أيّاً من هذه الإصلاحات لا يتطرق - ولو بالحدّ الأدنى - إلى الانتهاكات الصارخة لحقوق الإنسان أو الفساد أو...».

تنهدتُ إذ بدأتْ تسرد - مجدّداً - أمثلة عن التحزّب، والمحسوبية، والدفع مقابل الخدمات للمسؤولين المحسوبين على الشاه، والذي بدوره يوظّف شرطةً سرية لخدمته، ويضرب الخارجين

عن طاعته بلا هوادة. لمَ كانت هوما مؤدلَجةً ومستحيلةً إلى هذا الحد؟

- «لقد نظّمتُ مع مجموعتي احتجاجاً كبيراً على مستوى الجامعة يوم الأربعاء القادم. أنا أسرُّ لكِ بهذا لأنّني أثق بك. وترجمتكِ للمنشورات ساعدتنا كثيراً - شكراً لك مجدداً على ذلك، يا إيلي. خطّتنا هي أن نطلق اعتصاماً، وإذا قاومت السلطات ولم تستمع لمطالبنا، فنحن جاهزون لإضرابٍ شامل. نأمل ألّا يصل الأمر إلى هذا الحدّ. لكنَّ الاحتجاج ماضٍ قدماً لا محالة. ولتجنّب مشكلة الاعتقال - فالله يعلم بأنّنا لا نملك حرية التعبير في هذا البلد - سنبدأ بالقول إنّه احتجاجٌ على سياسات الجامعة النخبوية والتخفيضات المحتملة في البنود الأكاديمية ضمن الميزانية. لكنَّ الفكرة وراء ذلك هي أنّنا سنعبّر عن اشمئزازنا من الشاه وتظاهره بأنّه أقرَّ إصلاحاتٍ حقيقية في حين أنَّ ما يفعله خلف الكواليس شيءٌ لا يتصوّره عقل».

شعرتُ بالقلق من حقيقة أنهم كانوا ماضين قدماً في تنفيذ خططهم، خاصةً بعد ما حدث قبل بضعة أشهر فقط.

قبل خمسة أشهر، في شهر يونيو، اندلعتْ أعمال شغب في عموم إيران، ونزل الناس إلى الشوارع دعماً لرجل الدين آية الله الخميني الذي اتّخذ موقفاً مناهضاً لهذه الإصلاحات. بعد ذلك، أطلقت الشرطة السرية التابعة للشاه «السافاك» حملة قمعٍ عنيفة، واقتحمت الحرم الجامعي لاجتثاث المنشقين.

كانت هوما قد أكدت لي - وهو ما أراحني كثيراً - أنّها ومجموعتها من الطلبة الشيوعيين لم ينخرطوا في أعمال الشغب تلك في يونيو، لكنّني كنت أتساءل الآن ما إذا كانت تعرف معنى الشعور

بالخوف أو ما إذا كانت تمتلك الحدّ الأدنى من الحسّ السليم.

- «ما تقولينه خطيرٌ للغاية، يا هوما. أرجوكِ لا تفعلي ذلك».

- «لماذا؟ حتى أكون قادرةً على الجلوس والاسترخاء ومشاهدة حقوقنا وهي تتآكل وتتلاشى طوال الوقت؟ أتمنّى أن تأخذي وقتاً لتفهمي، يا إيلي. ثمّة أشياءٌ يجدر بنا القلق بشأنها أكثر أهمية بكثير ممّا سترتدينه في حفل خطوبة نيلو يوم الجمعة. كل ما يهمّك هو هراء الحفلات وما الرائج فيها».

أزعجتني نبرتها الفوقية. «يا لفظاظتك! عندما احتجتِ إلى ترجمة الكتيّب التروتسكي، مَن فعل ذلك؟ أنا. كيف يسعكِ القول إنّني لا أهتم وقد فعلتُ هذا لأجلك؟».

- «لأنّكِ لا تهتمّين. لقد ترجمتِ الكتيّب فقط لتسجّلي نقطةً على أُفرين! هذا لا يعني أنّني لا أقدّر ما فعلتِ. لكن كوني صادقة؛ لم تُثر كلمةٌ منه اهتمامك. ليس لديك أدنى شغف بالقضية الفعلية».

كانت محقّة. لم أكن مهتمّة أو معنية بأيٍّ من ذلك كما كانت هوما. كنتُ قد ترجمتُ الكتيّب فقط لكوني تألمتُ من حقيقة أنّها طلبت من أُفرين القيام بذلك، وليس لأنّني أهتمُّ حقّاً بمحتواه. في حياتي اليومية، لطالما حاولتُ أن أبقى غير مسيّسة قدر المستطاع، لكن بالطبع كان من المستحيل أن أعيش حياةً خاليةً من السياسة تماماً. وحتّى قدرتي على اعتبار نفسي غير مسيَّسة كانت بمثابة الدلالة على ما اعتبرتْه هوما امتيازاتي في الحياة: حظّي، وثروتي، وأموال عائلتي. لكنّني كنتُ قد سئمت من اضطراري الدائم لأن أستمع إلى ذات التذمر بشأن كم كان كلُّ شيءٍ يسير على نحوٍ خاطئ في بلدنا. كانت هوما تبدو ببساطة مصممة على إلقاء اللوم على الشاه مهما حدث.

- «أحياناً أشعر أنْ لا شيء يمكن أن يرضيكِ، يا هوما»، قلتُ لها. «لا شيء على الإطلاق. وماذا عن إصلاحات الثورة البيضاء؟ أليستْ ما كنتِ ومجموعتك الشيوعية تريدونه؟ لكنكِ لا تكفّين أبداً عن الشكوى».

- «أنا التي لا تكفُّ عن الشكوى؟ أنتِ التي تشتكين طوال الوقت بشأن صعوبة كلّ شيء، يا إيلي. أنتِ تشتكين حتّى من أنّه يتعين علينا أن نتقدّم للامتحان!».

- «حسنٌ. أنا أشتكي من الجامعة. لكنّكِ تشتكين من هذا البلد ليل نهار. وتلقين اللوم على الملك وأعضاء البرلمان والأغنياء وأصحاب الشركات في كلِّ شيء. أنتِ تدَّعين بأنّكِ تريدين مساعدة "الناس العاديين"، لكنّك في العمق تعتقدين أنّكِ أذكى منهم. هل لديكِ حتى بعض الاحترام لشعب هذا البلد؟».

تغضّنَ وجه هوما تعبيراً عن خيبة الأمل. ثمَّ بدأ طرفٌ واحدٌ من فمها في الانقلاب نحو الأعلى.

كرهتُ ابتسامتها الساخرة، تلك الابتسامة المتكلّفة التي تقول "أنا العارفة بكلِّ شيء".

- «لا يمكننا التظاهر بأنَّ كلَّ شيءٍ رائعٌ، يا إيلي». سكتتْ للحظة. «أو على الأقل لا يمكننا ذلك حين لا يكون هذا هو الحال بالنسبة للكثيرين. أعلم أنّه كذلك بالنسبة لكِ. فسياسات الشاه تصبُّ في صالحك؛ وفي صالح عائلتك، والناس في حيِّك. أنتِ تتحولين إلى مؤيدة لشرعية المَلكية أمام عينيّ. أو ربّما كنتِ دائماً كذلك».

تشنّجتْ رقبتي وكتفاي. غمرتني نظرتُها إليّ بكل ما حملتْه من خيبة أمل بإحساسٍ بالخزي والسخط في آنٍ معاً. شعرتُ في تلك اللحظة أنَّ أيَّ شيءٍ أفعله لن يكون يوماً كافياً لها. فدائماً ما ستنظر

إليّ على أنّني ضحلةٌ، وغنيّةٌ، وأتمتّع بالكثير من الامتيازات. كان اتّهامها لي بأنّني مؤيدةٌ للمَلكية يرنُّ في أذنيّ. وماذا لو كنتُ كذلك؟ هل كانت تلك جريمة؟

- «ستصبُّ هذه السياسات في مصلحة الجميع في نهاية المطاف، سوف ترين»، قلتُ لها. «هذا هو الهدف الأساسي من هذه الإصلاحات. لطالما كنتِ تولين اهتماماً كبيراً بحقوق المرأة؛ لا يمكنكِ أن تنكري مقدار التقدم الذي تحرزه البلاد في هذا المجال. علينا أن نثني حين يكون الأمر يستحقّ الثناء. الشاه يساعد النساء، هذه حقيقة». سُر مَن قرأ

- «لا يزال أمامنا طريقٌ طويل جداً لنقطعه، يا إيلي. لن يتم استرضائي بالفتات. ماذا عن الحرية في انتقاد الشاه؟ نحن لا نملك القيام بذلك. ماذا عن حقوق الأقليات؟ هل تهتمين حتى بحقوق الكُرد في هذا البلد، يا إيلي، أو بحقوق...».

بدأ رأسي ينبض حين أخذتْ تسرد قائمةً بكلِّ المظالم. كانت تطرح نقاطاً محقّة، لكن لم تكن لدي رغبةٌ في سماع سلسلة الأخطاء من جديد. لذا جمعتُ دفاتري وكتبي ووضعتُها في حقيبتي، وقلت: «الدراسة معك غير مجدية بالمرة. أنتِ لا تركّزين أبداً؛ تريدين النقاش طوال الوقت. أنتِ ومجموعتك من الناشطين الشيوعيين لا تفعلون شيئاً غير اختلاق المشاكل. أنتم لا تملكون ذرّةً من الامتنان لما لدينا في هذا البلد. تفضّلي، امضي قدماً في التخطيط لاعتصاماتك وإضراباتك. خطِّطي لـ "احتجاجك الكبير". كلُّ هذا مضيعةٌ للوقت فحسب».

- «إنّه ليس مضيعة للوقت على الإطلاق»، قالت هوما. «بل هذا أفضل ما يمكن أن نفعله بوقتنا».

- «حقّاً؟ وتقولين إنّكِ تريدين أن تصبحي محامية؟ أو قاضية؟ كيف ستفعلين ذلك إذا كنتِ مضرِبة؟».

- «نحتاج أن تعلم السلطات أنَّ ـــــ».

- «لا أعرف ماذا تريدين، يا هوما. الطوباوية غير قابلةٍ للتحقيق في الواقع. أعلم أن والدك شيوعي، لكن انظري إلى أين أودى به ذلك. إنّه قابعٌ في السجن، لا نفع منه لأيٍّ أحد. . .».

انتصبتْ هوما وتصلبت مثل قضيب معدني في كرسيها. «ماذا تقولين عن أبي؟».

ابتلعتُ أنفاسي، وشعرتُ بالندم على ذكر والدها حالما خرجت الكلمات من فمي. «لا شيء، اسمعي، أنا آسفة، لكنَّ ما تفعلينه بلا طائل. تنظيم وقفةٍ احتجاجية، ومن ثمَّ إضراب. أمّا بشأن أنّني لستُ مثلك؛ فأنتِ محقّةٌ في ذلك. أنا لا أحبُّ هذه الجامعة حتى. أنا أريد أن أتزوج مهرداد. أريد أن يكون لديّ أطفال. أريد خمسةً منهم، ربما ستة. وسوف ألزم المنزل معهم. وسوف أنشغل بتربيتهم. ولن أقلق بشأن حقوق المرأة، أو المراسيم، أو حتى حق التصويت. ما قولك في ذلك؟ سأكون جميلةً كرمى لزوجي، سأقدّم له العشاء، سأرتّبُ سريره، وسأسلِّم نفسي له. يبدو وقع هذا أفضل كلّ دقيقة!».

- «تسلِّمين نفسك لزوجك؟».

- «نعم، لزوجي! أنتِ حتى لا تملكين شريكاً، يا هوما. أنتِ لستِ. . . طبيعية فحسب». وفي سلسلةٍ من الحركات الخرقاء، أغلقتُ حقيبتي، ونهضتُ، ثمَّ استدرتُ وتوجّهتُ نحو الباب.

- «إلى أين أنتِ ذاهبة؟»، نادت هوما. «لم ننتهِ من الدراسة بعد».

- «ألستِ ذاهبةً للإضراب؟ ماذا لدينا لندرس إذاً؟».

جذبتُ الباب بعنفٍ وأنا أهمُّ بالخروج على أمل أن يصفق بقوة، لكنّه أخذ ينغلق ببطء فحسب. التفتُ للخلف مرة واحدة قبل أن أغادر. كانت لا تزال جالسة، والجزء العلوي من جسدها قد استدار باتجاه الباب، وكانت ملامحها تعبيراً حيّاً عن معنى الحيرة المطلقة.

خلال ساعات، شعرتُ بالندم حيال جدالنا. لم يكن ينبغي بي أن أثير موضوع والد هوما بتلك الطريقة اللامبالية. كنتُ أعرف أنّها تفتقده بشدّة. وكان لهوما كل الحق في أن ترغب في إصلاح مشاكل بلدنا. بالطبع كان لها الحقُّ في ذلك.

في اليوم التالي، وخلال الأيام التي تلته، تجنّبتني هوما في الحرم الجامعي. كنتُ أعرف أنّها تأذَّتْ. لقد خضنا بعض الشجارات في السابق، لكن بدا هذا مختلفاً. عدتُ بذاكرتي إلى ما قبل بداية صداقتنا يوم نادتني بالحمارة وذكّرتُها بأنّني من أصولٍ ملكيّة. بدت تانك الفتاتان وهما تركضان من وسط البلد إلى المدرسة وكأنّهما مخلوقان من عالم آخر الآن. كيف أمكنني أن أكون ساذجةً لدرجة تصديق أنّه سيُكتب لصداقتنا النجاة رغم اختلافاتنا الجديدة في الثروة والسياسة؟ فبينما كنتُ أرقص في السهرات، كانت هوما تعمل في مطبخ أحد المطاعم. وبعد مضي كل هذا الوقت، لم تكن أمي تأذن لها حتّى بالدخول إلى منزلنا. حين كنا طفلتين، ربّما لم يكن حصر تركيزنا على بهجتنا وتسليتنا ونكاتنا وكل المشتركات الأخرى بالأمر المعقد. لكن واقعنا المعاش الآن كان يتباين أكثر فأكثر بمرور كل يوم.

لم تكن حياتها الماركسية السريّة تعجبني. وكنت أشعر بالقلق من أنّها قد تصبح من ركائز الحركة الشيوعية. فرغم أنّها حدّثتني بشأن الاحتجاج القادم، إلّا أنّها نادراً ما كانت تشاركني ما حدث في اجتماعات التخطيط. لم أعرف حتى أين يجتمعون! في المقاهي في دربند؟ في غرفٍ سرية بعيداً عن أعين شرطة الشاه السرية؟ عندما كنّا أصغر سنّاً، لطالما ساعدت نظرة هوما لي في إبراز أفضل خصالي. لقد آمنتْ بي ورأتْ فيَّ خيراً وذكاء أكثر مما تجرأت أن أصدق أنّني أملك منهما بالفعل. لكن الآن؟ وكطالبتين في السنة الجامعية الثالثة، فإنَّ نظرتها لأسلوب حياتي جعلتني أشعر بالخجل وحسب. كنت أكره التفكير في الخيلاء وزيف الماديات اللذين كانت تراهما في دوائري الاجتماعية. كنتُ أكره ذلك لأنّه فجّرَ فقاعة العالم الذي عُنيتُ كثيراً بأدقِّ تفاصيله خلال حياتي الجديدة شمال المدينة.

مع ذلك، كانت صداقتنا تستحقُّ الإنقاذ. تستحقُّ الحفاظ عليها. تستحقُّ الحماية. فقد كنتُ أعرف أنَّ قلب هوما نقيٌّ جداً. ولطالما أُعجبتُ بعجزها التام عن أن تكون مزيّفة بحالٍ من الأحوال. كانت أكثر مَن عرفتهم أصالة في حياتي. وكنتُ أثمِّنُ صداقتنا كثيراً بحيث لن أدع جدالنا الأخير يقف حائلاً بيننا.

مضت خطتها للوقفة الاحتجاجية يوم الأربعاء قدماً. فقد رأيتُ أثناء سيري إلى الحرم الجامعي حشداً من الطلاب المتجمّعين عند المدخل الرئيسي. ولأنّني كنتُ جبانة، أسرعتُ مبتعدة عن العيون المترصدة لعناصر الشرطة السرية التي قد تكون منتشرة في المكان، لكنّني تمكّنتُ من سماع مطالب الطلاب. كانوا يصرخون بشأن أنَّ

التعليم يجب أن يظلَّ مجانياً دائماً. كما طالبوا الإدارة بإجراء تغييرات لتطبيق مبدأ المساواة في التعليم. كانت هتافاتهم محددة وواضحة الأهداف. كانوا يحتجّون على سياسات الجامعة، ولم يقولوا شيئاً ضدّ الشاه بصورةٍ مباشرة. لكن من الواضح أنَّ التوجّه الضمني داخل الحشد كان مناهضاً للشاه بشدة.

وقفت هوما وسط الحشد، بجانب عبدول من بين كل الناس. إذاً فقد أقنعتْه بالانضمام إليها. بالطبع، فعبدول لا يستطيع أن يقول لا لهوما أبداً. وفي المقابل، علمتُ لاحقاً من مهرداد أنّها وافقتْ حتى على الخروج معه في نزهة. أخبر عبدول مهرداد بأنّه لم يرَ يوماً هوما بهذه السعادة - كانت تضج بالأدرينالين والطاقة الإيجابية المعدية.

لم يكن بالإمكان أن تتجنّب إحدانا الأخرى إلى الأبد.

قررتُ أنّني حين أراها في حفل خطوبة نيلو يوم الجمعة، سأكون الأكبر وأعتذر لها أولاً، لم أكن قادرة على الاستمرار في تحمل هذا الخصام المتوتر - وتجنّب إحدانا للأخرى بسبب المشاعر المجروحة. سيتحتَّم علينا أن نتواجه مجدداً. لذا كان علينا أن نتوصّل إلى نوعٍ من الهدنة.

كانت تعرف أفضل ما فيّ، لكنّها أيضاً عرفتْ الأسوأ.

كانت هوما تعرفني حقّ المعرفة - كانت تلك هي المشكلة.

21

نوفمبر 1963

مساء يوم الحفلة، رفعتُ تسريحتي المفضلة - خلية النحل - إلى أعلى نقطة ممكنة، ووضعتُ تبرّجي، وتدرّبتُ في ذهني على ما سأقوله لهوما حين أراها. كان الفستان الذي طلبتْه أمّي لي من الخياط مصنوعاً من حريرٍ فاخر باللون الأخضر الداكن، بخصرٍ يضيق تدريجياً كلما نزلنا للأسفل، وقطعةٍ سفلية من قماش التول مصممة لتُظهر قوامي الممشوق وذراعيّ المتناسقتين. كنتُ قلقةً من أنَّ قَصَّة الفستان تبدو طفوليّةً بعض الشيء، لكنَّ أمّي أكَّدتْ لي أنّها ليست كذلك.

إذ فتحتُ علبة الفستان، استقرَّ رأيي على ثلاث نقاط: سأعتذر لهوما لإقحامي اسم والدها في جدالنا بغير قصد، وسأؤكِّد أنَّ بإمكانها أن تفعل ما يحلو لها بشأن خططها السياسية، وأخيراً، سأحرص على أن تعرف أنَّه لطالما كان أمنها وسلامتها همّي الأوّل.

كانت ستقبل اعتذاري - كنتُ متأكّدةً من ذلك. لم تكن هوما ممّن يحملون الضغينة في قلوبهم؛ كانت تعجبني هذه الخصلة فيها، حتى إنّني كنت أحسدها عليها. سينتهي بنا المطاف أنا وهي آخر الليل جالستين معاً، نأكل فطائر الكريمة المميزة التي تعدّها سوسن،

ونضحك حول كم يبدو الكولونيل سخيفاً في زيه العسكري الذي سيرتديه على الأرجح في الحفلة.

بعد الثامنة مساءً بقليل، قرعتُ جرس باب منزل سوسن الضخم. كانت سوسن - مثل معظم المضيفين الإيرانيين - تقدِّم العشاء متأخراً. وغالباً ما يقضي ضيوف الحفلة الساعات الأولى في تبادل المجاملات والأحاديث السريعة وتناول المقبلات. إذ فُتح الباب، دخلتُ الردهة الكبيرة. كانت الأرضية المبلطة ببلاطٍ مثمّن الشكل وباللونين الأبيض والأسود تلمع أسفل قدميّ. اقترب منّي خادمٌ لديه عرجٌ بسيط وأخذ معطفي المصنوع من وبر الجمل. نظرتُ نحو الثريا المتلألئة المتدلية من السقف المرتفع، وإلى الدرج الملتف صعوداً إلى الطابق العلوي. هل كان الطفلان ينامان قريري العين هناك؟ كنتُ آمل أن أتمكن من رؤية ابنها، وطفلتها الصغيرة. لكنهما كانا بالطبع معزولين في الطابق العلوي مع مربيتهم، تاركين الصخب والمرح للبالغين.

قادني الخادم وصولاً إلى الممر المؤدي إلى الصالة الكبيرة. في تلك الغرفة المزدحمة بالضيوف، فاحت من الهواء رائحة عطورٍ وكولونيا فاخرة. كانت الأرضية مغطاة بسجادة فارسية ضخمة جداً منسوجة باللون البني الفاتح والأزرق الداكن والأزرق الفاتح، وبأنماط هندسية شديدة التفصيل والدقة. كان الجميع متأنِّقين جداً: ارتدت النساء فساتين بلون الياقوت والعقيق والزمرد وقطع مجوهرات تتناسب مع فساتينهنّ، وارتدى بعض الرجال البذلات الرسمية، فيما ارتدى آخرون بذلات التوكسيدو. وقف الضيوف في مجموعات صغيرة، يتجاذبون أطراف الحديث ويتناولون المقبلات في أطباق

صغيرة. كان بعضهم يحمل كؤوساً طويلة ورفيعة، افترضتُ أنّها للشمبانيا.

ربما لم تكن حفلات سوسن متفلّتة مثل حفلات أُفرين مولوي، لكنّها كانت في حدٍّ ذاتها أسطورية لجهة فرادتها وسحر أجوائها. وكان الكولونيل أكثر من سعيد بتمويل كل رغبات زوجته، بما في ذلك المشرب المؤقت الذي وُضع في الطرف البعيد من الصالة، ومُلئ بزجاجات الويسكي والشمبانيا؛ مشروبات كنتُ قد تعرفتُ عليها لأوّل مرة في حفلات أُفرين. تذوَّقتُ الكحول مرةً واحدة في إحدى حفلات أُفرين - مجرّد بضع رشفات لم أستمتع بها مطلقاً من النبيذ الأحمر الذي بدا طعمه أشبه بـ **شربات** الكرز الفاسد. كان لديَّ شعورٌ متناقض حيال الكحول: فمن المؤكد أنَّ كثيراً من الناس في بلدنا «ذي الغالبية المسلمة» يشربون الكحول، لكن تلك المرة اليتيمة التي شربتُ فيها النبيذ لم تكن تجربة مميّزة بالتأكيد. جلتُ بنظري في أرجاء الصالة الواسعة. كانت هذه الجمهرة هي بالضبط ما تطلق عليه هوما اسم «البرجوازية المتغربنة».

أين كانت هوما؟ كنتُ جاهزة لمواجهتها والاعتذار منها أخيراً.

مرَّ بي نادلٌ يلبس بذلة توكسيدو ويحمل صينية مدوَّرة، وناولني واحداً من تلك الكؤوس الرفيعة قبل أن يتسنى لي الرفض.

- «أنا لا أشرب الكحول»، قلتُ بهدوء دون أن يكون كلامي موجّهاً لأحد، لكنّني كنتُ قد أخذتُ الكأس في يدي بالفعل. استجمعتُ شجاعتي، وطلبتُ من نفسي أن أنضج قليلاً، وأخذتُ رشفة، فتجشّأتُ على الفور. لم أتوقع أن يكون هذا المشروب فوّاراً. بدا نوعاً ما شبيهاً بمشروب كا-نا-دا الغازي المفضل لدي، لكنّه أقلُّ حلاوة وأكثر حدّة.

أخذتُ رشفةً أخرى وأنا أفكر في مهرداد. كنتُ أتوق لرؤيته. حمداً لله أنّه لم يكن لدى كلينا امتحانات لبعض الوقت. سيمكننا أخيراً الليلة أن نعوّض بعضاً مما فاتنا - أن نكون معاً من جديد. كان قد خرج قبل بعض الوقت بسيارته إلى المطار كي يُقلَّ ابن عمه العائد من الدراسة في لندن. ولأوفِّر عليه رحلةً طويلة عبر المدينة وصولاً إلى منزلي، رتَّبنا أن نلتقي في الحفلة. لكن أين كان؟

رأيتُ نيلو بطرف عيني.

جاءت إليّ وهي تبتسم وتضحك بجذل. وعانقتني على الفور.

استنشقتُ إذ عانقتني رائحة ماء الورد المألوفة المفضلة لدى نيلو. ثمَّ أمسكتُها ومددتُ ذراعي على طولها. «انظري إلى نفسك!»، قلتُ مدركةً أنّني بدوت مثل أمي تماماً في تلك اللحظة. «أنتِ رائعةٌ ووجهك يفيض سعادة. تهانينا، نيلو جون!».

- «شكراً، شكراً لك!»، قالت نيلو. «أنا جدُّ سعيدة لأنك هنا. لقد تفوّقت سوسن على نفسها تماماً، كل شيءٍ رائع على نحوٍ مبالَغٍ فيه». تجشّأتْ فجأة، وضحكتْ.

- «هل كنتِ تشربين الشمبانيا أيضاً؟»، سألتُها.

- «القليل فقط. دعيني أريكِ الطعام... أقصد المقبّلات فقط. هناك المزيد على الطريق!».

أمسكتْ بيدي وقادتني إلى طاولةٍ طويلة جداً على الجهة الأخرى من الصالة، فُرشت بأوانٍ فضية، وأطباق من الخزف الصيني، وأطباق تتدرج بمختلف الأحجام. غمَر فيض من السعادة حواسّي لدى رؤية المنظر المجيد لشرائح الـ **كوكو سبزي**، وبطاطس الـ **كوكو** المقلية، وشرائح فريتاتا الباذنجان، والدولمة المكدَّسة على شكل هرم، والفلفل المشوي، والباذنجان والطماطم المطبوخين في

مصل اللبن، وشرائح من اللحوم الباردة، وأكوامٌ وأكوام من سلطة أوليفييه، والكافيار فوق شرائح الخبز المحمّص. مدّتْ نيلو يدها إليّ بصحنٍ صغير وضعتْ فيه شريحتين مثلثتين من الخبز المحمص المغطى بالكافيار. «من بحر قزوين. كافيارنا الإيراني هو الأفضل على الإطلاق»، قالت نيلو. أخذتُ قضمةً وتلذذتُ بطعم ملوحة البحر في الكافيار، واستطعتُ تمييز نكهة عصير الليمون في الأعلى. فأخذتُ إذ ذاك رشفةً أخرى من الشمبانيا.

- «نيلو جون، هل رأيتِ هوما؟».

- «نعم، لقد وصلت باكراً! أنا هنا منذ الساعة الثالثة كي أساعد سوسن في جميع التحضيرات، رغم أنَّ جيش الخدم التابع لسوسن لم يسمح لي بتقديم الكثير. كانت هوما أوّل مَن وصل من الضيوف، وقد أصرتْ على الذهاب إلى المطبخ لمساعدة الطهاة. لقد أخبرتْها سوسن أنّه ما من داعٍ لذلك، لكنّكِ تعرفين كيف هي هوما - ما كانت لتقبل بالرفض كإجابة! بالمناسبة، إنّها تبدو مذهلة في ذلك الفستان. قالت إنّك أعطيتِه لها؟».

- «هل تبدو كذلك فعلاً؟»، سألتُها.

- «أوه، إنّها تبدو رائعة. وللفستان دورٌ كبير في ذلك؛ يبدو وكأنّه صُنع خصيصاً لها».

- «أوه». كنتُ سعيدةً لأنَّ الفستان بدا جيّداً على هوما؛ كنتُ بالطبع سعيدة. ابتلعتُ المزيد من الشمبانيا.

لا بدَّ أنَّ نيلو استشعرتْ لديَّ شيئاً من عدم الثقة بالنفس لأنّها قالت في الحال: «وأنتِ تبدين جميلة في هذا اللون الأخضر، يا عزيزتي! إنّه يناسبك كثيراً!».

شكرتُ نيلو، واستبدلت بسرعة قلقي بشأن كون قَصّة فستاني

تبدو طفولية بفكرةٍ رصينة مفادها أنّه حتى لو كانت هوما تبدو مذهلةً حقّاً، فأنا لا أزال مدينةً لها باعتذار.

- «هي في المطبخ إذاً؟ الأرجح أنّها تلعب دور رئيس الطهاة!».

ضحكتْ نيلو. «أحسبُ أنّها كذلك! فأنا لم ألمحها في الصالة أبداً. تعرفين كم تكره هوما هذه الأجواء الاحتفالية. لأكون صادقة، أشعر أنَّ قدومها إلى حفلتي لشرفٌ عظيم».

- «إنّها تعشقك. فلأجلك قدّمتْ تضحيةً كبيرة عبر حضورها حفلةً برجوازية تعجُّ بالكافيار والشمبانيا!». ضحكتُ بتكلّف، ورفعتُ لها كأسي. لم أكن قد أخبرتُ نيلو بشأن الشجار، ومن حالة نيلو المسترخية، كان واضحاً أنَّ هوما لم تخبرها بشيءٍ هي الأخرى. «سوف أبحثُ عن هوما، اتفقنا؟ استمتعي، استمتعي! بالمناسبة، أين هو خطيبك الوسيم؟».

- «إنّه مع الكولونيل وبعض الرجال الآخرين في غرفةٍ جانبية خارج الصالة. إنّهم يدخنون سيجار الكولونيل المستورد. دائماً ما تكون رائحة هومان كريهة مثل رائحة الكولونيل بعد أن يدخّن تلك الأشياء».

- «كذلك مهرداد!».

مذ أن خُطبتْ سوسن ونحن في الثانوية، كنتُ ونيلو نتبادل دائماً النكات بشأن حبّ الكولونيل للسيجار ورائحة التبغ التي تفوح منه على نحوٍ لا يمكن تجنبه.

- «حسنٌ، سيتعيّنُ علينا أن نطلب منهما تهوية ملابسهما جيداً، هذا مؤكّد»، قالت نيلو.

وضعتُ كأس الشمبانيا الفارغ على الطاولة، وغادرتُ الصالة

الكبيرة، ثمَّ شققتُ طريقي عبر الممرّ نحو الأبواب البيضاء المتأرجحة لمطبخ سوسن الكبير. كان لدى سوسن طاهية واحدة مقيمة، لكنّها كانت تستأجر طهاةً إضافيين لأجل حفلاتها الكبيرة. ضغطتُ على الباب بيدي، فأصدرتْ مفصّلته صريراً خفيفاً. توقّفتُ عندئذٍ، وربّتُّ على تسريحة خلية النحل لأجل الحظ الطيب، ثمَّ دفعتُ الباب ودخلتُ إلى المطبخ العابق بالبخار والروائح العطرية، وغمرتني رائحة دبس الرمان اللاذعة على نحوٍ خاص. هذا يعني أنَّ الـ **فسنجون** كان على قائمة الطعام الليلة. شعرتُ بفرحٍ طفوليّ لدى التفكير في ذلك. سأقول إنّني آسفةٌ جدّاً، وستسامحني هوما، ثمَّ سأسحبها خارج هذا المطبخ. وربّما سأنجح في إقناعها بالرقص.

في البداية، بالكاد تمكّنتُ من رؤيتها. لكنّها كانت هناك، وحيدةً عند الموقد، تنحني فوق قدرٍ كبير وفي يدها ملعقةٌ كبيرة. غمستْها في القدر، وسحبتْها ممتلئة، وراحتْ تنفخ عليها.

ثمَّ جاء، من الطرف الخلفيّ البعيد للمطبخ، ومشى نحوها مباشرةً. وقف بقربها وانحنى نحوها، فرفعت الملعقة إلى فمه. أغمض عينيه وتذوّق ما قُدِّم إليه. ثمَّ بدا إذ فتح عينيه على اتّساعهما مفتوناً بالكامل، وارتسمت على شفتيه ابتسامة.

ابتسامةٌ كالتي يبتسمها لي أنا فقط.

بدأتُ أشعر بوخزٍ في ذراعيّ، وانتشر هذا الشعور حتى ضجّت كلُّ ذرةٍ من كياني بما يمكنني القول بأنّه الغضب ولا شيء غيره. فهناك، بجوار هوما مباشرةً، كان مهرداد. كان يرتدي القميص الذي اشتريتُه له. وبدا شعره أكثر تموّجاً في البخار الذي يملأ هواء المطبخ. وكان لا يكف عن الابتسام لهوما.

سمعتُها تضحك.

كان جسدي متشنّجاً بشدّة بفعل الغضب. وإذ وقفتُ هناك أسند الباب المزدوج المتأرجح بذراعي، انتابني شعورٌ قويّ بأنّني مررتُ بهذا من قبل. فجأةً عدتُ إلى حين كنتُ في العاشرة من عمري، يوم رجعتُ من المدرسة وعلى رأسي تاجٌ ورقي لأجد أمّي والعم مسعود متلاصقين فوق الفراش. هذا لم يكن ذات الشيء - استطاع جزءٌ من عقلي تسجيل هذه الحقيقة حتّى في ذروة غضبي. ومع ذلك، فقد اندفع الدم إلى أذنيّ بقوة؛ وشعرتُ وكأنَّ ثمّة إبراً حادة تُغرز في رقبتي وفروة رأسي. لا يُفترض به أن يكون قريباً منها إلى هذا الحد. ولا يُفترض بها أن تجعله يتذوّق منها أيّاً يكن الأمر، أن ترفع تلك الملعقة إلى فمه وأن ينحني فوقها على ذلك النحو. أين كان الموظفون؟ لم يكن ذلك صحيحاً. لم يكن عدلاً.

هل خطر ببالك يوماً، يا إيلي جون، أنّها ترغب بما لديك؟

سمعتُ صوت أمّي داخل رأسي الدائخ. لم يكن ينبغي لي أن أشرب الشمبانيا. فقد عاد طعم الكافيار البحري المالح إلى فمي بنكهةٍ معدنية مقززة.

شعرتُ برغبةٍ عارمة في مغادرة ذلك المطبخ. هل أزعجت الكلمات التي قلتُها - في حالةٍ من الغضب والإحباط خلال جدالنا في غرفة الفصل الفارغة - هوما إلى هذا الحدّ؟ هل كان هذا نوعاً من الانتقام الباعث على الحزن؟

استدرتُ لأغادر. فتأرجح الباب وصرَّت المفصّلة مجدّداً. لا بدَّ أنّها سمعت الصرير هذه المرة. «هيه!»، نادت هوما. «أوه، هذا أنتِ، يا إيلي؟ مرحباً!».

استدرتُ نحوهما.

- «إيلي جان!»، بدا مهرداد متفاجئاً، لكن على نحوٍ مرح.

ركضتُ.

في الصالة الكبيرة، كانت ثمّة فرقة موسيقية تؤدي عرضاً حيّاً، وكانت الموسيقى فاتنة جدّاً. إنّه الجاز؛ ميّزتُه من الأفلام الأمريكية. سوسن وحفلاتها الغبية، وتقليدها الدائم للأجانب. أدركتُ عندئذٍ أنّني كنتُ أشبه هوما في تلك اللحظة، وهو ما أغضبني أكثر وأكثر. إنّها في رأسي طوال الوقت، ومتداخلة مع كياني حدَّ الاتّحاد؛ حتّى حين كانت قد خانتني لتوّها.

كان الأمر يبدو كفعل خيانة بحقّ - قربهما من بعضهما إلى ذلك الحدّ في ذلك المطبخ الفارغ. لم أعرف إن كان غضبي الأكبر منه أم منها. إصرار هوما على أنّها لم تشعر بشيء تجاه أيِّ صبيّ! ورغبتها في «النظر داخل عينيّ مهرداد»! كانت تحمل بقلبها شيئاً تجاهه، وكان الأمر واضحاً كالشمس أمام عينيّ الآن. كم كنتُ حمقاء لأنّي لم أره من قبل!

شققتُ طريقي بين الأجساد في الصالة الكبيرة، ومشيتُ وصولاً إلى الممر الأول ثم إلى الردهة الخارجية. شعرتُ بالدوار لدى النظر إلى البلاط المثمن بلونيه الأبيض والأسود. كنتُ بحاجةٍ للحصول على بعض الهواء. لذا فتحتُ الباب الأمامي، ونزلتُ بضع درجات. كانت الحديقة الأمامية مضاءةً بفوانيس معلّقة على الأشجار، وكان هواء الليل بارداً ومنعشاً. لكنَّ أنفاسي كانت ثقيلة، وجسدي لا يزال يرتعش.

- «إيلي! إيلي! انتظري!».

كانت هوما قد لحقت بي إلى الخارج. جاءت ووقفت بقربي بالفستان الذي أعطيتها إياه؛ الفستان القبيح الذي كان طويلاً جدّاً عليّ كان مناسباً جدّاً لها. وحتّى في ضوء الفوانيس الخافت،

أمكنني رؤية أنَّ نيلو كانت على حق. بدتْ هوما أنيقة وجميلةً جدّاً - ولكم كرهتُ ذلك.

- «من فضلك، لا تتحدثي إليّ»، قلتُ لها.

- «إيلي! كنت أريد أن أعتذر لك».

لاحظتُ إذ ذاك أنَّ ثمة حقيبة قماشية تتدلى من كتفها. كانت حقيبة ضخمة مستطيلة الشكل، تتعلّق بحزامٍ صوفيٍّ مضفَّر متعدّد الألوان. وكانت تتنافر على نحوٍ رهيب مع فستانها. مَن قد يفكر في حمل مثل هذه الحقيبة إلى حفلةٍ راقية؟ خطرتْ لي فكرة وقحة تقول: يمكنك أن تُخرِج الفتاةَ من قاع المدينة، لكن لا يمكنك أن تُخرِج قاعَ المدينة من الفتاة. والآن هي تريد أن تعتذر لي؟ ألم يكن لديها ذرة خجل؟

- «اسمعي، يا إيلي!»، قالت هوما. «كان ذلك الشجار الذي خضناه الأسبوع الماضي سخيفاً. كنّا غارقتين في التحضير للامتحانات. ولم أقصد أن أجرحك بتفاديَّ لكِ منذ ذلك الحين».

هززتُ رأسي غير مصدِّقة. «أهذا ما تريدين الاعتذار عنه؟».

- «نعم، اسمعي، لا أريد أن نبقى متخاصمتين - وأن نستمر في حالة التجاهل هذه. دعينا نتصالح، أرجوك. لقد ذهبتْ سوسن بهذه الحفلة إلى أبعد الحدود، ألا تعتقدين ذلك؟ ونيلو تبدو سعيدةً للغاية...».

هل كانت تظنني غبية؟ لأيِّ درجةٍ كانت تراني ساذجة؟ «لا تتحدثي إليّ»، كررتُ لها.

- «إيلي! قلتُ إنّني آسفة - بالله عليك...».

- «لقد رأيتكِ في المطبخ مع مهرداد».

- «أعرف ذلك»، قالت لي.

مجدّداً، أخذت عروقي تنبض بالغضب. «ألا يكفيكِ أنّكِ أتيتِ إلى مدرستي الثانوية، وسرقتِ منّي أصدقائي، ونافستِني في كل خطوةٍ على طول الطريق؟ ألا يكفيك أنَّكِ المهووسة في جامعتنا، الممسوسة بالسياسة والدرجات الدراسية؟ والآن عليكِ أن تغازلي خطيبي؟».

استطعتُ في ضوء الفوانيس الخافت أن أرى كيف تغيّرتْ ملامح هوما. بدتْ في حالةٍ من الحيرة الخالصة. «لا أحد كان يغازل».

أردتُ أن أدير ظهري لها وأمضي في طريقي إلى المنزل، تاركةً الحفلة ورائي: الموسيقى في الصالة الكبيرة، الكافيار فوق الخبز المحمّص، القدور في المطبخ، وخطيبي رخو المشاعر، وصديقتي ذات الوجهين.

انطلقتُ عبر الدرب المؤدي إلى البوابات العملاقة لحديقة سوسن الأمامية. فلحقت بي هوما، وجذبتني من كتفي، وجعلتني أقف مواجِهة لها. «أنتِ مخطئةٌ جدّاً. ربما كنتِ تشربين الكحول؟ هل أنتِ بخير؟».

أبعدتُها عني بعنف.

- «إليكِ ما سيحدث»، قالت هوما بهدوء. «سأعود إلى المنزل. وستعودين إلى مهرداد وتستمتعين بما تبقّى من هذه الحفلة. سأنسى أنّنا خضنا هذه المحادثة في الأساس». استدارتْ وسارت نحو البوابة، وتبادلتْ بضع كلمات مع أحد حراس الأمن التابعين للكولونيل. فتح الحارس البوابة، وصفر بأصابعه، وفي أقل من دقيقة، وصلت سيارة أجرة من صف السيارات الذي رتّبت سوسن والكولونيل لوجوده من أجل حفلتهما الكبيرة.

ساعد الحارس هوما في ركوب السيارة.

- «انتظري!»، ناديتُ عليها. كان دماغي مشوَّشاً جدّاً، وشعرتُ بصداعٍ قادم. ترنّحتُ وأنا أحاول السير على الدرب باتّجاه البوابة.

أخرجتْ هوما رأسها من المقعد الخلفي للسيارة حين اقتربتُ منها. «عودي إلى الحفلة، يا إيلي. عودي إلى مهرداد. عودي إلى نيلو وهومان، واجعلي سوسن ترى أنّكِ على ما يرام. يمكنني القول إنّكِ لستِ على سجيتك. اسمعي، ثمّة سببٌ لعدم حضوري إلى هذه الحفلات. أنا لا أنتمي إلى هنا. لم أكن كذلك يوماً. اليوم جئتُ من أجل نيلو، هذا هو السبب الوحيد. حسنٌ، ربّما من أجلكِ أنتِ أيضاً. كنتُ آمل أن نتمكن من التحدّث. أردتُ أن أبرّر لكِ موقفي ذلك اليوم حين تجادلنا بشأن الوقفة الاحتجاجية...».

وقبل أن تنهي كلامها، وقبل أن يتسنّى لي قول أيِّ شيء، انطلقتْ سيارة الأجرة.

وقفتُ وحدي لبضع لحظات، أستنشق هواء الليل بأنفاسٍ عميقة.

كان مهرداد في الردهة الخارجية عندما عدتُ إلى الداخل. «هل أنتِ بخير؟ كنتُ أبحث عنكِ في كل مكان!».

- «كنتُ بحاجة لبعض لهواء النقيّ»، قلتُ ببرود.

- «لمَ ركضتِ هكذا؟ أردتُ أن ألحقَ بكِ، لكنَّ هوما طلبتْ مني ألّا أفعل. قالت إنّكما خضتما جدالاً سياسياً صاخباً، وإنّكِ كنتِ منزعجة؟ قالت إنّها تريد التحدث إليك على انفراد، كي تعتذر منك».

نفثَ أنفي زفيراً ينمُّ عن الاستياء. «أوه، لقد أرادت ذلك؟ ''**طلبت مني هوما ألّا أفعل!**''»، قلّدتُه بأسلوبٍ طفولي ساذج.

- «إيلي، ما الذي حدث لك؟».

- «لقد رأيتكَ في المطبخ؛ تتودّدُ إليها، وتبتسم لها مثل أحمقٍ لعين، رأيتُ كلَّ شيء!».

حدَّق بي وقد ارتسم على وجهه نفس تعبير الارتباك والحيرة الذي رأيتُه قبل بضع دقائق على وجه هوما. «ماذا تقولين بحق الجحيم؟».

- «لا أريد أن أتحدّث معك الآن، يا مهرداد». لم أكن أرغب في النظر إليه. وشعرتُ برأسي يضرب بعنف.

وضع يده على ذراعي، لكنّني أبعدتُها في الحال. «أنا حقّاً لا أشعر أنّني على ما يرام. أحتاج أن أكون وحدي».

عندئذٍ، جاءت سوسن مع الخادم الذي أخذ معطفي عند وصولي، وكانت تتلو عليه ما بدا أنّها أوامر يجب تنفيذها. لا بد أنّ مهرداد رمق سوسن بنظرةٍ تنمُّ عن اليأس، لأنّها سألتْ على الفور: «ما الأمر؟».

- «لا شيء»، قلتُ وأنا أشعر بالغثيان مجدّداً. أمسكتُ معدتي. «هل يمكنني الاستلقاء في مكانٍ ما لبضع دقائق؟». نظرتُ إلى مهرداد ثمَّ إلى سوسن. «وحدي».

- «بالطبع»، قالت سوسن، ونظرتْ إليّ نظرةً خاصة بالنساء فيما بينهنّ. «أنتِ تبدين شاحبة. لا تقلقي، تعالي معي».

أمسكتْ بيدي، وأومأت لمهرداد والخادم بإيماءة مطمئِنة تنمُّ عن أنّها تعرف كيف تتعامل مع مشاكل النساء، ثمَّ اصطحبتني عبر الممر إلى غرفةٍ معتمة بعيداً عن الصالة الكبيرة.

أضاءت سوسن المصباح، فأدركتُ أنّنا في مكتب الكولونيل العابق برائحة التبغ الثقيلة. اصطفتْ رفوف الكتب على الجدران من

الأرض وصولاً إلى السقف، وتكدَّستْ الرفوف بكتبٍ تنوّعتْ ألوان أغلفتها بين العنابي والأخضر الداكن والبنّي والأسود. وعلى الرفوف الأقرب إليّ، رأيتُ على الأغلفة الجانبية حروفاً مطبوعة باللغات الفارسية والإنجليزية والفرنسية ولغات أخرى لا أعرفها.

أخذت سوسن بيدي إلى أريكةٍ جلدية تبعد بضعة أقدام عن مكتبٍ ضخم مصنوعٍ من خشب الماهوغوني. «استقلي هنا وحسب، يا إيلي جون»، قالت سوسن. «هل تريدين مني أن أحضر لكِ بعض الـ **شاي نبات**؟».

- «أوه، لا، لا حاجة لذلك»، رفضتُ عرضها لوضع قطع سكر النبات في الشاي؛ الوصفة التي يُفترض أنّها تشفي جميع الأمراض، بما في ذلك تقلّصات الدورة الشهرية. «عودي إلى حفلتك، يا سوسن جان. لا بدَّ أنَّ نيلو تبحث عنك. اعتذري لها نيابةً عنّي. أحتاج فقط إلى الاستلقاء لبضع دقائق». مضيتُ في تمثيلية ''المشاكل الأنثوية'' فأمسكتُ بمعدتي مجدّداً. «أنتِ تعرفين كيف هي الحال». بالتأكيد لم أكن أرغب في إخبار سوسن عن نوبة الغضب والغيرة التي أصابتني بسبب ما رأيتُه في المطبخ.

- «حسنٌ»، قالت سوسن. «استلقي إذاً، وسأطلب من الخادمة أن تطمئنَّ عليكِ بعد قليل. خذي ما تحتاجين من الوقت». أنزلتني برفقٍ على الأريكة، ثمَّ قبّلتْ وجنتي وقالت: «الخبر السار هو أنّكِ حين تصبحين حاملاً بعد زواجك إن شاء الله، سترتاحين من هذه التشنجات الفظيعة نهائياً. ثمّة الكثير لتتطلّعي إليه أيّتها الملكة!».

22

نوفمبر 1963

أطفأتْ سوسن المصباح وهي تغادر. كان جلد الأريكة أملسَ وناعماً بصورةٍ مدهشة. لن يكون لدى الكولونيل بطبيعة الحال سوى الأفضل داخل غرفة مكتبه الخاص. مع ذلك، كان الهواء مثقلاً برائحة التبغ - وافترضتُ أنَّه حتى محاولات التنظيف الحثيثة من قبل خدمه لن تفلح في إزالة الرائحة الكريهة. استلقيتُ هناك وغمضتُ عينيّ، وسرعان ما استحالتْ غيرتي عاراً. وكما لو أنَّ نوراً قد أضاء فجأة، رأيتُ بوضوحٍ شديد كم كنتُ حمقاء. لقد سمحتُ لأسوأ دوافعي بالتغلّب عليّ. لقد تصرّفتُ بطفولية ودفعتُ هوما حرفياً للمغادرة. وأمام مهرداد، تصرّفتُ مثل البلهاء. ولأيٍّ سبب؟ لم أرهما يتبادلان القبل أو يتلامسان على نحوٍ غير لائق، أليس كذلك؟ لقد رأيتُ مهرداد يبتسم لهوما فحسب. في مطبخٍ. ماذا لو كانا سعيدين فحسب للتواجد في حفلةٍ مليئة بالأصدقاء والطعام الجيّد؟ كانا قد أصبحا صديقين الآن بسببي. وكنتُ أعلم أنّهما يستمتعان حقيقةً بصحبة أحدهما الآخر. متى، أوه متى سأنضج وأتغلب على أسوأ خصالي: على هذه الغيرة المجنونة؟ كنتُ في العشرين من عمري، حبّاً بالله. كنتُ طالبة في السنة الجامعية الثالثة. كم تمنّيتُ

لو أنني أتمتّع بقدرةٍ أفضل على الحكم في العموم. كم تمنّيتُ لو أنَّ الوحش ذا العيون الخضراء[1] لم ينجح في معظم الأحيان في التغلب عليّ.

لم أتمكن بينما كنتُ مستلقية في الغرفة المظلمة من سماع أدنى أثر للموسيقى أو الضحك أو الأصوات. ترتيبٌ حسن كان الكولونيل قد رتّبه لنفسه. كان يمكنه في أية لحظة أن ينسحب إلى هنا: هرباً من فوضى المنزل الكبير، واحتياجات أطفاله، وتقلّبات مزاج زوجته، وحتى الخدم ومشاكلهم المحتملة. رسمتُ صورةً في ذهني للكولونيل جالساً وراء مكتبه، يكتب وثائق ذات أهمية كبيرة. ما طبيعة الوثائق التي كان يكتبها العسكريون؟ هل هي خططٌ حربية؟ تنهّدتُ. كم كان قليلاً ما أعرفه عن العالم! كم أردتُ أن أتغير وأنضج وأصبح راشدة وراجحة العقل! كنتُ مستنزفةً بسبب نوبات غضبي.

لستُ متأكدة كم لبثتُ مستلقية وعينيَّ مغمضتين. كانت قطعة التول السفلية من فستاني منفوشةً على نحوٍ سخيف فوق ركبتيّ - رمزٌ ماديٌّ ملموس لحالتي الطفولية برمّتها. ذات يوم، سأكبر. عليَّ ذلك. ذات يوم، سأهدأ، ولن أكون رازحة تحت وطأة عدم ثقتي بنفسي. سأكون زوجةً صالحة لمهرداد، وأفضل صديقةٍ لهوما. ذات يوم، سيكون لديّ أطفال، وسأكون لهم الأم الرؤوم المتفهّمة التي لم أحظَ بها يوماً. لن أجعل أطفالي يشعرون وكأنَّ الجميع يسعون للنيل منهم، أو يحاولون تسليط قوة **الجشم**، العين الشريرة عليهم، أو يعملون على تدمير سعادتهم. سأعلّم أطفالي بطريقةٍ مختلفة.

---

(1) تشخيص متخيَّل للغيرة، الأرجح أنَّ أول ذكر له كان في مسرحية **عطيل** لشكسبير - المترجم.

سأعلمهم أنَّ العالم مليءٌ بأولئك الذين يهتمّون لأمرهم بشدّة، ويريدون رؤيتهم في أحسن حال. تخيّلوا ذلك. تخيّلوا إن لم يقتصر الأمر على تغلبي على رذائلي السامَة وحسب، بل تعدّى ذلك إلى أن أنقل أفضل ما فيَّ لأطفالي. نعم، سأرَّبي أشخاصاً واثقين بأنفسهم ولديهم إحساسٌ عالٍ بالأمان. أودُّ أن أكسر حلقة الشك والتعالي والارتياب التي بدا أنّها تجري في خط دم عائلتي. ربّما لم تكن هذه حال أبي. لمَ لم أكن أعرف سوى القليل عنه؟ لمَ فقدتُه؟ بدأ حزني الأصلي يغلي وتتشكل فقاعاته على السطح. ربما لم تكن والدتي لتصبح شديدة الشك والارتياب في الآخرين لو لم تفقد زوجها وأختها في سنٍّ مبكرة؛ لو لم توجّه لها الحياة تلك الضربات الموجعة. ربّما. ربّما لا.

افتقدتُ أبي. أردتُ أباً لا يزال حيّاً.

إذ ذاك، فُتح الباب. تخيّلتُ أنّها الخادمة وقد عادت بصينية الـ **شاي نبات** مع حبات التمر، إلى أن سمعتُ سعالاً بلغمياً، واشتممتُ الرائحة النفاذة لتبغٍ طازج. أُضيء المصباح فجأة، ورحتُ أرمش لأطرد البقع المظلمة التي كانت تسبح أمام عينيّ.

- «أوه، عزيزتي، لم أركِ هناك».

ذاك كان الكولونيل.

جلستُ بسرعة، أحنيت رأسي قليلاً، وغطّيتُ ساقيَّ بقماش فستاني الرقيق. «مرحباً، «**سرهنك**»، قلتُ له. «أنا آسفةٌ جداً، كنتُ أستريح هنا فحسب». كانت سوسن مع الكولونيل منذ سنوات، لكنَّ فارق السن كان لا يزال يجعلني أشعر وكأنّني طالبة متوترة تتحدّث إلى معلّمٍ أو أب. لطالما وضعني حضوره في حالة من التأهّب الحذر.

اقترب من الأريكة، متطاولاً فوقي بكتفين بدتا عريضتين على نحوٍ لا يصدق، والمفاجأة أنّه لم يكن يرتدي زيّه العسكري، فقد كانت رتبة الكولونيل الرفيعة مصدر فخرٍ كبيرٍ لسوسن. حاولتُ أن أعتاد منظره في البذلة الخفيفة الأنيقة والقميص الأبيض مع اللمسة المرحة التي أضفتها ربطة العنق أرجوانية اللون.

وضع يده على صدره، وانحنى انحناءةً صغيرة «اردتمندم»، حيّاني برسمية مشوبة بشيءٍ من المرح.

إذ نهضتُ لأغادر الغرفة، تنحنح الكولونيل وتحدّث مجدّداً: «إيلاهيه خانم، من فضلك. راحت بش. استريحي. ابقي رجاءً، وخذي راحتك. لن آكلك بالتأكيد». ضحك بعد الإعلان الأخير بعمقٍ حتى بدا وكأنّه يسعل تقريباً، ثمَّ تحرّك مبتعداً عني وجلس خلف مكتبه.

بقيتُ جامدةً بلا حراك بجانب الأريكة. لم أكن معه وحدي من قبل. وقد تركتني كلماته مع شعورٍ بعدم الارتياح.

لـمَ لا يمكنني أن أكون شجاعةً ولو لمرَّةٍ واحدة؟ أن أرى الأفضل في الناس وليس الأسوأ. لمرّةٍ واحدة.

استرحتُ على الأريكة، عازمة على أن أتصرف كناضجة.

- «لقد رأيتُ حبيبك هناك في الغرفة الجانبية حيث دخَّنا سيجاراً معاً»، قال الكولونيل، ورفع قلم حبرٍ عن مكتبه وأزال غطاءه، ثمَّ سحب الماسورة من جسم القلم. «إنّه رفيقٌ محبّب، خطيبكِ هذا. ماذا يدرس؟».

- «الكيمياء»، قلتُ للكولونيل.

- «إنّه عالِم!». تنهَّدَ مبدياً عميق إعجابه، ثمَّ فتح زجاجة حبر،

وغمس طرف قلم الحبر فيها. «وأنتِ... أخبرتني سوسن أنّكِ تدرسين اللغات الأجنبية؟».

- «نعم، **سرهنك**». خاطبتُ الكولونيل بلقبه العسكري. قد يكون الرجل متزوجاً من رفيقتي في المدرسة الثانوية، لكنّه لا يزال أكبر منّي سناً، كما أنّه ضابطٌ عسكريّ رفيع المستوى. أظهرتُ الاحترام وبقيتُ جالسة. «أنا أدرس اللغة الإنجليزية».

بدا متفاجئاً. «تقولين الإنجليزية؟ وليس الفرنسية؟».

- «لا، الإنجليزية».

- «لقد درس معظمنا الفرنسية كلغة ثانية. أنا درستُها على الأقل. هل تحبّينها؟ أقصد اللغة الإنجليزية؟». وشرع يضخ الحبر في خرطوشة القلم بأصابعه الضخمة. «أفترض أنّك ضليعةٌ بها إذاً. هل تسمح لكِ دراستك للإنجليزية بترجمة أعمال العظماء، يا عزيزتي؟».

- «أنا أشقُّ طريقي، وأتعلّم الكثير»، قلتُ له.

- «يقول البعض إنَّ الإنجليزية ستكون لغة الأعمال والتجارة في المستقبل»، قال الكولونيل، مشدِّداً على كلماته بشيءٍ من التهكّم، كما لو أنَّ الأعمال والتجارة مجالان لمن هم أقلّ منزلة. «ويعلم الله أنَّ ذلك ينطبق على الكثير من هراء السياسة».

أنهى ملء القلم بالحبر، فأعاد الخرطوشة والغطاء إلى مكانهما، ووضعه على المكتب. ثمَّ جرَّ إليه منفضة سجائر دائرية كبيرة من الكريستال، وأخرج من جيب صدره سيجاراً غليظاً وعلبة كبريت. قدحَ عود الثقاب، وبقي وجهه في الظل بينما كان يشعل السيجار.

سأل بعد أن ابتلع أول نفسٍ بطعم التبغ، «ألن يزعجكِ هذا؟».

رددتُ على مجاملته الغامضة بإيماءةٍ على نفس القدر من الغموض.

- «أنا أشعر بالرهبة»، - زفر الدخان من منخريه - «أشعر بالرهبة وحسب حيال جيلكنّ. أنتنَّ أيّتها الشابات تستحققن التصفيق. في إيران، نحن نعيش في مجتمعٍ بطريركي. لا أحتاج أن أخبركِ بذلك بالتأكيد!». ضحك ضحكته المغلفة بالبلغم مجدّداً. «لكنّكن وعلى النحو الذي تعملن به - أيتّها الشابات - على تعليم أنفسكنّ والتقدم للأمام وترك بصمتكنّ - ستجعلن من بلدنا نجماً أكبر حتى على المسرح العالمي! أنا أؤمن بتعليم المرأة. أؤمن بالتقدّم. وأؤمن بالسير قدماً نحو المستقبل. لا أنفكُّ أخبر سوسن أنّه وبمجرد أن يكبر الطفلان قليلاً، عليها أن تذهب وتحصل على شهادتها الجامعية أيضاً. أقول لها طوال الوقت أنَّ الأوان لم يفت بعد».

ربّما كان الرجل تقدّمياً أكثر ممّا كنتُ أحسبه، رغم أنّني وفي كل المرات التي زرتُ فيها سوسن بعد زواجها، لم تخبرني ولو مرةً واحدة أنَّ الكولونيل كان يشجّعها على الحصول على شهادتها الجامعية.

- «ونيلو... إنّها التي تدرس، ماذا؟»، سأل فجأة.

- «إدارة الأعمال»، قلتُ له. «هي ليست معي ومع مهرداد في جامعة طهران. إنّها في جامعة بازركاني».

- «حسنٌ، أفترض أنَّه من منظورٍ واسع، فإنَّ لهذا المجال مكانه أيضاً». نفضَ رماد سيجاره في المنفضة. «برافو لكلِّ الشابات المتفوِّقات! وصديقتكِ الأخرى... تلك الذكية جدّاً التي أخبرتني سوسن أنّها تنحدر من وسط البلد؟ أعتقد أنّها تدرس القانون. ما اسمها؟».

- «هوما؟»، قلتُ بصيغة السؤال. رأيتُ في ذهني صورة هوما وهي تمطُّ رأسها من نافذة سيارة الأجرة المغادِرة. يا لصديقتي العزيزة المسكينة. شعرتُ بقلبي يغرق في بحرٍ من الخزي جرّاء نوبة الغيرة التي ألمَّتْ بي. نظرتُ إلى الكولونيل. «أنتَ على حقّ. هوما شديدة الذكاء. ستصبح يوماً ما قاضية».

استند الكولونيل إلى كرسيه، ومصَّ سيجاره مجدّداً. «تخيّلي ذلك!»، قال متعجّباً. «أنا أحلم باليوم الذي ستحكم فيه قاضياتٌ من النساء قاعات محاكمنا. بصراحة، أعتقد أنّنا سنكون أفضل حالاً آنذاك! أنا لستُ بذاك المتشدد قديم الطراز كما تظنّين، يا عزيزتي إيلاهيه!»، قال وضحك مجدّداً على كلماته.

ابتسمتُ بأدب. لم أكن أعرف حتى كيف كان أبي سيشعر حيال هذه القضايا؛ كيف كان سيبدو الحال إذا تشاركتُ معه طموحات صديقاتي المقربات. هل كان بكلِّ فخرٍ سيشجِّعنا أنا وهوما ونيلو وسوسن؟ حدَّقتُ في الكولونيل. هل كان فودا أبي سيستحيلان رماديي اللون في أواسط العمر؟ هل كان سيجلس خلف مكتبٍ كبير مهمّ؟

- «الرأي السطحي هو أنّني تزوّجتُ سوسن لأنّها شابّةٌ وجميلة. وهي كذلك، هي كذلك بالفعل». ابتسم وسرح بنظره. «لكنَّ الحقيقة هي أنّني أفضِّلُ كثيراً الشجاعة التي يتّصف بها جيلك من النساء. هذا ما يعجبني. أنتنَّ لا تعرفن معنى الخوف. أنتنَّ شرسات. أنتِ وصديقاتك بمثابة شير زن!».

شير زن. هذا المصطلح الفارسيّ الذي ترجمتُه «المرأة اللبؤة»- امرأة من نسل الأسود. لطالما أحبّتْ هوما أن تخبرني كيف أنّنا سنكبر لنصبح لبؤتين. أوّل مرةٍ قالت لي ذلك، كنا نجلس على

الحافة في باحة البازار، نأكل شطيرتي المثلجات ونتحدث بشأن مستقبلنا. عدّلتُ جلستي قليلاً، ورفعتُ ذقني بفخر. كان الكولونيل على حقّ. لقد كنّا شير زن الآن، أليس كذلك؟ وعلى أعتاب حدودٍ جديدة بالكامل في بلادنا. «لطفٌ منك أن تقول ذلك. كما أنّه صحيحٌ تماماً!»، قلتُ متحلّيةً بالجرأة.

- «أنا من المدافعين عن حقوق المرأة»، قال لي. «وأنا معجبٌ بالناشطين في هذا المجال. أنتنَّ جميعاً على جانبٍ كبير من الوعي السياسي. منتبهات. ولا تعرفن الخوف».

- «البعض منا أكثر من الأخريات»، تمتمتُ قائلة.

رفع عينيه إليّ. «هل هذا صحيح؟ من هي الأشجع بينكنّ؟ إنّها أنتِ! أراهن أنّكِ الأشجع، يا إيلاهيه خانم!».

- «الأشجع؟ أوه، ليس ثمّة شكٌّ من هي الأشجع»، فكّرتُ مجدّداً في اختفاء صديقتي في عتمة الليل بعد أن جعلتُها تغادر الحفلة. «الأشجع هي هوما روزبه».

ابتسم الكولونيل وأومأ برأسه. «محاميتك! قاضيتكِ المستقبلية! أم أقول قاضيتنا! قاضية البلاد!». رفع سيجاره في حركة تنمُّ عن الإكبار. «ولمَ هي الأشجع بالضبط؟».

- «حسنٌ، الفتاة لا تعرف معنى الخوف. إنّها تهتمُّ حقّاً بحقوق الناس. أمّا بقيّتنا... سأتحدّثُ عن نفسي هنا... فيمكننا أن نكون أنانيين وانعزاليين بعض الشيء. لكنَّ هوما تهتمُّ بصدق بمستقبل هذا البلد».

- «كم هذا مثيرٌ للإعجاب. هي تبدو كامرأةٍ بقلب أسد؛ امرأةٌ من النوع الذي لا يخشى أن ينخرط في تنظيم؟».

- «قطعاً! هي ليست بمغفّلة. وهي شجاعةٌ إلى أبعد الحدود».

مصَّ الكولونيل سيجاره متأمّلاً. «نحن نحتاج إلى هذا في بلدنا. أجدُ أنَّ أكثر النساء الشابات جسارةً هنَّ أولئك المنخرطات في حركة توده الشيوعية. ألسنَ الأشجع على الإطلاق؟ أنا لا أتّفق مع سياسات الحركة، عليَّ الاعتراف بأنّني رأسماليٌّ فخور، لكنّني مثقّفٌ من النوع الذي يسعى جاهداً لئلّا يكون أحادي التفكير أو محدود الأفق. لقد قرأتُ ماركس من وجهة نظري. أحبُّ أن أقرأ مختلف الآراء. حسنٌ، أنا حقّاً معجب بشجاعة الشابات الشيوعيات في هذا البلد. كنَّ بالتأكيد ينشرن أفكارهنَّ من خلال الكتابة وما إلى ذلك. اسمعي إيلاهيه خانم، دعيني أخبركِ فيما بيننا كصديقين بأنَّ أختي الصغرى ليست ببعيدةً عن المعتقدات الشيوعية».

- «حقّاً؟».

- «بالتأكيد! ومجدّداً، قد لا أتّفق مع توجّهاتها السياسية، لكن لا يمكن أن أنكر قلب الأسد الذي تحمله شقيقتي. إنّها شيوعية بكلِّ معنى الكلمة، وناشطةٌ عنيدة في حركة الشباب». ثمَّ أكمل المقطع الأخير همساً بالقول: «إنّها نوعاً ما أشبه بصديقتك هوما؟».

- «نعم!»، قلتُ له. «أنا أيضاً لا أتفق مع توجّهاتها السياسية. لكنّها شجاعةٌ جدّاً. حتّى إنّها ساعدت في تنظيم احتجاج الجامعة الأسبوع الماضي».

نظر إليَّ متعجّباً. «هل فعلتْ ذلك؟»، قال وظلَّتْ عيناه مسلّطتين عليّ.

إن كان قد أراد أن «يأكلني»، فقد أعطى الآن انطباعاً لا لبس فيه بأنّه شبع بالفعل.

لم يفعلوا ذلك في مطبخ المطعم.

لم يلحقوا بها إلى مطعم أندريه أو إلى أحد المقاهي في **دربند**.

لم يفعلوا ذلك - لله الحمد - في الزقاق المؤدي إلى منزلها، حيث يمكن لوالدتها وشقيقتها وشقيقها أن يشهدوا ذلك. بل أمسكوا بها خارج حرم الجامعة؛ في اليوم التالي تماماً.

كنتُ ذاهبةً إلى الجامعة للدراسة. إلى الأمام مني، رأيتُ ظهر هوما. كانت تمشي مشيتها الواثقة المعتادة، وحقيبتها تتدلّى إلى جانبها. ركضتُ لألحق بها وأقول إنني تصرفتُ كالحمقاء بدافع الغيرة من رؤيتها مع مهرداد في المطبخ.

كانت على وشك أن تعبر الشارع. كانت إحدى قدميها قد نزلتْ عن الرصيف بالفعل إذ ناديتُ باسمها. فجأةً، اندفعت سيارةٌ على نحوٍ جنوني بالقرب مني، واتّجهتْ نحو هوما. قفز من السيارة رجلان يرتديان الأسود ونظارات شمسية داكنة، وأمسكا بهوما ودفعا بها إلى المقعد الخلفي.

صرختُ ملء حنجرتي، لكن بعد فوات الأوان.

أردتُ أن أندفع خلف السيارة، وأطاردها على طول الطريق. لكن خلال ثوانٍ، كانت هوما قد اقتيدت بعيداً عن الأنظار.

وقفتُ متهالكة، ذاهلة، وصامتة.

في وقتٍ لاحق، اتّصلتُ بوالدتها، وتوسّلتُ الحصول على بعض المعلومات. قالت إنَّ التهم الموجهة إلى هوما كانت تتعلق بمحاولة إسقاط «التاج والعرش». ألقي القبض على هوما، وأودعت السجن.

- «كيف حدث ذلك؟»، سألتُ بصوتٍ مرتعش. «لماذا الآن؟».

قالت والدتها إنّها لا تعرف. وقالت إنَّ عليها أن تذهب.

بعد أن وضعتُ السمّاعة، جلستُ بجوار الهاتف، يغمرني الخوف والقلق. إلى متى سيحتفظون بهوما؟ وماذا سيفعلون لها؟

بمرور الوقت، أصبح من المستحيل تجاهل ما كنتُ أحاول إنكاره على طول الخط: **ماذا لو كان لي علاقةٌ بالأمر؟**

23

نوفمبر 1963

كان الأزواج يسيرون يداً بيد داخل المنتزه في هواء ديسمبر البارد. جلستُ متململة فوق المقعد الخشبي المضلَّع. قريباً سيحلُّ المساء. كان الهواء محمّلاً ببرودة تشبه تلك التي تسبق تساقط الثلوج. توقّعتُ في أية لحظة أن تسقط أوّل ندفة طافيةً في الهواء، ثمَّ ندفةٌ أخرى إلى أن تتدثَّر طهران بأكملها بالأبيض الناعم. أردتُ أن تكون المدينة مغطاة بالأبيض. أردتُ شيئاً يصرفني عن النظر إلى ساعتي طوال الوقت. على مقعدٍ غير بعيدٍ عني، تقاسم صبيّان علبةً من المكسرات المحمّصة. كانا يتحدثان بلا توقف، ويضحكان بين الحين والآخر. أشحتُ بوجهي بعيداً. كنتُ أحاول الترتيب لهذا الاجتماع منذ أسابيع. أين كانت؟ كنا قد اتفقنا على الاجتماع في هذه الحديقة وعلى هذا المقعد بالذات، وقد وصلتُ أبكر بنصف ساعة، متلهفةً لرؤيتها واستيضاح الأمور. لكنّها باتت الآن متأخرةً عن الموعد بصورةٍ مؤكَّدة.

- «مرحباً، يا إيلي».

رفعتُ عينيّ، وإذ بها هناك. سوسن. كان وجهها محاطاً بقبّعة فروٍ قوزاقية سوداء، وكانت ترتدي معطفاً طويلاً من الفرو الأسود

أيضاً. وبيدها ذات الأظافر المطلية، حملتْ حقيبة من جلد الثعبان مع سلسلةٍ ذهبية. بدت وكأنّها خارجةٌ من صورة لأفراد من الطبقة الأرستقراطية الروسية. لم يكن ثمّة عيب واحدٌ في مكياجها، لكن كان هناك شحوبٌ أسفل عينيها لا يمكن لأيٍّ طامسٍ أن يخفيه. جلستْ بجانبي.

- «شكراً لحضورك»، قلتُ لها.

- «لا أستطيع البقاء طويلاً».

- «لن آخذ الكثير من وقتك»، قلتُ وشعرتُ بالغرابة لتحدّثي باقتضاب مع صديقتي القديمة.

جلسنا نحدِّقُ للأمام بدلاً من النظر إلى بعضنا. لم تكن سوسن مرتاحة، كان يمكنني رؤية ذلك. ضجّت الحديقة بصراخ ثلاثة أطفال يركضون بسرعة في الدرب، وأمّهم المحاصَرة تلحق بهم.

- «كيف أمكنكِ ذلك، يا إيلي؟»، همست سوسن أخيراً. «كيف أمكنكِ أن تخبريه؟».

- «لم أكن أقصد. لم أكن أريد ذلك. أقسم بحياة والدتي!».

- «لقد وشيتِ بهوما، يا إيلي. لقد أخبرتِ زوجي عن أنشطتها الشيوعية. كيف أمكنكِ أن تكوني غبيّةً إلى هذا الحد؟».

اندفعت الكلمات من فمي على عجل. «سوسن، لقد تحدّثَ معي وكأنّه أبٌ عطوف. لقد سأل كلَّ تلك الأسئلة حول ما يدرسه الجميع، لم يسأل عن هوما فقط. بل عن مهرداد، وعن نيلو، وعنّي. ماذا كان يفترض بي أن أفعل؟ أتجاهله؟ تعلمين أنّه لا يمكنني أن أفعل ذلك. كنتُ أتصرّف بتهذيب وحسب!».

كانت الشمس على وشك أن تغرب بالكامل الآن. وبدا أنَّ حرارة الهواء تنخفض كل دقيقة.

- «كان عليكِ أن تكوني أكثر حذراً».

- «كانت. . . لقد بدت كمحادثةٍ بريئة! قال إنَّ أخته الصغرى شيوعية. وأخبرني أنّه معجبٌ جدّاً بالشجاعة التي تتحلّى بها الشابّات. لقد جعل الأمر يبدو وكأنّه يصفّق احتراماً لكلٍّ هذا. هل. . . تحدَّثَ الكولونيل إلى عملاء الـ **سافاك**؟ أخبريني، هل هو مَن أخبر الشرطة عن هوما؟ هل أَخبرهم بسبب ما قلتُه؟ أريدُ أن أعرف الحقيقة».

تنهَّدتْ سوسن بعمق. كانت تنهيدة امرأة عانت طويلاً من صحبة الحمقى. «هو ليس بحاجةٍ للتحدّث إليهم».

جلستُ ساكنةً تماماً على ذلك المقعد. شعرتُ بسخونةٍ مفاجئة تجتاح كامل جسدي، ثمَّ استحال هذا الأخير بارداً ورطباً، حيث تجمَّعتْ حبّاتُ العرق في انثناء أسفل ظهري. «هو ليس بحاجةٍ للتحدث إلى العملاء لأنّه واحدٌ منهم؟ هل هذا ما تقولينه؟»، قلتُ بصوتٍ متكسّر.

أطرقتْ سوسن برأسها، وأمعنت النظر في يديها. «ظننتُ أنّكِ تعرفين».

- «تزوَّجتِ جاسوساً؟ منذ متى وأنتِ تعرفين بذلك؟».

ظلّتْ سوسن صامتة.

- «كيف أمكنكِ العيش معه؟ كيف أمكنكِ العيش مع نفسك؟».

دفعتْ سوسن بذقنها للأعلى ونظرتْ إليَّ بما يشبه الاشمئزاز. «أوه، أرجوك، يا إيلي. أعفِيني من ادعاءات استقامتك. كما لو أنّكِ وعائلتكِ لم تنتفعوا كثيراً من سياسات حكومتنا. لستُ بحاجةٍ إلى محاضرةٍ منك».

التفتُّ نحوها لأحتجَّ على ما تقول، لكنني وجدتُ نفسي عاجزة عن قول أيِّ شيء.

لفّتْ سوسن معطفها بإحكامٍ حولها. ربما كانت تكلفة محفظتها وحدها تكفي لإطعام أسرة من الأحياء الفقيرة لأسابيع. لكن إذ نظرتُ إليها وجهاً لوجه، رأيتُ في أعماق الفراء الذي كان يلفّها أثراً للصديقة التي كنتُ أعرفها في المدرسة الثانوية. أثرٌ لسوسن نفسها التي كانت تثرثر معي في الفصل، وتتشارك معي الشطائر في مطعم أندريه، وتضع الكحل على عينيّ ونحن نمزح ونضحك.

- «لدى عائلتك أموالها الخاصة. لستِ مضطرةً إلى تحمّل الحياة معه»، قلتُ بنبرةٍ ألطف.

أخذتْ سوسن نفساً عميقاً، وجالتْ بنظرها في أرجاء الحديقة. «ليس المال سبب بقائي معه».

- «كم من الأشخاص خدع؟ كم من الأشخاص ساعد في إدخالهم إلى السجن؟».

اغرورقتْ عيناها بالدموع، وقالت: «ليس لديكِ أطفالٌ بعد، يا إيلي. يوماً ما ستفهمين. هل تعلمين ماذا سيحدث إذا تركتُه؟ سينتهي الأمر بالطفلين معه. المسألة واضحة وبسيطة. ربما كسبت النساء حقّ التصويت اعتباراً من العام الماضي، لكن حاولي أن تلقي نظرةً على قوانين الطلاق، على قوانين حضانة الأطفال. لن أحظى بأيّة فرصة».

- «أنتِ تبدين مثل هوما الآن»، قلتُ، وشعرتُ بكتلةٍ تتشكّل في حنجرتي. «أنتِ تبدين مثلها. فهي دائماً ما تتناول هذا النوع من المسائل».

أطرقتْ سوسن برأسها. نزلتْ دمعةٌ على خدِّها، ثمَّ دمعةٌ أخرى وأخرى حتى تبلّلَ وجهها بالكامل. «كنتُ حذرةً جدّاً»، قالت لي. «طوال هذا الوقت، لم أشاركه أبداً معرفتي بنشاط هوما في الحزب الشيوعي. حاول أن يسألني بهذا الشأن أكثر من مرة، لكنّني لطالما تظاهرتُ أنّني بالكاد أعرف هوما».

شعرتُ بقلبي يغور عميقاً في صدري إذ تذكّرتُ كيف لم أنجح في إبقاء فمي مغلقاً. «هل يمكنكِ أن تتحدّثي إليه الآن؟ لا بدَّ أنَّ لدى الكولونيل علاقات مهمة. إنّه في الـ سافاك حبّاً بالله».

رمقتني سوسن بنظرةٍ حادة وكأنّها تطلب منّي ألّا أتحدّث بصوتٍ عال.

- «هل يمكنه المساعدة في إخراجها؟ من المؤكد أنّه يستطيع تحريك بعض الخيوط؟».

- «إيلي، هو لا يعرف أنّني أعرف. لا أستطيع أن أفصح ببساطة بأنّني أعرف بشأن حياته السرية».

- «لكن لمَ لا؟ هو زوجك! وهوما كانت أيضاً صديقتك منذ الثانوية!».

- «الأمور لا تسير على هذا النحو. لا يسعني أن أفشي معرفتي بأيِّ شيء».

- «عليكِ أن تفعلي»، قلتُ لها. «أرجوك، تحقّقي إن كان ثمّة شيءٌ يمكنه القيام به. أتوسّل إليكِ، يا سوسن. ربّما يمكنه محو الخطأ الذي تسببتُ به. ربّما يمكنه أن يطلق سراحها».

أخفضتْ سوسن عينيها إلى حضنها لدقيقة طويلة. تموّجت الشعيرات الناعمة في قبّعتها الفروية بفعل الرياح الباردة. تساءلتُ أيَّ

حيوان كانت تلك القبّعة ذات يوم. أرنب؟ ثعلب؟ فأر المسك؟ كيف استحال ذلك الحيوان إلى هذا الشيء على رأس سوسن؟ مجرّدُ التفكير في الأمر أصابني بالغثيان.

- «يجب أن أعود الآن»، قالت سوسن وهي تنهض واقفة. «الطفلان في انتظاري».

صفرت الريح من بين أغصان الأشجار.

- «اعتني بنفسك، يا إيلي». نظرتْ إليَّ بابتسامةٍ حزينة. «أنتِ أكثر سذاجة حتى ممّا كنتُ أعتقد. كوني حذرة رجاءً». مشتْ مبتعدةً عن المقعد، ثمَّ التفتتْ إليَّ وقالتْ: «ليس للكولونيل أختٌ حتّى».

راقبتُ هيئتها المتّشحة بالسواد تنسحب مبتعدة عبر المتنزّه.

كانت تلك آخر مرة تحدّثتُ أو رأيتُ فيها سوسن، صديقتي القديمة من المدرسة الثانوية.

لم أخبر أمي والعمّ مسعود بشأن اعتقال هوما. ما كان ذلك سينفع بشيءٍ سوى جعلهما يقلقان حيال سلامتي الشخصية - وسلامتهما. وبينما كانا في وقتٍ لاحق من ذاك المساء يتحدّثان عن كوميديا إذاعية سخيفة، كنتُ قلقةً للغاية، ومتوترة، ومثقلة بالذنب لدرجة أنّه كان عليَّ أن أستأذن، وأخبرهما بأنّني ذاهبةٌ لمساعدة نيلو - كما أفعل في بعض الأحيان - في إضاءة منزلها بمناسبة يوم السبت.[1]

حين وصلتُ إلى منزل نيلو، تعاطفتْ معي وأخبرتني كم كانت

---

(1) طقسٌ في الديانة اليهودية يتم فيه إشعال الشموع مساء يوم الجمعة قبل غروب الشمس تمهيداً لحلول السبت أو الشبات المقدس - المترجم.

مصدومة لسماعها خبر اعتقال هوما. قالت نيلو وكرَّرت مراراً أنّه لم يكن ثمة ما يمكن لأيٍّ منّا فعله لمنع ما حدث: كانت أفعالُ الشرطة خارج سيطرتنا تماماً. كان واضحاً أنَّ سوسن لم تقل لها شيئاً عن محادثتي مع الكولونيل أو عن محادثتنا في الحديقة. الأرجح أنّها لن تفعل ذلك أبداً. ولم يكن لديَّ القلب ولا الشجاعة لأكشف لها عن دوري فيما حدث.

سألتُ إن كان بإمكاني استعمال هاتفها. اتّصلتُ بأمّي وأخبرتُها أنّني سأبقى عند نيلو لوقتٍ أطول.

لكنّني لم أبقَ في منزل نيلو، بل ودّعتُ هذه الأخيرة وأخبرتُها أنّني عائدةٌ إلى المنزل.

في الخارج، مشيتُ هائمةً على وجهي لساعةٍ كاملة، ثمَّ لساعتين، في هواء شديد البرودة تحرِّكه رياحٌ شديدة. لم يسبق لي أن خرجتُ وحدي في الليل لهذه المدة الطويلة. دائماً ما كنتُ مع أمّي أو العم مسعود أو كليهما، أو مع هوما أو مهرداد أو أصدقاء آخرين. في العموم، لم تكن الفتاة تمشي في الشوارع ليلاً بمفردها. وفي أجزاء معينة من المدينة، لم تكن الفتاة تخرج بمفردها حتّى في ساعات النهار.

الغريب أنَّ الليل كان يضجُّ بالحياة. كان الناس في مجموعات هنا وهناك: آباءٌ يمشون مع أطفالهم، وأزواجٌ يسيرون يداً بيد، ومراهقون يعبثون. كان يُفترض بالحركة والأصوات من حولي أن يبعثا فيَّ شعوراً بالراحة، لكنّني شعرتُ بغربةٍ تامّة عن باقي المدينة. كان يمكنني سماع صوت المياه الجارية في خنادق الصرف الصحّي، ونداءات الباعة الجائلين المجتهدين الذين كانوا لا يزالون يحاولون بيع بضائعهم. بالكاد استطعتُ أن أنتبه إلى أسماء الأزقة التي كنتُ

أتجوّل فيها إلى ما لا نهاية. حتّى لو ظللتُ أجوب الشوارع إلى أن يطلع الفجر، ما كنتُ لأنجح أبداً في تهدئة وجع قلبي؛ ذلك الشعور الخانق بالذنب والعار.

كانت صديقتي الآن وحيدة تماماً داخل زنزانة.

لقد قُبض عليها.

بسببي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثالث

24

نوفمبر 1963

هوما

يريد منّي هؤلاء الأوغاد أن أتوسّل ليمنّوا عليَّ برحمتهم اللعينة. يظنّون أنّني سأكشف لهم عن المعلومات التي يريدونها مني. يتوقّعون أن يدفعني الذعر للإفشاء بها. حسنٌ، إنّهم مخطئون تماماً.

بصراحةٍ، يمكنني القول بأنَّ القوّة الجارفة التي أتغذّى عليها هي قوّة الغضب. أريد أن أصرخ وأنفجر، أريد أن أُعمل بهم طعناً. أريد أن يخترق صوتي زجاج نوافذ السيارة وصولاً إلى أسطح منازل طهران.

من اللحظة التي أمسكني فيها الرجلان ودفعا بي إلى داخل السيارة، ثمَّ اقتاداني داخل بناءٍ معتمٍ رطب ذي ردهةٍ مظلمة، ثمَّ إلى ممرٍّ ضيق وصولاً إلى منطقة الانتظار من أجل «التسجيل» - وكأنّني سأتسجَّل في المدرسة بحقِّ الله - وحتّى إذ أُلقيَ بي داخل زنزانةٍ ضيّقة و أُغلِقتْ عليَّ ببوابة من القضبان الحديدية، كان أكثر ما شعرتُ به ليس الخوف، بل السخط الشديد المستعر.

غضبي مهول.

لا أحد يخبرك ما معنى أن يغضب الجسد. كل جريب في فروة رأسي يلسعني؛ وثمة سائل شديد السخونة يتدفق في ذراعيّ. وجهي يحترق، وأسناني تنبض بعنف. ساقاي لا تُستنزفان ولا يتسلّل الضعف إليهما - إنّهما متوتّرتان ومستعدتان للاشتباك. لقد علمونا في المدرسة عن غريزة اضرب-أو-اهرب. الآن أعلمُ أنَّه عندما تحلُّ لحظة الحقيقة - عندما أُحشر في الزاوية - فإنَّ كلَّ ذرةٍ في كياني سترغب في الضرب، لا الهرب.

يتغذّى غضبي على الظلم الذي يلفُّ الحالة برمّتها. من أجل محاولة الارتقاء بالبلد، والنضال لنيل حقوقنا، والمطالبة بالمساواة وتكافؤ الفرص للجميع، لا ينبغي أن يتم اعتقال امرأة، أو سجنها، أو إسكاتها، أو التضييق عليها، أو نبذها.

صباح اليوم الأوّل بعد اعتقالي، يقتادني أحد الحرّاس من زنزانتي إلى رواقٍ ومنه عبر مجموعةٍ من المنعطفات والمتاهات وصولاً إلى غرفة استجوابٍ صغيرة تفوح منها رائحة العرق. تحت مصباحٍ وحيد يتدلّى من السقف، يجلس رجلٌ أصلع في منتصف العمر مرتدياً الزيّ العسكري. يدفعني الحارس داخل الغرفة، ويجلسني على كرسيٍّ قبالة الرجل، ثمَّ يذهب ويقف عند الباب. ينظر إليَّ الرجل بمزيجٍ من التعب والضجر، ويقول: «**خوش آمديد**، أهلاً وسهلاً».

لستُ بحاجةٍ إلى أن يمنَّ عليّ بتحيّته المتسامحة. ها أنا أنظر في عينيه مباشرةً، وها هو يشرع في استجوابي بشأن منظّمتنا الشيوعية، وأنشطتنا، وقادتنا وأولئك الذين ساعدوا في نشر كلمة الاحتجاجات عبر ما يُطلِق عليه اسم «البروباغندا».

أذكِّرُ نفسي مراراً وتكراراً: **شير زن، شير زن، شير زن.** سأكون اللبؤة، سأكون قلب الأسد. مني لن يستخرجوا معلومةً واحدة. لو كنت أعلم حين وضعنا الخطط لاحتجاجاتنا أنني سأُشحن بكلِّ طاقة الغضب هذه عندما يتمُّ اعتقالي، لكنتُ فعلتُ أكثر، وليس أقل. فغضبي هو درعي. إنّه يزيد من ثقتي بنفسي. أنا لا أسمح للمحقّق بالتقدم بوصةً واحدة؛ لا أمنحه أيَّ اسم، أو أي معلومة.

ينفذ صبر المحقّق شيئاً فشيئاً. ويعلو صوته. فيتنحنح الحارس الواقف عند الباب وكأنّه يحاول أن يذكّرني بحضوره التافه.

لكنّني أرفض. أرفضُ إعطاء أيِّ شيء.

يتوقّف المحقّق، ويتنهّد. يبقى هادئاً لبضع لحظات بينما يتفحّص وجهي، ثمَّ يفترُّ ثغره عن ابتسامة تكشف عن ثلاثة أسنان مكسورةٍ على نحوٍ سيّء جعلتْه يبدو مجنوناً، أو حتى مضحكاً. «ما نفعله مع أمثالك، يا فتاة»، يقول لي، «هو أنّنا نسلِّمكم سريعاً إلى **آقاي مهندس**. هل كنتِ تعلمين هذا؟».

أواصل التحديق به بهدوء، وأكيل في قلبي الشتائم له ولكلِّ أسلافه. يجب أن يعرف أنّه لا يخيفني أبداً، وأنّه لن يتمكّن من كسري.

تتّسعُ ابتسامته القبيحة أكثر فأكثر. «سيعرف **آقاي مهندس** ما يجب فعله معك **بالضبط**».

يلوّح بيده إلى الحارس، فيأتي هذا الأخير ويسحبني من تحت إبطي خارج الغرفة. وبينما كنا نغادر، سمعتُ المحقق يقول: «من المؤسف أنّها عنيدةٌ جدّاً».

تلك الليلة، أستلقي في الزنزانة العابقة برائحة البول والقضبان الحديدية، وأفكرُ في كلِّ الذين أحبّهم. أفكِّرُ في أمّي وأبي وأختي وأخي. هل أبي موجود في هذا السجن بالذات؟ هل وضعوني قريبةً منه؟ هل يمكن أن يكون موجوداً في قسم الرجال في هذا السجن؟ أفكِّرُ في إيلي وكم هي لطيفة - صديقتي التي أعرفها مذ كنّا في السابعة من عمرنا. تهدِّئني ذكرى وجوه أحبّائي. وإذ يجتاحني الغضب ويجعلني أرغب في الصراخ حتى تنفجر رئتيّ، تحملني صور وجوههم على تذكّر نِعم حياتي.

باكراً في صباح اليوم التالي، يتمُّ اقتيادي مجدّداً إلى غرفة الاستجواب، حيث تُطرح عليَّ نفس الأسئلة من قِبل نفس الرجل الأصلع، لكنّه يبدأ في فقدان صبره على نحوٍ أسرع هذه المرّة، وها هو ينهض ويخبرني بأنّه منحني فرصةً ثانية لكنّني لم أستغلّها. يقول إنَّ النساء على شاكلتي غبيات، ولا يدركنَ مكانتهنّ. ثمَّ يغادر الغرفة.

أجلس هناك في انتظار أن يأتي الحارس من موقعه عند الباب ليعيدني إلى زنزانتي. لكنّه بدلاً من أن يدخل إلى الغرفة، يحدّق بي ببساطة، ثمَّ يغلق الباب ويقفله. وأسمع وقع خطاه وهو ينسحب مبتعداً عبر الردهة.

أجلس هناك وحدي.

يدخل رجلٌ جديد وهو يصفر من بين أسنانه، كما لو أنّه يدخل مشتلاً كي يسقي المزروعات، أو حديقة ليطعم فتات الخبز للحمام. إنّه طويل القامة وغير ملفتٍ للانتباه، يرتدي الزيّ العسكري، ويضعُ على رأسه قبّعة نقيب. تفوح من الرجل رائحة كولونيا من النوع الذي يباع في المتاجر الفاخرة وتُعبَّأ في عبوات من الزجاج الثقيل. هل

هذا هو آقاي مهندس الذي حُذِّرتُ منه؟ إنّه يتصرّف كما لو أنّني غير مرئية وهو يمشي الهوينى لينزل في الكرسي الذي كان المحقق جالساً عليه. ثمَّ يسند كاحله الأيمن على ركبته اليسرى، ويتّكئ على الكرسي، ويقول أخيراً: «أنتِ إنسانةٌ بغيضة، هل تعرفين ذلك؟».

شعرتُ بالنار تضطرم في جسدي من إهانته.

- «أنتِ مجنونة»، يتابع قائلاً. «كلُّ من يكون غبيّاً إلى هذا الحد هو قطعاً مجنون. كلُّ ما عليكِ فعله هو تزويدنا بالمعلومات التي نسعى خلفها. هذا كلُّ ما في الأمر. بعدها ستكونين حرّة؛ بهذه البساطة. سنطلق سراحك في الغد إذا قلتِ لنا فقط ما نريد سماعه».

أمعنُ النظر في وجهه. يمكنني تحت ضوء المصباح أن أرى أنّه حلق ذقنه مؤخراً، ثمّة قطعة دمٍ متخثر صغيرة ملتصقةٌ بذقنه.

- «أنا أرفض»، أقول له.

يغمغم ويهزُّ رأسه، ثمَّ يقول: «متاسفم. أنا آسفٌ لأجلك».

لقد سمعتُ قصصاً عن الفظائع التي تحدث في هذ الغرف. ورأيتُ صوراً من هذا السجن بالذات، حيث عُلِّقت فوق الباب لافتةٌ كُتب عليها «غرفة التعذيب». لكن كيف لي أن أخبره بما يريد؟ لا يمكنني أن أفعل ذلك أبداً. لن أفعل مطلقاً. الرفاق أخبرونا أنَّ الشابات الشيوعيات معفيات من أسوأ فظائع السجن. آمل أن يكون هذا صحيحاً.

- «يؤسفني أنَّ الروس يغسلون أدمغة الحقراء مثلك بهذه السهولة»، يتابع قائلاً. «يؤسفني أنّكِ تعتقدين أنَّ الشيوعية هي الحلّ. يؤسفني أنّكِ لا تقدِّرين ما لدينا في هذا البلد. يؤسفني أنّكِ غبيّةٌ جدّاً وصغيرةٌ جدّاً لدرجة أنّكِ تصدّقين الأكاذيب التي يروّجونها لكم».

مشحونةً بطاقة الغضب مجدّداً، تفلت الكلمات منّي. «لا تشعر بالأسف عليّ. أنتم الذين تعيشون في كذبة. أنتم جماعة من المتملّقين الذليلين يخجل جيلي منها. نحن نريد بلداً أفضل. نريد المساواة في جميع الجوانب. نريد الحرية. نريد العيش بكرامة».

ليس من الحكمة في شيء قول كلامٍ كهذا لرجلٍ يتمتّعُ بسلطةٍ كبيرة عليّ في لحظةٍ كهذه. لكنّني لا أستطيع منع نفسي. أنا أقول الحقيقة كما أعرفها ببساطة.

أتوقع منه أن يستشيط غضباً من جرأتي. أن يصرخ بي. أن يرسلني إلى غرفة التعذيب. لكنّه يرمقني بنظرةٍ لا يمكن وصفها إلّا بأنّها مفاجأةٌ خالصة. ينظر إليّ بتمعّن، يدرس وجهي أوّلاً، ثمَّ جسدي بأكمله بكل تأنٍّ. «من أنتِ؟»، يسألني وقد غلظ صوته. يمكنني تحت ضوء المصباح رؤية أنَّ حدقتَي عينيه اتّسعتا كثيراً.

لقد رأيتُ هذه النظرة عند الرجال من قبل. إنّها نظرة جوعٍ وحشيّ. كلُّ ما فيَّ يرغب في محو تلك النظرة، إلغائها، وإبطال أي أثرٍ لها.

يبدو وكأنّه يصارع شيئاً ما بداخله. يتنحنح ويقول: «أعطنا المعلومات التي نطلبها فحسب. آخر فرصة».

- «أنا أرفض ذلك».

يقرِّب كرسيه منّي، وينظر إليَّ بتمعّن مرّة أخرى كما لو كان يحاول أن يفهمني؛ ان يستنشقني. «كقاعدةٍ عامة»، يقول لي، «نحن لا نؤذي الفتيات». يأخذ نفَساً عميقاً. «تلك هي القاعدة العامة. لكنّكِ مختلفة. هل كنتِ تعلمين هذا؟ من أين لكِ هذه الشجاعة؟».

ينهض عن كرسيّه، يذهب إلى الباب ويتأكّد من أنّه مقفل. ثمَّ يغمغم متذمِّراً: «لا أعرف لمَ تفعلين هذا بي. لمَ تفعلين هذا بي؟».

فجأة، يتجمّدُ جسدي بأكمله، وينسحق غضبي إلى شظيّات صغيرة جدّاً، وبدلاً منه، أتذوَّق طعماً معدنياً لا لبس فيه للخوف في فمي.

أسمعه وهو يقول: «**كثافت!**». لقد نعتني بالقمامة.

وها هو يطفئ الضوء.

25

ديسمبر 1964

لعامٍ كامل - منذ أن أمسك بها الرجلان ودفعاها داخل السيارة - لم أكن قد رأيتُ هوما. لعامٍ كامل، لم نكن قد تحدّثنا. لعامٍ كامل، كنتُ من حينٍ لآخر أشعر بالقلق من أنّها قد ماتت، وأنَّ والدتها وشقيقتها كذبتا عليَّ كل مرّة اتّصلتُ فيها عندما كانتا تقولان إنّها بخير.

الآن، وأخيراً، كنتُ سأراها.

ضغطتُ زر جهاز الاتصال الداخلي على باب مبنى من الطوب الأصفر. رفرف الشادور حول جسدي مع هبوب النسائم الرقيقة. كان هذا الشادور لبتول، مدبِّرةُ منزلنا التي شعرتْ بالقلق عندما طلبتُ استعارته - كانت تخشى أنَّ غطاءها الديني مهلهلٌ جدّاً بالنسبة لي، وغير عصريٍّ بالمرة. لم أقل لبتول أنّه ليس من المفترض بشادورها أن يكون عصرياً. كنتُ فقط بحاجةٍ إلى غطاءٍ لائق كي أذهب إلى وسط البلد. أردتُ في هذا اليوم أن أكون مغطّاةً من الرأس إلى أخمص القدمين. إذ لم أكن بحاجة أن تكون الأعين مسلَّطةً عليّ وأنا أسير في حيٍّ هوما الجديد. أردتُ فقط أن أرى صديقتي دون مشاكل.

ضغطتُ زر جهاز الاتصال الداخلي مجدّداً.

سأل صوتٌ هامد: كي، من هناك؟

قفز قلبي في مكانه. هل هذه هي؟ لم يكن بإمكاني الجزم مع كل التشويش من حولي. ذكرتُ اسمي، فجاء الصوت مجدّداً «الطابق الثاني، إلى اليسار». عرفتُ هذه المرة أنّه صوت هوما حتى بعد أن خُمِّدتْ كلماتها عبر الجدران والأسلاك. شعرتُ بمعدتي تتشقلب داخل بطني.

تبع ذلك أزيزٌ يصمُّ الآذان. بالكاد يمكن اعتبار أنَّ هذا الباب قد فُتِح. ربّما كان من الخطأ محاولة التعويض وإصلاح الأمور. ماذا كانت تنوي أن تقول لي؟

كنتُ قد مشيتُ حتى الساعة الثانية صباحاً تقريباً بعد أن غادرتُ منزل نيلو في تلك الليلة، متمنّيةً لو أنَّ بإمكاني محو نفسي من هذا العالم، لو أنَّ بإمكاني حذف ما قلتُه للكولونيل، وتغيير مسار الأحداث بالنسبة لصديقتي. إذ عدتُ إلى المنزل أخيراً، علا صراخ أمّي، وقالت إنّها تعرف بأنّني كذبتُ بشأن وجودي في منزل نيلو، وتعرف بأنّه لا يمكن الوثوق بي. لم تقدر أن تصدّق أنّني كنتُ في الخارج وحدي، وأصرّتْ أنّني تسبّبتُ لها بأزمةٍ قلبية (رغم أنّها كانت بخير ولم تتعرَّض أبداً لأزمةٍ كهذه). غضبُ عمي مسعود الشديد، وقلقه من بقائي خارجاً لوقتٍ متأخرٍ جدّاً، وكذبي بشأن وجودي عند نيلو؛ كلُّ ذلك دفعه إلى نفيي إلى غرفتي لمدة أسبوعين.

رحّبتُ بهذه العقوبة. فأنا أستحقُّ أن أُحتجَزَ في غرفتي. وأن أُعزَل عن العالم. وأن يكون تفاعلي البشريّ الوحيد مع بتول حين كانت تحضر صينية الطعام وتتوسّل إليّ أن آكل قبل أن تغادر مسرعة. حتّى مهرداد مُنع من رؤيتي أو الاتّصال بي.

حين انتهى أسبوعا عقوبتي، أخبرتني أمّي والعم مسعود بأنه بات بإمكاني العودة إلى المجتمع مجدّداً إذا قطعتُ وعداً بأنّه لن يحدث أبداً ومطلقاً أن أمشي وحدي ليلاً مرّةً أخرى. هل عرفتُ حتّى ما الذي جعلتُهما يمران به - يا إلهي، مَن يعلم ما الذي قاله الناس عنّي وأنا أتمشّى وحدي في الليل مثل امرأةٍ منحلّة.

سُمح لي بالتحدّث إلى مهرداد مجدّداً، فسألني عبر الهاتف إن كنتُ على ما يرام وبصحةٍ جيّدة، وإن كنتُ قد سمعتُ أيَّ شيءٍ بخصوص هوما. «لم يحدث أيُّ شيء ليلة الحفلة في المطبخ، يا إيلي. أشعر بالسخافة لمجرّد قول ذلك. أنتِ تعلمين ذلك، صحيح؟».

قلتُ بأنّني أعلم ذلك.

- «لا يمكنني تصديق أمر اعتقالهم لها. كيف اكتشفوا أمرها؟».

إن كنتُ سأتزوّج هذا الرجل، فلا يمكن أن يكون هناك سرٌّ كهذا بيننا. «لقد أخبرتُ الكولونيل بالكثير في تلك الليلة يا مهرداد. الكولونيل عميلٌ في الـ **سافاك**. لم أكن أعرف ذلك. لقد وشيتُ بهوما».

كان ثمّة صمتٌ على الجهة الأخرى من الخطّ. ثمَّ تنهّدَ مهرداد بعمق، وقال: «إنّها ليست غلطتك».

- «إنّها غلطتي بالكامل».

- «لا يمكنكِ أن تفكّري على هذا النحو. سيدمرّكِ ذلك».

- «لقد دمَّرتْها ثرثرتي الفارغة».

- «هل... تعلم أنّكِ السبب في اعتقالها؟».

- «لستُ متأكّدة من ذلك».

أنهيتُ المكالمة مسربلةً بعاري.

كلَّ مرةٍ اتصلتُ فيها بمنزل هوما، كانت والدتُها، منير خانم، مهذّبة لكن حازمة بشأن عدم رغبة هوما في رؤيتي أو التحدّث إليّ.

- «هل تعرفين متى سيطلقون سراحها؟»، سألتُها.

- «إن شاء الله قبل أن. . .»، سكتتْ.

- «قبل ماذا؟».

قالت إنّهم بصدد الانتقال لأنَّ عليهم تسليم منزلهم. لم تقل إنّه تمّ «بيع» المنزل، لكنّني افترضتُ أنّهم لم يعودوا قادرين على تحمّل تكاليف العيش هناك. لا بدَّ أنّه لم يكن أمامهم خيارٌ سوى البيع. كان من الصعب تصوّر أنَّ هوما لن تكون بعد الآن في البيت ذي المطبخ الحجري، وبركة المياه في الحديقة، والفناء الصغير المحمَّل بأصوات طفولتنا. لكن لم يكن نفاذ أموالهم أمراً مستغرباً. كان بقاؤهم في المنزل طوال تلك المدة بعد اعتقال والدها معجزةً حقيقية.

وعدتني منير خانم بأنها ستتصل بي حالما تتوفر على رقم هاتفٍ جديد. وللأمانة، فقد اتّصلتْ بي في الصيف التالي وأعطتني الرقم الجديد. وأخبرتني أنَّ هوما كانت قد خرجت الآن. وكانت بخير.

شعرتُ بسعادةٍ غامرة لسماع ذلك. وسألتُ إن كان بإمكاني القدوم لزيارتها الآن.

وجاءني الجواب: قطعاً لا.

الجامعة التي تقدّمتْ لها هوما بكل ذلك الحماس والأمل، مضتْ قدماً من دونها. حضرنا الفصول الدراسية، وأجرينا الامتحانات، وتعلّمنا حقائق وأرقام - كلُّ ذلك من دونها. تقدَّمنا في

دراستنا، وهنَّأنا أنفسنا على درجاتنا الدراسية، وخرجنا للاحتفال - كلُّ ذلك من دونها. لكن لا شيء كان له ذات المذاق أو الأهمّية من دونها. اجتهدنا - أنا ومهرداد - في دراستنا، بينما انتقل عبدول إلى كلّيةٍ مختلفة. قال إنّه يحتاج أن يكون أقرب للمنزل لأنّه عليه أن يساعد أسرته. ثمَّ فقد عبدول الاتّصال بنا سريعاً رغم كلَّ الجهود التي بذلناها أنا ومهرداد. كم تساءلتُ ما إذا كان اعتقال هوما وغيابها هو ما دفعه للابتعاد. فقد كان غارقاً حتّى أذنيه في حبّها.

لم يمرَّ يومٌ واحد دون أن أفتقدها. ومن جديد، وجدتُ نفسي تلك الطفلة في العاشرة من عمرها التي تحنُّ إلى صديقتها التي كانت قد انفصلت عنها. الفرق الوحيد أن شعوري بالذنب كان أضعافاً مضاعفة الآن. فلم يكن شعوري بالذنب هذه المرة كذلك الذي راودني حين انتقلتُ إلى حيٍّ جديد ثريّ. هذه المرّة، شعرتُ بالذنب لسببٍ أكبر وأهم بكثير.

لم أستطع أن أفهم لمَ لم تستأنف هوما تسجيلها في الجامعة. هل كان ذلك خطيراً جدّاً؟ أو ربّما كانت تحت تأثير شديد بالصدمة. توسّلتُ عبر الهاتف إلى والدتها مراراً أن تتاح لي فرصة رؤيتها. طلبتُ منها أن تسمح لي بذلك مرّات عديدة إلى أن رضختْ والدتُها أخيراً، وأعطتني العنوان الجديد.

- «هل هذا هو العنوان حيث تعيشون جميعاً الآن؟».

- «هي لم تعد تعيش معنا»، قالت منير خانم بهدوء. «اسمعي، أنتما بحاجة إلى اللقاء وتعويض ما فاتكما. لقد أخبرتُها كم كنتِ تلحّين على رؤيتها. وقد استسلمتْ أخيراً، وقالت إنّه يمكنكِ الذهاب لزيارتها. اذهبي إلى هناك بعد ظهر يوم الجمعة؛ بعد وقت قيلولة الغداء. قالت إنَّ الساعة الرابعة عصراً توقيتٌ مناسب».

كتبتُ اسم الشارع الجديد ورقمه في دفتري الصغير الأسود للعناوين ضمن قسم التبويب الخاص بالحرف «هـ». لم يسبق لي أن دوَّنت عنواناً لهوما. لطالما حفظتُ معلوماتها وكلَّ ما يتعلّقُ بها عن ظهر قلب.

بعد ذلك الأزيز المزعج، دفعتُ الباب ودلفتُ مبنى الطوب الأصفر. كانت رائحة المدخل أشبه بمزيجٍ من رائحة بصل مقلي مع مياهٍ معصورة من ممسحة، وتغضّنت الجدران بالطلاء المتقشّر. أمسكتُ شادوري بإحكام، وصعدتُ الدرجات إلى الطابق الثاني وأنا أستذكر الطريق إلى مطبخ هوما الحجريّ القديم، والدرجات السبع نزولاً إليه، والانحناء البسيط وسط كل درجة. في ذهني، رقص الإحساس بالدفء الذي كان يلفُّ ذلك الفضاء السحريّ، رقصتْ صورة المغسلة الخزفية، وفطائر الـ **بيروشكي** أسفل قطعة القماش الأبيض على الطبق الكبير.

حين وصلتُ إلى الطابق الثاني، رأيتُ باباً تغطيه الخدوش ويحمل الرقم 15. كان هذا رقم الشقة الذي أعطتني إياه والدتها. لذا، وقبل أن أفقد شجاعتي، حملتُ نفسي على السير إلى هناك والطرق على الباب.

فُتح الباب، وكأنَّ أحداً كان ينتظر وصولي.

كانت تلفُّ شادوراً منزلياً فضفاضاً حولها. أمكنني رؤية جزءٍ من كنزتها تحته؛ بيضاء مع زهورٍ زرقاء صغيرة، تُذكِّر بالتي كانت لدى والدتها عندما كنّا أطفالاً. ربّما كانت هي بذاتها، وقد مُرِّرت إلى هوما بعد كل تلك السنوات. رغم أنّنا لم نرَ بعضنا منذ عامٍ واحد فقط، إلّا أنَّ هوما كبرتْ عشر سنوات. كان وجهها شاحباً، ولديها

هالاتٌ سوداء أسفل عينيها، وقد انقلبتْ زاويتا فمها إلى الأسفل على نحوٍ لم أره من قبل.

- «سلام، هوما جون»، قلتُ لها.

- «سلام، إيلي». كان صوتها هو نفسه، لكنَّ نبرتها كانت رسميّة. نظرتْ خلفي بقلق على طول الردهة.

أشارت لي أن أدخل. خلعتُ الشادور وعلَّقتُه على خطّافٍ قرب الباب. لم يكن ثمّة طاولات أو أرائك أو كراسي في الغرفة الرئيسية للشقة. كان هناك سجادة مفروشة في الوسط، ووسائد مصفوفةٌ عند الجدران. إلى يمين السجادة، وُضعت على الأرض سُفره، غطاء طاولة طعام، وبجانب السُفره كانت ثمّة بطّانية وردية اللون. فوقها كان هناك طفلٌ يغطُّ في النوم. ولدقيقة، تشكّلتْ غشاوةٌ على عينيّ، وأصبحتْ رؤيتي ضبابية. كان الطفل يتنفس بعمقٍ وبإيقاعٍ منتظم، فتذكّرتُ يوماً آخر رأيتُ فيه طفلاً نائماً على الأرض - كان ذلك عندما زرتُ هوما لأول مرة في منزلها في الحيِّ القديم - وكيف بكت أختها الصغيرة سارة يومذاك، وكيف جاءت أمّها وهدهدتْها.

- «بَهار[1]»، قالت هوما. «سمّيناها بَهار».

في كل تلك المرات التي تحدثتُ فيها مع والدة هوما وأختها، متوسلةً إليهما أن تخبراني كيف حال هوما، كانتا تقولان لي إنّها بخير، لكنّها ليست بعد جاهزة للعودة إلى الجامعة عقب خروجها من السجن. أمّا بَهار هذه، فلم تأتيا على ذكرها أبداً.

أردتُ أن أقول إنّها طفلةٌ جميلة، فقد كانت كذلك بالفعل. أردتُ أن أقول «تهانيّ»، لكنّني لم أتمكن من ذلك.

---

(1) تعني الربيع بالفارسية - المترجم.

- «إنّها طفلةٌ وديعة»، قالت هوما بجدية صارمة، كما لو أنّها تريد إنهاء الموضوع عند هذا الحد.

أبعدتُ عينيّ عن الجسد الصغير الغافي، ونظرتُ إليها. «نعم»، كان هذا كلُّ ما استطعتُ حشده في رأسي.

أشارت إلى وسادةٍ عند الحائط، وقالت: «اجلسي».

جلستُ متربِّعةً والوسادة خلف ظهري. هكذا كنا نجلس عندما كنّا أطفالاً في الحيّ حيث كان الجميع يجلسون على الأرض. أنزلت هوما نفسها وتربّعتْ قبالتي.

- «الشاي في الطريق»، قالت لي.

- «لستُ بحاجةٍ إلى الشاي».

- «إنّه يختمر على أيّة حال. لقد تأخرنا قليلاً في إعداده لأنّه كان عليَّ أن أطعم بَهار».

تأخرنا؟ هل كانت تقصد نفسها والطفلة؟ شعرتُ بالحاجة إلى تجميع قطع الأحجية معاً، رغم أنَّ جزءاً مني لم يرد أن يعرف شيئاً عن ذلك. الجزء الذي أراد أن تعود هوما إلى الجامعة، وإلى فصولها الدراسية، وتتسلّق سلّم النجاح في طريقها لتصبح **السيّدة المحامية**؛ في طريقها لتصبح **قاضية**. في طريقها لتمتلك العالم بين يديها.

ثمَّ فُتح بابٌ في الجهة الخلفية من الغرفة، ودخل وهو يضع جوربين في قدميه.

في البداية، انقطعتْ أنفاسي إذ رأيتُه، وكانت هناك لحظةُ انفصال تام ومطلق عن الواقع.

- «عبدول!»، همستُ مذهولة.

- «أرجوك، إيلاهيه خانم، ابقَي جالسة، لا تتكبدي عناء النهوض».

كان جورباه أسودين، وبنطاله بنّي اللون، وكان يرتدي قميصاً فضفاضاً باللون البنّي الفاتح فوق بنطاله. كانت لحيته كثّةً ومشعثة، وكان يبدو عليه الإرهاق. أومأ لي وقال: «أهلاً بكِ. أنا سعيدٌ جدّاً لقدومك».

شعرتُ بأنّني أغرق داخل الوسادة، وتشنّج أسفل ظهري. صديقتي التي أصبحت أمّاً. الطفلة الغافية فوق البطّانية. عبدول في منزل هوما.

أصرَّتْ هوما أنَّها يجب أن تحضر الشاي، لكنَّ عبدول هو الذي ذهب وتوارى خلف الباب في الجهة الخلفية من الغرفة إلى ما افترضتُ أنّه المطبخ.

قالت هوما: «كان حفل زفافنا سريعاً وبسيطاً، واقتصر علينا فقط. والدتي، سارة، علي رضا. آسفةٌ لأنّني لم أدعوكِ. لقد توفّي والد عبدول حين كان صغيراً، ووالدته كما تعلمين توفّيتْ أيضاً. أمّا عائلته الكبيرة، فهي من مدينة **عبادان**. فلم يحضر أحدٌ منهم».

تذكّرتُ خبر وفاة والدة عبدول إثر نوبةٍ قلبية حين كنا لا نزال جميعاً في الجامعة معاً. «أنا... لم أكن أعرف أنّكِ تزوّجت»، كان هذا كلُّ ما استطعتُ قوله.

- «لقد قبلتُ عرضه للزواج حال خروجي من السجن».

- «هل كنتِ... هل... أنجبتِ الطفل عندما...».

- «لقد مكثتُ في السجن ستّة أشهرٍ. كنت حاملاً في الشهر السادس تقريباً عندما خرجت».

شعرتُ برأسي يسبح في الهواء.

- «كنتُ محظوظة لإنجابي الطفلة في الخارج. ساعدتني أمّي وسارة كثيراً».

فُتح الباب في الجهة الخلفية من الغرفة مجدّداً، ودخل عبدول حاملاً صينية عليها **إستكانات** الشاي ووعاء السكر. وضع الصينية فوق قماش الـ **سفره** في الزاوية، فجرجرتْ كلٌّ منّا نفسها على ركبتيها وصولاً إلى هناك. اعتذر عبدول لعدم وجود كعكة، فقلتُ إنّه ما من داعٍ لها. وشرح كيف أنَّ التمر كان قد نفذ من عندهم، فقلتُ إنّني كنتُ على خير ما يرام بدون التمر. قال إنّه لم يكن واثقاً ما إذا كان تخميره للشاي بتلك الجودة، وإنَّ الطفلة كانت جائعة، لذا لم تتمكّن هوما من الإشراف على التخمير كما تفعل في العادة. أخذتُ رشفةً من الكوب الذي قدَّمه لي، وأخبرتُه بكل إصرار أنَّ الشاي كان مثالياً تماماً.

- «أعتذر مجدّداً، إن كان لا يناسب ذوقك»، قال عبدول.

كررتُ قائلة: «أرجوك، إنّه ممتاز».

وهكذا، أدّينا - أنا وعبدول - لبعض الوقت رقصة الـ **تعارف** الفارسية المعتادة، حيث كان عليه أنْ ينتقص من نفسه ويعتذر مراراً بشأن الشاي الذي قدَّمه لي، وكان عليَّ أن أصرَّ وأؤكِّد بأنّه أفضل شاي شربتُه على الإطلاق. كنّا نلتزم بشكلياتنا المهذبة أيّا يكن الأمر. لقد تربّينا لنكون على هذه الشاكلة؛ تربّينا على الالتزام بالمظاهر والحفاظ عليها.

- «أليست **تبلي**، ريّانةٌ ولذيذة؟»، أشار عبدول في اتجاه الطفلة النائمة. «ألا تستحق الموت في سبيلها وحسب؟».

- «بلى، هي كذلك»، قلتُ له. «إنّها ريّانةٌ على نحوٍ رائع». أخذتُ رشفةً من كوبي. «إنّها تستحقُّ الموت في سبيلها».

اعتذر عبدول عن انقطاع تواصله معنا خلال العام الماضي، ثمَّ نظر إليَّ مباشرةً وقال: «لا يمكننا أن نتحكّم في ما يحدث لنا. علينا أن نتقبّل المصائر التي قدَّرها الله لنا».

أطرقتْ هوما برأسها، وحدَّقتْ في السجادة.

- «إنّها معجزة»، قال عبدول. « إنّها طفلة أرسلها الرب».

كنتُ أعلم أن عبدول كان ملتزماً دينياً، لكنَّ صَون شرف هذه المرأة الحامل التي تعرضت للاعتداء في السجن كان شيئاً آخر تماماً. فغالباً ما كان يُنظر للنساء اللاتي تعرَّضن للاغتصاب عل أنّهن «معيبات»، وكثيراً ما أصبحنَ منبوذاتٍ بالكامل.

أخذ عبدول رشفةً من كوبه. «لقد عانت هوما كثيراً من روحيّتها، على المستوى النفسي. شكراً لقدومك. إنَّ رؤية صديق تساعد في هذه الحالات حتماً».

لقد قُبض عليها بسببي في المقام الأوّل. كان الشعور بالذنب يسري عبر جسدي مثل قوّةٍ مادية ملموسة.

- «لقد اضطررتُ إلى ترك جامعة طهران»، تابع عبدول. «كانت بعيدة جدّاً. لكنني تمكّنتُ من الالتحاق بمدرسةٍ مهنية قريبةٍ من هنا. أذهب إلى هناك بدوام جزئيّ ليليّ بعد أن أنتهي من العمل في المرآب حيث أتدرب لأُصبح ميكانيكياً. نحن محظوظون لأنَّ والدة هوما وأختها تستطيعان مساعدتنا. وإن شاء الله، مع الوقت هوما سوف...»، توقفَ عند هذه النقطة.

حدّقتُ به. سوف ماذا؟ سوف تعود إلى الجامعة؟ سوف تستأنف العمل عل تحقيق حلمها؟

- «سوف تعود، عندما تتعافى إن شاء الله، إلى طبيعتها القديمة مجدّداً».

انزلق شادور هوما من على رأسها. كانت تجعيدات شعرها مسحوبةً إلى الخلف ومربوطة على شكل كعكة أعلى رقبتها، وكانت أذناها حمراوين زاهيتين. بدتْ ساكنةً كالأموات. ثمَّ، وكما لو كانت تريد أن توقظ نفسها من غيبوبة، نفضتْ رأسها للأعلى وقالت: «هل ترغبين في رؤية شقتنا؟ ليس ثمة الكثير لرؤيته. هذه هي غرفتنا الرئيسية. لكن لدينا غرفةُ نوم. ومطبخٌ صغير. هل ترغبين في القيام بجولةٍ صغيرة بينما لا تزال الطفلة نائمة؟».

نهضتْ، فلحقتُ بها بينما كانت ترشدني عبر فضاء المنزل الجديد الذي كانت هوما فيه زوجةً وأمّ. كانت غرفة النوم بسيطة ومرتّبة، وتفوح منها رائحة الصابون. بالقرب من المرتبة المفروشة على الأرض، كانت ثمّة دمية بلاستيكية صغيرة. افترضتُ أنّها هديّةٌ افتقرَ شاريها لحسن التقدير، أو أنَّها اشتُريتْ كي تُستخدَم لاحقاً. فلا يمكن لطفلة في هذا العمر التقاطها، وحتى عندما تتمكن من ذلك، فقد تختنق بها بسهولة. «سوف نشتري موقداً جديداً في نهاية المطاف»، قالت هوما فجأة.

تذكّرتُ الموقد الكبير في مطبخ والدتها الحجري القديم. «لمَ انتقلتْ والدتك وشقيقاك من المنزل؟»، سألتُها.

شعرتُ بالحرج وأنا أقف في غرفة النوم التي كانت تتشاركها مع زوجها، أحاول أن أنتزع منها معلومات أساسية عن حياتها. كنّا ذات يوم نتشارك كل تفاصيل أيامنا. أما الآن، فكان ثمّة الكثير مما لم يُحكَ بيننا.

– «انتقلتْ ماما مع سارة وعلي رضا إلى شقةٍ أصغر. إنّهم بخير»، قالت هوما بتشنّج.

– «هوما، اسمعي»، لمستُ ذراعها. «إن كنتِ بحاجةٍ إلى أيّ

مساعدةٍ من أيٍّ نوع على الإطلاق، يمكنني أن أقرضكِ المال، يمكنني أن أعطيكِ قدر ما تحتاجين...».

قبل أن أتمكّن من المتابعة، أحكمتْ هوما لفَّ الشادور حول جذعها وغادرت الغرفة، تاركةً إيّاي هناك لأشعر وكأنّني دخيلة.

تبعتُ صوت جلبة الأطباق والمياه الجارية. كان عبدول في المطبخ. عدتُ إلى الغرفة الرئيسية. كانت الطفلة لا تزال نائمة، وكانت هوما واقفة عند الباب الأمامي مبقيةً إيّاه مفتوحاً.

أردتُ أن أعتذر لها عمّا فعلتُ. أردتُ أن تعرف كم كنتُ أشعر بالندم. هل كانت تعلم أنّني المسؤولة عمّا حدث لها؟

مشيتُ نحوها، وتوقّفتُ عند العتبة. «أردتُ فقط أن أقول إنّني ــــ».

قاطعتني على الفور قائلة: «لم يكن ينبغي بك القدوم إلى هنا».

- «نحن جميعاً نهتم لأمرك كثيراً. ولطالما أراد مهرداد حقّاً أن يعرف سبب انقطاع تواصل عبدول...».

- «لقد كان عبدول مشغولاً»، قالت بنبرةٍ زاجرة. «نأسف إن كنا لا نستطيع الحفاظ على تواصلنا مع أصدقاء المدرسة القدامى».

- «ليس هذا ما قصدتُه».

- «لم يكونا صديقين حقيقيين قطّ»، قالت ونظرتْ نحو قدميها.

- «ماذا؟».

رفعتْ عينيها نحوي. «لم يكونا صديقين حقيقيين قطّ»، قالت مرّةً أخرى. «مهرداد وعبدول. حبيبك مهرداد صادقَ عبدول لأنَّ مساعدة شخصٍ أقلَّ منه كانت تمنحه شعوراً طيّباً. كان يشعر بالرفعة على المستوى الأخلاقي حين كان يأخذ عبدول معه ويريه معالم المدينة، ويصطحبه للتنزه في الجبال، ويتصرّف بلطفٍ وبروحية فاعل

الخير مع من هو أقلُّ حظّاً منه. لم تكن بتلك الرابطة العميقة. ثمّة الكثير والكثير من الاختلافات».

- «اعتقدتُ أنّهما مولعان أحدهما بالآخر».

نظرتْ هوما خارجاً باتجاه الردهة، ثم التفتت نحوي مجدّداً وهمست قائلة: «أودُّ منك ألّا تأتي إلى هنا ثانية».

- «هوما، لو أنّكِ تعطيني فرصةً فقط. أريد أن يتسنّى لي شرح كلّ شيء. أريد أن أتعرّف إلى بَهار. في المرة القادمة سأحضر لها هديّة. فأنا لم أكن أعرف ——».

هزّتْ هوما رأسها بسرعة. «لا أريد الهدايا، أو المال، أو شعورك بالشفقة عليّ»، قالت وعادت لتنظر باتّجاه الردهة.

- «لقد مررتِ بصدمة ——».

- «ساكت باش! اسكتي!»، قاطعتني بحزم. «أريدكِ أن تتركيني وشأني. لا أريد أن أراك مجدّداً؛ على الإطلاق».

لم يسبق لي أن رأيتُها وهي تبدو ساخطة جداً وعاجزة في ذات الوقت. نزعتُ شادوري عن الخطّاف قرب الباب، واجتزتُ العتبة إلى الردهة لأظهر لها أنّني لن أبقى رغماً عنها.

اندلع صوت صراخٍ عالٍ من داخل الشقّة.

استدارت هوما باتّجاه الغرفة ونادتْ: «أنا قادمة!».

ثمَّ عادت لتواجهني. «إن كنتِ تهتمين لأمري حقاً، فلا تعودي إلى هنا. لا يمكنني أن أفعل هذا. لديَّ ——». مررتْ يدها فوق جبهتها. «لديَّ الكثير لأتعامل معه الآن. أرجوكِ، فقط دعيني وشأني من الآن فصاعداً. عِديني بذلك».

كان بكاء الطفلة يصبح أعلى فأعلى. أصدرتْ هوما صوت قرقرة باتّجاهها كي تهدِّئها، ثم رنت إليّ بنظرة متوسّلة أخيرة.

«عِديني بأنّكِ لن تأتي إلى هنا مجدّداً. ولا تتّصلي مطلقاً بأمي أو أختي أو أخي».

وقفتُ ساكنةً بلا حراك. طنّتْ أذناي واشتعل وجهي بلهيبٍ حارق. وبدأت ملوحة الدمع تخز عينيّ.

- «قول بده. عِديني! هذا أقلُّ ما يمكنكِ فعله»، همستْ بسرعة.

لم أكن أستحقّ أن أفوز بغفرانها؛ أن تعود صداقتنا إلى سابق عهدها وكأنَّ شيئاً لم يحدث. لم أكن أستحقّها. «أعدكِ»، قلتُ لها.

إذ ذاك، أغلقت هوما الباب في وجهي.

26

1964

هوما

حين تغرقين، ويبدو العالم بأسره وكأنّه ليس مقدَّراً لك، حين تجعلك قلّة النوم والشهية ترغبين في الركوع والاستسلام، حين تكون متطلبات الطفل طاغية ومحطِّمةً بالكامل - كيف لكِ أن تمثّلي دور امرأةٍ في أحسن حال؟

أنا ممتنّة لعبدول - ومن لن يكون كذلك؟ إنَّ لطف عبدول لمعجزةٌ حقيقية؛ هبةٌ من عند الرب، كما أنّه يمثل انزياحاً شديداً عن الكيفية التي يتصرف بها معظم الرجال. عبدول يفعل ما تفعله قلّةٌ قليلة من الرجال فقط. إنّه يطلب يدي للزواج للمرة الثالثة. يطلب يدي رغم علمه بما حدث في تلك الزنزانة، فأنا خارجةٌ من السجن وأنا حاملٌ في الشهر السادس.

أوافقُ على طلبه. فأمّي لا تملك سوى القليل جدّاً؛ وأبي لا يزال مسجوناً بسبب أنشطته السياسية. وها هو عبدول يرغب في أن يوفّر لي المأوى والحماية بعدما اعتُبرت نجسةً ومدنّسة. فهكذا

بالضبط سيراني أيُّ شخصٍ في مجتمعنا - لكوني حاملاً ووحيدة بعد أن كنتُ مسجونة. ستحاول أمّي المسكينة أن تحميني بكلِّ ما أوتيت من قوة، لكنّ العيش معها لن يرفع عني وصمة العار التي ستظلُّ ملازمةً لي. فقط العيش مع زوجٍ سيمنحني فرصةً للخلاص والتحرر من وصم المجتمع لي بـ «العاهرة»، المعيبة إلى الأبد.

حتّى بعد أن تزوّجتُه، الناس يتحدّثون. فهم قادرون على إجراء الحسابات. يمكن للبعض رؤية أنَّ الحمل قد حدث قبل زواجنا. لكنّنا نأمل - مع مرور الوقت - أن يغضّوا الطرف عن ذلك. نأمل أنّهم سينسون قصّتي، وسيركّزون في حياتهم الخاصة. ليتهم يفعلون ذلك وحسب.

صحيحٌ أنّني في الساعات والأيّام الأولى من السجن كنتُ أتغذّى على غضبي، لكن بعد ما حدث في تلك الغرفة المغلقة، والباب مقفل والنور مطفأ، بعد ما حدث حين كان صراخي يرتطم بالجدران الإسمنتية وثيابي تتمزّق والكدمات تنطبع على جسدي، أصبحتُ معجونةً من المرارة. الآن، أنا أخدش سطح غضبي، وأختلس النظر أسفل جلده، فلا أجد سوى بئر حزنٍ عميق جدّاً لا يبدو أنَّ ثمّة سبيلاً للخروج منه.

كل يومٍ، أنا أغرق أكثر، وأعلقُ في دوّامةٍ لا فكاك منها.

أشعر بأن ليس ثمّة سبيل أستعيد به ثقتي بنفسي، ولا فسحةٌ تتسلّل إليها طاقتي القديمة.

يتبخّر كل شيء ويتلاشى بعد فعلٍ واحد حدث في تلك الغرفة.

تلمِّح إيلي في زيارتها إلى شقتنا الجديدة لتلك الحادثة الصادمة في زنزانة السجن، لكنّني لستُ مستعدّة. لستُ مستعدّة للكلام، لستُ

مستعدّة للتفكير في الأمر، ولستُ مستعدة للشفاء. حوافّ ذاتي تنطمس وتتلاشى. أكافح للبقاء في هذا العالم.

تراودني رغبةٌ هائلة في الاستسلام.

الشيء الوحيد الذي ما زال يقيّدني لمواصلة مهزلة الحياة هذه هو كائنٌ إنسانيّ بالغ الصغر يعتمد عليَّ كلّ الاعتماد.

أنا باقيةٌ من أجلها. ليس لطفلتي أي ذنبٍ في الطريقة التي جاءت بها إلى الحياة؛ ليست هي من ارتكب تلك الجريمة.

أكره ما حكمت به الأقدار عليّ. أكافح بكلٍّ ما تبقّى من قواي الخائرة كي أبقي رأسي فوق الماء. لكنّني أعلم أنّه ليس بوسعي تحمّل كلفة أن أغرق بالكامل.

فبالرغم من كل الحزن الذي يُغرق روحي أو ربّما بسبب هذا الحزن، إلّا أنّني أحبّها حبّاً جمّاً.

أحبّها بجنون.

27

يونيو 1965

في فستان زفاف أحلامي الذي كان منفوخاً عند الكتفين، وضيّقاً عند الخصر ثمّ يصبح أوسع فأوسع نزولاً إلى الساقين، مع خرزٍ لؤلؤي يزيّن طبقات الأكمام، جلستُ بجوار مهرداد على مقعد واطئ تحت مظلّةٍ من الحرير. حملتْ والدة مهرداد القماش الحريري الأبيض فوق رأسينا من جهة، وخالته من الجهة الأخرى. فركتْ أمّي مخاريط السكر المغلفة بالشاش ببعضها فوق القماش الحريري كي تهطل الحبيبات مطراً من الحلاوة للعروس والعريس. وقف رجلُ دينٍ يرتدي عباءةً وعمامة بالقرب منّا، متحدثاً عن الشرف والطهارة والسعادة الزوجية.

على قماش الـ سفره المفروش على الأرض أمامنا، وضعتْ أمّي الأغراض التقليدية في الزفاف الإيراني والتي ترمز إلى العناصر المهمّة في الزواج. وفي المرآة المضاءة بالشمعدانات، كان يمكنني رؤية انعكاس صورة مهرداد فقط، ومن حيث يجلس، كان يمكنه رؤية انعكاس صورتي فقط. من بين العديد من العناصر المختلفة، كان المفضّلُ لديّ وعاء مملوءٌ بالبيض المزخرف الذي يرمز إلى الخصوبة، وأطباقٌ من اللوز المغطى بالسكر من أجل حياة

مليئة بالحلاوة، وصينيةً من بخور **الإسفند** الفارسي لدرء العين الشريرة.

بعد أن تبادلنا العهود، دعا مهرداد إلى اجتماعٍ في زاوية غرفة معيشتنا مع أصحاب الشأن الرئيسيين في مسرحية فضٍّ بكارتي: القريبات من الدرجة الأولى. مهرداد المتحلِّي بثقة وسلطة رجلٍ على أعتاب مهنةٍ مرموقة في مجتمعٍ بطريركي - وكان الجميع يبجّلونه عملياً بسبب ذلك - أوضح بكل هدوء أنّه لن يقبل المشاركة في تقليد المنديل. لم يكن يريد أن يأخذ منديلاً أبيض ليعيده ملطخاً بالدماء في وقتٍ لاحق من تلك الليلة إلى القريبات التواقّات إلى إثبات بأنّه أتمّ زواجه من عذراء.

وافقتْ والدة مهرداد، اللطيفة والهادئة الطباع كعادتها دائماً، على أنّه يجب أن نُترك وشأننا، وأن يُتخلّى عن تقليد المنديل قديم الطراز وضجيجه الذي يغلِّف ليلة الزواج. إذ قررتْ أم العريس ذلك، لم يكن لدى باقي القريبات - حتى أميّ المتشبّثة بالسُّلم الاجتماعي - خيارٌ سوى الاستسلام. فتنفَّستُ الصعداء لأنّني لن أكون مضطّرة لإثبات أنَّ مهرداد كان الأوّل بالنسبة لي بكلٍّ ما تعنيه الكلمة. لقد كان كذلك بالطبع، لكن مسرحية «الإثبات» بأكملها كانت مهينةً لأبعد الحدود، وكنتُ سعيدةً لتخطّيها.

بعد الحفل، دُعيَ الضيوف للخروج إلى الحديقة. بدا كلُّ شيء ساحراً، أضواءٌ هاربةٌ من قصة خرافية متناثرة على أغصان الأشجار، وطاولات عشاء مزيّنةٌ بالزهور وأباريق فخارية مملوءةٌ بالنبيذ، وفرقةٌ موسيقية أخذت مكانها فوق منصّةٍ مؤقتة. كانت أمّي قد تصوّرت الترتيبات المثالية، ووظّفتْ جيشاً من الخدم لتنفيذها على أرض الواقع. أمّا العم مسعود، فقد لعب دور العم / الأب الفخور.

أتذكّر أنّني تذوّقتُ لقمةً من أرز الزفاف التقليدي المزيَّن بالتوت البرّي اللاذع الغنيّ النكهة، وقشر البرتقال المقطّع المرّ الذي يتكامل على نحوٍ رائع مع حبات الزبيب الممتلئة. ربما يكون هذا المزيج من الحلو والحامض والمرّ رمزاً للحياة الزوجية. كما تناولتُ لقمةً من أفخاذ الدجاج الصغيرة المتبّلة لوقتٍ طويل بالزبادي والزعفران حتّى أنَّ اللحم كان ينزلق عن العظم. لكنّني بالكاد أتذكّرُ أيّاً من العشرة أطباق الأخرى التي حُضِّرتْ بمناسبة حفل زفافي. أتذكّر أنّني أخذتُ قضمةً من قطعة خبزٍ صغيرة مدهونة بالكافيار الإيراني مع عصرة ليمون.

عزفت الفرقة المستأجرة بينما كان الضيوف يرقصون متهادين على أنغامها.

في الثانية والعشرين من عمري، كنتُ العروس المثالية السعيدة التي تقف بجوار عريسها الذكي البارع الوسيم؛ الرجل الذي أحببته لأنّه كان لطيفاً أكثرَ من أيِّ شيءٍ آخر.

علا الهتاف بينما كنتُ أدور أمام مهرداد في فستان زفافي. حملني زوجي الجديد بذراعيه القويتين وأخذ يغزلني في الهواء، وكم كنتُ ممتنّة لأنّه فعل ذلك. كنتُ ممتنّةً لنعمتَي الشباب والصحة الزائلتين، ولأبّهة الاحتفال وسحره، ولوفرة الطعام والشراب الشهيّ، والتمنّيات الطيبة لنا من الجميع. كنتُ ممتنّةً حتّى لصوت حشرات الزيز المصاحب للفرقة، ولكلِّ ضوءٍ صغير بين فروع الأشجار.

كانت ليلةً صيفية مثالية، من النوع الذي تَطلقُ فيه البراعمُ، في هدأة الليل، أرقَّ عطورها عبر الحديقة، وتجلجل الضحكات منطلقةً في الفضاء أعلى من كل الجدران، ليلةٌ حيث يقرص الأقارب خدود

الأطفال المندفعين بين الطاولات، متوسّلين من أجل المزيد من المثلجات المنكَّهة بالزعفران وماء الورد والمحمَّلة بقطعٍ من الكريمة الثقيلة المجمَّدة داخل أكوام الفانيليا. ليلةٌ من ليالي الصيف التي تُرفع فيها كؤوس النبيذ - وكؤوس الـ **شربات** لأولئك المتدينين أو الصغار أو غير المهتمين بشرب الكحول.

تُرفع الكؤوس في كل مكان حولنا ابتهاجاً. كل تلك الكؤوس تُرفع لأجلنا.

حين أطعمني مهرداد قطعة من قالب الكعكة البرجية، كادت الكريمة تسيل على فستاني الأبيض، لكنَّ يده الماهرة التقطتْ القطعة السكّرية في الوقت المناسب حتّى لا تترك أيَّ أثرٍ على ذلك الحرير الأبيض النقي.

كان الأقارب الذين قطعوا صلاتهم بنا عندما اضطررنا للعيش وسط البلد يقفون الآن بأبهى حلّة - مستعدّين للاحتفال بزواجي، وسيعودون إلى منازلهم بعد ذلك، وسيقضون بلا شكّ الكثير من الوقت في الثرثرة. سمعتُ إحدى الضيفات تهذر حول أنَّ الأرز كان لزجاً جدّاً، وأنَّ مهرداد كان يبدو حسنَ المظهر، ومن الواضح أنّه كان مجتهداً، لكنّه «يبدو معقّداً بعض الشيء» - وإذ وصلتْ إلى طبقٍ آخر من حلوى **زولبيا** و **باميه** المقلية، كانت ذقنها تلمع من آثار الشراب المحلّى لهذه المعجنات المقلية التي كانت قد استهلكتها.

إذ أعانق كل ضيفة، بمن في ذلك العديد ممّن بالكاد استطعتُ التعرف عليهنّ، كنتُ أحني رأسي شاكرةً إطراءاتهنّ وحضورهنّ. لكن لم يسعني إلّا أن أشعر بالحسرة على أولئك الذين لم يكونوا حاضرين. أبي، الذي كان يتحول أكثر فأكثر إلى شبحٍ بالنسبة لي مع مرور كل عام. لقد فقدتُه وأنا في السابعة من عمري، ولا أزال

كذلك. كيف كان الحال ليكون لو أنّه تواجد في تلك الحديقة؟ لو تسنّى لي وضع رأسي على كتفه، وسماع نصيحته وهو يهمس بها في أذني؟ استحضرتُ شبح الرجل الذي كنتُ أتمنّى لو عرفتُه حقّاً. كم تُقتُ أن يكون هو ركيزة هذه الأمسية وحياتي بأكملها!

سوسن أيضاً لم تكن هناك. انقطع التواصل بيننا إثر لقائنا في الحديقة بعد اعتقال هوما بأيّامٍ قليلة. لم أستطع أن أسامحها على بقائها مع جاسوس كان خداعه سبباً في اعتقال هوما. ولم تستطع أن تسامحني لأنّي كنت غبية لدرجة أن أسلّم رقبة هوما لكولونيلها الحبيب.

لم أتذوّق المثلجات في تلك الليلة الصيفية. لم يكن قلبي ليتحمَّل أن أتلذّذ بنكهة الزعفران وماء الورد، ذاك الطعم العصيّ على النسيان منذ اليوم الذي جلستُ مع صديقتي في فناء البازار الكبير، نؤرجح أرجلنا فوق تلك الحافة ونحن نلتهم شطيرتَي المثلجات، ونتبادل الأفكار بشأن خططنا للمستقبل. صديقةٌ كان غيابها هو الحاضر الأكبر في تلك الليلة. صديقةٌ كان صدى ضحكاتها سيرتدُّ عن الجدران العالية لحديقتنا ومنها إلى السماء، وكانت طريقة فرحها بالحياة ستجعل حركات أقربائنا الراقصين تبدو كحركات أقزام وهم يتمايلون ويهزون خصورهم، وكانت سعادتها لأجلي ستصل حدود السماء.

كانت الشخص الذي افتقدتُه أكثر من الجميع، أكثر بكثير من الأب الذي لم أعرفه قط. لكنّها لم تكن مدعوّةً تلك الليلة. مرَّ الكثير من الوقت، وقد وفيتُ بوعدي لها. وكيف كان لها أن تأتي وقد باتت مرتبطةً بطفلة صغيرة، وزوجٍ لا يعرف أحدٌ بشأنه، وبعد أن قوطعت أحلامها، وذهبت دراستها الجامعية أدراج الرياح، وتغيَّر

مستقبلها، وأُحبطت طموحاتها، كلُّ ذلك بسبب ليلة أفصحتُ فيها عن الكثير وجعلتُها تعاني بطرق لم أقصدها، لم أردها، ولم أتخيّلها أبداً؟

في لحظةٍ ما، ارتسمتْ على وجه زوجي نظرة قلق بينما كنّا واقفين معاً في الحديقة. فانحنى وأخذ وجهي بكلتا يديه، وبهمسٍ لم يسمعه أحدٌ سواي قال: «أعلم أنّكِ تفتقدينها. جاش خالي. مكانها فارغ. كانت سترقص أكثر من الجميع لأجلنا، يا إيلي جوون. كانت ستقلب المنزل رأساً على عقب بتصرفاتها العجيبة».

وسط كل الموسيقى والصخب والجنون، وقفتُ أتأمله. هذا هو ما جعلني أحبُّ هذا الرجل. كان يملك من الأخلاق والتعاطف ما يمكّنه من الاعتراف بالمكانة العالية لصديقتي التي أفتقدها. كان يعرف ما فعلتُه ولم يزل يحبني. كان يعرف المصير الذي رسمتُه لهوما بسبب خطئي، لكنّه سامحني مع ذلك. كان يفهم أنّني أفتقدها، أفتقدها، أفتقدها.

- «كانت لتسخر من كل تفصيلٍ صغير في هذا الزفاف»، قلتُ وأنا أجهش بالبكاء. «كانت لتقول إنَّ الكافيار سخيف وإنَّ الأضواء في الأشجار...»

- «هل يمكنكِ أن تتخيلي ماذا كانت لتقول عن هذه الفرقة؟»، جذبني مهرداد إليه واحتضنني. «يمكنني سماعها وهي تصفهم بـ"البُله"!»، ثمَّ قبّل أعلى رأسي، تماماً حيث كانت الطرحة مثبّتةً بتاجٍ كانت أمي قد طلبتْه. «أتعلمين؟»، همس مهرداد في شعري. «أنا أيضاً أفتقدها».

وفي تلك اللحظة العذبة، أدركتُ أنه كان يحبُّ هوما بطريقته الخاصة، وبأنّها على مرّ السنين كانت قد أصبحت صديقته أيضاً.

إذ ذاك، صاحتْ أمّي بأعلى صوتها، «انظروا نحو السماء!».

كانت أمي قد نظّمتْ حتّى عرضاً للألعاب النارية، فانفجرت كمية صغيرة منها في الهواء بطريقة لا تنطوي على الكثير من الإبهار. مع ذلك، صفَّقَ الضيوف وأصروا أنَّ هذا كان أفضل عرضٍ شاهدوه على الإطلاق.

وقفتُ هناك، بوجهٍ يميل نحو السماء، والدموع تنهمر على وجنتيّ.

- «انظروا إليها»، قال الضيوف جميعاً. «انظروا إلى العروس؛ لقد أخذت منها العاطفة كلّ مأخذ. عسى أن يعيشا معاً حياةً طويلة هانئة. عسى أن يشيخا معاً. عسى أن ينجبا العديد من الأطفال معاً. عسى أن يتربّى أطفالهما في ظلٍّ حماية وإرشاد والديهما الوارف. عسى ألّا يريا أياماً سوداء قطّ».

أثبتت أمنيات الضيوف هذه بأنّها فعّالة بقدر فعالية الألعاب النارية الباهتة. فقد انطلقتْ إلى السماء بسرعةٍ ونشاط فقط كي تتفجّر إلى أشلاء وتذوي إلى العدم. إذ لم يتحقَّق من تلك الأمنيات سوى القليل.

لكن ليس على النحو الذي كان يقصده الضيوف.

على الإطلاق.

28

1970-1965

كانت الهدية التي حاكتها لي أمّي زهرية اللون، ومثلثة، وناعمة الملمس. ومن كل زاوية تدلّت خيوط تنتهي بكراتٍ صوفيةٍ منفوشة. أوضحتْ لي أمي أنَّ ما ظننته في البداية بطّانيةً للطفل، كان في الواقع شالاً أرتديه عند ولادة الطفل. قالت إنّها تخيّلتني في سرير الولادة، أحتضن المولود الجديد، وأبتسم لالتقاط صورة بولارويد الفورية.

كنّا أنا ومهرداد قد تخرّجنا من الجامعة، لكن وبينما واصل هو دراساته في الكيمياء، كنتُ لا أعمل.

كل يوم، كان يعود إلى المنزل من مختبر الكيمياء التابع للدراسات العليا مفعماً بالأمل والأفكار.

ومرّتين في الأسبوع، كنت أعود إلى المنزل من صالون التجميل وشعري مصفّفٌ في تسريحة عاليةٍ جداً، ووجهي مغطّىً بمساحيق التجميل. وكلّ شهر، كنت أزيل الزغب عن وجهي، وأنزع شعر جسدي من جذوره بواسطة الشمع.

أصبح صالون تجميل **تارا خانم** مصدر ترفيهي، ومكاناً لتكوين صداقات جديدة وللدردشة مع السيدات بينما صاحبة الصالون منشغلة

في تجعيد رموشي وإخفاء الهالات السوداء تحت عيني بالمساحيق المناسبة.

تركّزت اهتمامات زميلاتي في صالون التجميل في أساليب ترتيب الطاولة، وكيفية نحت حبة الفجل بحيث تبدو كالوردة. وثرثرنَ بلا توقف بشأن أخبار مغامرات العائلة المالكة في بلادنا، وخططهن لحياكة قبّعات لأطفالهن الذين لم يولدوا بعد.

لقد أنجبنَ أطفالاً في النهاية.

الواحدة تلو الأخرى بالطبع.

كانت نيلو قد أنجبت طفلاً حين كنتُ بصدد الزواج. وسمعتُ أنَّ سوسن كانت قد أنجبت طفلها الثالث في تلك الفترة. هي لم تهجر الكولونيل، بل بقيتْ معه وأشاحتْ بوجهها في اتجاهٍ مختلف تماماً.

بعد أن أنجب أطفالي، سيكون بوسعي على الأقل أن أبرّر رغبتي في البقاء في المنزل.

كنتُ قد تخرّجتُ بدرجات جيدة بما فيه الكفاية رغم كل ما أحسستُ به من خواءٍ وذنب عقب اعتقال هوما. لقد حصلتُ على شهادةٍ جامعية. وما منحه العالم لي، كان قد حرم منه الكثيرات ممن سبقنني - نساءٌ ربما رغبن في التعليم، وربّما في حياةٍ مهنية، لكن كان المنتظر منهن أن يبقين في المنزل ويربّين الأطفال.

«امضي قدماً، وتألّقي»، بدا الأمر وكأن هذا ما يحاول بلدٌ جائع قوله. كان لدى الفتيات من طبقتي، ومن جيلي، امتياز القدرة على الاختيار، وشقُّ طريقٍ جديد خاص بهنّ. تماماً كما أرادت هوما.

لكن بغياب هوما التي تشجعني وتدفعني للأمام، كنتُ محبطةً

جدّاً لأتمكن من الانطلاق بمسار حياةٍ مهنية. بغيابها، بدا ذلك خارج السياق. وما حدث أنّني حصلتُ على تلك الشهادة وطويتُها، وخبأتُها داخل صندوق.

لا يمكننا التحكّم في ما تخبّئه لنا الأقدار. ولا يمكننا التنبؤ بها، ولا يمكننا منعها، كما لا يمكننا تشكيلها وتغييرها مهما تمنَّينا. كنتُ أحبُّ مهرداد، وكان يحبّني. كان لدينا كل شيء: تعليمٌ جيّد، بيتٌ متين الأسس، مالٌ يوفر لنا الأمان، كنّا بصحة جيدة، ولدينا أصدقاء وعائلة، وأفضل ما في بلدنا من أفق.

ما لم نستطع أن نحظى به أنا ومهرداد كان الطفل.

يمرُّ عام ولمّا تزل ابتسامات الآخرين مهذّبة. يمرُّ عامان، وتعلو أصوات الهمس في التجّمعات الاجتماعية. وتمرُّ عدّة أعوام، وتصبح نظرات الشفقة على زوجين بلا أطفال مهينة ومؤذية أكثر فأكثر.

شيئاً فشيئاً، أخذتُ دور «الخالة». كنتُ أشتري الهدايا: بطٌّ خشبيّ على عجلات يُجرُّ بواسطة خيط، دمىً شقراء الشعر بعيونٍ تفتح وتغلق، بومٌ ودببة محشوة، وقنافذ قماشية لطيفة بذيولٍ قصيرة مضفّرة. واستمعت إلى شكاوى صديقاتي بشأن المربّيات السيئات، وتعجّبتُ معهنّ من إنجازات أطفالهنّ.

دفعتْ نيلو العربة أسفل شارع **لاله زار** وهي تغني وتهدهد وسط حديثها معي عن وظيفة هومان الجديدة في مكتب جوازات السفر وحبِّ ابنتها الصغيرة للغناء وكيف أنّها يمكن أن تكبر لتصبح مغنية أوبرا.

- «هل تغنّي؟»، سألتُها.

- «أوه، يجب أن تسمعيها، يا إيلي!».
- «أليست صغيرةً جدّاً مع ذلك؟».
- «أعلم هذا! أوليس ذلك رائعاً؟ إنّها تصدر تلك الأصوات الناعمة حين تكون منهمكة بالرضاعة أو مص إصبعها. تلك الأصوات أشبه بموسيقى سحرية».

كنتُ قد اعتدت على تفاخر صديقاتي بمواهب أطفالهنّ، وحماسهنّ حيال مهاراتهم الحقيقية منها والمتخيَّلة. وماذا كان يسعني أن أفعل سوى أن أكون سعيدةً لأجلهنّ؟

مشيتُ عائدةً إلى المنزل، أفكّر كيف كانت نيلو وهومان وكلّ من في دائرتنا - بمن في ذلك السيدات في صالون التجميل - يثرثرون قلقين بشأن عدم قدرتي على الإنجاب لأربع سنوات الآن. كنتُ أعلم أنّهم يتحدّثون خلف ظهري عن الأطفال الذين لم أتمكّن من إنجابهم. ويشعرون بالضيق بشأن الأجنّة التي لم تتشكّل بداخلي. لكن هل كانوا يعرفون عن الأجنّة التي تشكّلت؟

ثلاث مرات. وللسبب الذي حاكت أمّي الشال لأجله. كنتُ ومهرداد نقيم احتفالاً صغيراً وشديد الخصوصية. كان يجذبني من خصري ويدور بي في غرفة المعيشة، وكنا نطلق العنان لخيالاتنا البهيجة بشأن اسم الطفل، ونستقرُّ على المهد الذي سنحضره له. كان بوسعنا أن نتخيّل كلّ ذلك. لكن ما لم نكن لنتصوره هو النزيف وخسارة الحمل؛ النزيف الصاعق الذي ذهب بنا إلى المستشفى في كل مرة.

كانت دموع مهرداد تنهمر في عجالة. وحال مغادرتنا المستشفى، كان يحتوي حزنه، وينطوي على نفسه. بدا أنَّ أيّامي

تسودُّ على نحوٍ لا يمكن إصلاحه. وطغى عليَّ اكتئاب لا مثيل له.

كانت أمّي تعد لي جرعات من الزعفران المذوَّب في مرق العظام لأشربها. وبدأت تصلي خمس مرات في اليوم لتتضرَّع إلى الله أن يغيّر قدَري. مع الأسف، جاء تحوّلها إلى شخصٍ متديّن متأخراً جدّاً وبلا فائدة تذكر. فلم تنفع صلواتها في شيء. ولم تؤدّي جرعاتها إلى تحقيق ما كنّا نتوق إليه بشدة.

بالطبع، زعمتْ أمّي أنَّ العين الشريرة كانت السبب. «كلُّ هؤلاء الناس يغارون من صحتنا وثروتنا. كلُّ تلك النفوس الحاسدة تصيبنا بالعين»، قالت لي.

- «لكنني لم أعلن أنّني كنتُ حاملاً قطّ»، قلتُ لها. «لقد استمعنا لنصيحتك، ولم نخبر أحداً غيرك والعم مسعود ووالدَي مهرداد. كيف أصابنا الناس بالعين إن لم يكونوا على علمٍ بالأمر؟».

- «أوه، لن يعدموا وسيلة لذلك»، ردّت أمي. «أنتِ لا تعرفين شيئاً عن قوّة الغيرة، يا إيلاهيه. يمكن لها أن تدمّر حيوات الناس وصداقاتهم».

ذات ليلة، كادت رائحة الحلبة تجعلني أتقيّأ. كان مهرداد قد أضاف كمّية زائدة منها إلى طبق الـ **قورمه سابزي**. ممتنَّةً لأنّه ساعدني في الطبخ، لم أبدي له أيَّ استياء.

- «ربما هذا ليس قدرنا»، قلتُ من مكاني على الجهة الأخرى من الطاولة.

رفع مهرداد عينيه عن طبقه، فرأيتُ في تلك العينين اللتين تسلّقت صديقة ذات يومٍ جبلاً كي تنظر فيهما وتتمكن من تقرير ما إذا كانت روحه نقيّةً أم لا، مرآةً لخسارتي.

مضغ طعامه بهدوء.

كنّا قد ناقشنا باختصار مسألة التبّني، لكنّنا لم نتّفق أبداً على كيفية القيام بذلك.

التقط مهرداد كأس الماء وقال إنّه لا يمانع ذلك على الإطلاق. قال إنّه لا مشكلة لديه على الإطلاق إن كان لن يصبح أباً قط.

- «ربّما تكون هذه هي مشيئة الله»، قلتُ له.

- «لم تكوني يوماً متديّنة»، قال مهرداد.

- «حسنٌ، ربّما هو ليس قدَرنا وحسب».

- «"القدَر" مجرّد طريقة أخرى لقول "مشيئة الله"، أليس كذلك؟ لدينا على أية حال الكثير ممّا يجب أن يجعلنا ممتنّين دائماً».

- «الكثير»، قلتُ له.

- «أقصد أنّكِ إن فكرتِ في الأمر حقّاً، ستجدين أنَّ الأطفال عبءٌ كبير».

- «بالفعل».

أكملنا ما تبقّى من الوجبة دون أن نقول شيئاً.

أراد جزءٌ منّي الرحيل عن تلك المدينة فحسب. والهرب إلى أرضٍ أخرى لا يعرفنا فيها أحد.

29

1977

- «سيكون ذلك لعامين. إنّها بعثةٌ مؤقتة. لكنّها فرصة العمر»، قال مهرداد بينما كنا نتناول الإفطار. «إذا أنجزتُ هذا البحث في نيويورك، فالأرجح أن يؤهلني ذلك لمنصبٍ أفضل هنا في إيران».

خلال اثني عشر عاماً من زواجنا، نجحنا أنا ومهرداد في صياغة حياةٍ عذبة وحلوة معاً. اجتمعنا بالأصدقاء والعائلة بصورةٍ منتظمة وابتهجنا معهم بينما كان أطفالهم يكبرون. حضرنا خلال تلك الأعوام حفلات أعياد الميلاد، وحفلات الزفاف، وبعض جنازات الأقارب البعيدين. وعندما أخبرني مهرداد أنّه يريد أن يتقدّم لوظائف بحثية في أوروبا والولايات المتحدة، شجّعتُه على الفور.

كنّا في العام 1977، وفي شوارع طهران، كان التوتر وحالة عدم الرضا عن الشاه يتعاظمان ليتحوّلا إلى دورةٍ متكررة بتواترٍ متزايد من المظاهرات والاحتجاجات والقمع. كان سجن الناشطين قد أصبح أمراً روتينياً. والألم الفظيع الذي شعرتُ به عند اعتقال هوما بات شائعاً بين الكثير من الناس.

- «سوف أبدأ مع بداية العام الدراسي الجديد»، قال مهرداد. «هذا المختبر بالتحديد يرأسه أسطورة في علم الوراثة البيوكيميائية.

إنّه نجمٌ خارق بكل معنى الكلمة. سيتكفلون حتى بدفع تكاليف إقامتنا في الشارع المقابل لجامعة روكفلر».

كنتُ قد قرأت وأعدتُ أكثر من مرة قراءة كل سطر من رسالة قبول مهرداد في جامعة روكفلر، ممتنّة لكوني درستُ اللغة الإنجليزية في جامعة طهران.

- «أعلم أنَّ ثمّة الكثير لأخذه بعين الاعتبار، لكنّكِ تتحدّثين لغتهم بالفعل، يا إيلي!»، قال مهرداد. «سيتعيَّنُ عليكِ مساعدتي على هذه الجبهة. سنقضي هناك عامين فقط، ومن ثمَّ سنعود إلى هنا».

لاحقاً، حين كان مهرداد في عمله، قصدتُ أكبر مكتبةٍ في طهران. كانت لديَّ معرفةٌ سطحية بمدينة نيويورك، لكنني كنت بحاجة لأن أجري بعض الأبحاث، وأشكّل إحساساً أعمق حيال المدينة. في قسم السفر في المكتبة، عثرتُ على ثلاثة كتب مذكّرات لمؤلفين إيرانيين كانوا قد زاروا نيويورك أو عاشوا فيها، وكتابَي صورٍ فوتوغرافية، وبعض الكتيّبات المصنّفة كدليل المسافر.

قلَّبتُ صفحات الصور وميّزتُ مبنى الأمم المتحدة بين صور ناطحات السحاب، ومكتبة يحرس أسدان حجريان بوابتها الضخمة. الطاقة التي تنبض بها صور سيارات الأجرة الصفراء العالقة في الاختناقات المرورية والناس الذين ينتظرون تحت إشارات «لا تمشِ» الضوئية فرصتهم للعبور الشوارع المزدحمة - كانت طاقةً أعرفها جيّداً من أجواء مدينتي الصاخبة.

شعرتُ بموجةٍ غريبةٍ من الإثارة تغمرني. أعدتُ الكتاب الكبير إلى الرف، وأخذتُ واحد من أدلّة المسافر المصمم ليُحمل في الجيب بسهولة. على الغلاف الخلفي، كانت ثمة عبارات فارسية مترجمةٌ إلى الإنجليزية: «كيف حالك؟»، «أنا بخير، شكراً لك».

«عفواً، هلّا اخبرتني من فضلك أين يمكنني العثور على دورة مياه؟». وكان هناك أيضاً صورٌ لـ «أطايب» نيويورك - قطعة هوت مغطّاة بخطوطٍ متعرجة من الصلصةِ الصفراء؛ كعكة بريتزل ضخمة منقَّطةٌ بما يُفترض أن يكون حبّات ملح؛ شطيرة برغر مع البطاطس المقلية؛ كوب متناسق مملوء بالكوكا كولا؛ قطعةٌ من ''كعكة الجبن النيويوركية'' - بدت كل هذه مألوفة أكثر مما كنتُ أعتقد.

خلال سنوات مراهقتي، كانت المنتجات والعادات الأمريكية قد شقَّتْ طريقها إلى إيران عبر الأفلام والبرامج التلفزيونية، فضلاً عن الأعداد المتزايدة للأمريكيين الذين كانوا يعيشون ويعملون في طهران لصالح الشركات الأمريكية التي كانت تستثمر في بلدنا. كانت أُفرين تعرف الكثير من أولئك المغتربين الأمريكان. لم تتزوّج أُفرين قطّ، وبدلاً من ذلك كانت قد عادتْ إلى إقامة حفلاتها الصاخبة الشهيرة، والتي باتت يحضرها الآن أمريكيون وبريطانيون ممن يقيمون في إيران. من الواضح أنَّ مشوارها كشيوعية كان قصيراً. كانت قد عادت للتواصل معي حين كنا في منتصف العشرينيات من عمرنا بعد أن التقينا صدفةً في أحد المطاعم. كان الأمريكيون الذين التقيتُ بهم في اللقاءات التي كانت تعقدها أُفرين يثنون دائماً لغتي الإنجليزية. لقد بدوا أشخاصاً لطيفين على نحوٍ لا بأس به!

- «عزيزتي، زوجك لديه فرصة عمل»، قالت أمّي. «حتّى حقيقة أنّه يتظاهر باستشارتك هي شيءٌ رائعٌ - إنّه رجلٌ عصري ومستنير بحقّ! لكن الزوجات يتبعن أزواجهنّ - الأمر بهذه البساطة. ولمَ بحقِّ السماء قد تحرمينه من ترقيةٍ كهذه؟ ليس الأمر وكأنَّ عليك القلق بشأن. . .». سكتتْ وتنهّدتْ. «التشويش. . . على. . . أيِّ أطفال. وقد يكون هذا بالضبط ما طلبه الطبيب، يا إيلي جان.

اسمعي، أعلم أنّكِ ومهرداد لا تحبّان الشاه كثيراً. لا أعرف السبب لأنّه وبالرغم من أخطائه، فقد قدّم ملكنا الكثير لهذا البلد، إذا أردتِ رأيي. لكن بصرف النظر عن ذلك، أعتقد أنَّ هذا سيكون جيّداً لكما، يا إيلي».

لم يكن قد مضى آنذاك سوى بضعة أيام على وصول الرسالة من جامعة روكفلر، وكنتُ جالسةً مع أمّي فوق أريكتها المخملية الخضراء.

نظرتْ إليّ أمي وقالت: «سأفتقدك كثيراً».

شعرتُ بدوارٍ في رأسي، وغصَّةٍ في حلقي. فرغم سلوكها المتغطرس، لم أكن أرغب في ترك أمّي.

«لكنّها بلادٌ بعيدةٌ جدّاً. . . ».

- «كوني واثقة أنّني سآتي لزيارتك، يا عزيزتي! لطالما كنتُ أتوق للذهاب إلى مدينة نيويورك».

- «هناك كمٌّ هائل من المعاملات الورقية إذا وافقنا على الذهاب. إنّهم يؤمّنون لنا السكن في الشارع المقابل للجامعة، لكن يتعيّن علينا أن نملأ هذه الاستمارات. . . ».

نهضتْ أمّي وبدأتْ تذرع الغرفة جيئةً وذهاباً. «يجب أن أحضر خريطة. ويجب أن تشتري ملابس جيدة لترتديها هناك. نيويورك ليست مزحة. لا يمكنك أن تبدي مثل **دهاتي**، فلّاحة. أتساءل كيف ينظرون لنا. آمل أنهم قرأوا عن أمجاد الإمبراطورية الفارسية العظيمة!».

مضت أمّي في سرديتها لكل ما كان عليَّ إنجازه تحضيراً للانتقال وهي لا تزال تذرع الغرفة. تحدّثتْ عن صندوقٍ وكيف يجب

أن أملأه بالهدايا لرئيس مهرداد وزملائه المستقبليين في العمل. قالت إنه ينبغي بي أن أشتري أفضل منتوجات الحرف اليدوية و الهدايا التذكارية الإيرانية؛ مفارش المائدة المصنوعة يدويّاً، وصناديق موزاييك الـ **خاتَم**، والأطباق المزخرفة يدوياً. وأطايبنا الشهيرة! الفستق الطازج، وحلوى النوجا اللذيذة. هل سيحبون هذه الأشياء في أمريكا؟ خذي الزعفران! نعم، يا إيلي، خذي لهم الكافيار الإيراني أيضاً. قالت إنَّ البازار الكبير مكان شديد الازدحام وكريه الرائحة، لكن لأجل رحلةٍ كهذه، سيكون أفضل مكانٍ للحصول على كل شيءٍ دفعةً واحدة، وبسعر جيّد طالما لم أكن خجولة وليس لديّ مشكلة في المساومة.

التفتت أمي نحو ورق الحائط المنقوش بنمط الـ **بيزلي**(1)، وصاحتْ مخاطبةً جمهوراً غير مرئي: «هل ترون؟ ابنتي سيدةٌ كبيرة الآن! يجب أن أحصل على خريطة!».

لم أعرف ما إذا كان يجدر بي الضحك أم البكاء. لكنّها كانت على حق: كان قدري محتوماً. فكزوجة، كان متوقَّعاً مني أن أتبع زوجي. ولم يكن بإمكاني أن أضيّع على مهرداد فرصةً مهنية ضخمة كهذه. ومن ذا الذي لا يريد العيش في أكثر مدن العالم إثارة؟ لذا، وبدلاً من أن أذعر بشدّة وأفقد صوابي لفكرة ترك البيت والعائلة والأصدقاء، قلتُ لنفسي إنّه ينبغي لي أن أرى الأمر بمثابة دوران مبشِّر لعجلة الحظ.

راقبتُ أمّي وهي تتجول في الغرفة وتضع خططها. شعرتُ بوجهي يحترق، وبـ **دلتنجي**، بانقباضٍ في قلبي لدى التفكير في كم

(1) فن فارسي يتمحور حول تكرار شكلٍ هندسي يشبه الدمعة - المترجم.

سأفتقد لأمّي هذه. كانت أكثر شخصٍ مستفزّ عرفته في حياتي. ومع ذلك، كان حبّها هو الثابت الوحيد في حياتي كلّها، حتّى لو كان مصحوباً بسلوكياتها المربكة في معظم الأحيان. اغرورقتْ عيناي بالدموع لدي التفكير في حياةٍ بعيدةٍ عنها. كيف سأفعل ذلك حتّى؟

قبل أسبوعين من مغادرتنا، وقفتُ وسط الأزقة المزدحمة في البازار الكبير حاملةً القائمة التي كتبتها أمي على ورقة كانت قد مزَّقتها من المفكرة الصغيرة بجوار هاتفها.

مرت سنوات مذ زرتُ هذا الجزء من المدينة آخر مرة. قبل وقتٍ طويل، كان مهرداد قد طلب يدي للزواج أثناء تناولنا وجبةً من **تشيلو كباب في مطعم نايب**. وبالطبع، كان محفوراً في ذاكرتي اليوم الذي تغيّبتُ فيه مع هوما عن المدرسة حين كنا في العاشرة، حيث ذرعنا معاً لأوّل مرة هذه الأزقّة المتعرجة هنا.

وكما لو أنَّ الوقت لم يمرَّ من هنا، امتزج عطر الزهور المجففة برائحة البطيخ المتعفن. مررتُ وأنا أحمل أكياسي بأكوام السجاد السميك، وأكشاك مليئة بتماثيل عرض مع أساور ذهبية في أذرعها، وسلاسل فضّية معلّقة على صوانٍ مخمليّة. توقّفتُ لأتفقّد القائمة التي أعدَّتها أمّي، فشطبتُ برعونة الهدايا والسلع الإيرانية التي كنتُ قد اشتريُها بالفعل. كان يمكنني سماع صوت أمّي في رأسي وهي تقول: «لا تقبلي أبداً بأوّل سعرٍ يعطونه لك، يا إيلي. لا تكوني مغفلة. تحدّثي بثقة وصوتٍ عالٍ! اعترضي، واعرضي سعراً أقل. هكذا تسير الأمور».

كان أصحاب المتاجر ينادون على بضائعهم، وكانت أصوات طرق الحرفيين لقضبانهم على السطوح المعدنية تقرع في أذنيّ. كنتُ

قد اشتريتُ بالفعل طبقاً معدنياً حُفرتْ عليها صورة طائر جميلٍ للغاية منقوشة بيديّ حرفيٍّ هادئ في منتصف العمر. حين سألتُه كم السعر، اقترح ما بدا لي سعراً عادلاً، ففاجأته بدفع الرقم الذي طلبه على الفور. لم يكن لديَّ الجَلد للمساومة، لكنّه كان كريم النفس، الأمر الذي جعله يرفع عينيه وينظر إليَّ بامتنان صامت. لربّما يكون الطائر المعدني الذي حفره هذا الحرفي هو الهديّة التي سنقدّمها لرئيس مهرداد في جامعة روكفلر.

اقتربتُ الآن من كشكٍ يكتظّ بأكياس الخيش والبراميل الملأى بالتوابل الملونة، والفواكه المجففة، والمكسرات. كنتُ أتفحص بعناية هرماً ضخماً من بذور **الإسفند**، وأتساءل ما إذا كان من المنطقي أن آخذ هذا البخور الإيراني معي إلى أمريكا لأدرأ به العين الشريرة، عندما سمعتُ صوتها.

- «انتظري دقيقة، يا بَهار جون. **صبر داشته باش**. تحلَّي بالصبر».

للحظةٍ، شعرتُ بأنّني ربّما كنتُ أتخيل، لكن كان من غير الممكن أن أخطئ في تمييز صوتها.

كانت نبرتُها حنونة وتبعث على الاطمئنان، لكنّها تنطوي على قدرٍ كبير من الحزم.

بدافعٍ من الخوف أو الخجل أو التوتّر، جرجرتُ قدمي لأقف خلف أقربَ برميل، لكن حتى أطول برميلٍ مملوءٍ بالجوز لم يكن كافياً لجعلي غير مرئية. كانت ساقاي مخفيتين، لكنَّ رأسي وجسدي كانا لا يزالان مكشوفين.

أصبح الصوت أقرب. «سأساعدكِ في اختيار الأفضل».

الآن، وبعد أن تأكدتُ من أنَّ الصوت الذي سمعتُه كان صوت

هوما، بدأ قلبي يخفق بصوتٍ عالٍ حتّى إنّني شعرتُ بالقلق من أنّها ستسمعه وتنظر باتّجاهي.

بالقرب من برميل الجوز، كان ثمة كيس خيشٍ مملوء بهرمٍ من الفستق. ذهبتْ هوما إلى كيس الفستق مباشرةً على بعد مترٍ أو اثنين مني. كانت ترتدي بنطالاً أزرق داكناً، وكنزةً بلون الكريمة، وحذاء مشي بنّي اللون. كانت تحمل بإحدى يديها سلةً ملأى بحزم البقدونس والبصل الأخضر، وباليد الأخرى، كانت تمسك بيد فتاة.

مثلها، كانت الفتاة ذات شعرٍ مجعّد كثيف وداكن اللون، وبدت في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها، وترتدي بنطال جينز يصبح واسعاً عند الساقين، وكنزةً صفراء ملصقٌ عليها صورة الكلب سنوبي، وخفّاً قماشياً. ظلّتْ هوما عند كيس الفستق، لكنَّ الفتاة سارت نحو برميل الجوز. كانت الآن قريبةً لدرجة أنّني تمكّنتُ من رؤية شامة تحت عينها اليسرى، تماماً مثل التي لدى هوما.

تجمّدتُ في مكاني.

- «قال بابا إنَّ لدينا دبس الرمان في المنزل»، قالت الفتاة.

لم يسعني لدى سماع صوتها الذي يشبه إلى حدٍّ كبير صوت والدتها إلّا أن أنشج بصمت.

- «حسنٌ، فلتحضري الجوز إذاً»، قالت هوما وهي شبه غائبة بينما كانت تتفحّص الفستق.

وقفتُ ساكنةً بلا حراك، وقلبي عالقٌ في حنجرتي.

وصلتْ بَهار الآن إلى برميل الجوز حيث كنتُ أقف نصف مكشوفة على نحوٍ مفضوح، وإذ رأتني، أنا الغريبة واقفةً أمامها، ابتسمتْ بأدب، ثمَّ رفعت المغرفة النحاسية الصغيرة من البرميل لتتفحّص الجوز.

- «دعيني أساعدك، يا بَهار جون»، قالت هوما وهي تقترب من ابنتها.

وها قد كنّا، وجهاً لوجه، وعيناً بعين. كانت ثلاثة عشر عاماً قد مرت منذ زيارتي المشؤومة لشقّتها، حيث كانت بَهار لا تزال طفلة رضيعة مستلقية فوق بطّانية وردية على الأرض.

سرتْ برودة في أوصالي؛ وبدا وكأن أطرافي لم تعد ملكاً لي؛ وشعرتُ بألمٍ حادٍّ في صدري. أردتُ أن أذوي وأذوب، أردتُ أن أفرَّ هاربة، كما أردتُ أن ألقي بذراعي حول هذه الغريبة التي كانت ذات يومٍ صديقتي. كانت تلك النظرة المنهَكة الضائعة قد اختفت من عينيها. وكانت حسنة الهندام، حتّى أنها وضعت القليل من المكياج - وكم أدهشني ذلك، إذ لم يسبق لي أن رأيتُ هوما تضع مكياجاً في حياتي.

- «سلام»، قلتُ بصوتٍ رفيع ومتكسّر قادمٍ من أعماق أعماقي.

- «خودتي؟ هذه أنتِ؟». بدت وكأنّها رأتْ جنّية.

- «هذه أنا»، قلتُ لها.

- «ماما؟». نظرت بَهار إلى هوما ثمَّ إليّ.

التفتت هوما نحو ابنتها بوجهٍ خلوٍّ من التعابير، وكأنّها نسيت أنَّ الفتاة كانت هناك. «أوه، بَهار جون. هذه. . .»، أشارتْ إليّ. «هذه. . . صديقةٌ قديمة»، ثمَّ جذبت الفتاة إليها وكأنّها تحاول حمايتها. «وهذه بَهار».

لم تذكر هوما اسمي، لكنّها وصفتني بالصديقة. وكنتُ ممتنّةً لذلك. خرجتُ من خلف البرميل، وخفضتُ رأسي لبَهار. «**خوشبختم**. سعيدةٌ بلقائك»، قلتُ لها.

نظرتْ إليَّ الفتاة بعينين غامقتين وكبيرتين جدّاً، وأومأتْ لي بأدب. ثمَّ شدّتْ كُمَّ والدتها.

- «أعلم، أعلم أنّكِ تريدين الحصول على الجوز». ثمَّ نظرتْ هوما إليَّ بذات النظرة الخاوية التي رمقتني بها لحظة تعرّفتْ عليّ، وقالت: «اعذرينا. نحن في عجلةٍ من أمرنا بعض الشيء. إنّنا نحضر المكوّنات اللازمة للـ ——».

- «للـ **فسنجون**، بلا شكّ»، قلتُ لها.

رفعتْ الفتاة عينيها الواسعتين نحوي وقالت: «كيف عرفتِ؟».

لم أقل لها لأنَّ الـ **فسنجون** لطالما كان وجبة والدتك المفضلة، بل قلتُ ببساطة وبخفّةٍ ظلّ متكلّفة: «حسنٌ، أنتِ أمام برميل الجوز، أليس كذلك؟ تصوّرتُ أنّكِ إن كنتِ تشترين الجوز، فهو وقت الـ **فسنجون** إذاً».

ابتسمت الفتاة.

- «كم عمرك؟»، سألتُها لأنّني لم أعرف ماذا أقول غير ذلك.

- «ثلاثة عشر»، قالت بَهار وهي تفرك قدميها بالأرض.

- «كنّا على وشك التحرّك، أليس كذلك، يا بَهار؟»، سألتْ هوما.

- «لكنّنا لم نشترِ ——».

قاطعتها هوما على الفور. «لا يهمّ. عبّاس آغا على بعد بضعة أكشاك من هنا، لديه أفضل أنواع الجوز».

- «لكنّكِ قلتِ إنّه يجدر بنا أن نأتي إلى هذا الكشك».

- «حسنٌ، لقد كنتُ مخطئة. هيا، يا بَهار»، قالت هوما. ثمَّ أمسكتْ بيد ابنتها، وأعادتْ موازنة السلة على ذراعها، وبدأت تتحرك مبتعدة.

- «انتظري!».

استدارت هوما وبَهار نحوي.

أردتُ أن أقول إنّني آسفة. أردتُ أن أركع على ركبتيّ هناك بالقرب من براميل المكسرات وأطلب المغفرة. كان وجهي يحترق، وذراعاي منهكتان جداً من ثقل الأكياس التي أحملها. شعرتُ وكأنّه سيُغمى عليّ في أيّة لحظة. لكنَّ المتسوقين واصلوا التحرك والمساومة بينما عينا بَهار الواسعتان تسبران أغوار عينيّ.

- «هوما. أنا راحلةٌ في ظرف أسبوعين. سوف أنتقل. سوف ننتقل، أنا ومهرداد؛ إلى أمريكا».

عاد وجه هوما ليكون حيادياً تماماً. «أمريكا؟».

- «نعم، نيويورك».

- «لماذا؟».

- «مهرداد. لقد حصل على وظيفةٍ في مختبر بصفته باحثاً بعد الدكتوراه. إنّها وظيفة جيدة جدّاً ومرموقة». مكتبة سُر مَن قرأ

هوما التي كنت أعرفها كانت ستقلب عينيها وتقول، **كفّي عن التباهي، يا إيلي.** لكنَّ هذه الجديدة، هذه الغريبة قالت لي ببساطة: «**موفق باشيد.** بالتوفيق. وداعاً».

لم أصدِّق أنّني كنتُ أفقدها مجدّداً. لم أقدر أن أتركها تذهب وحسب. «إذا احتجتِ إلى أيِّ شيء؛ أي شيءٍ على الإطلاق، أرجوك اكتبي لي»، قلتُ بيأسٍ شديد.

- «وكيف أفعل ذلك؟ هل أضع العنوان: صديقتي القديمة في نيويورك؟»، سألتْ ساخرة. ها قد عادت هوما القديمة.

أمسكت هوما بيد بَهار بقوّة، واستدارت لتغادر. بدأتا تشقان طريقهما خارج كشك المكسرات والتوابل. وإذ كانتا على وشك

الخروج من الكشك، والضياع في البهو الهائل المفضي إلى عددٍ كبير من الأكشاك الأخرى، صرختُ: «أمّي ستعرف كيف تصل إليّ. اسألي أمّي!».

كان التعبير على وجه هوما حين التفتت نحوي لآخر مرة ينمُّ عن إحباط وحزن وشوقٍ ومحبة في آنٍ واحد.

وقفتُ هناك عاجزة عن الحركة تماماً.

لوّحتْ بَهار لي وهما تغادران مبتعدتين.

كان التاريخ المطبوع على النسخة الكربونية من التذاكر يشير إلى 19 أغسطس 1977 وفقاً للتقويم الغربي. كنا ننظر إلى الطيران كتجربةٍ فاخرة، وكنّا في كامل أناقتنا من أجل الالتحاق برحلة شركة بان أم للطيران. ارتديتُ تنورةً ضيّقة مع سترة تناسبها، وجوربين من النايلون مع كعبٍ عال. وضع مهرداد أفضل ربطة عنقٍ لديه، ولمَّع حذاءه.

أشعلتْ أمّي بخور الإسفند في يوم رحيلنا لطرد العين الشريرة، وتركت دخانه يسبح فوقنا، ثمَّ حملتْ قرآناً فوق رأسينا وجعلتنا نمشي تحته ثلاث مرات. ولدى انطلاقنا بسيارة العم مسعود، رشّتْ أمي وبتول الماء على الأرض خلفها.

أصررتُ ألّا ترافقنا أمّي إلى المطار، ورغم بركاتها وتظاهرها بالقوة، كنتُ أعلم أنّها ستبقى على الأرجح حبيسة الفراش لعدة أيام بعد مغادرتي.

على متن الطائرة، كانت المضيفات الأشبه بعارضات الأزياء يتجوّلن في الممرّ ويوزِّعن الابتسامات بسخاء. لم أستطع التوقّف عن البكاء. كنا خارجَين في مغامرة - هي بمثابة فرصة العمر. كنّا

أكثر من محظوظين. مع ذلك، سأفتقدهم جميعاً: أمّي، العم مسعود، بتول. أصدقائي. وبيتي.

مدَّ مهرداد يده، وأمسك بيدي. كانت رائحته مزيجاً من رائحة صابون بنكهة الليمون والكولونيا.

صعدنا إلى السماء، ووضعنا مصيرنا بين يديّ الطيار وقدرته على قيادة ذلك الصندوق المعدني.

كان يُفترض بها أن تكون بعثةً محدودة المدة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الرابع

30

1974-1965

هوما

لدينا ما يشبه الميثاق السري - أنا وعبدول. سوف ننشئ عائلةً معاً، لكننا لن نأتي أبداً على ذكر **ذلك الأمر**؛ ما حدث لي في غرفة الاستجواب.

أنا متأكّدةٌ أنَّ لدى الـ **سافاك** ملفّاتٍ عني، وأنّني موضوعة تحت المراقبة. لا أرى أحداً سوى أفراد عائلتي القريبة، وذلك فقط لأنّنا بحاجةٍ لبعضنا البعض. تقول عينا أمّي إنّها تشعر بقلقٍ شديد حيال ما حدث لي في السجن، لكنّها لا تستطيع حتى أن تقترب من إثارة الموضوع. سارة وأخي كذلك الأمر. الجميع يهتمون لأمري، لكنّهم لا يريدون مناقشة ما حدث. أنا أيضاً لا أريد ذلك.

لا يزال أبي مسجوناً. اعتدتُ أن أزوره في فترات متقطّعة مع أمّي. لكنّني الآن لا أتحمّل الذهاب إلى السجن لرؤيته. لقد انسحبتُ من السياسة تماماً، واستقلتُ رسمياً ومعنويّاً من المنظّمة الشيوعية.

وفي حين كنتُ ذات يومٍ أناضل من أجل حقوق الإنسان، الآن أنا أناضل من أجل النجاة.

حياتي كلّها تدور حول طفلتي. أنا أرضع بَهار. وأغيّر حفاضاتها. وآخذها إلى الحديقة.

يعاملني عبدول - باركه الله - بلطفٍ كبير. هو يحبُّ بَهار كما لو أنّها ابنته. تتبدّل نوبات عمل عبدول في المرآب من العمل حتى ساعات متأخرة في الليل إلى العمل طوال النهار. إنّه عاملٌ مجتهد، ودخله يكفي احتياجاتنا نحن الثلاثة من مأوىً ومأكل وملبس.

ربّاه، كم أشتاق لإيلي.

عندما كانت بَهار لا تزال طفلةً رضيعة، وافقتُ أخيراً، وعلى مضض على زيارة إيلي. وافقتُ فقط لأنّها إيلي. وحتّى آنذاك، قلقتُ بشدّة من أنّها قد تقع في مشاكل بسبب رؤيتها معي. وحتّى آنذاك، تأذّيتُ بشدّة لأنّها عرضت المال عليّ؛ لأنّها تشفق عليّ. إيلي تشعر بالأسف عليّ. وهذا شيءٌ لا يمكنني تحمّله.

أركّز على النجاة ليس يوماً بيوم، بل في الغالب ساعةً بساعة، أو حتى لحظةً بلحظة. إنّها الطريقة الوحيدة التي أستطيع بواسطتها منع نفسي من الغرق في الحزن.

تبعث هذه الطفلة الصغيرة السرور في نفسي. صحيحٌ أنَّها تفقدني أعصابي في بعض الأحيان، لكنَّ ضحكتها، ملامحها حين تذوّقت الليمون لأول مرة - شيءٌ لا يقدَّر بثمن. تمسكُ ذقني بيديها الصغيرتين المكتنزتين وتحاول أن تمصّه. إنَّ افتتانها المطلق بالحياة ساحرٌ. وعاء، ورقة شجر ساقطة، صوت الريح؛ كلّها أشياء كفيلة بجعلها تنبهر أشدَّ الانبهار.

أمّي تساعدني. فأنا متعبةٌ جدّاً وأعاني نقصاً شديداً في النوم،

لذا فهي تحضر معها أعمال الخياطة، وتأتي لتراقب بَهار بينما يكون عبدول في العمل. وإذ تبلغ بَهار ستة أشهر من العمر، تبدأ أمي في تشجيعي، ومن ثمَّ تصرُّ عليَّ أن أخرج في نزهةٍ صباحية. «راح-تو-برو. اذهبي في نزهة».

أخرجُ على مضض. وأعود إلى المنزل سريعاً.

في اليوم التالي، تطلب مني أمّي أن أخرج مجدّداً. هذه المرة، أذهب أبعد قليلاً من اليوم السابق.

أمشي في تلك المدينة التي أعرفها جيّداً، حيث لعبتُ كطفلة، وناضلتُ كمراهقة من أجل حقوق الناس.

في الأسابيع والأشهر التالية، أمشي كيلومترات وكيلومترات خلال ساعات الصباح.

في أحد الأيام، أمشي بالقرب من جامعة طهران، حيث حلمتُ قبل أن أنقطع عن دراسة القانون أن أصبح قاضية ذات يوم. أمشي في يومٍ آخر عبر الحي الذي لعبنا فيه أنا وإيلي الحجلة حين كنا لا نزال طفلتين. وفي وقتٍ لاحق من ذلك الشهر، أمشي عبر متاهات البازار التي تجولنا فيه أنا وهي يوم تغيّبنا عن المدرسة.

إذ أسيرُ، يهمس صوتٌ في رأسي. ليس كل يوم. وليس بالضرورة في أوّل كيلومترٍ أو في الثاني. لكنّه صوتٌ ينطق بحقائق لا يسعني النفاذ إليها إلّا بعد أن أندمج تماماً في حالة الحركة المستمرة.

يكاشفني الصوت قائلاً:

لا يمكنه أن يجعلَ منّي عدماً.

لا يمكنه أن يحوّلني إلى بخار.

لا يمكنه أن يجعلني غير مرئية.

لا يمكنه أن يتسبب في فقداني لنفسي.

لن أسمح له بذلك.

لقد حطّم روحي. لكنَّ الصوت يطلب منّي أن أتعافى وأستردَّ ذاتي. لا أحد سيفعل ذلك عنّي.

في الليل، أحاول من حينٍ لآخر استعادة شغفي بالقراءة، ذاك الذي فقدتُه لكوني أمّاً جديدة متعبة وخائفة. أستعير الكتب من المكتبة؛ وأذهب إلى متجر بيع الكتب. أشعر بأقصى قدرٍ من السلام حين أكون محاطةً بالكتب. أما السياسة - النشاط السياسي - فليس لديّ الجلَد ولا الوقت لها. لكن ربما، وفقط ربّما، قد أعود إلى ذلك أيضاً مع مرور الوقت.

يهمس الصوت بمزيدٍ من الحقائق بينما أواصل المشي:

ما حدث في تلك الغرفة لن يحدّد من أكون.

أنا مَن كنتُ دائماً. أحبُّ الحركة، والجري، والسير لمسافاتٍ طويلة. أحبُّ الـ **فسنجون**. أحبُّ الطبخ. لا أزال أحمل وصفات أمي بداخلي. لا يمكنه أن يسلبني كل ذلك.

في النهاية، أبدأ في تبادل الأحاديث مع الأمّهات الأخريات في الحيّ. يتظاهرن بأنَّ بَهار هي ابنة عبدول. أو ربّما يصدّق بعضهنّ ذلك بالفعل - أولئك اللاتي لم يكنَّ يعرفنني عندما خرجتُ من السجن أو لم يعرفن أنّني كنت هناك في الأساس.

رُقِّيَ عبدول ليصبح مديراً في المرآب. وتكبر بَهار؛ الطفلة الرضيعة الرقيقة مروراً ببَهار الطفلة الشقية وصولاً إلى بَهار الطفلة الثرثارة في مرحلة ما قبل المدرسة. يساعدني عبدول وأمي في رعايتها. وكذلك تفعل سارة وعلي رضا.

من ثمَّ، حان في أحد الأيام وقت تسجيل بَهار في المدرسة.

ستبدأ عامها الأول في المدرسة الابتدائية المحلية. وإذ ألوِّح لها وأغادر، تغلبني الدموع، وأدور مرةً بعد مرة حول مبنى مدرستها، وأشعر في ذات الوقت بالتحرر والحرمان.

لم يعد الغضب الذي كنت مملوءة به عندما اعتُقلت يهيمن عليّ. ولم أعد صنيعة الحزن بالكامل. بفضل المشي، والكثير الكثير من القراءة، ووجود أحبائي حولي، وحتّى بفضل الصلاة ومرور السنين، تسلّقتُ صعوداً إلى ذاتي من جديد.

لا يمكنه أن يمحو قوّتي.

أعقد العزم على أن تكون مساهمتي ليست مقتصرة على عائلتي فحسب، بل أن تتجاوزها وصولاً إلى مجتمعي أيضاً.

لا أعود إلى جامعة طهران. تبقى دراستي للقانون مسألةً غير منجَزة. لكن إذ تبلغ بَهار السادسة من العمر، ألتحقُ بكلّية صغيرة للمدرّسين. لا يبدي عبدول أيَّ اعتراض؛ ربّما كان مرتاحاً لأن يرى مجدّداً لمحةً من الطالبة الطموحة التي التقاها أوّل مرة.

يستغرق الأمر بعض الوقت، إذ لا يمكنني حضور الفصول الدراسية إلّا بدوامٍ جزئي. لكن، وبمساعدة عبدول، وماما، وسارة، وعلي رضا، أحصل أخيراً على شهادتي في التدريس عندما تكون بَهار في العاشرة من عمرها، وأنا في الحادية والثلاثين. أنا فخورةٌ للغاية بهذا الإنجاز. وإذ أزور أبي في السجن (اكتسبتُ مجدداً الجرأة اللازمة لزيارته هناك)، يخبرني بأن أذهب إلى **آموزش وبرفرش**، مكتب وزارة التعليم، وأملأ النماذج المطلوبة للتقدم لوظيفة التدريس.

هذا ما أفعله بالضبط.

وها أنا أحصل على أوّل وظيفة تدريس لي.

31

1978-1974

هوما

تقف الطالبات احتراماً لي إذ أدخل الغرفة.

أنا أرتجف من التوتر.

إذ أطلب منهنّ الجلوس، أجد نفسي أمام ثلاثين زوجاً من العيون التي تحدّق بي.

أقدّم نفسي وأعطي لمحةً عن الدروس القادمة. أنا متوترة بشدة، تسيل حبات العرق أسفل ذراعيّ، وسرعان ما يتبلل أسفل إبطيّ بالكامل. كنتُ قد ارتديتُ كنزةً بيضاء ضيقة؛ ويا لها من فكرةٍ سيّئة. ليس عليَّ أن أنظر إلى الأسفل لأعرف أن بقع العرق مرئية وآخذةٌ بالتمدّد.

أنتظر سماع صوت الضحكات المكبوتة منها والعلنية، لكن لا يُسمع أي صوت. هؤلاء الفتيات يستمعن إليّ بكلٍّ انتباه.

إنّهن طالبات في السنة الأخيرة من الثانوية، في حيٍّ فقير يشبه الحيّ الذي أتيتُ منه. وأعلم أنّهن توّاقات للمضيّ قدماً والتخرج، ولكسر دورة الفقر التي لا تنتهي بطريقة ما.

أعمل على جعل صوتي أكثر ثباتاً إذ أقول لهنّ إنّنا سنعمل معاً بكلّ جد كي يتسنّى لهنّ التقدّم للالتحاق بالجامعة في وقتٍ لاحق من ذلك العام.

تُرفع ذراعٌ في الغرفة.

إنّها لفتاة تبدو أشبه بنوعٍ من الطيور، مع شعرٍ فوضوي، ووجهٍ شاحب، وعينين سوداوين ثاقبتين. «**خانم، إجازه**»، تقول الفتاة طالبةً الإذن بالكلام.

- «نعم»، أقول لها.

- «نريد أن نعرف، يا خانم، هل ستتسنى لنا القراءة والكتابة قليلاً». تنظر حولها إلى الطالبات الأخريات وكأنّها تطلب تشجيعهنّ. «عن ما يحدث من احتجاجات. عن ما يحدث في البلد. عن كلِّ ما كان يجري. نريد أن نكون قادرات على مناقشة كل هذا، معك»، تقول وتخفض يدها بسرعة.

هل يعرفن؟ هل يعرفن بشأن ماضيّ؟ بشأن نشاطي السابق في المنظّمة الشيوعية؟

ثمّة قاعدةٌ غير مكتوبة بين المعلّمين: لا تقل أو تعلّم أيَّ شيءٍ من شأنه أن ينتقص من قدر الشاه. تعرف الفتيات ذلك. لكن ربما يعرفن أيضاً أنّني واحدةٌ منهن، وأنّني آتي من نفس الحيّ، ونفس الخلفية. وربّما يعرفن أنّني كنتُ نشطةً جدّاً على صعيد السياسة فيما مضى.

- «ببينيم. دعونا نرى بهذا الشأن». لم أستطع منع نفسي عن قول ذلك من فرط دهشتي. ما زال العرق يتصبّبُ منّي. هناك الكثير لأعلّمه لهؤلاء الفتيات. والكثير لأتعلّمه منهنّ. لقد أُلقي بي في لجّة

اليمّ، وطُلب مني بطريقةٍ ما أن أسبح وأن أُبقي الآخرين في حالة حركة دائمة.

تتحرك الفتيات في مقاعدهنّ ويتبادلن نظراتٍ تنمُّ عن الارتياح.

وأتذكر. أتذكّر نفسي حين كنتُ شابة وأؤمن بأنَّ العالم يمكن أن يتغير يوماً ما للأفضل، وأنَّ بإمكاني المساعدة في تحقيق ذلك.

في الخلف، تتقاسم فتاتان مقعداً، وكلٌّ منهما تتكئ على الأخرى.

لأوّل مرةٍ منذ سنوات، أشعر بقلبي وقد امتلأ بسؤال: كيف يمكنني المساعدة؟

أنظر في وجوههن اليافعة المفعمة بالأمل. لستُ متأكدة من كيفية القيام بذلك، لكنّني أعرف جيداً أنه لا يمكنني أن أخذل هؤلاء الفتيات.

أقرأ أكثر وأكثر. وتساعدني طالباتي على البقاء حيّة، متّصلةً مع ما يحدث حولي، وغير قادرة على نسيان ما يحدث في بلدي. وها هي بَهار تكبر لتصبح شابّة تنبض بالحياة، حسّاسة ومتعاطفة. ومع بلوغها الثالثة عشرة، تتابع باهتمام شديد الاحتجاجات والمظاهرات ضدّ الشاه التي كانت تتعاظم في الشوارع يوماً بعد يوم. لكنّني أمنعها من حضور أيٍّ من تلك المظاهرات، إذ لا يمكنني تحمّل أن تتورّط ابنتي في نفس دائرة الاحتجاجات التي تورّطتُ فيها، ومن ثمَّ تتعرض للاعتقال كما حدث معي.

إذ ألتقي بإيلي صدفة في البازار، أشعرُ ببعض روحي ترفرف محلّقةً في الفضاء. ترفرف لرؤيتها من جديد؛ صديقتي القديمة! مع ذلك، لا أريد لها أن تعلق في شبكتي مرة أخرى. وها هي تخبرني

بأنّها راحلة؛ إلى أمريكا. يمكنني أن أتخيّلها هناك، في شوارع نيويورك. ستكون على ما يرام، أعلم ذلك. لطالما كانت متغربنة - ستتأقلم هناك جيّداً. إذ أراها في كشك المكسرات والتوابل ذاك، ينتابني ألف شعورٍ وشعور. لكنّني تعلّمتُ أن أضبط نفسي جيّداً. وألّا أكون متهوّرةً وشفافة كما كنتُ في السابق. كما أنّني لا أريد أن أتورّط في الحديث عن الأمر برمّته مع بَهار. لاحقاً، أعيد المشهد في رأسي عدداً لا يحصى من المرات، وأتساءل كيف كان بوسعي أن أتصرف على نحوٍ مختلف. ماذا كان يمكنني أن أقول. وماذا كان بإمكاني أن أخبر إيلي.

هل تشعر إيلي بالقلق على بلادنا مثلي؟

من المستحيل تجاهل الهتافات في الشوارع. ومن المستحيل غضُّ الطرف عن المظاهرات الآخذة بالتعاظم. في الحادي والثلاثين من ديسمبر 1977، نتابع عبر نشرة الأخبار المسائية زيارة الرئيس الأمريكي جيمي كارتر. إنّه في طهران يرفع كأساً من الشمبانيا مع شاهنا. يصف الرئيس الأمريكي إيران بأنّها ”جزيرة من الاستقرار“.

تقول بَهار بكل ما تملكه طفلة في الثالثة عشرة من ثقة في نفسها، «يبدو أنّه لا يعرف ما هو آتٍ. لم نعد في مرحلة الاحتجاج. يقول أصدقائي إنَّ هذا قد يتحوّل إلى ثورة».

يشعر عبدول بالدهشة لرؤية زعيمنا يشرب الكحول علناً مع الرئيس الأمريكي، فنحن دولةٌ مسلمة بعد كلّ شيء. لم يتبنَّ أحدٌ أساليب الغرب كما فعل هذا الشاه.

في اليوم التالي، تثور ثائرة رجال الدين في مدينة قُم المقدّسة، ويخرجون في مسيرةٍ احتجاجية. فتطلق الشرطة النار على الحشد.

في الأيام التالية من عام 1978، يزداد حجم الاحتجاجات

ونطاقها في العديد من المدن الإيرانية. الناس يريدون رحيل الشاه؛ يريدون وضع حدٍّ لحكمه. يريدون الديمقراطية.

قد تبدو حالة الهياج والغضب وكأنّها وليدة اللحظة، لكنّها كانت في الواقع تتراكم لشهورٍ طويلة. لسنوات. ربّما كان بوسع المرء أن يقول إنَّ بذرة كلِّ شيء زُرعتْ يوم 19 أغسطس من العام 1953، عندما أُطيح برئيس الوزراء مصدَّق عبر انقلاب رعته الولايات المتحدة والمملكة المتّحدة.

لسنوات، احتجَّ الطلاب كما فعلتُ حين كنتُ طالبة. اعتُقلنا، ثمَّ أُطلِق سراحنا. تعرّض البعض منّا للتعذيب أو لعقوبات أخرى. وقُتل الكثيرون. أردنا الحرّية. حرّية التعبير والتجمهر.

أمنعُ بَهار من حضورِ أيّ احتجاجات. أنا أيضاً لا أحضر أيّاً منها. لقد تعلّمتُ درسي. لن أجعل نفسي عرضةً للاعتقال مجدّداً. فطفلتي تحتاج إلى أمِّها.

في إحدى الليالي، وبينما عبدول يعمل في نوبة ليلية، أجلسُ وبَهار معاً في غرفة المعيشة الصغيرة. أنا أعمل على تصحيح أوراق طالباتي، بينما تنجز بَهار فروضها المنزلية.

- «ماما، أنتِ تعملين كثيراً»، تقول بَهار.

أرفع عينيّ، فأراها قد دفعتْ جانباً دفتر ملاحظاتها الذي يحتوي كلَّ معادلات الجبر المكتوبة بقلم الرصاص بعناية على صفحاته المسطّرة بخطوط تشكّل مربّعات بالغة الصغر.

أقول إذ أقتبس مقولةً فارسية شائعة حول قيمة العمل الجاد: «**برو كار كن مكو جيست كار، كه سرمايه جاوداني أست كار**». اذهب واعمل، ولا تشكِّك في جدوى ذلك، فالعمل بمثابة الاستثمار

في حياتك. أخبرُ بَهار بأهمّية أن تشارك وأن تكون منتجة ومجتهدة. أذكّرها بأنَّ المرأة، على وجه الخصوص، يجب أن تملك مورد دخلٍ خاصٍّ بها.

تنظر إليّ بتعابير وجهٍ تقول إنّه سبق لها أن سمعتْ كلَّ ذلك، ثمَّ تبتسم بشقاوة. «هل تعتقدين أنّه يجب أن يكون للمرأة جر خاصٌّ بها؟».

أضع قلمي الأحمر جانباً، وأخلع نظّارات القراءة التي صرتُ أحتاجها في منتصف الثلاثينيات من عمري؛ أي قبل أوان الحاجة لها. ربّما كان الإفراط في القراءة هو السبب في ضعف بصري. «المعذرة؟»، أقول لها. هل سمعتُ ما قالتْه على نحوٍ صحيح؟ هل سألتني للتو إن كان يُفترض بالمرأة أن يكون لها جر خاصٌّ بها؛ طريقتها الخاصة في التبختر؟ أسلوبها الفريد في هزِّ خصرها؟

تُلقي بَهار بممحاتها الوردية مستطيلة الشكل داخل حقيبتها المخصصة للقرطاسية التي تحمل صورة سنوبي، وتنهض قافزةً إلى مشغِّل الأشرطة الذي اشتراه لها عبدول في عيد ميلادها، وتشغِّل شريطاً. فتصدح الألحان المألوفة لأغنية **كوكوش**[1] الشهيرة «**من امده ام**» في أرجاء الغرفة.

- «ماما، انهضي!»، تلوح بَهار لي. «لا يمكنكِ ألّا ترقصي على أغنية **كوكوش!** أنتِ دائماً تعملين، وتعملين. يمكن لتصحيح أوراق طالباتك الانتظار. ارقصي معي!».

تجذبني بَهار إلى وسط الغرفة. تتلألأ عيناها إذ تُرافق بأسلوبٍ

---

(1) ممثلة ومغنية إيرانية، اشتهرت في عقدي الستينات والسبعينات، ثم منعت من الغناء بعد قيام الثورة الإسلامية، وعادت لإحياء حفلاتها بعد أن غادرت إيران نهائياً في العام 2000 - المترجم.

مسرحي كلمات أغنية **كوكوش** صاحبة الصوت المشبع بالإحساس. ترفع بَهار ذراعيها في الهواء، وتغزل يديها فوق رأسها بينما تميل بخصرها من جهةٍ لأخرى، ثمَّ ترفع لي أحد حاجبيها أوّلاً، وبعدها ترفع لي الآخر، فننفجرُ ضاحكتَين. من المؤكَّد أنَّ ابنتي لديها جر ممتاز. لديها الإيقاع والتدفّق المتناسق للحركات. وبينما أتعثّرُ في الأرجاء وأنا أبذل كل ما بوسعي لمواكبتها، ولتحريك خصري بإيقاعٍ يعكس إيقاعها، يطير بنا صوت **كوكوش** الساحر إلى عالمٍ من الأحلام.

غرفة معيشتنا هي حلبة رقصنا؛ ولحن الأغنية ترنيمتنا. معاً نحرِّكُ جسدينا. معاً نبتكر حركات جديدة، ونؤدّي فروض الاحترام للحركات القديمة. ترتفع أذرعنا في الهواء أكثر فأكثر، وعلى السجادة، ندوس بأطراف أصابعنا، أمّا أصواتنا، فتعلو وتعلو لتشكِّل جوقة خلف مغنيتنا الفارسية النجمة وهي تصدح: «**من امده ام. فاي فاي من امده ام**». «لقد وصلتُ. رائع، لقد وصلت».

يشرق وجه بَهار قبالتي. تدور وهي ترقص وسط الغرفة، ثم تمسك بيدي، وتدور بي في طول الغرفة وعرضها. في هذه اللحظة، نحن مثل الدراويش الذين اكتشفوا سرَّ النعيم والسعادة الخالصة. في هذه اللحظة، نحن في منأىً تام عن طبول الاحتجاجات في الشوارع، والهتافات المطالبة بنظامٍ جديد، وكل المشاكل التي نواجهها. **ماذا لو**؛ أفكّر إذ أتمسكُ بيد ابنتي بينما أدور أسرع وأسرع. **ماذا لو سار كلّ شيءٍ على ما يرام؟** نحن أمٌّ وابنتها، نكاد نكون روحاً واحدة. امرأةٌ في الخامسة والثلاثين وفتاةٌ في الرابعة عشرة، نرقص كرمى لحياتنا، نرقص من أعمق أعماق قلبنا، نستغرق في الضحك حدّ الذوبان، وتأخذنا فرحةٌ خالصة.

32

أغسطس 1978

هوما

إذ يخبرني عبدول أنَّ ابن عمّه المباشر سوف يتزوّج، أشجّعه على حضور حفل الزفاف. نحسب التكاليف، فيتبيّن أنَّ حضورنا نحن الثلاثة سيكلِّفُ الكثير. «لكنّكَ يجب أن تذهب»، أقول له. «سيكون من الجيّد أن تأخذ بعض الوقت كإجازة. سيمنحونك في المرآب إجازةً لبضعة أيام لحضور حفل زفافٍ عائليّ. اذهب لرؤية ابن عمّك».

يوافق عبدول بحماسٍ كبير على القيام بالرحلة إلى الجزء الجنوبي الغربي من بلدنا، حيث سيقام حفل زفاف ابن عمّه يوم الجمعة في مدينة **عبادان** الواقعة في محافظة **خوزستان**.

صباح اليوم التالي للزفاف، يتّصل عبدول ويخبرنا أنَّ كلَّ شيءٍ كان جميلاً للغاية. «أتمنّى لو كنتما هنا»، يقول لي ولبَهار عبر الهاتف. يضجُّ صوته بالحياة لدرجة أنّني أبعدتُ السماعة حتى تتمكن بَهار من سماع كلِّ شيء. «كنتما ستحبّان الطعام هنا كثيراً»، يقول

عبدول. «لقد أقامت عائلة العروس وليمةً حقيقية!». ثمَّ يخبرنا أنّه ذاهبٌ إلى السينما. وأخيراً يقول لنا إنّه لا يطيق صبراً لرؤيتنا في أقرب وقت.

أول ما ألاحظه لدى دخولي إلى الفصل هو وجوه طالباتي التي شاب ملامحهن الاضطراب والقلق، وثرثرتهنّ بلا توقّف التي لا يسعني حيالها إلّا أن أقف هناك وأطلب منهنّ الهدوء. لكنَّ ضجيج أصواتهنّ لا يتوقّف.

أخيراً، تصرخ فتاةٌ تدعى سنام، تتمتعُ بقدرٍ هائل من الثقة فتُسكت الجميع، ثمَّ تستدير نحوي وتقول: «خانم، ألا تعلمين ماذا حدث؟».

أعلم ماذا؟

تنظر الفتيات إلى بعضهن البعض بوجوهٍ شاحبة.

تأخذ سنام نفساً عميقاً. يبدو عليها الإنهاك والحزن. «خانم، لقد اندلع حريق. مات مئاتٌ من الناس».

- «حريق؟ أين؟».

- «في عبادان. داخل سينما. لم يستطع أحدٌ الخروج».

أحملُ نفسي على الذهاب والجلوس خلف مكتبي. «ماذا؟».

تعود الفتيات للثرثرة من جديد. تصرخ فتاة نحيلة في الخلف قائلة إنّه لا بد أن تكون قوات الشاه وراء ذلك. إنّه يقتل شعبه، تقول بنبرةٍ محمّلةٍ بالازدراء.

من الواضح أنَّ نبأ هذه المأساة قد ألغى تماماً أي ضربٍ من ضروب الحذر بشأن الحديث في السياسة.

- «**ساكت! ساكت!**»، أطالبهنَّ بالهدوء، وأدركُ كم أبدو مثل معلّماتي اللواتي نشأتُ في كنفهنّ. أنا بحاجةٍ إلى الهواء؛ بحاجةٍ إلى ما يهدّئ هذا الرعب المتعاظم بداخلي. كل ما يمكنني التفكير فيه هو عبدول. إنّه في عبادان هذا الأسبوع. وقد أخبرنا أنا وبَهار قبل يومين فقط أنّه كان ذاهباً مع ابن عمّه إلى السينما.

- «إن كان هناك مَن قد يفعل شيئاً كهذا، فهم المتطرفون الإسلاميون الذين يقاتلون الشاه»، تقول سنام.

تعلو الأصوات احتجاجاً. «ولمَ قد يفعلون ذلك؟»، تصرخ الفتاة النحيلة. «ليفوزوا بكره الجميع؟».

- «لا!»، تقول سنام. «ليجعلوا الجميع يعتقدون أنَّ الشاه هو مَن فعل ذلك، فيخرجون إلى الشوارع ضدّه أكثر حتى من ذي قبل! إنّهم يضيّقون الخناق عليه!».

في هذه اللحظة، لا يهمّني أي وجهٍ سياسيّ للأمر، ولا يمكنني حتّى التفكير في كيفية حدوثه. كلُّ ما أحتاج معرفته هو ما إذا كان أيٌّ من هذا صحيحاً حتى. وإن كان كذلك، أحتاج أن أعرف ما إذا كان عبدول في دار السينما ذاك.

تواصل الفتيات جدالهنّ. فلتتجادلن.

يواصلن طرح النظريات. فلتُنظِّرن.

أثناء استراحة الغداء، يُشغِّل مديرنا المذياع، فتتأكّدُ الأخبار. **ريكس** هو اسم دار السينما. لقد احترق المسرح بالكامل وكلُّ من كان بداخله.

أخبرُ نفسي بأنّه لا بدَّ أن يكون هناك العديد من دور السينما في عبادان. لا بدّ أن يكون هناك العديد منها.

في طريق عودتي إلى المنزل، أنضمُّ إلى حشدٍ من الناس عند كشك الصحف لألقي نظرة على العناوين الرئيسية. الجميع من حولي يبدون مصدومين. ساخطين. وحزانى تمكّن منهم الإعياء.

- «شرطة الشاه السرية، الـ **سافاك**، هي التي فعلتْ ذلك»، يقول رجلٌ بجواري.

- «أوه، أرجوك. بل هي المعارضة وائتلاف آية الله الخميني المتنامي هم المسؤولون. إنَّ وقوع الحادثة بتاريخ التاسع عشر من أغسطس، أي بعد خمسة وعشرين عاماً بالضبط من الانقلاب العسكري لعام 1953، لا يمكن أن يكون من قبيل الصدفة، أليس كذلك؟»، تقول امرأةٌ أكبر سنّاً خلفه.

أسارع إلى المنزل. أتّصلُ برقم منزل ابن عمِّ عبدول، فيجيب صوتٌ نسائي.

ويؤكِّد أسوأ كوابيسي.

كان عبدول وابن عمّه المتزوّج حديثاً في سينما ريكس عندما التهمتها النيران.

حين تكتشف بَهار حقيقة الأمر، تبكي وكأنّها مخلوقةٌ من حزنٍ وألم خالصين.

أحدِّقُ في وجهها.

لقد رحل الأب الوحيد الذي عرفتْه في حياتها.

أشعر بالخدر.

ثمَّ أشعر بالغضب المألوف الذي أخذ مني كل مأخذ في بداية اعتقالي.

لكنني أشعر بالحزن أيضاً. حزنٌ طاغٍ وجارف. وبعدم التصديق. هذه المرة، اجتمعتْ كلُّ هذه المشاعر معاً.

أعجزُ عن أخذ قسطٍ من الراحة. وفي المرات النادرة التي أفلح فيها في النوم لبضع دقائق متقطّعة، أحلمُ بعبدول.

في أحلامي، لا أرى الرجل الهادئ، اللطيف بما يكفي ليربط حياته بحياتي حين كنتُ المرأة المغتصَبة والحبلى، المنبوذة، المكسورة الجناح. لا أرى الأب المتفهّم الذي ساعد في تربية بَهار. عبدول في أحلامي ليس ذاك الصبي الخجول الذي التقيتُ به أول مرة مع إيلي في مقهىً في دربند - مشهدٌ يبدو الآن وكأنّه من حياةٍ أخرى. ولا أرى الطالب المتيَّم المخلص الذي طلب يدي للزواج عندما التحقنا سوياً - لفترةٍ قصيرة - بأفضل جامعةٍ في البلاد. الرجل الذي رقد بجانبي ليلةً عقب ليلة بعد أن حكمتْ عليَّ الحياة بمصيرٍ لم أكن أتوقّعه، لكنّه مصيرٌ تعلّمتُ أن أقبله؛ الرجل المجتهد الذي كان يعود إلى المنزل بعد يوم عملٍ طويل ويداه مسودتان بشحوم المحركات وبقع الزيت تملأ ملابسه، الرجل الذي كان يعرف أنّني لن أنجح أبداً في أن أحبّه - ليس كما كان يحبّني؛ ليس هو الرجل الذي أراه في أحلامي.

بل أرى الرجل في سينما ريكس.

يجلس بجوار ابن عمّه. يشاهدان الفيلم معاً، يستمتعان ربّما بحبكته وتقلباته، ويتشاركان لحظات الترفيه النادرة هذه.

كانت قوى المعارضة الأصولية الصاعدة في البلاد تصف حتى فعل الذهاب إلى السينما بأنّه فعلٌ يقوم على القيم والتقاليد الغربية. أعلم أنَّ عبدول لا يرى الأمر على هذا النحو. لقد ناقشنا هذا النوع من القضايا، وأعلم أنّه يعتقد أنَّ فنَّ صناعة الأفلام ملكٌ للجميع في

كل أنحاء العالم، وأنَّ الحاجة إلى سرد قصة والاستماع إلى قصة، هي حاجةٌ كونية وأزليّة، بغض النظر عن شكلها أو أيّاً تكن التقنية الجديدة التي تقدِّم لنا القصة.

هل تململ في مقعده، هل حرَّك ركبته اليمنى لأعلى وأسفل بسرعة كعادته؟ هل ضحك حين أوحت لقطةٌ بشيءٍ مضحك، هل كان مستغرقاً في التفاصيل؟

من استشعر الخطر أوّلاً؟ من شمَّ رائحة الدخان؟ من رأى أول شرارة لهب؟ هل اصطبغت الشاشة فجأةً بلونٍ برتقالي؟

الدخان يتغلغلُ في الهواء ببطء. يتحرّكُ الناس في مقاعدهم. يلتفتُ عبدول نحو ابن عمّه.

تتلوى ألسنة اللهب عند أطراف القاعة. في البداية، يبدو الأمر وكأنّه مزحةٌ سمجة أو خدعة بصرية محتملة. لا يمكن لهذا أن يكون حريقاً - إلى أن تصبح النيران فجأة ودون سابق إنذار في كل مكان، تتسلّق الجدران بسرعة وحيوية كبيرتين، وتنفجر عبر صفوف المقاعد، لتطغى إذ ذاك أصوات الصراخ وحتى رائحة الدخان.

ينهض الناس من أماكنهم، يتدافعون عبر صفوف المقاعد، يشقوّن طريق خروجهم نحو الأبواب المزدوجة الضخمة المفضية إلى الخارج، إلى الحرية. يتّسع نطاق النيران - تنتشر بسرعة وتهوّر، وتندفع في أرجاء المسرح بينما تتدافع مئات الأجساد محاوِلةً الهرب، ويسقط بعضها على الأرض وتُسحق حقيبة يدٍ نسائية من أفخم أنواع المخمل تحت الأقدام. إنّه تيّارٌ بشريٌّ جارف لم يشهد له عبدول مثيلاً من قبل.

عبدول. عبدول حبيبي. هو ليس شخصاً من النوع الذي يمكن

أن يعبر فوق الأجساد الساقطة. إن كان سيفعل شيئاً، وأنا أعرف ما أقول حقّ المعرفة، فهو سيمدُّ يده للآخرين؛ لأيٍّ شخصٍ يحتاج المساعدة.

في لجّة الفوضى وضجيج الصراخ والزعيق، يشق عبدول وابن عمه طريقهما إلى الأبواب. إنْ كان ثمّة من هو قادرٌ على تطويق الفوضى، إن كان ثمّة من هو قادرٌ بهدوءٍ وحزم على شقٍّ مسار، فهو عبدول. هو الذي سيقود الآخرين نحو الملمس المرغوب للأبواب، ويمضي بهم شيئاً فشيئاً آخذاً إياهم إلى الهواء؛ الهواء النقيّ. سيفتح عبدول الأبواب، ويسمح للهواء بالدخول وللناس بالخروج. سيفتح لهم المجال ليتدفّقوا إلى الشارع لاهثين، جاثين على ركبهم، لكنّهم ممتنون وقادرون أخيراً على التنفس بحرّية.

لكن الأبواب لا تفتح. تضطرم النيران وتزداد ضراوة، والهواء يصبح أثقل وأكثر كثافة، والأبواب، ورغم أنَّ عبدول قد وصل إليها الآن، إلّا أنّها لا تفتح. مهما حاول تدوير المقبض، ومهما ألقى بثقل جسده على الأبواب، هي لا تتزحزح.

الأبواب موصدةٌ من الخارج.

هذه عملية حبسٍ وخنقٍ متعمّدة.

يتساقط الناس من حوله مختنقين بالدخان. أصوات السعال تصمُّ الآذان. يدفع عبدول ويجذب بكلّ ما أوتي من قوة، ويصدم كامل كتلة جسده بالأبواب مراراً وتكراراً. ثمَّ يُسمع صوت ارتطامٍ هائل إذ ينهار جزءٌ من المسرح. يهوي وكأنّه مصنوعٌ من أعواد الثقاب. وشاشة السينما التي بدت منيعةً جدّاً، ها هي تشيط وتحترق إلى أن تستحيل عدماً.

لا يسمع مَن في الخارج صراخهم. أو ربّما يسمعون، لكنّهم

خائفون جدّاً من الحراس الذين أشعلوا هذه النار؛ من مشعلي الحرائق الذين يمكن أن يرتكبوا جريمةً كهذه.

لا أحد يستطيع الخروج. ليس بعد أن حاصر القتلة الناس، حبسوهم في الداخل، أمّنوا هلاكهم، وضمنوا أن قلوبهم لن تنعم مرة أخرى أبداً بليلةٍ ترفيهية.

يلهث عبدول، تصدر أنفاسه صفيراً وهو يحاول بكلٍّ ما أوتي من قوّة.

لكن بلا جدوى.

ما من أحدٍ يمكنه التغلّب على قوة تلك الأبواب الموصدة.

في تلك الليلة، تحترق السينما وكلُّ الآمال، والنجاحات، والمظالم الصغيرة، والمرثيات الجامحة، والذكريات السعيدة، وخطط الحياة لكلٍّ مَن كان في الداخل، تتحوّل إلى رمادٍ في لحظات.

لا تصفيق في نهاية فيلم تلك الليلة. لا أحاديث، ولا نزهةٌ هادئة تحت ضوء القمر رجوعاً إلى المنزل. لا جدل بشأن المخرج وإن كان قد قام بعملٍ جيّد أم لا أو مَن كان الممثل الأفضل. لا نقاش سيدور حول القصة.

ليس ثمّة شيءٌ خلا بعض الصرخات المكتومة. تسوّي النيران الدار بالأرض. وتستحيل الأحلام غباراً.

وهناك، على أرضية دار السينما تلك، يجثم عبدول حبيبي.

سقط بفعل حريق لم يستطع أيٌّ منا إيقافه.

تأتي أمّي مرتديةً ملابس سوداء بالكامل، حاملةً معها طبقاً من الحلاوة الطحينية منزلية الصنع. نجلس في شقّتنا الصغيرة، على

الأرض وفوق الكراسي بينما يتوافد الزوار ليقدِّموا تعازيهم ويشاركونا حزننا. يجلس زملاء عبدول في المرآب على أرضية غرفة المعيشة مطرقي الرؤوس، وأيديهم متصلّبة ومتورمة من فرط الاستخدام. تأتي الأمهات اللاتي أصبحن صديقاتي في أيام طفولة بَهار المبكرة، ويتمتمن صلاةً من أجل الخلاص بأصوات تكاد لا تكون مسموعة. تجلس صديقات بَهار في المدرسة ممسكات بأيدي بعضهن، بينما تنهمر الدموع على وجه بَهار بلا توقّف. تأتي طالباتي؛ طالبات حاليات، طالبات قديمات، أوّل طالباتٍ لي، يوم تعرّقتُ بلا توقف في كنزتي البيضاء.

إنّهم يشاركوننا الفجيعة.

لكن في العمق، ثمّة غضب. فموت عبدول ليس كموتٍ جرّاء حادث. موتُ كلّ من كانوا في تلك السينما هو نتيجة عملٍ مدروس ومدبّر بهدف التسبّب في أقصى قدرٍ من الألم.

لذا فإنَّ كلمات العزاء بالكاد تنجح في التغطية على تيّار السخط الجارف.

لم يؤدِّ الحريق الذي شبَّ في سينما ريكس إلّا إلى ترسيخ عزم الناس على الإطاحة بالشاه، رغم أنّنا سنعلم لاحقاً أن معارضي الشاه هم الذين أشعلوا الحريق.

لكن في العموم، فإنَّ حالة السخط الآن عصيّةٌ على الاحتواء.

الاحتجاجات لا تتوقف.

أيُّ شيءٍ إلّا الشاه!

أمشي في مدينةٍ تعمّها الفوضى الآن؛ سياراتٌ محترقة وصناديق

قمامةٍ مشتعلة في كلّ مكان، مدينة تغلي غضباً، وبلدٌ يائس للتغيير والحرية. قلبي مثقل.

مجدّداً، أنا مسربلةٌ بالحزن.

وإذ أمشي، يهمس الصوت في رأسي من جديد. ولا أملك إلّا أن أرتجف من رأسي حتى أخمص قدميّ.

إذا نجحت الثورة، ماذا لو كان ما سيعقبها أسوأ حتى؟

33

1979

هوما

السابع عشر من يناير 1979. أقف وسط حشدٍ كبير من الناس المهللين المبتهجين.

بالأمس، غادر شاه إيران حاملاً معه حفنةً من التراب الإيراني.

الناس من حولي يغنون ويرقصون. يطلق السائقون أبواق سياراتهم، ويشعلون أضواءهم ويطفؤونها. وأصحاب محلات الحلويات يوزّعون حلواهم مجّاناً. أحدهم يلقي بحبات الحلوى السكرية على السيارات المارة. وثمّة امرأةٌ تغنّي بجذل. لم يسبق لي أن رأيتُ شوارع طهران مفعمةً بالأمل هكذا.

هذا ما أردتِه، أقول لنفسي. **هذا ما ناضلتِ من أجله حين كنتِ شابة. كنتِ تريدين رحيل الشاه. وها قد رحل.**

مع ذلك، أجد نفسي عاجزةً عن الشعور بالأمل كحال الآخرين. ما يسيطر عليّ هو شعورٌ بالخوف، ولا شيء غيره.

وإذ أهمُّ في السير بعكس اتّجاه الحشود، أرى صور آية الله الخميني في كلّ مكان؛ الزعيم الديني الذي نجح أتباعُه أخيراً في

حمل الشاه على التنحّي. ورغم أنَّ الرجل منفيٌّ في باريس، إلّا أنَّ نفوذه ما فتئ ينمو وشعبيته ما انفكتْ تزداد حتى وهو يقيم في الغرب.

الأول من فبراير 1979، ينزل آية الله الخميني درجات سلّم طائرةٍ تابعة للخطوط الجويّة الفرنسية، وتطأ قدماه الأراضي الإيرانية لأوّل مرة منذ أربعة عشر عاماً. وإذ يسأله أحد الصحفيين ما هي المشاعر التي تنتابه وهو يهبط في بلاده اليوم، يجيب قائلاً: «لا شيء».

أرى الكتابات المرشوشة على الجدران بلونٍ دمويّ: «**إنقلاب! آزادي! جمهوري إسلامي!**»، ثورة! حرية! جمهورية إسلامية!

جمهورية إسلامية؟ ينتابني القلق إزاء الحماس الشديد لأصوليٍّ دينيٍّ يبدو تمسّكه بنسخةٍ متشدّدة من الإسلام نافراً في نظري. ورغم أنّني تركتُ الحركة الشيوعية منذ زمنٍ بعيد، إلّا أنَّ كلَّ ذرةٍ في جسدي تقشعّر لدى التفكير في الدين باعتباره الإكسير الجديد (القديم) الشافي.

رحل الشاه وغادر البلاد، لكنَّ الجيش لا يزال مخلصاً له. حتّى الآن.

حين يقف الناس على أسطح منازلهم في الساعة التاسعة من كلّ ليلة ويهتفون في عتمة الليل «الله أكبر»، تنزل الدبابات إلى شوارع طهران لقمع احتفالاتهم. يفترض الجميع أن سبب امتناعي عن الانضمام إلى مواطنيّ في طقس الهتاف هذا هو أنّني زوجةٌ في حالة حداد.

أوائل فبراير. نحن أمّةٌ في حالة فراغ. تتقاتل فصائل مختلفة من أجل السلطة. ويُطلق سراح السجناء السياسيين من عهد الشاه.

وأخيراً، أخيراً يُطلق سراح أبي. تملأ الدموع لمَّ شمله بنا، أنا وأمي وسارة وعلي رضا. يحتضن بَهار، وينشج باكياً لرؤية حفيدته التي تبلغ من العمر أربعة عشر عاماً الآن.

مع كلٍّ شعورنا بالامتنان لعودة أبي، إلّا أنَّ الاضطرابات في الشوارع مثيرةٌ للقلق. يُعلن حظر التجوّل على المستوى الوطنيّ، وتُطبَّق الأحكام العرفية، فينتفض الناس ويثورون.

في الحادي عشر من فبراير، يعلن الجيش الحياد. الآن، رحل النظام القديم رسمياً بالكامل، ونجحت الثورة في تنصيب حكومة جديدة متشدّدة.

وندخل غياهب عالمٍ جديدٍ غريب.

1979

هوما

تأبى الجملة التي ينطق بها آية الله الخميني في السابع من مارس الخروج من رأسي. «يمكن للنساء الذهاب للوظائف، لكن يجب أن يضعن الحجاب».

يجب أن يضعن الحجاب.

يجب.

أمّي تغطّي شعرها. إنّها ترتدي الشادور، وقد فعلتْ ذلك طوال حياتي. بغض النظر عن أنَّ والدي كان شيوعيّاً لعقود، وبغض النظر عن أن ابنتها كانت شيوعيّةً أيضاً، إنّه خيار أمّي أن تضع الحجاب.

وأنا أحترم هذا الخيار.

كما تحترم هي خياري. لم تطلب مني أو من سارة يوماً أن نغطي شعرنا أو نستر جسدينا. كان الأمر متروكاً لنا دائماً لاختيار الحجاب من عدمه.

لكن الآن. يصدر زعيمنا الجديد، آية الله الخميني، مرسوماً بهذا الشأن.

هكذا يُمهَّد لخسارة الحقوق. يبدؤون بالأمر على نطاق ضيق. ثمَّ سرعان ما تُجرَّد النساء من حقوقهنّ على أوسع نطاق.

فجأة، قد لا يتسنّى للنساء اللاتي أنهين دراسة القانون أن يؤدِّين القسم ليصبحن قاضيات.

تنتشر الشائعات بأنَّ الحجاب سوف يصبح إلزامياً قريباً. سيقولون بدايةً إنّه مطلوبٌ فقط في المكاتب الحكومية أو المتاجر. ثمَّ في المدارس. وفي النهاية، سينتابنا القلق، وسنفقد حرية الاختيار بصورةٍ تامّة.

تخبرني طالباتي عن مسيرة ستنظَّم احتفالاً بيوم المرأة العالمي.

في الثامن من مارس 1979، لم نحضر لا أنا ولا طالباتي إلى المدرسة. أصل إلى جامعة طهران برفقة بَهار التي ستبلغ الخامسة عشرة بعد بضعة أشهرٍ فقط، وهي أيضاً تشعر بالقلق إزاء فقدان النساء لحقوقهنّ.

نلتقي بمجموعةٍ من طالباتي في نقطة متَّفقٍ عليها، وتنضمُّ إلينا المزيد والمزيد من النساء. نساءٌ يرتدين المعاطف المطرية، نساءٌ يرفعن شعورهنّ للأعلى وأخريات يسدلنه للأسفل. نساء طهران من جميع الأعمار ومن مختلف مناحي الحياة: فتياتٌ صغيرات، طالباتٌ في المدارس، طالبات جامعيات، نساءٌ مثلي، جدَّات. نساءٌ يشعرن بالقلق من أننا في حال لم نبقَ حذرات ومتيقظات، فسوف نرى حقوقنا وهي تتآكل أمام أعيننا. وفي اجتماعنا معاً، نجد العزاء ونشعر بالقوة.

أُذهَل لحجم المشاركة. فنحن، كما سأقرأ لاحقاً، حشدٌ من عشرات الآلاف من النساء.

معاً، سنحتلُّ الشوارع لنحتجَّ على الانتهاك السافر المتمثّل

بإلزاميّة الحجاب، لنقاتل من أجل استقلالية الجسد. سنصرخ؛ سنجعل أصواتنا مسموعة.

- «**آزادي بايد نبايد ندارد**»، إنّه الهتاف الذي نردّده بأصوات تعلو أكثر فأكثر. «الحرية لا تعرف معنى كلمة ''يجب''».

يلفح الهواء البارد بشرتي إذ نبدأ مسيرتنا من جامعة طهران غرباً نحو ميدان آزادي. وسرعان ما اندمجت العديد من طالباتي داخل الحشد، رغم أنَّ اثنتين منهما بقيتا معنا أنا وبَهار: شابّة ضئيلة الحجم تدعى ياسي، وصديقتها رودابه الشهيرة بغمّازتيها وضحكتها الرنانة التي تتشاركها الآن مع رفيقاتنا.

- «أعطي هذا النظام الجديد ستّة أشهر على أبعد تقدير»، تصرخ امرأة أكبر سنّاً ذات شعرٍ رمادي في قلب الحشد. «انظرن إلينا. انظرن إلى قوّتنا!».

- «إنّهم أعجز من أن يستطيعوا الصمود»، تصرخ امرأةٌ أخرى.

- «حسنٌ، أشعر بأنّه يمكننا العمل مع هذا النظام، هذا هو شعوري حقاً. طالما أنّه لا يسلبنا حريتنا في اختيار ما نرتديه أو كيف نمارس عبادتنا»، تقول أمٌّ شابّة تمسك بيد ابنتها.

يدُ بَهار في يدي أيضاً. إنّها نجمة حياتي.

أول ما يتناهى إلى سمعي هو أصوات تهكم وسخرية. أنظر إلى الأعلى. ثمّة جمهرةٌ من الرجال على جسرٍ فوق الشارع الذي نسير فيه، يطلقون ما بدا من أسلوبهم ونبرة أصواتهم أنّها عباراتٌ بذيئة. وإذ نقتربُ أكثر، أرى بعضهم يحملون الهراوات، ويصرخون: «عاهرات، عاهرات، عاهرات!».

تنظر إليَّ بَهار بقلق، فأطلب منها أن تتجاهلهم.

نواصل المسير. لن ينجحوا في ترهيبنا.

نتحرّك نزولاً عبر الجادّة العريضة. شتائم الرجال لا تتوقّف. وفجأةً، أسمع صراخاً. ثمَّ أرى أنَّ هؤلاء الرجال دخلوا وسط حشدنا، ووجوههم تشتعل غضباً. لقد تغلغلوا في صفوفنا، وعرقلوا مسيرتنا.

يقترب شابٌّ من قطاعي داخل الحشد، إنّه يُبعِد النساء ذات اليمين وذات الشمال كما لو أنّه يشقُّ طريقه بين سيقان القمح داخل بيدرٍ ما. إنّه قريبٌ منّا الآن. أشتمُّ رائحة الثوم في أنفاسه. يرى بَهار، فينظر إليها شزراً، ويبدأ الصراخ في وجهها: «عاهرة، عاهرة، عاهرة!». **كثافت**، ينعتها بالقمامة، ثم يصرخ في وجه ابنتي. «ما الخطأ في تغطية شعركنّ؟ لمَ الإصرار على أن تكنَّ غربيّات وعاريات؟ لمَ ترفضن الحياء والعفّة أيّتها العاهرات؟».

كثافت. توجع هذه الكلمة قلبي. إنّها الكلمة التي نُعِتُّ بها في غرفة التحقيق تلك. يواصل الرجل الصراخ في وجه ابنتي. في يده هراوة. يرفعها.

ربّما كان هاجعاً طوال تلك السنوات التي كنتُ فيها مجرد أمٍّ منهكة تحاول أن تجعل يومها يمرُّ بسلام. ربّما كالطاقة التي تتجمّع لتغذّي موجة محيط عملاقة، كان غضبي موجوداً في مكان بعيدٍ جداً ولم يغادر قطّ. لكن إذ يقترب ذلك الرجل من ابنتي، تدبُّ الحياة في كلِّ خليّة من كياني. أجذبه من شعره وأسحبه للخلف. أضربه وأضربه وأضربه حتى تصرخ بي النساء متوسّلات أن أتوقّف. أضربه إلى أن تضعف ذراعي وتصبح رخوة. أضربه لأنه نعت ابنتي بـ«**كثافت**»، لأنّه تجرّأ على الاقتراب منها، لأنّه رفع هراوته وصاح في وجهها.

ينسحب الرجل مترنّحاً نحو مجموعة الرجال، والدم يسيل على

جانب فمه. يعقب ذلك حالةٌ من الفوضى العارمة. يهاجم رجالٌ آخرون نساء أخريات؛ تملأ أصوات الصراخ والصياح الهواء. نحن نتعرض للعقاب والضرب بسبب تجرّئنا على الخروج في مسيرة، والتشكيك في زعيمهم العزيز.

أنظر إلى بَهار وسط موجة العنف المتصاعدة.

- «هل أنتِ بخير، هل أنتِ بخير، هل أنتِ بخير؟»، هذا كلُّ ما أستطيع أن أسألها إياه.

تومئ برأسها مذهولة.

لم ترني أضرب رجلاً من قبل، لم ترني أضرب أحداً، ومجدّداً أشعر بالذهول من القوّة الكامنة في غضبي، وبالصدمة من كيف يمكن لغضبي الداخلي إذا ما تنشّط أن يسبِّب ضرراً كبيراً، وأن يحميني في نفس الوقت، ويحمي ابنتي.

تصرخ النساء، ويقاومن، ويصمدن.

من جديد، أُفاجأ بجسدي وقد أصبح معبّأً بطاقة القتال. أُفاجأ بأنَّ ثمّة طاقة كهذه لا تزال بداخلي. بعد كل هذا الوقت، لا يزال غضبي إزاء الظلم عنيفاً ويطاول السماء.

أنا مستعدة لحماية بَهار وكلِّ امرأةٍ في هذه المسيرة. ولكن إذ ذاك، وقبل أن أتمكن من التحرك، تحاصرنا مجموعة أخرى من الرجال الذين شقوا طريقهم عبر الشارع وصولاً إلى قلب الحشد الفوضوي.

هؤلاء الرجال لا يهزأون بنا. ولا يتلفّظون بألفاظ نابية. هؤلاء يدفعون البلطجية الذين يهاجموننا بعيداً، ويقتربون نحونا ثمّ يمسكون بأيدي بعضهم البعض.

إنّهم يشكّلون سلسلةً بشرية من حولنا.

- «ماما، ماذا يفعلون؟»، تهمس بَهار.

تغرورق عيناي بالدموع. أحضن بَهار وأشدّها إليّ بقوّة.

- «إنّهم يقفون معنا»، أقول لها. «هؤلاء رجالٌ يقفون معنا».

لم نكتف بالخروج في ذلك اليوم فقط. بل واصلت العديد منا الخروج إلى الشوارع لستّة أيّام متتالية. وكنا نصرخ ملء حناجرنا: «لم نقم بالثورة كي نرجع إلى الوراء!».

استمرّ البلطجية المناهضون للنساء في مضايقتنا ومهاجمتنا، كما استمرَّ بعض حلفائنا من الذكور في الظهور تضامناً معنا.

لاحقاً، أقرأ تقريراً صحفياً نقلاً عن كيت ميليت، الكاتبة والناشطة النسوية الأمريكية التي جاءت إلى إيران لتقديم الدعم بمناسبة اليوم العالمي للمرأة.

- «لقد كان مشهداً خلّاباً، ومظاهرةً حماسية»، تقول كيت ميليت. «أنا هنا لأنّه لا مفرّ من ذلك. فهذه هي عين العاصفة، الآن وهنا. إلى هنا، تشخص عيون كل النساء عبر العالم».

35

1979-1981

هوما

يشيح العالم بوجهه بينما نتعرض للقصف. القنابل تتساقط بلا هوادة، وعلى نحوٍ عشوائي، ودون سابق إنذار تقريباً.

فمن الأيام العنيفة لمسيرة النساء في مارس 1979، ننتقل إلى أيامٍ أكثر عنفاً على نحوٍ لا يمكن تصوّره. ففي نوفمبر 1979، تحتجز مجموعة من الطلاب المتطرّفين أفراد السفارة الأمريكية كرهائن، زاعمين أنَّ السفارة الأمريكية ما هي إلّا وكرٌ للجواسيس. ليس ثمّة شيءٌ طيّبٌ في ديسمبر خلا أنّنا شهدنا تساقط بعض الثلوج. وأجرؤ على التفكير بأنَّه يمكن للأمريكيين الذين يحتجزهم متطرفونا المغسولة أدمغتهم على الأقل أن يروا الثلج في عيد الميلاد.

مع كل شهرٍ يمرّ، يغادر الناس إيران بأعدادٍ كبيرة. نيلو وهومان، مثل الكثير من اليهود الإيرانيين، يريدون مغادرة إيران إلى إسرائيل. لكنّهم ينتظرون على أمل أن تتحسّن الأمور هنا. تخبرني نيلو أنَّ سوسن وأطفالها قد حطَّ بهم الرحال في لوس أنجلوس. من حسن حظّهم أنّهم نجحوا في الخروج، لكنَّ الكولونيل لم يصب هذا

النجاح أبداً. فعندما استولى النظام الإسلاميّ الجديد على السلطة، كان من بين العديد من الضباط التابعين لقوات الشاه الذين تمَّ إعدامهم.

في يوليو من العام التالي، 1980، توفّي الشاه بالسرطان بينما هو في منفاه في مصر.

والمسيرات التي نظمناها، وعشرات الآلاف الذين شاركوا فيها، والصرخات التي أطلقناها وجعلناها مسموعة، كلُّ ذلك ذهب أدراج الرياح. لقد أصبح الحجاب إلزامياً، ويُعاقَب على الحجاب غير اللائق بالغرامات والضرب وحتى السجن. كما أصبح لدينا شرطة أخلاق جديدة تجوب الشوارع بحثاً عن خصلات شعرٍ مرئية.

أنظرُ من حولي إلى بلدٍ لم يعد من الممكن التعرّف عليه.

ومثل طائر فينيق ينهض من تحت الرماد، أعود. في اللحظة التي لمس فيها ذلك البلطجي بَهار وصاح في وجهها، عرفتُ أنّني عدتْ. إنَّ مستقبل ابنتي يعتمد على كفاحي.

أفكّرُ في صديقتي القديمة إيلي، في ذلك البلد البعيد. أتساءل كيف حالها، وأتمنّى أن تكون سعيدة. هل ترى ما يحدث هنا؟

أتّخذُ خطوةً عملية بمساعدةٍ من إحدى طالباتي السابقات، والتي أصبحت الآن ناشطةً جدّاً في الحركة النسوية ضدَّ هذا النظام الجديد - سأظل أراه هكذا إلى الأبد. أُطلقُ منظّمة تُعنى بحقوق المرأة.

النظام أصمٌّ بالكامل فيما يتعلّقُ بمطالبنا، لكننا سرعان ما ننمو على صعيد العدد والقدرة على الوصول إلى الناس. نعقد الاجتماعات في الأقبية، ونصوغ بيانات المهام. كما نبدأ في كتابة وتوزيع المقالات والمنشورات. العديد من أعضاء منظّمتنا محامياتٌ ممنَّ تمَّ تحجيمهنّ منذ أن غيّرَت الحكومة الجديدة كلّ شيء. لكنّني

أشاهد هؤلاء الشابات يكتبن المقالات ويدافعن عن حقوق موكلين يمثّلهم رجالٌ كانوا يعملون معهنّ، حيث يقوم أولئك الرجال باستشارتهنّ سرّاً وبإعجاب شديد بهنّ.

لن ننبطح أمام ما يجري. نحن نصنع الفارق. وأشعر وكأنّنا لا نستطيع إلا أن نرى الأمور آخذةً بالتحسن.

ثمَّ في سبتمبر 1980، يغزو صدّام حسين إيران، وتبدأ حربٌ شاملة مع العراق. يُخفَّض سن التجنيد، ويُساق شبابٌ صغارٌ جدّاً إلى الخدمة؛ جنودٌ أطفال. نغطّي نوافذنا بورق الألمنيوم حتى لا يتمكن صدّام من رؤية مدننا في الليل. وفي العديد من المدن، سوّيتْ الكثير من المباني بالأرض جرّاء الحرب.

في منتصف الليل، إذ تُطلق صفارة الإنذار الحمراء، يصمُّ صوتها آذاننا، ويثير في نفوسنا الهلع. أوقظ بَهار من نومها العميق، وننزل مع بقية سكان المبنى الدرج وصولاً إلى الطابق السفلي. ونبقى هناك مختبئين في الظلام.

ذات ليلة، بينما نجلس في انتظار أن تتوقّف القنابل عن السقوط، تنهار بَهار فوقي، وتسند رأسها إلى كتفي، وتنتحب في صمت.

لقد تعبنا.

تعبنا من كل الأساليب التي يخبروننا بها على نحوٍ متواصل أن نخرس ونمتثل.

تعبنا من القلق بشأن الاعتقال في أية لحظة بسبب ظهور خصلةٍ أو اثنتين من شعرنا.

تعبنا فوق كلّ شيء - فوق كل شيء على كوكب الله القدير - من تعرّضنا للقصف.

ليلة بعد ليلة بعد ليلة.

لا تزال بَهار تبكي. أمسح شعرها، وأقبّل خديها، وأقول لها إنّني أفعل كلّ ما بوسعي لأجعل بلادنا أفضل، ولأصلح الحال.

تومئ برأسها، وتعانقني، ثمَّ تغط في النوم في نهاية المطاف.

والحقيقة أنّني أحاول، فمُنظَّمتي تصنع لنفسها اسماً يوماً بعد يوم.

أكافح كلَّ يوم لإصلاح هذا البلد. حتّى تعود ابنتي حرّةً من جديد. حتّى نتمكّن من العيش في بلدٍ حقيقيّ.

حتى نتمكّن من عكس هذه العودة القسرية رجوعاً إلى العصور الوسطى الإيرانية.

نحن نتحرّك إلى الأمام. نحن نحرز تقدّماً.

منظّمتي تكبر.

مع ذلك، أعلم أنّني عدتُ لأشكّل تهديداً. إنّهم يراقبونني. لكنّها الحكومة الجديدة هذه المرة. أنا في دائرة الخطر من جديد.

أنظر إلى ابنتي تحت الضوء الخافت لمصباح الكيروسين في القبو. إنّها تغطُّ في النوم الآن، ورموشها الطويلة لا تزال مبلّلةً فوق خدّيها. ابنتي الجميلة. ساحقٌ ومحطِّم، هذا القلق المستمر بشأن الأذى الذي قد يلحق بها.

تهتزُّ الأرض من فوقنا. يمكنني أن أسمع رعداً يقصف من بعيد.

قنابل.

مجدّداً.

إلى متى يمكنني أن أبقي ابنتي تحت الخطر؟

إلى متى يمكنها أن تكون عرضةً للحرب والقمع وكسر القلب هذا؟

وماذا لو اعتُقلتُ مرة أخرى؟ ماذا سيحدثُ لبَهار؟

كانت لدينا أحلامٌ كبيرة، أليس كذلك؟ كنّا بصدد امتلاك العالم. كنتُ سأصبح محامية، وإحدى أوائل القضاة في إيران. والآن، أنا لا أزال أقاتل.

لكن ابنتي.

إنّها تستحق ما هو أفضل من هذا.

إنْ كان هناك من مخرجٍ لها، فعليَّ أن أجده.

انفجارٌ آخر. يمكنني أنَ أشعر بالسقف فوقنا يهتزّ.

أغمضُ عينيّ.

إذا نجحتُ في الخروج من هذا القبو، إذا لم نُقصف حتى الموت الليلة، إذا نجوت من هذا الهجوم المتجدد، فأنا أقطع وعداً.

أقطع وعداً بأنّني إذا تمكّنتُ من العودة إلى شقتنا، فسوف أتّصل بوالدة إيلي.

سأطلب عنوان إيلي.

سأرى ما إذا كان بإمكاني إيجاد طريق هروبٍ لابنتي.

لفترةٍ قصيرة فقط.

ريثما تتحسن الأوضاع فقط.

يمكن أن يكون هذا بمثابة بعثة محدودة المدة.

الفصل الخامس

36

1977

معاً، عبرنا أنا ومهرداد جادة يورك عند الشارع 66، ودخلنا عبر البوابة الرئيسية لجامعة روكفلر.

تحدَّثَ مهرداد بفخر عن الحرم الجامعيّ قائلاً: «المختبرات متّصلةٌ ببعض عبر متاهةٍ من الأنفاق تحت الأرض، حتى يتمكنوا من نقل المواد الكيميائية عندما تكون سماكة الثلوج عالية! لقد فكروا في كل شيء، يا إيلي!».

مرت ثلاثة أسابيع منذ أن انتقلنا إلى شقتنا على الجهة الأخرى من الشارع، قبالة الحرم الجامعي، وكان هذا أوّل يومٍ يأخذني فيه مهرداد لمقابلة رئيسه وزملائه في العمل.

في المصعد المؤدِّي إلى مختبره، حاولتُ أن أهدِّئ أعصابي عبر مراجعةٍ ذهنية مزعزعة وعبثية لمظهري. لقد ولّتْ أيام تسريحات خلية النحل من فترة دراستي الجامعية.

أمّي المصممة على أن أزيّن شوارع نيويورك بمظهرٍ يشبه ملكتنا فرح بهلوي أو النجمة العالمية فرح فاوست، كانت قد أعطتني مجموعة من لفّافات الشعر وردية اللون، وقد استخدمتُها لأوّل مرة بمناسبة هذا اليوم الميمون. ونجح شعري في الخروج بمظهر حيويّ

مع تموّجات كبيرة. ارتديتُ فستاناً بلونٍ أزرق ياقوتي مع ياقةٍ سميكة، وأكمام طويلة مع زرٍّ واحد بنهاية كلٍّ منها. وفي أيامٍ راجت فيها الحواجب الرفيعة وأحمر الشفاه اللامع، كنتُ على موعدٍ مع كليهما.

توقَّف المصعد، وقادني مهرداد إلى ممرٍّ خافت الإضاءة تصطف على جانبيه أبوابٌ مفتوحة وأخرى مغلقة. وعبر الأبواب المفتوحة، رأيتُ رجالاً وبعض النساء يرتدون معاطف بيضاء ويقفون وراء صفوفٍ وصفوفٍ من الطاولات الطويلة. شعرتُ وكأنّني أشاهد فيلماً أمريكيّاً حيث يعمل علماء شجعان على مدار الساعة لإنقاذ العالم من فيروسٍ تحوّل إلى كارثة.

قادني مهرداد إلى الغرفة الثانية على اليسار. كان الهواء بالداخل حامضيّاً، لكنّ النوافذ الضخمة والإطلالة على نهر إيست جعلت المكان مشرقاً على نحوٍ مدهش. أشار مهرداد إلى مقعده بفخر. اصطفت على الطاولة أمامه مجموعة من المحاقن الصغيرة. «ماصّات»، قال مهرداد.

قدّمني إلى زملائه الواحد تلو الآخر: الأفضل والأذكى في العالم ممّن جُنِّدوا للعمل معاً على التجارب العلمية. كانت هناك امرأةٌ هزيلة تدعى لينغ في. ورجلٌ أصهب يدعى توماس. وامرأةٌ مبتسمة بشعرٍ فوضوي تدعى غابرييلا. كانوا من الصين وألمانيا والبرازيل على التوالي، خبراء في ”كفاءة التفاعل الكيميائي“ و”تجميع الجسيمات“ و”تخليق الببتيد في الطور الصلب“ بحسب ما أوضح مهرداد أثناء العشاء. لكنّني ما زلتُ لا أفهم تماماً ما الذي يفعلونه.

بينما كنّا نغادر المختبر، لوَّحتْ لي من الزاوية البعيدة بيدها

التي تضع فيها قفازاً أزرق شابّة كانت تُدخل المحاقن الصغيرة - الماصات - في صينية ملأى بالثقوب.

خرجنا إلى الممر وتحركنا نزولاً إلى أن وقف مهرداد أمام بابٍ زجاجيّ مصنفر. فتح مهرداد الباب. داخل الغرفة الصغيرة الضيقة، كانت ثمة آلة لصنع القهوة تجثم متوازنة فوق خزانة الملفات، وكانت النافذة في الخلف محجوبةً جزئياً بكومةٍ متمايلة من الأوراق. وأمامنا، جلستْ خلف مكتبٍ مزدحم شابّةٌ بنّية الشعر لا يمكن أن يكون عمرها أكثر من اثنين وعشرين عاماً. جعلتْها طريقتها في ربط شعرها على شكل ذيل الحصان تبدو شخصاً مشغولاً وحزيناً بعض الشيء.

حين سأل مهرداد إن كان بإمكانه أن يعرّف زوجته على «الرئيس» بعجالة، تنهّدت الشابة وقالت: «الدكتور كولر يفضّل المواعيد».

تمتمتْ شيئاً عبر سمّاعة الهاتف، ثمَّ أشارت إلى بابٍ على يمينها وهي تنظر للأعلى والأسفل متفحّصة فستاني الأزرق الياقوتي، وشعري المتموّج، وأحمر شفاهي اللامع جدّاً. لم يكن ينبغي لي أن آتي إلى هذا المختبر وأنا أبدو أشبه بنسخةٍ مقلَّدة من ملكةٍ فارسية. شتمتُ أمّي. لقد جعلني اتباع نصيحتها السخيفة بأن أتجنّب الظهور بمظهر فلّاحة دهاتي أشعر وكأنّني مهاجرة بالغت كثيراً في ملابسها. وشتمتُ نفسي لأنّني كنتُ مثل خطأٍ نافر في هذا البلد.

كان مكتب الدكتور ديفيد كولر ضخماً ونظيفاً، وكان يتمتع بإطلالة على نهر إيست أفضل من تلك التي لدى مختبر مهرداد. وإذ نهض الدكتور كولر من خلف مكتبه، بدا طويل القامة على نحوٍ لا يُصدَّق. وبين شعره الأبيض وشاربه الأبيض، كانت عيناه الزرقاوان ذابلتَين من التعب وعبء ما افترضتُ أنّه معرفةٌ زائدة عن الحدّ. أشار إلى كرسيين جلديين مقابل مكتبه وطلب منا الجلوس.

- «كيف وجدتِ نيويورك؟»، سأل الدكتور كولر ببطء وبصوت عالٍ. «كيف هي الشقة؟».

- «الشقة رائعة. شكراً جزيلاً لك»، قلتُ له.

بعد جملتي هذه، اعتدل مهرداد في جلسته على نحوٍ يوحي بشيءٍ من الاعتداد بالنفس لدى سماع زوجته تتحدث الإنجليزية بطلاقة.

أعرب الدكتور كولر أيضاً عن دهشته عبر رفع حاجبيه قليلاً.

- «نحن سعداء بوجود مهرداد معنا»، قال وقد كفَّ عن التحدّث ببطء أو بصوتٍ عال. «أبحاثه واعدة بصورةٍ لا تُصدَّق، وخلفيته العلمية ممتازة. لقد استقرَّ به المقام هنا بالفعل».

الآن جاء دوري لأزفر بفخر. كان الدكتور كولر قد نطق اسم مهرداد بطريقةٍ مضحكة، إذ جعل حرف «ر» يبدو دون سببٍ مبهماً تماماً، لكن لا يهمّ. فقد كان زوجي بمثابة نجمٍ صاعد.

- «وماذا عنكِ، إذا سمحتِ لي بالسؤال؟»، قال الدكتور كولر. «هل وجدتِ سبلاً تقضين بها أيامك؟».

كنتُ أجهش بالبكاء كلّ صباح بعد أن يغادر مهرداد إلى المختبر - ليس لأنَّ مدينتي الجديدة كانت تفتقر للإثارة والحيوية أو لأنّها لم تكن تسبح في بحر من إمكانيات المغامرة. كانت نيويورك تتمتّع بكل هذه الصفات وأكثر. لكنّني بكيتُ لأنّني في هذه المدينة الجديدة كنتُ وحيدةً جدّاً ببساطة.

كنت بعد أن أجفف دموعي، أنهض لأبدأ في العمل. كنتُ أنظّف شقّتنا المكوّنة من غرفتي نوم (في الواقع، كانت غرفة نومٍ احدة، بالإضافة لغرفةٍ صغيرة لدراسة مهرداد) والمفروشة بأريكةٍ برتقالية مزيّنة بنقش زهور. وكنتُ أتسوّق من أقرب سوبرماركت، محتارةً بين مجموعة وفيرة من الأطعمة المغلّفة والمعلّبة، وأنواع

الخردل الأصفر والجبن. في مطبخنا المطليّ بلون أخضر يشبه لون الأفوكادو، تعلّمتُ تحضير الأفوكادو وكيفية استخدام الفرن ذي الوشيعة الكهربائية للطهي.

كنت أمشي بين الشارعين 59 و 79، صعوداً ونزولاً في جادّة يورك. الجادّة الأولى. الجادّة الثانية. وحتّى الجادّة الثالثة. ذكَّرني صف المتاجر والمطاعم والأكشاك وأكشاك بيع الصحف بطهران في بعض الأحيان. اشتريتُ صحيفة **نيويورك تايمز** ثلاث مرات. واشتريتُ صحيفة **ديلي نيوز** خمس مرات. وصحيفة **نيويورك بوست** مرتين.

كنت في بعض الأحيان أعجز عن منع نفسي من البكاء مجدّداً لدى عودة مهرداد إلى المنزل. شعرتُ وكأنني عمياء في هذا البلد الجديد، وكأنَّ الناس فيه عميان حين يتعلَّق الأمر بي. كنتُ غير مرئية. كان يمكن لوجودي أن يستحيل عدماً، وما كان ذلك ليحدث فرقاً في نبض وإيقاع هذه المدينة الشاسعة العظيمة. هذا لا يعني أنّني لم أكن ممتنّة لهذه الفرصة التي أخذتني إلى هذا البلد الجديد مع المزايا الرائعة التي وفرها لنا منصب مهرداد. لكنّني لم أكن أعرف أحداً. كنتُ أفهم اللغة، هذا صحيح، لكنّني لم أكن أفهم أيّ شيءٍ آخر. لقد افتقدتُ روتيني المألوف في الديار، بل وافتقدتُ حتى السيدات في صالون التجميل بثرثرتهنّ السطحية ومنافساتهنّ التافهة حول من تستطيع تشكيل حبة الفجل على شكل وردة. كنتُ أتّصل بطهران كلَّ بضعة أيّام فقط كي أسمع صوت أمّي. كنتُ أجوب الشوارع مثل الشبح.

في بعض الأحيان، كنت أفكر في صديقتي القديمة هوما. تخيّلتُ أنّني أسير في هذه الشوارع معها. ماذا كانت لتفكّر حيال هذه

المباني الشاهقة؟ هل كانت لتحبَّ نيويورك؟ كنت أفكّرُ في هوما، ويراودني الشعور بالذنب مجدّداً. إذا تسنّى لي يوماً أن أراها مرة أخرى، كيف سأصيغ اعتذاري لها؟ كيف سأعترف بجريمتي؟

لكن لم يكن عليَّ القلق بشأن كيف سأعتذر لها لأنّها لم تكن معي ببساطة. ففي شوارع نيويورك تلك، كنت أسير وحيدة. لا أصدقاء؛ مجرّد وجهٍ لمهاجرٍ آخر بين الحشود.

لولا ما شعرتُ به حين يكون مهرداد في المنزل، لكنتُ ربّما هربت. لكن حالما كان يدخل من الباب ونتناول العشاء، ويشاركني بعضاً من تفاصيل يومه، كان يحتضنني ويقبّلني ويأخذني إلى السرير، وهناك بين ذراعيه، وجسدي متشابكٌ مع جسده، كانت كلُّ أحزاني تنقشع، وللحظةٍ، كنتُ أشعر بروحي تطفو في السماء، وأنّني في النعيم بحقّ. ومع صوت مهرداد يهمس في أذني، كنتُ أشعر أنَّ كينونتي عادت مكتملة؛ أنَّ هذه أنا التي أعرفها قد عادت من جديد. حتى صباح اليوم التالي، حين تعلن الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة، وأجد نفسي مجدداً وجهاً لوجه مع يومٍ من العدم.

- «أنا أبقي نفسي مشغولة»، قلتُ بأفضل لهجةٍ أمريكية لديّ. «نيويورك مدينة رائعة».

تفحّصني الدكتور كولر بعينيه الذابلتين وقال: «هذا صحيح، لكن دعيني أخبرك بشيء. هل يمكن أن تكوني مهتمة بالانضمام إلى زوجات باحثين آخرين وأساتذة وزملاء لنا من جميع أنحاء العالم لنتعرّف إلى بعضنا أكثر؟ نحن نجتمع لساعة سعيدة كل يوم جمعة بعد الظهر في قاعة كاسباري».

بدا أنّه من الرائع في نظر الأمريكيين أن يحدّدوا ساعةً معينة على أنّها ساعة سعيدة. ولم أكن في موقف يسمح لي برفض اقتراح

رئيس زوجي الذي كان السبب وراء سفرنا عبر العالم لنكون هنا، في هذا المختبر الغريب والرائع. فحاولتُ جاهدة أن أرسم على وجهي تعبيراً ينمُّ عن الحماس إزاء احتمالية ساعة سعيدة.

ثمَّ شرع الدكتور كولر في الحديث مع مهرداد عن الأحماض الأمينية والكواشف الكيميائية. وبينما كانا يتناقشان في شؤون العلم، نظرتُ إلى مكتب الدكتور كولر. من بين ما رأيتُ عليه، كانت ثمّة ثلاث كرات ثلجية، وعددٌ قليل من أحجار الكوارتز البنفسجي، وجرسٌ كبير لبقرة عُلِّق عليه علم سويسرا. وداخل صورة عائلية مؤطَّرة، كانت هناك نسخةٌ أصغر من الدكتور كولر بجانب امرأة مع ابتسامة واسعة تُظهر أسنانها، وكانا يقفان خلف صبيين صغيرين قُصَّ شعرهما بتسريحة الطاسة ويرتديان قميصين برتقاليين وفوقهما سترتين بنّيتين. وهناك، في زاوية طاولة مكتبه، كان ثمّة طبقٌ مزخرف مألوف. كنتُ قد اخترتُ هذا التصميم الأنيق للطائر المحفور يدوياً يوم لقائي بهوما وبَهار في البازار، وطلبتُ من مهرداد في أول يومٍ له في جامعة روكفلر أن يعطيه للدكتور كولر كهديّةٍ من بلادنا.

بعد الاجتماع، رافقني مهرداد إلى البوابة الرئيسية وقال: «قريباً ستلتقين بأشخاص جدد. تبدو تلك الساعة البهيجة واعدة».

انحنى وقبّلني، فشعرتُ في تلك القبلة بالملوحة المألوفة لرائحته، وبإحساس الهبوط السلس على أرضٍ ثابتة، وبالرعشة التي لا يزال اقترابه مني يتسبَّبُ بها بعد كل هذا الوقت معاً.

عدتُ إلى شقّتنا سيراً على الأقدام، مدركةً تماماً لسبب وجودي في هذا البلد. كنتُ هنا من أجله. حين قال «ساعة بهيجة»، ضحكتُ من قلبي. حبيبي، حبيبي الغالي مهرداد.

على طاولة البوفيه في طرف قاعة كاسباري، كانت هناك صينية من الجبن الأصفر اللامع المقطَّع إلى مكعّبات.

اقتربتْ مني امرأةٌ شقراء في مثل عمري تقريباً وأخذتْ طبقاً، كانت ترتدي بنطالاً أحمر واسع الساقين وقميصاً أبيض بأزرار. نظرتْ إليَّ وقالت: «هذا الجبن سيّء للغاية. هاك، جرِّبي رقائق البطاطس». غمستْ يدها في وعاءٍ كبير من رقائق البطاطس، ووضعتْ بعضاً منها في طبقي، وكأنّها تعرفني، وكأنّنا نعرف بعضنا منذ وقتٍ طويل. كانت الرقائق محزّزة وكبيرة وموحَّدة الشكل.

قضمتُ واحدة فتهشّمتْ إلى قطعٍ صغيرة. لا بدَّ أنَّ ملامحي أخذت شكلاً مضحكاً، لأنَّ المرأة ضحكت بالفعل.

- «أنا أنجيلا»، قالت وهي تمدُّ يدها. «لقد انتقلتُ إلى هنا من كاليفورنيا السنة الماضية».

- «أنا إيلي»، قلتُ وأنا أصافحها. تعلّمتُ أن أستخدم اختصار اسمي في هذا البلد، فقد كان نطق «إيلي» أسهل بكثير للأمريكيين من «إيلاهيه».

التقطتْ رقاقة، قضمتْها وابتسمتْ.

كانت أنجيلا هي مَن أخذتني للتسوق وشراء بنطال من البوليستر واسع الساقين وعالي الخصر بلونٍ أرجوانيّ رائق. أرادت مني أن أشتري اللون الأصفر الكناري، لكنّني لم أكن جاهزةً تماماً لذلك. كانت أنجيلا هي من علّمني كيف أستخدم مترو الأنفاق، وكيف أتجنّب التعرض للطرطشة من البُرك في الشوارع عند مرور السيارات، وكيف أوقف سيارة أجرة في ميدتاون.

كان زوج أنجيلا، رايان، يعمل في مختبر علم الوراثة الجزيئية

بجامعة روكفلر، وكان وأنجيلا جيراننا في المبنى الواقع في 1175 شارع يورك. كنّا نقطن في الشقة 17C، وكانا في 20D.

أحبّتْ أنجيلا الطبخ. كانت تأخذني إلى سوبرماركت غريستيدس، وتساعد في اختيار المعكرونة والمحار والصلصة، ثمَّ تصطحبني إلى شقتها لتريني كيف «نجمع المكونات معاً». في بعض الأحيان، كنّا نطهو عشاءً لأربعة أشخاص، أو كنا نلتقي بزوجينا في أحد المطاعم القريبة «لتناول وجبةٍ خفيفة معاً».

كانت أنجيلا - التي كانت في السابعة والثلاثين من عمرها بينما كنتُ في الرابعة والثلاثين - هي مَن دفعت باتجاه أن أتقدّم لوظيفة بدوامٍ جزئيّ في متجر بلومينغديلز، حيث كانت تعمل في قسم مستحضرات التجميل.

- «ماذا أعرف عن المكياج؟».

توقّفتْ وراحتْ تنظر إليّ من أعلى لأسفل. «عزيزتي، أنتِ تعرفين الكثير!».

كان يمكنني الحصول على وظيفة بموجب التأشيرة التي لدينا. ومن العوامل المساعدة أيضاً أنَّ اللغة التي درستُها لسنوات كانت لغة هذا البلد الجديد.

حين كان الناس من جامعة روكفلر يكتشفون أنّني من إيران، غالباً ما كانوا يتلون أبياتاً من شعر عمر الخيّام أو جلال الدين الرومي أو يتحدثون عن السجاد الفارسي أو القطط الشيرازية. كانت انطباعات الأمريكيين عن إيران في الغالب إيجابية في ذلك الوقت، رغم أنّني كنتُ أتعرض لأسئلة غريبة من حينٍ لآخر. ففي حفلة عيد ميلاد أنجيلا، كنتُ أقف قرب وعاءٍ مملوء بمشروب «البانش» الأحمر عندما سألني شابٌّ ما إن كان لدينا كهرباءٌ في إيران.

- «نعم»، قلتُ دون أن أبذل أيّ جهدٍ لأخفي حقيقة أنّه أساء إليّ بسؤاله هذا، فاحمرَّ وجهه وتحرك مبتعداً. وبعد بضع دقائق، سألتني زوجة أحد الأساتذة إن كان في الأسبوع سبعة أيام "هناك" في إيران. فأكّدتُ لها أنَّ لدينا في الواقع سبعةُ أيام في الأسبوع، لكنّنا نتبع التقويم الشمسي الفارسي[1].

في الحادي والثلاثين من ديسمبر 1977، احتفلنا أنا وأنجيلا وريان ومهرداد بليلة رأس السنة الجديدة. وشاهدنا مذهولين الأخبار التي غطّتْ زيارة الرئيس جيمي كارتر إلى إيران، حيث رفع هذا الأخير كأساً مع الشاه وقال: «إنَّ إيران، بفضل قيادة الشاه العظيمة، هي بمثابة جزيرة من الاستقرار في واحدةٍ من أكثر مناطق العالم اضطراباً».

كان بلدانا أشبه بصديقين حميمين. حليفان وثيقان في عالمٍ خطير. ولم يكن بمقدورنا قطُّ أن نتخيّل أن تنقطع أواصر الصداقة أمّتينا. ولم يكن بمقدورنا قطُّ أن نتخيل أنّهما قد تصبحان يوماً عدوّتين.

بدا الأمر وكأنَّه من المقدَّر للصداقة بين أمريكا وإيران أن تدوم إلى الأبد.

لكن كان ينبغي لي أنْ أعرف أنّه يمكن لبعض الصداقات أن تتصدَّع وتتمزّق إلى درجة لا يمكن تصديقها.

---

(1) يتخذ هذا التقويم من الاعتدال الربيعي بدايةً له، ويعرف أيضاً بالتقويم الهجري الشمسي - المترجم.

37

صيف 1978

- «أنا آتية هذا الصيف، يا إيلي»، قالت أمّي عبر الهاتف. «ومن الجيد أنّني آتية لأن هذا البلد تعصف به اضطرابات وأعمال شغبٍ لم يسبق لها مثيل. لكن لا يمكنني البقاء لوقتٍ طويل. فارتباطاتي الاجتماعية هنا كثيرةٌ جدّاً. ثمّة حفلٌ ضخم يقيمه آل رضائي نهاية الصيف ولا يسعني تفويته. لذا لا تقلقي - لن أكون مثل أيّ أمٍّ إيرانية أخرى تزور ولدها في الخارج وتمكث لشهور. أنا، لديَّ ثلاثة أسابيع فقط. لدى الفرنسيين مثلٌ يقول "On doit profiter"[1]. حريٌّ بنا أن نستغلَّ كلّ يوم أكون فيه هناك للحد الأقصى».

دوَّنتُ تاريخ ووقت وصول أمّي. قالت إنّها ستأتي بمفردها، بدون العم مسعود، لأنّه منشغل بعمله. لكنّني كنتُ أعرف أن الرحلة باهظة الثمن، ورغم ما يمتلكانه من ثروة فإنَّ شراء تذكرة لشخصٍ واحد كان عبئاً ثقيلاً ناهيك عن شخصين.

قبل أن أنطلق لاصطحاب أمّي، بعثتُ الحياة وأنا أسرّح شعري

(1) بالفرنسية في النص الأصلي وتعني «واجبٌ علينا تجاه أنفسنا أن نحظى بالمتعة» - المترجم.

في تلك الخرافة القديمة من أيام شبابي، حين كنتُ أحكم ربط كلّ ضفيرةٍ على حدى من أجل الحظ الجيد. كنتُ أفتقد أمي، وكنتُ بالطبع متحمّسةً لرؤيتها، لكنّني كنتُ أعرف أنّه في اللحظة التي تطأ فيها قدما أرض مطار جون إف كينيدي، ستبدأ في تصيّد الأخطاء ووضع قائمة بالشكاوى. وفي حضورها، سأعود تلك الطفلة البدينة الخائفة من التعرّض للتوبيخ والانتقاد. كنتُ قد هيّأتُ نفسي لثلاثة أسابيع صعبة.

وكما هو متوقَّع، حين عانقتُ أمي، تدبّرتْ مع عينيها المغرورقتين بالدموع لرؤيتي مجدّداً أن تعلن أنَّ شعري كان مجعَّداً جدّاً. «تذكّري: لقد أخبرتكِ أن تكسري بيضةً على جمجمتك، يا إيلي. لا شيء آخر ينفع لمشكلة تجعّد الشعر».

- «نعم، يا أمّي»، قلتُ لها.

حين دخلتْ أمّي شقتنا، تجوّلتْ فيها وشخرت متذمِّرة. «يا إلهي، هل كنتِ تعيشين في هذا المكان الصغير طيلة السنة الماضية؟ يا لك من مسكينة! وهذا المطبخ الأخضر - إنّه بشعٌ وحسب».

عندما عاد مهرداد إلى المنزل في ذلك المساء، كانت سعيدة حقّاً برؤيته وعانقته بقوة، لكنّها بعد ذلك مباشرة، ربَّتتْ على بطنه وقالت: «لقد بدأتَ تبدو كالأمريكيين. خيرٌ لك أن تنتبه لما تأكله!».

تبادلنا، أنا ومهرداد، نظرة عجز، لكن لاحقاً في تلك الليلة، وبينما كنا مستلقيين على السرير، قال مهرداد: «هل تعليقاتها ”عدوانية وسلبية“ حقّاً؟ إنّها عدوانية صِرفة!».

لم يكن بوسعي أن أخالفه الرأي.

في الأسبوع الأول من زيارة أمّي، كنتُ أعض على لساني كي

لا أردُّ على ملاحظاتها الحاذقة وتعليقاتها المتهكّمة. كنتُ ممتنّةً لوجودي معها من جديد، ولإمساك يديها الرقيقتين بأوردتهما البادية للعيان، ولسماع صوتها وهي تهتف «**فا!**» متعجِّبةً من كل الأشياء التي لا تصدَّق في أمريكا.

في صباحها الأول معنا، حضّرتُ لها كوباً من عصير البرتقال تانغ.

- «مسحوق برتقال يُذوَّب في الماء ليتحول إلى عصير برتقال؟»، سألتْ أمّي، وأعقبت ذلك بأداة التعجب/ التذمّر خاصّتها: «**فا!**».

-«أليس شيئاً مميّزاً؟»، قلتُ وأنا أشعر بشيءٍ من واجب الدفاع عن هذا المسحوق المذاب العجيب. «أنا ومهرداد نحبّه كثيراً».

للعشاء، قطّعتُ البقدونس والكزبرة والبصل الأخضر كي أحضِّر **قورمه سابزي**، وفي الأيام التالية، شاهدتني أمّي وأنا أحضر العديد من أطباق يخنة الـ **خوريش** الإيرانية. لكن في الليلة الخامسة من زيارتها، تباهيتُ حين وضعتُ أصابع السمك المجمّدة في الفرن، وأخرجتُها ساخنة ومقرمشة.

- «سمكٌ على شكل أصابع؟ ومغطاة بالبقسماط؟ **فا!**»، بدت أمّي مرعوبة حين عصرتُ كمّية قليلة من الكاتشب فوق الطبق.

في أول عطلة نهاية أسبوعٍ لها في نيويورك، أخذناها أنا ومهرداد إلى مبنى إمباير ستيت يوم السبت، حيث ضغطنا أعيننا على الدائرتين المعدنيتين للمنظار المنصوب أعلى المبنى، وقرّبنا بواسطته معالم شهيرة أخرى في المدينة. لم تتوقّف أمّي عن الكلام حول أحد أفلامها المفضّلة، حيث كان يُفترض بالشخصيات أن تلتقي في مبنى إمباير ستيت، لكن القدر تدخّل وقال كلمته كما يفعل عادةً. استمعنا

أنا ومهرداد إليها وهي تسرد حبكة الفيلم بالتفصيل. يوم الأحد، أخذنا أمي إلى الجادّة الخامسة، فذُهلتْ لرؤية فندق بلازا، ومتجر ألعاب F.A.O. Schwarz المقابل له. ثم ذهبنا في نزهة داخل متنزه سنترال بارك الشهير، حيث تعيَّنَ علينا بصورةٍ متكررة أن نتوقف ونستريح على أحد المقاعد كي تتمكن من التقاط أنفاسها. بدتْ والدتي وكأنّها كبرت في السن كثيراً خلال العام الذي قضيتُه في أمريكا. وأثناء نزهتنا في سنترال بارك، أخبرتنا عن الاحتجاجات في إيران، والإحساس المتنامي بالخطر هناك. قالت إنّها تشعر بالقلق من إمكانية اندلاع ثورة في المستقبل القريب.

- «ولكن ألن يكون هذا شيئاً جيداً؟»، تجرّأتُ على القول مع علمي أنّها كانت قد أصبحت من أشدّ المعجبين بالشاه.

- «فقط إذا لم يكن ما سيعقبها كابوساً، يا إيلي! لدينا الآن هؤلاء الأصوليون الذين يتزايد نفوذهم يوماً بعد يوم. هل تعتقدين أنّهم سيكونون أفضل من شاهنا العزيز؟ كان الله في عوننا إن كانوا هم من سيتولون السلطة».

لم أنشغل بالطهي بعد ذلك اليوم الطويل الثاني من مشاهدة المعالم السياحية، بل ساعدني مهرداد في تسخين صواني العشاء التلفزيونية المجمّدة. كنّا متحمِّسَين لمشاركة والدتي هذا الاختراع الأمريكي الأصيل. اتَّسعت عينا أمّي ذهولاً إذ وضعنا صينية الألمنيوم اللامعة أمامها. كان القسم الأكبر في الصينية يحتوي دجاجاً مقليّاً، بينما احتوى القسم الأصغر على البطاطس المهروسة، «المخفوقة مع الحليب الطازج والزبدة» بحسب الوعد المكتوب على الغطاء الخارجيّ للعلبة. أما القسم الثالث، فاحتوى خليطاً من

البازلاء والذرة والجزر، بينما احتوى الرابع شرائح من التفاح والخوخ في العصير.

- «ما هذا بحقّ الجحيم؟»، سألتْ أمّي.

- «إنّه عشاءٌ تلفزيوني مجمّد!»، قلتُ لها.

- «وما علاقة العشاء بالتلفزيون بحق السماء؟».

- «تضعين الصينية في حضنك وتشاهدين التلفزيون بينما تأكلين»، أوضح لها مهرداد.

- «ولمَ قد أرغب في مشاهدة التلفزيون أثناء تناول عشائي؟»، سألتْ أمّي.

ظللنا أنا ومهرداد صامتين كصمت القبور.

حدَّقتْ أمّي في الصينية فحسب وقالت: «فا، فا، فا!».

سرعان ما كنتُ أقلي البيض، ومهرداد يطهو الأرز، فقد كانت التعابير التي ارتسمت على محيا أمي إزاء صينية الألمنيوم المقسَّمة تلك أشبه بتعابير طفلٍ مذعور.

لم تكن أمّي متحمّسة على الإطلاق عندما اقترحتُ عليها زيارة متجر بلومينغديلز.

- «ماذا حدث لطموحك، يا إيلي؟»، سألتْني. «أنتِ بائعة عطور متواضعة الآن».

- «أنا أبيع مختلف أنواع مستحضرات التجميل، ليس العطور فقط»، رددتُ عليها.

- «هذا لا يغيّر شيئاً»، قالت لي. «لمَ تعملين في ذلك المتجر؟».

كنتُ أعرف بالضبط المعلومة التي ستقلب موقفها. حين أخبرتُها

أنّه قبل عامين فقط - في العام 1976 - زارت الملكة إليزابيث متجر بلومينغديلز، تغيّر وجه أمي بالكامل. «الملكة؟ ملكة إنجلترا؟ جاءت إلى أمريكا وزارت متجرك؟»، قالت أمي.

- «نعم»، قلتُ لها. «إنّه متجرٌ مهمٌّ جدّاً، ربّما يكون أشهر متجرٍ في أمريكا».

- «حسنٌ، أعتقد أنّه بصفتي والدتك، يجب عليَّ القيام بجولة في المكان الذي تعملين فيه»، قالت أمّي.

في الطابق الأول ذي الأضواء البرّاقة من متجر بلومينغديلز، كانت أمي تتفحّص بعناية الأوشحة وطريقة ترتيبها، وحقائب اليد، وعدداً لا يحصى من مناضد عرض مستحضرات التجميل. كنتُ أقودها عبر مسارٍ متعرج في أرجاء طابق المبيعات المزدحم، حيث كان علينا أن نناور للالتفاف وتجنب المتسوقين.

التفتتْ أمّي إليّ وقالت: «أتعلمين، يا إيلي؟ هذا يشبه البازار تماماً! إنّه بازار محدَّث ونظيف وبأرضية من البلاط اللامع الذي تفوح منه رائحة الكولونيا بدلاً من الورد المجفف والفواكه المتعفّنة».

- «حسنٌ، في الواقع، عندما افتتح هذا المتجر لأوّل مرة في العام 1872، كان يُدعى "بازار الجهة الشرقية الكبير"».

انتظرتُ بصبرٍ بينما كانت تستوعب ما قلتُه للتو. ثمَّ سمعتُها.

- «فا!».

أمسكتُ بذراع أمّي. «لمَ لا ننزل إلى الطابق السفلي ونجد شيئاً لنأكله. ثمّة محفِّزاتٌ كثيرة هنا، ولا بدَّ أنَّ التعب نال منك».

- «أنا لستُ متعبة!»، قالت أمّي.

- «لا بأس، لكن أريدك أن تتذوّقي الحلوى التي خرجتْ لأول

مرة في رحلة غزوها لأمريكا من هذا المتجر بالذات».

- «هل تناولت منها الملكة إليزابيث عندما زارت المكان؟ ما اسمها؟».

- «لا أعرف حقّاً إن كانت قد جرّبتْها، لكنّها تسمَّى الزبادي المجمّد».

- «الزبادي المجمَّد؟»، كرَّرتْ أمّي كما لو أنه لا ينبغي لتلك الكلمتين أن تقالا معاً.

وقبل أن تتمكن من قولها، قلتُها بالنيابة عنها. «أعرف، أليس هذا عجيباً؟ **فا**!».

كانت المنضدة في مطعم ''فورتي كاروتس'' الواقع في الطابق السفلي مرتفعة، لذا ساعدتُ أمّي في تسلق أحد المقاعد ليتسنى لنا الجلوس خلف الطاولة الطويلة المشكَّلة على هيئة حدوة حصان. لحسن الحظ، كنّا قد وصلنا في نهاية ازدحام ساعة الغداء، لذا استطعنا الحصول على مقعدين. على بعد بضعة مقاعد منّا، لاحظتُ وجود ثنائيٍّ آخر من أمٍّ وابنتها. ارتدت الأمّ سترةً منقوشة وردية اللون مع عقدٍ من حبات اللؤلؤ كبيرة الحجم، بينما ارتدت الابنة كنزة خضراء مع ربطة عنق كبيرة على شكل فيونكة.

- «مرحباً عزيزتي إيلي، ماذا سنطلب اليوم؟»، قالت النادلة، روزان، حين وصلت إليّ.

كنتُ وأنجيلا نحبُّ في فترات استراحة الغداء أن ننضم للمتسوّقين المهتمين بالموضة في مطعم ''فورتي كاروتس''. كان الإسراف في تناول السندويتشات وأنواع السلطة وكعك المافن يُشعرنا بأنّنا أكثر روعة وعصرية، وبأنّنا نندمج جيّداً في مجتمع نيويورك.

غمرني شعور عظيم بالفخر في تلك اللحظة، فمعرفة روزان لاسمي جعلتْ والدتي تدرك كم أنا متجذِّرةٌ في هذا المكان.

طلبتُ اثنين من الزبادي المجمّد العادي، ثمَّ شرحتُ لأمّي كيف اختُرعتْ هذه الحلوى هنا في هذا المطعم بالذات، لكن لم يبدُ عليها الانبهار. هل ستكون انتقاديةً حيال هذا أيضاً كما كانت مع مشروب تانغ وأصابع السمك والعشاء التلفازي المجمَّد؟

أملتُ بينما كنتُ أشاهد أمّي وهي تضع بتوتّر أوّل ملعقة في فمها ألّا تكون النكهة لاذعةً جدّاً في نظرها.

ثمَّ قالت: «**بي نظرير! مذهل!**».

الحمد لله في عليائه.

حين كانت كلٌّ منا قد أنهت نصف وعاء الزبادي خاصّتها، تنحنحت أمّي ثمَّ قالت: «حسنٌ، إيلي جون. هل أنتِ سعيدةٌ هنا؟».

- «اسمعي، أعلم أنّكِ تعتقدين أنَّ بوسعي القيام بما هو أفضل، لكنّها وظيفةٌ جيّدة. إنّها تعجبني. يعجبني التفاعل مع العملاء. كما أنَّ زملائي في العمل مرحون ومسلّون».

- «لا أقصد هنا في هذا... المتجر. أقصد في هذا البلد».

فكرتُ في أسابيع الوحدة القاتلة تلك.

- «لقد استغرق الأمر بعض الوقت للتكيف»، قلتُ لها. «لكن مرَّ عامٌ الآن. كوَّنا بعض الصداقات الجيدة. هناك أنجيلا التي أخبرتكِ عنها، وزوجها رايان. كما أقام مهرداد علاقات طيبة مع زملائه والعديد من طلاب الدراسات العليا الإيرانيين وغيرهم من الباحثين. نحن نوسِّع شبكة علاقاتنا الاجتماعية».

أخذت أمّي وقتها حتى تستوعب إجابتي بالكامل، ثمَّ قالت:

«هذا جيّد. فلطالما كنت أريد لك أن تحظي بأصدقاءٍ جيّدين. فرغم أنَّ ذوقك كان سيّئاً في هذا المجال. إلّا أنّني لطالما تحمّلتُ وصبرتُ على أصدقاء طفولتك من الرعاع».

شعرتُ بعضلات رقبتي تتشنّج. أخذتُ أحدّق في وعاء الزبادي أمامي، وأنا أتذكّر كل الأوقات التي قوّضتْ فيها صداقتي مع هوما. كانت تبغض الرابط بيننا منذ اللحظة الأولى. لقد رزحتُ تحت وطأة شعور رهيب بالذنب بسبب ما قلتُه للكولونيل وكيف تسبَّب ذلك في اعتقال هوما. حملتُ ذلك الذنب معي مثل رفيقٍ لصيق ومقيت. لكن لم أقدر ولو لمرّة واحدة أن أسرَّ لأمّي عن هذا الألم. فقد تعلّمتُ مذ كنتُ طفلة صغيرة أنّني ببساطة لم أحظَ بأمٍّ يمكنني اللجوء إليها عندما أشعر باليأس. لم أحظَ بأمٍّ متفهِّمة إذا ما مررتُ بمحنة، قد تستمع إليّ بهدوء، أو قد تستمع إليَّ أصلاً. لو أنّني أخبرتُ أمّي بشأن اعتقال هوما، فكلُّ ما كانت ستقوله هو أنَّ هوما نالت جزاءها - لأنَّ هذا ما كانت أمّي مجبولةً عليه ببساطة. ولو عرفتْ النطاق الكامل لأنشطة هوما الشيوعية - والتي لحسن الحظ لم أتشاركها معها قط - لكان إعجابها بها سيقلُّ أكثر حتّى. هذا إن كانْ يمكن لإعجابها أن يكون أقلُّ ممّا هو عليه أصلاً.

على مرِّ السنين، لطالما تخيّلتُ كيف كان الحال ليكون لو أنّني حظيتُ بإنسانةٍ من طينةٍ مختلفة كأمٍّ لي. كانت السيدة توكّلي، والدة مهرداد، تتمتع من نواحٍ عديدة بالصفات التي تمنّيتُ أن تكون لدى أمّي. الصبر. النظرة التي لا تقوم على أحكام مسبقة. الهدوء البسيط. الكياسة. ومصفاةٌ لغربلة الكلام. كانت أمّي تقول كل ما يخطر ببالها، مهما كان مؤذياً. وكانت طعنات كلماتها مؤذية. كانت مؤذية أثناء نشأتي، وكانت مؤذيةً الآن وأنا أجلس معها في مطعمٍ

داخل متجرٍ كبير في مانهاتن[1]. تبّاً لذلك. كنتُ في الرابعة والثلاثين من عمري، أعيش وأعمل في نيويورك. الأفضل أن أواجهها وأنهي هذا الآن وهنا.

- «هل تعلمين كم تؤلمني معرفة أنّكِ لم تهتمّي ولو للحظة واحدة بصداقتي الحقيقية؟ لقد كانت مهمَّةً لي. كانت تعني لي الكثير. قد لا تكون كذلك بالنسبة إليك، لكنّني كنتُ أقدّرها كثيراً. وكل ما أمكنكِ فعله - وكل ما يمكنكِ فعله حتى الآن - هو نبش عيوبٍ فيها. لماذا؟ لمَ لم تقدري أن تكوني سعيدةً لأجلي وحسب؟ لمَ لم تكوني قادرة على الاحتفاء بحقيقة أنَّ لديَّ صديقة مقرّبة؟ لمَ كنتِ عاجزةً عن أن تفرحي بما لديّ؟ هل هي العين الشريرة، يا أمي؟ هل كنتِ قلقةً بشأنها؟ أم أنّكِ ببساطة لم تكوني سعيدةً من أجلي وحسب؟ فقد فعلتِ كلّ ما بوسعك لتفريقنا».

- «ماذا؟». بدتْ أمّي مندهشةً بصدق، وكأنّني اتّهمتها بأنّها تنّينٌ نافث للهب وله جناحان. وكأنّني افتريتُ عليها كذباً على نحوٍ مخيف.

- «بالله عليك، يا أمي. تقولين إنك تريدين أن أكون سعيدة، وأن يكون لديَّ أصدقاء. لكنَّ ما أردتِه حقاً هو أن يكون لديّ الأصدقاء **المناسبون**. أن أكون مع الطبقة المناسبة من المجتمع. أنتِ لم تحبي هوما أبداً، لأنّها كانت فقيرة؛ لأنكِ كنتِ خائفة دائماً من بقائنا فقراء. أليس هذا هو السبب الذي جعلك... تقبلين عرض العم مسعود للزواج؟ أليس كي نتمكن من الانتقال إلى الحيّ الراقي مجدّداً؟».

---

(1) أشهر مناطق نيويورك وأكثرها رقياً، تحوي سنترال بارك إضافة إلى أفخم الفنادق والمطاعم والشركات - المترجم.

لم أسألها إن كان هذا هو السبب الذي جعلها تضاجع العم مسعود في منزلنا الصغير وسط البلد حين كانت تعتقد إنّني أحضر احتفالاً مدرسياً ولن أعود في وقتٍ قريب. كان استحضار تلك الذكرى يصيبني بالقشعريرة حتى الآن.

- «إيلاهيه». نطقتْ والدتي اسمي الكامل ببطء. «بما أنّكِ تريدين أن تكوني فظّةً إلى الحد الذي يجعلك تثيرين ذكرى تلك الأيام السوداء، إذاً فليكن، سأخبرك. نعم، لقد استسلمتُ لعمّك. لقد طاردني بلا هوادة. طاردني حتى عندما كان والدك لا يزال على قيد الحياة، فلتعلمي ذلك. لقد غازلني. وأوضح بلا لبس أنّه يرغب بي. بالطبع، لم أستجب بأيِّ شكلٍ من الأشكال عندما كان والدك لا يزال على قيد الحياة. وحتى بعد وفاته، قاومت. لم أستسلم لكل محاولات العم مسعود للتقرب مني، رغم أنّني لو كنت قد استسلمتُ على الفور، لعنى ذلك عدم اضطرارنا للعيش في ذلك الحيّ الفقير. لقد تشبَّثتُ بموقفي بكل ما أوتيت من قوة. لكن بعد ذلك»، تنهّدتُ وهي تدوِّر ملعقتها في الزبادي بفتور، «كنتُ قلقةً عليكِ كثيراً في ذلك الحي. وكانت هوما أقلّ ما يقلقني. نعم، أنا لم أكن أحبها. هذا صحيحٌ تماماً. لم أرد لكِ التورط في المشاكل لكونك برفقتها أو برفقة مثيلاتها. ألم ينتهي بها الأمر في السجن؟ لا تظني إنني لا أعرف بشأن اعتقالها، يا إيلي. الأخبار تنتشر. لكن ماذا كنتِ تتوقعين؟ كانت متهورة، منفصلة عن الواقع. كان رأسها معبّأً بالهراء منذ البداية. كان والدها شيوعيّاً أيضاً. أنا أكره الشيوعيين. فبينما نجلس هنا، إنّهم هناك يعقدون التحالفات مع اليمين الديني للإطاحة بالشاه. كم هم غدّارون! كنتُ أعتقد أنّهم لا يؤمنون بالله. لكن التحالف مع الأصوليين يسعدهم إذا كانوا سيحصلون على مبتغاهم.

أنا لستُ غبيّةً كما تعتقدين، يا إيلي. كنتُ دائمةَ القلق عليك. وتلك الفتاة هوما، كانت أقل ما يقلقني. ماذا كنتُ سأفعل لو اعتدى عليكِ أثناء نشأتك أحد صبية الأزقة أولئك؟ أو ماذا لو وقعتِ في حبِّ أحدهم؟ أردتُ أن أحميك، وأن أمنحك حياةً أفضل. لذا، استسلمتُ في نهاية الأمر. واتحدّنا أنا وعمّك برباط الزواج».

حدَّقتُ فيها غير مصدِّقة. إذاً فهي كانت تعلم بأمر اعتقال هوما. لكن من غير الممكن أنّها تعلم بدوري فيه.

- «لا تلوميني، يا إيلي. لا تحكمي عليّ. عمّكِ شخصٍ طيّب، أليس كذلك؟ هل أساء لكِ بأيِّ شكلٍ من الأشكال؟ هل أساء إليّ؟ ماذا فعل سوى أنّه منحنا حياةً طيّبة مذ وافقتُ عليه؟ عمّك رجلٌ طيبٌ جدّاً».

لم يكن بوسعي أن أجادل بأنَّ العمّ مسعود ليس شخصاً طيباً. لكنّني إذ سمعتُ أمّي تتحدّثُ عنه بإعجابٍ شديد، شعرتُ بسخونةٍ شديدة في وجهي. «لكن ماذا عن أبي؟ لقد تزوّجتِ من أخيه، لا بأس. أنا لا أبغضك بالكامل لأنك فعلتِ ذلك. لكنك لم تتحدثي معي أبداً عن أبي بعد وفاته، ليس بشكلٍ حقيقي. لم تسمحي لي أبداً أن أسألك عنه، لم تسمحي بإبقاء ذكراه حيّة. كنتِ سريعةً جداً حين تعلَّق الأمر بنسيانه وطرد ذكراه، مكرِّرةً أنَّ العين الشريرة كانت السبب في وفاته. هذا كلُّ ما كنتِ تقولينه! هل خطر ببالك يوماً أنّني أردتُ أن أعرف أبي من خلالك؟ أنّني أريد أن أتشبّث بأيّة ذكرى، أيّة لمحة عنه؟ لقد محيتِه من حياتنا فحسب».

حدَّقتْ بي أمّي وكأنّها تستمع إليّ أتحدَّثُ بلسانٍ أعجميّ. بدت مرتبكة وخائبة الأمل. لكنّها بدت خائفة قبل كلِّ شيء.

- «أوه، إيلي»، قالت وقد أطرقتْ برأسها نحو وعاء الزبادي الآخذ بالذوبان.

- «إذاً، أمّي؟ هل هذا كلُّ ما ستقولينه؟ ألم أكن أستحقُّ أن أحظى بذكرى عن أبي لأعيش عليها؟ لمَ لا تتحدّثين عنه أبداً؟».

- «لأنّه كان زير نساء»، قالت بصوتٍ هادئٍ لدرجة أنّني بالكاد استطعتُ تمييز كلماتها. ثمَّ نظرتْ إلي، وقالت بنبرةٍ أعلى وأوضح: «لقد خانني، يا إيلي. مرّاتٍ عديدة. أخفيتُ ذلك عنك بالطبع، فقد كنتِ في السابعة من عمرك عندما توفي. ماذا أردتِ منّي أن أقول؟ أنّه لم يكن زوجاً صالحاً أبدا؟ أنّه كان لديه عشيقات ذات اليمين وذات الشمال؟ قد يكون له أطفالٌ آخرون حتى. أطفالٌ هم إخوتك غير الأشقاء. كنتُ فقط أحاول حمايتك».

جلستُ على المقعد خلف المنضدة المرتفعة، جامدة بلا حراك، مثل عمودٍ من حديد. كانت النادلات يتحرّكن مسرعات في أرجاء المكان. وهدأتْ همهمة البشر من حولي. لم أشعر سوى بصمتٍ عميقٍ وثقيلٍ جدّاً. هل كان ثمّة أثرٌ للحقيقة فيما كانت أمي تخبرني به؟

استحضرتُ في ذهني الذكريات القليلة من طفولتي حين كان أبي لا يزال على قيد الحياة. أبي، المسافر للعمل؛ طوال الوقت. وأمّي الوحيدة معي؛ طوال الوقت. وأبي وأمي يتجادلان خلف الأبواب المغلقة. كما تذكّرتُ العم مسعود ونفوره الدائم من الحديث عن أبي. هل كان يعرف؟ هل كان الشخص الذي أحبَّ أمّي حقّاً؟

نظرتْ إليّ أمّي وهزّتْ رأسها. «أنا آسفةٌ للغاية. لكن نعم، لم يكن والدك رجلاً قد أرغب في تبجيله أو تخليد ذكراه. ألم تتساءلي يوماً لمَ لم يكن لديكِ إخوةٌ أو أخوات؟».

كنتُ قد طرحتُ على نفسي ذلك السؤال مراراً. وعندما تعرّضتُ لتلك الإجهاضات المتكررة، تساءلتُ ما إذا كانت أمّي قد عانت منها أيضاً. أو ربما أنجبتْ أطفالاً ماتوا بسبب المرض وهم لا يزالون رُضَّعاً، كما كان يحدث أحياناً مع الأطفال في تلك الأيام في إيران.

- «كنت أشعر باشمئزازٍ شديد حين يلمسني. ولم أعد أرغب في المزيد من الأطفال منه حالما عرفتُ بأمر خيانته وخداعه لي».

- «لماذا لم تطلِّقيه؟»، سألتُها، لكن حتّى وأنا أنطق تلك الكلمات، عرفتُ كم كان سؤالي سخيفاً.

- «ها! أطلِّقه؟ وأخسرك؟ أنتِ تعرفين كيف كانت قوانين الحضانة في إيران. لم تخضع قوانين الطلاق وحضانة الأطفال لدينا للتحسين حتى العام 1967، والشاه هو من فعل ذلك - إنَّ له عظيم الفضل في مساعدة النساء، سواءً أراد جيلك الاعتراف بذلك أم لا. هؤلاء الشباب الغاضبون في الشوارع يريدون رحيل الشاه، لكن هل يعرفون ماذا سيحدث إذا استولى الأصوليون الدينيون على السلطة؟ سنعود عقوداً - بل قروناً إلى الوراء! والقوانين التي تخص النساء، ستعود أفظع من ذي قبل!».

أمّي. أمّي المتسلِّقة اجتماعيّاً، الواقفة أبداً على حافّة النرجسية، التاركة انطباعاً لا يزول بالأنانية، تتحدّثُ معي عن قوانين حضانة الأطفال. وعن قوانين الطلاق. أخذتُ نفساً عميقاً، وأطرقتُ برأسي. إذاً، فطوال تلك السنوات، كان الأب الذي حزنتُ عليه وافتقدتُه بشدّة مجرد وغدٍ كبير. وطوال تلك السنوات، كنتُ أنحي باللائمة على أمي، وأمطرها بكل ضروب الحدس السيء والشكوك السلبية.

- «أخبريني إذاً»، قلتُ لها. «إذا كانت السردية بأكملها عن أبي غير حقيقية، فهل كونك من نسل الملوك والملكات غير حقيقيٍّ أيضاً؟».

رفعتْ رأسها عالياً باعتداد. «هذا يا عزيزتي، حقيقيٌّ بالكامل. لمَ برأيك أسميتكِ إلهة؟ أنتِ من نسل الملوك والملكات بحقّ!».

ثمَّ، وبصوتٍ أكثر جدّية قالت: «ربّما أخذتُ نسبي هذا على محمل الجدّ أكثر من اللازم. سأقرُّ لك بذلك. رفضتُ فكرة العمل، رفضتُ أن أحصل على وظيفة. الآن أرى أنَّ ذلك كان إفراطاً في الغرور من قبلي، أو إفراطاً في الحماقة إن أردتِ. لا أقول إنّني لم أرتكب الأخطاء، يا إيلي، لكنّني أقول إنّه مع كلّ الأخطاء التي ارتكبتُها، أرجوكِ لا تشكّي أبداً في أنّني لطالما كنتُ في قرارة نفسي لا أريد إلا الأفضل لك. وأنّني لطالما أردتُ لكِ أن تكوني سعيدة. ربّما فعلتُ ذلك بالطريقة الخاطئة. اسمعي، ربّما كنتُ قاسيةً فيما يتعلّقُ بصديقتك هوما؛ فيما يتعلّق بصداقتكما. لكنَّ كلَّ ما أردته يوماً هو الأفضل لك».

مصصتُ شفتيّ. ما تبقى من الزبادي المجمّد في وعائي تحوّل إلى سائلٍ الآن. حدَّقتُ ساهمة في الفوضى السكّرية. **كلُّ ما أردتُه يوماً هو الأفضل لك.** تذكّرتُ حين كنا أنا وأمّي نتقاسم الفراش وننام معاً في ذلك المنزل الصغير وسط طهران. في ذلك الوقت، لم يكن بوسعي أن أتخيّل ماذا يعني أن تكون امرأة شابة مع ابنتها ذات السبع سنوات في منزلٍ جديد داخل حيٍّ غير آمن وليس لدى إحداهما سوى الأخرى. استحضرتُ مجدّداً صورة أبي الضبابية التي ما فتئت تذوي وتذوي حدَّ التلاشي. لم يكن هو البطل الذي لطالما تخيّلتُه. أردتُ أن يكون والدي طيّباً وصادقاً. أردتُ أن أصدّق أنه مثالٌ

للواجب واللطف والمسؤولية. لم أرد أن أصدّق أنَّ أبي كان يحمل هذه العيوب. لكن إذ واصلتُ التحديق في الزبادي الذائب في وعائي، أدركتُ في قرارة نفسي أنَّ أمّي كانت تقول لي الحقيقة أخيراً بشأن والدي. وبشأن أنّها أرادت الأفضل لي. في نظرها، كان إبعادي عن هوما وسيلةً لحمايتي. لم أشكَّ في أنّها كانت تصدّق ما قالته. كما لم أشكّ في عيوبها وحماقاتها. جميعنا لديه عيوب وحماقات. ربّما لدى أمّي منها أكثر من معظم الناس، لكن ربّما كانت تفعل كلّ ما تفعله - بطريقتها العوجاء - لأنّها بالفعل كانت تريد الأفضل لي.

- «لمَ برأيك كنتُ أريد لكِ أن تتزوجي من مهرداد؟»، سألتْ أمّي بهدوء.

رفعتُ عينيّ نحوها. «لأنه يأتي من عائلة محترمة وعريقة، هذا ما يهمُّ في نظرك»، قلتُ لها.

- «صحيح، هو من عائلة محترمة. لكن هذا لم يكن السبب الوحيد! كان يمكنني أن أرى أنّه رجلٌ طيب، رجلٌ صادق. لم أرد لكِ أن تكوني مع شخصٍ مثل والدك».

فكّرتُ فيما كانت تقوله. كان من العسير جداً استيعاب كل هذا.

- «واستمعي إليَّ، يا إيلي. أعلم أنّك ومهرداد هنا في بعثة مدتها عامان، لكن ما أراه يتكشف في شوارع إيران لا يبشِّر بالخير مطلقاً. لديَّ شعورٌ رهيب حيال ما يحدث هناك. سأتحدّثُ إلى مهرداد بنفسي. صدِّقيني إذ أقول ذلك. سأخبره أنّه يجدر به فور انتهاء بعثته البحثية أن يسعى جاهداً للحصول على الأستاذية هنا».

- «ماذا؟».

- «لا تعودي، يا إيلي. سأفتقدك بشدة طبعاً. لكن بلدنا يعيش حالةً من الفوضى الرهيبة الآن. سيكون من الأفضل لك أن تمكثي هنا وتأكلي الزبادي المجمد وأصابع السمك وتشربي مسحوق البرتقال الملوّن. سيكون من الأفضل لك أن تستقري وتصنعي لنفسك حياةً في هذا البلد. حقيقة أنَّ ثمّة محيطين يفصلان بيننا ستظلُّ تؤلم قلبي بلا هوادة. لكن اسمعيني، يا إيلي، ذاك البلد ليس بمكانٍ آمن. ليس إذا استولى عليه بلطجية اليمين المتطرف».

ثمَّ مالت نحوي ونظرت في عينيّ. «إيلي جان، سامحيني إن كنتُ قد أخطأتُ في حقك».

- «ماذا عن العين الشريرة؟»، سألتُ بهدوء. «كنت تنحين باللائمة على العين الشريرة في كل مصيبةٍ تنزل بنا. موت بابا...».

- «وما زلتُ ألوم العين الشريرة على كلّ ذلك! لأنّنا كنا ذات يومٍ سعيدين؛ أنا وهو. لقد بدأنا حياتنا سعيدين. ثمَّ انقلب إلى زوجٍ وحش؛ زوج قاسٍ يسيء إليَّ عاطفياً. حتّى إنّه ضربني ذات مرة. أعلم أنَّ هذا ليس بالأمر غير المعتاد في بعض الدوائر في إيران، لكنّه ما كان ليخطر ببالي أو ببال والديّ»، قالت وهي تزفر بعصبية. نظرتْ إليَّ وهزّتْ كتفيها، ثم قالت بعد أن ظلت صامتة لبضع لحظات: «من الأسهل إلقاء اللوم على العين الشريرة، أليس كذلك؟ من الأسهل القول إنَّ خيانته كانت بسبب لعنة ألقاها عليه أولئك المحيطون بنا لأنّهم كانوا يغارون من حبنا. هذا أسهل، أليس كذلك؟ أسهل من أن أصدق أنّني تزوّجتُ وغداً».

نظرتُ في عيني أمّي الدامعتين الكامدتين. كنّا لا نتّفق معاً في أيِّ شيءٍ تقريباً. ولطالما كنتُ أتوق إلى أمٍّ مختلفة عن أمّي. ومع ذلك.

إذ نظرتُ إليها، شعرتُ بقلبي وهو يتضخم ممتلئاً بشيء ليس أقلَّ من الحب. لم تكن مثالية، بل كانت عنيدة وسطحية ومثيرة للأعصاب. ومع ذلك، كان لها نصيبها من المعاناة، وقد أخفت ذلك عني طوال حياتي حتّى الآن. والحق يقال، فقد أحبّتني بطريقتها الخاصة أكثر من أيّ شيء في هذا العالم. هذا ما عرفتُه. هذا ما شعرتُ به في كلِّ ذرةٍ من روحي.

سيكون هذا حقيقياً دائماً وأبداً.

وينبغي له أن يكون كافياً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

بعد عودة أمّي إلى إيران، تابعنا أخبار ما كان يحدث في الشوارع هناك بمزيجٍ من الخوف، والإثارة، والقلق، والأمل. شاهدنا من بعيد رحيلَ الشاه، واستيلاء الثوار على السلطة، واتّقاد جذوة الأمل، ثم تناحُر الفصائل السياسية للفوز بالسلطة، وانتصار الأصوليين، ومن ثمَّ انهيار الأمل.

حافظتُ على وظيفتي في بلومينغديلز، وأكمل مهرداد بعثته البحثية. وبفضل عمله الجاد ودعم الدكتور كولر، وُسِّع نطاق بحثه ومُوِّل بمنحةٍ من المعهد الوطني للصحة، كما حاز على منصب أستاذٍ مساعد في جامعة روكفلر.

ولهذا السبب، في موسم الأعياد البارد ذاك، بعد أربع سنوات ونصف من وصولي إلى نيويورك، كنت لا أزال أشعر بالقلق إزاء وطني الأم، لكن في نفس الوقت، كنت على نحوٍ متزايد أشعر بالاستقرار وبأنّني في دياري حقاً في هذا الوطن الجديد. كنتُ قد نحَّيتُ جانباً الجوانب التنافسية اللاهثة في شخصيتي حين كنتُ أصغر سنّاً، وركنتُ إلى روتينٍ يخدم مصالحي. وكانت الأشياء في دوائرنا

النيويوركية - وإن لم يكن في إيران - تأخذ في العموم طابع السلام والهدوء.

حتّى ذلك اليوم المصيري من شهر ديسمبر 1981، حين سحبتُ تلك الورقة الرقيقة من مغلَّف البريد الجوّي، وقرأتُ ما طلبتْه منّي صديقتي القديمة.

38

ديسمبر 1981

استيقظتُ مبكّراً وغليتُ أوراق شاي إيرل غري في الإبريق الذي اشتريتُه من متجرٍ شرق أوسطي في ريجو بارك بحيّ كوينز. كان الإبريق يشبه تماماً ذاك الذي استخدمته والدة هوما في مطبخها قبل سنوات بعيدة. وإذ لمحتُ الإبريق أول مرة في المتجر، انتابني القلق من شرائه، فسوف يذكّرني كل يوم بذنبي تجاه هوما. لكنّني قلتُ لنفسي إذ ذاك إنّه يمكن أن يذكّرني بأفضل ما في صداقتنا، بدلاً من تذكيري بكيفية انتهاء صداقتنا. وإلى اليوم الذي وصلتْ فيه رسالة هوما، كنتُ قد نجحت في تأسيس حياةٍ أمريكية دفنتُ فيها معظم الوقت شعوري بالذنب تجاه اعتقالها في أعمق حفرة بداخلي.

لكن الآن، مع وصول رسالتها، دبّت الحياة في المشاعر وضروب القلق القديمة. حين أصبح الشاي جاهزاً، صببتُه في كوبٍ ضخم طُبعتْ عليه عبارة I ♥ NY «أنا أحبُّ نيويورك» مع قلبٍ أحمر. لو رأتني هوما أشرب الشاي من هذا الإناء الكبير بدلاً من الـ **إستِكان** الصغير الشفاف، لقالت إنّني قد تأمركت. على الأقل، هذا ما كانت لتقوله هوما القديمة. كيف لي أن أعرف كيف هي الآن؟ مرّت سنواتٌ عديدة مذ تحدثنا آخر مرة.

أخذتُ الشاي إلى غرفة المعيشة وأنا أجري الحسابات في ذهني، وأدركتُ أنَّ ساعة الصباح تلك في نيويورك تقابلها ساعة متأخرة من فترة بعد الظهر في طهران. وضعتُ الكوب على طاولة القهوة، ووقفتُ بجانب الهاتف ذي القرص الدوّار، أدخلتُ إصبعي في فتحة الرقم صفر وأدرتُ القرص. انبعث صوت نقر حين حرّرتُه، ثمَّ أدرتُه مجدّداً من رقم الصفر لإجراء المكالمة الدولية. ومع كلِّ دورانٍ للقرص في الأرقام التالية، كان نبض قلبي يتسارع أكثر وأكثر.

ساد صمت، ولا بد أنَّ الاتّصال العابر للمحيط تمَّ بعد لحظات، لأنّني سمعتُ صوت طقطقة.

- «ألو؟».

انقبضتْ معدتي. كنتُ لأميِّزَ هذا الصوت في أيّ مكان. «ألو؟ هوما خانم؟».

- «نعم؟».

- «هوما جان، أنا...».

- «إيلي؟ إيلاهيه؟ خودتي - هل هذه أنتِ؟»، سألتْ بنبرةٍ غير متكلفة، تماماً كتلك التي استخدمتها حين التقينا صدفة في البازار.

- «خودم هستم»، أكّدتُ لها أنَّ هذه كانت أنا بالفعل.

تولَّتْ هوما زمام الأمور، وبدأتْ تكرِّر الأسئلة التي كانت قد طرحتْها في رسالتها حول صحتنا وعمل مهرداد ونيويورك. أجبتُها بأنفاس متقطّعة، وقلبٍ يخفق بسرعة، كما لو أنّني أجيب على أسئلةٍ في اختبار. كانت هوما تصرخ بصوتٍ عال كما اعتدنا جميعاً عند إجراء مكالماتٍ بعيدة، وكنتُ أردُّ عليها بالصراخ. ضحكتْ هوما حين أخبرتُها بأنّني أعمل في متجرٍ لمستحضرات التجميل وقالت: «أوه، إيلي. ما كنتُ لأتخيّل هذا لك أبداً».

- «كيف حال عبدول؟»، سألتُها.

لم يكن هناك صوت عدا أثر لتشويش بعيد، وقلقتُ للحظة من أن يكون الاتّصال قد قُطع.

- «لم أستطع كتابة ذلك في الرسالة. لم أتمكن من إجبار نفسي. لكن، يا عزيزتي إيلي، عبدول كان في السينما».

- «أيُّ سينما؟».

- «السينما»، قالت هوما. «سينما ريكس».

ثقُل رأسي وشعرتُ بدوار. تشبّثتُ بسمّاعة الهاتف. كان عبدول من عبادان، وكانت سينما ريكس في عبادان. ومضتْ في رأسي كلُّ مقالات الصحف التي تحدّثتْ عن عبادان. **قُتل ما لا يقلّ عن 377 شخصاً. احترق رواد السينما المحاصرون داخل المسرح.**

- «هوما»، كان هذا كلّ ما تدبّرتُ قوله.

استذكرتُ صديقنا القديم في الجامعة، وكيف كان مفتوناً بهوما مذ رآها أول مرة في المقهى في **دربند**، وكيف كان ينظر إليها في رهبة وهي تحشو فمها بمربى السفرجل، وكيف طلب يدها للزواج مرتين أيّام الجامعة، وكيف بادر تجاهها وتقدم لرعايتها حين أُطلق سراحها من السجن وهي حاملٌ في الشهر السادس. استحضرتُ صورة عبدول وهو يقدّم لي الشاي عندما ذهبتُ لزيارتهما، وكيف تحدّث عن بَهار بصفتها «طفلة أرسلها الرب». لم أرد أن أفكر فيه داخل دار السينما تلك. لم أرد أن أفكّر في انتهاء حياته بتلك الطريقة المروّعة. مسكينٌ عبدول. ومسكينةٌ، مسكينةٌ هوما.

- «بَهار تشبهه من نواحٍ عديدة. حتّى إنّها تحبُّ نفس الأطعمة التي كان يحبّها»، قالت هوما.

- «هي كذلك؟»، قلتُ ورأسي لا يزال يدور. «تعازيَّ القلبية،

يا هوما. لم يكن ينبغي لي أن أستمع إليك وأنقطع عن التواصل. هوما، أنا جدُّ آسفة. يجب أن تعلمي أنَّ. . . . ».

- «بالتأكيد كان عليكِ أن تستمعي إليّ. لكن بَهار يجب أن تغادر»، قالت هوما مقاطِعة إياي بسرعة. «إنّها تعاني صدمةً جرّاء الحرب. نحن نتعرض للقصف كل يوم. هي تكره المدرسة. والحجاب الإلزامي. وكل شيء. أخبرتُها أنّها تحتاج فقط للصمود والتخرّج من الثانوية، لكنّها مكتئبةٌ بشدّة، يا إيلي. أنا قلقة عليها جدّاً. أخشى ألّا يكون لها مستقبلٌ كشابَّةٍ في هذا البلد».

فكّرتُ في هوما وبَهار الوحيدتين الآن من دون عبدول وهما تختبئان في ملاجئ تحت الأرض بينما يقصف صدّام حسين إيران. فكرتُ في الليالي التي كنا نذهب فيها أنا ومهرداد إلى السينما في مانهاتن، مطمئنين إلى أنَّ الأمر لن يكون أكثر من مجرد قضاء ليلةٍ ممتعة في الخارج. لم يكن ثمّة قلق بشأن احتمال أن تحترق السينما ونحن عالقون في الداخل. جعلني شعوري بالذنب أرغب في التقيّؤ.

- «اسمعي، يا إيلي. أنتِ لم تكوني هنا. لا أعتقد أنّكِ تعرفين ما أصبحتْ عليه هذه البلاد. اعتقدنا أنّنا تخلّصنا من دكتاتورية، لكنّنا وجدنا أنفسنا تحت رحمةِ أخرى».

- «هوما، احذري». ألم تكن تعلم أنَّ مكالمتنا الهاتفية قد تكون خاضعةً للمراقبة من قِبل النظام؟ كانت أمّي تذكرني بصورةٍ غير مباشرة بأنَّ النظام يتجسّس علينا في كلِّ مرة أتحدّثُ إليها على الهاتف.

- «أنا لا ألومك لأنك غادرتِ، يا إيلي».

- «لا، ليس هذا ما قصدتُه». أردتُها أن تعلم أنّني حين قلت «احذري» كنت أقصد أنَّ النظام قد يكون يتجسس على مكالمتنا، لكن كيف لي أن أوضح لها ذلك؟ كرهتُ أن تحتوي محادثتنا على

هذه الطبقة الإضافية من المخاوف بشأن الجواسيس.

- «لم أكن لأطلب منك لو لم أكن يائسةً تماماً»، تابعت هوما. «لكنَّ أمّي ليست على ما يرام. لقد أخذ منها الضعف كلَّ مأخذ، يا إيلي. سارة تعتني بها طوال الوقت، وهي الأخرى مكتئبةٌ بشدّة. وعلي رضا مشغولٌ بأسرته وأطفاله؛ إنّه يكافح من أجل البقاء فحسب. اسمعي، إيران ليست آمنة لبَهار. أنا لا أزال... ناشطة. لقد تحدّثتُ إلى نيلو، إذ يشغل زوجها الآن منصباً مهمّاً في مكتب التأشيرات. إنّه يساعدني في استخراج الأوراق لبَهار. أرجوك، يا إيلي، لو تستطيعين استضافة بَهار، ومساعدتها في إنهاء دراستها الثانوية هناك، فسيتسنّى لها التقدّم إلى الجامعة، وأن تفعل شيئاً من أجل مستقبلها. سأرسل المال. لن تضطري إلى دفع ——».

- «أنا لا أعرف شيئاً عن الأطفال»، تمتمتُ كالمغفَّلة. ماذا هذا الذي كانت هوما تقترحه؟

- «إنّها في السابعة عشرة. مسؤولةٌ جدّاً، ومجتهدة. سيكون هذا لفترةٍ محدودة فقط. ليس لديها أحدٌ هنا».

- «لديها أنتِ»، قلتُ لها.

- «لن... أنفعها في شيء. أنتِ لا تعرفين ما نمرُّ به هنا، يا إيلي. يتعيّن على أحدٍ ما أن يواصل النضال من أجل النساء. لقد سلبونا الكثير من حقوقنا الأساسية. لقد عادوا بنا إلى العصر الحجري. فقدنا الحق في ارتداء الملابس كما نشاء. والأهم من ذلك أنّهم قرّبوا سنّ الزواج - زواج الطفلات أمرٌ مقبول تماماً في نظر هذا النظام. لقد حددوا سنّ الزواج ابتداءً من تسع سنوات، يا إيلي! ولا تجعليني أبدأ حتى في الحديث عن قوانين الحضانة وحقوق الإنجاب...».

- «هوما!»، قلتُ بنبرةٍ حازمة. إذا لم تتوقف في الحال، فإنَّ السلطات التي تتنصت قد تعتقلها بسبب ما كانت تقوله في هذه المحادثة وحدها. ألم تكن تهتم؟

- «لا تجزعي، يا إيلي. أعلم أنّني أطلب الكثير، لكنني قلقة بشدة على ابنتي. هذه الحرب. هذا القمع. كلُّ هذا يدمّرها».

- «تعالي معها. تقدّمي أنتِ أيضاً بطلب التأشيرة. يمكنكما البقاء معنا. سأساعدكما»، قلتُ بصوتٍ هامس، وكأنَّ ذلك سيُعجز السلطات عن سماع ما قلته للتوّ.

- «أنتِ لا تفهمين. أحتاج أن أكون هنا».

- «لماذا؟». لماذا كانت تصرُّ على القتال في مجتمع قمعي يضطهد النساء؟ إنّها معركةٌ خاسرة.

- «يستحق البشر أن يعيشوا في حرية»، قالت لي.

- «لهذا السبب يجب أن تغادري وتأتي إلى الولايات المتحدة».

- «لا يمكننا أن نغادر جميعاً. لن يتبقى عندها أحدٌ ليقاتل».

البشر، إنّهم لا يتغيرون في الجوهر؛ هذا ما كانت تعلمني إياه الحياة. ستقاتل هوما دائماً. وبطريقةٍ ما، ستضع بلدها في المقام الأول دائماً. حتى الآن. لكنّني كنتُ أعرف هوما جيّداً. كنتُ أعرف كبرياءها؛ ما كانت لتطلب مني هذا الطلب الثقيل لو لم تكن يائسةً تماماً. «دعيني أتحدّث إلى مهرداد وسـ. . . سأعاود الاتصال بك».

- «شكراً لك، يا إيلي»، تنهّدتْ بارتياح. «شكراً لأنّكِ ستنظرين في الأمر».

بعد أن وضعتُ السمّاعة، جلستُ وأنا أحدّقُ في الأريكة. كان كوب الشاي لا يزال على الطاولة. إذا التقطتُه وأخذتُ رشفةً، هل

سيكون بارداً؟ لِكم من الوقت تحدّثنا؟ ستفصِّل فاتورة الهاتف كلّ دقيقة حين ستأتي لاحقاً. لم تتح لي الفرصة حتى لإثارة موضوع اعتقالها ودوري فيه. كيف كان لي أن أعيد نبش الماضي معها في حين أنَّ حال حاضرها كان فظيعاً ويحتاج لحلولٍ إسعافية؟

رفعتُ عينيّ، فوجدتُ مهرداد واقفاً عند باب غرفة المعيشة مرتدياً بيجامته، وذراعاه مشبوكتان.

- «كم سمعتَ؟»، سألتُه.

- «أوه، كلَّ شيء. كلّ ما قلتِه بالتأكيد، وأمكنني أيضاً سماع كل ما قالته هوما تقريباً. كنتما تصرخان».

- «إنّها مسافةٌ بعيدة»، قلتُ له. «آسفة لأنّني أيقظتك».

جاء مهرداد إليّ ولمس خدّي، ثمَّ نظر إلى كوب الشاي وقال: «عاودي الاتّصال بها، وقولي إنّك موافقة. فكّري في تلك الفتاة في إيران والحرب المشتعلة هناك. كيف يمكننا أن نجلس ببساطة في شقتنا في مانهاتن دون أن نفعل شيئاً لمساعدتها؟».

شعرتُ بأنني على وشك أن أجهش في البكاء. كان إحساساً غامراً أن أسمع صوت هوما بعد كل هذه السنين. شعرتُ وكأننا عدنا فتاتين في السابعة، في العاشرة، في السابعة عشرة، في العشرين من عمرنا. كلُّ هذه الأعمار مجتمعة اندمجت معاً في عمرٍ واحد. «ما تطلبه مستحيل»، قلتُ لمهرداد.

هزَّ مهرداد كتفيه. «هل هو كذلك؟».

نظرتُ إلى زوجي. نظرتُ إلى هيئته الهادئة، العلمية، اللامبالية على نحوٍ مثير للغيظ. «نعم!»، قلتُ بصوتٍ عال. «إنّه كذلك».

- «نحن نتحدّث عن هوما هنا؛ عن **ابنتها**»، قال مهرداد.

39

15 يناير 1982

ارتدى مهرداد قبّعةً سوداء كنّا قد وصفناها لهوما بالتفصيل عبر الهاتف حتى يتسنّى لها أن تخبر بَهار كيف تبحث عنها. مددتُ رقبتي وتفحَّصتُ وجه كلِّ فتاة شابة تخرج من البوّابة المحدّدة في مطار جون إف كينيدي الدولي.

- «أعتقد أنّها هي!»، قال مهرداد فجأة، وأشار إليها، وأخذَ يلوِّح بقبّعته، ويقفز في مكانه.

نظرتُ إلى حيث كان يشير. رأيتُها تخرج من البوابة حاملةً حقيبةً زرقاء في يد، ومعطفاً مطرياً رماديّ اللون في اليد الأخرى؛ فتاةٌ نحيفة ذات شعر غامقٍ مجعّد. كانت ترتدي بنطال جينز وكنزةً زرقاء بياقةٍ عالية. كان ثمّة وشاحٌ أسود يتدلى حول رقبتها. لا شكَّ أنّه الحجاب الإلزاميّ الذي كانت قد خلعتْه الآن. كانت بَهار الآن أطول من تلك التي رأيتُها آخر مرة في البازار قرب كشك المكسرات والتوابل. كانت أكثر تناسقاً ونضجاً، لكنني ميّزتُ تجعيدة الشعر تلك، وتينك العينين الداكنتين.

كفَّ مهرداد عن القفز، وأمسك بيدي، وقادني باتّجاه الفتاة.

- «بَهار جان»، قلتُ إذ اقتربنا منها. كانت بَهار في نفس

طولي، وكانت طبقة من حبّ الشباب تغطّي خدّها الأيسر.

حدّقتْ في مهرداد، وفي قبّعته، ثمَّ نظرتْ إليّ. ارتسمتْ على وجهها نظرةٌ توحي بأنّها تعرّفتْ عليّ. كان يمكنني أن أرى أنّها تذكّرتْني من لقائنا في البازار. ومع ذلك، قدّمت نفسها بصيغة رسمية وقالت إنّها مسرورة لرؤيتنا. لم يكن صوتها عالياً وطفولياً كما كان عندما سمعتُها تتكلم قرب برميل الجوز.

لمستُ ذراعها في حركة متودّدة، لكنّني فعلتُ ذلك على نحوٍ غريب ومحرَج، ثمَّ أخذ مهرداد حقيبتها الزرقاء، وشققنا طريقنا عبر الحشد إلى الخارج.

- «مرحباً بكِ في أمريكا»، تمتمتُ قائلة.

أثناء الرحلة من منطقة كوينز باتجاه مانهاتن، كان مهرداد يشير إلى الأحياء التي نمر بها، ويردد أسماء الشوارع. كان فخوراً بخبرته بمدينة نيويورك؛ خبرة كان قد عمل جاهداً على اكتسابها. نظرتُ في مرآة الرؤية الخلفية، بدت بَهار بائسة ومشوّشة.

حين وجد مهرداد أنَّ حديثه الرصين عن حقائق تلك الأحياء لم يلقَ عند بَهار صدىً يتجاوز بضع كلمات بله، كانت تخرج من فمها على نحوٍ آلي، أوقف بحكمة جولته الإرشادية، وتابع القيادة في صمت لبعض الوقت. نظرتُ في المرآة مجدّداً، ورأيتُ جبين بَهار ملتصقاً بزجاج النافذة.

بعد ما يزيد عن خمسٍ وأربعين دقيقة، توقّف مهرداد في موقف سيّارات غير بعيدٍ عن المبنى الذي نسكن فيه - كنا محظوظين لأنّنا عثرنا سريعاً على مكان شاغر. فجأة، تحدّثت بَهار قائلة: «إنّها هديّة عظيمة».

- «ما هي؟»، سأل مهرداد وهو ينظر في مرآة الرؤية الخلفية.
- «ما تفعلانه؛ استقبالكما لي هنا. شكراً لكما».

تبادلنا أنا ومهرداد نظرةً سريعة. هل طلبت منها هوما أن تقول ذلك؟ لكن ما قالتْه بدا صادقاً جدّاً على نحوٍ غريب.

- «إز ته دل»، قال مهرداد بصوتٍ متهدّج جرّاء الانفعال. ما قاله كان يعني: هذا نابعٌ من أعماق قلبنا.

بعد أن دخلنا المبنى، فتحتُ باب الشقة، وأشعلتُ الأضواء، وأدخلتُ بَهار. لسنوات، كنا نستخدم غرفة النوم الصغيرة الثانية كمكتبٍ لمهرداد. كان لديه كرسيٌّ وطاولة مكتب ومصباح هناك، والكثير من المجلات العلمية. عندما زارتنا أمي، أضفنا أريكة نوم في الغرفة لتنام عليها. وبمناسبة وصول بَهار، جهَّزنا الغرفة أيضاً بخزانة بلاستيكية مع سحّابٍ وأدراج.

كنتُ قد جهّزتُ أريكة النوم بملاءات نظيفة ووضعتُ فوق اللحاف مجموعةً من المناشف ولوح صابون وفرشاة أسنان على هيئة الكلب سنوبي. «الفتاة كبيرةٌ جدّاً على سنوبي هذا، يا إيلي! إنّها مراهقة!». كنا نتحدث مع بعضنا بالفارسية بصورةٍ شبه دائمة، لكن مهرداد نطق كلمة «مراهقة» بالإنجليزية، مشدِّداً عليها بلكنةٍ أمريكية. لم يكن ثمّة مقابلٌ جيد للكلمة أعرفه بالفارسية - ولا إدراكٌ لمفهوم أن تكون مراهقاً كما كان الحال في أمريكا. لقد كنا ببساطة شباباً ذات يوم، ولم نستفد من ميزات مرحلة من الحياة حيث يكون التمرد والعناد وتقلّب المزاج متوقّعاً بل ومبرَّراً في معظم الأحيان. كنا نأمل ألّا ينتهي المطاف ببَهار بأن تصبح مراهقةً أمريكية متمردة.

رحَّبَ مهرداد ببَهار مراراً وتكراراً، ثمَّ تمنّى لنا ليلةً سعيدة. كان عليه أن يكون في المختبر منذ الصباح الباكر.

بعد أن غادر، التقطتُ فرشاة أسنان سنوبي المغلّفة بعبوةٍ بلاستيكية شفافة، وناولتُها لبَهار. «أعلم أنّها فرشاةٌ تناسب الأطفال، آسفةٌ لذلك»، قلتُ لها.

أخذتْ تقلِّبُ العبوة بين يديها، ثمَّ أشرق وجهها بالكامل. «إنّه المفضَّل لدي»، قالت مع ابتسامةٍ عريضة. «أنا أحبُّ سنوبي!».

في تلك اللحظة، لمحتُ أثراً لصديقتي القديمة، إذ لمعتْ عينا بَهار، وبدا مظهرها مختلفاً تماماً عن ذاك المظهر الحزين الذي رأيتُه في السيارة. وتلك التكشيرة.

استرخيتُ قليلاً. «أذكرُ أنّكِ كنتِ ترتدين قميصاً عليه صورة سنوبي عندما التقينا في البازار. لم أكن واثقةً من أنّكِ لا تزالين معجبة به. سعيدةٌ أنّكِ كذلك!».

ابتسمت لي بَهار، ونظرت في أرجاء الغرفة. «هل هذا مكتبك؟»، قالت لي.

فوجئتُ بسؤالها. «إنّه مكتبُ مهرداد. لكن لا تقلقي، إنّه يقضي معظم وقته في المختبر، وليس بحاجةٍ إليه. إنّها غرفتكِ بالكامل الآن».

- «لقد تسبَّبتُ لكما في الكثير من العناء»، قالت لي. «شكراً لكما مجدّداً».

- «ليس هناك أيّ عناء على الإطلاق»، قلتُ لها.

انخرطنا إذ ذاك في الـ **تعارف** - الطقس الكلاسيكي الشائع جدّاً في ثقافتنا للشكر والثناء على الآخر والاستخفاف بالذات. لقد ربّاها هوما وعبدول جيّداً - هذا ما كان واضحاً حتى الآن.

- «شكراً لكما»، قالت بَهار مجدّداً.

- «ليس عليك أن تستمري في توجيه الشكر إليّ بلا توقّف».

- «حسنٌ، في الحقيقة عليَّ ذلك. لكن أريدك أن تعلمي أنَّ هذا وضعٌ مؤقّت. فقط ريثما تهدأ الأمور في إيران. لا يمكن لهذا النظام الجديد أن يصمد لوقتٍ طويل. لا يمكنه ذلك».

كنا في يناير 1982. كانت الثورة الإسلامية في إيران قد نجحت في فبراير 1979. «لقد صمدوا لثلاث سنوات»، قلتُ بهدوء. «لمَ تعتقدين أنّهم لن يستمرّوا لفترةٍ أطول؟ يبدو أنّهم أقوياء جدّاً».

نظرتْ إليَّ بَهار بجدّية تامة. «بسبب أشخاص مثل أمّي. إنّها تقاتلهم بأسنانها وأظافرها. لن تسمح لهم بالفوز. إنّهم فظيعون - فظيعون تماماً - مع النساء. وأمّي، حسنٌ، أمّي لن تتوقّف حتى تتمَّ الإطاحة بهم. هذا هو السبب».

فوجئتُ بإيمانها المطلق بقدرات أمّها، فقلتُ لها: «فهمت، لكنَّ أمّك تريد منكِ أن تحاولي الالتحاق بالجامعة هنا. يمكننا مساعدتك في التقدّم إليها». ندمتُ في الحال لأنّني قلتُ ذلك. هل كنتُ أفصح عن الكثير في وقتٍ مبكّرٍ جداً؟

- «لا أعرف»، قالت بَهار. «هذا ما تريده لي على ما أظنّ. لكن هناك جامعاتٌ جيدة في إيران أيضاً. ومن عجيب المفارقات في هذه الثورة أنَّ عدد الفتيات اللاتي يذهبن إلى الجامعة الآن أكبر من عددهنّ قبل الثورة. أليس هذا الجنون بعينه؟ إنَّ التحاق النساء بالجامعات في ازديادٍ بالفعل. لكنَّ أمي مقتنعةٌ بأنّني مكتئبة، وهي تريدني أن أخرج من هناك في الوقت الحالي».

- «نعم. بسبب الحرب والقمع السياسي».

نظرتْ إليَّ بَهار بعينيها الكبيرتين. «أشعر بالسوء حيال تركها هناك. أنا خائفةٌ جدّاً من أن تُعتقل مجدّداً».

- «المعذرة؟».

- «السجن»، قالت بَهار ببساطةٍ وواقعية. «قد تذهب إلى السجن هي وجماعتها النسوية. إنّهن يعملن على بعض الأشياء الكبيرة جدّاً. إنّها شير زن، لبؤةٌ حقيقية، أمي تلك».

حدَّقتُ في الفتاة الشابة داخل غرفتنا وهي لا تزال ممسكةً بفرشاة أسنان سنوبي. كانت هوما لا تزال تقاتل. بالطبع كانت كذلك. متى لم تكن هوما تقاتل؟ شير زن. امرأةٌ لبؤة؛ امرأةٌ من نسل الأسود. كانت هوما قد عرّفتني على هذا المصطلح يوم تغيّبنا عن المدرسة، وتحدّثنا عمّا نحلم به لأنفسنا حين نكبر. وقد استخدمه الكولونيل حين استجوبني في ليلة الحفلة المشؤومة تلك.

طردتُ ذكرى تلك الليلة من رأسي. فها هنا كانت تقف أمامي هذه الفتاة - هذه الشابة - في ليلةٍ من ليالي نيويورك. «حسنٌ»، قلتُ لها، «لا يمكننا أن نقلق بشأن احتمال اعتقالها الآن. دائماً ما تنجح والدتك في الخروج من عنق الزجاجة. الأفضل الآن أن تحصلي على قسطٍ من النوم. أنا واثقةٌ أنّكِ متعبة».

وقفنا وجهاً لوجه للحظةٍ محرجة، ثمَّ ضممتُها في أقلِّ العناقات جاذبيةً في العالم.

تيبّستْ بَهار، لكنّها ربّتتْ على ظهري بأدب.

أخبرتُها أين يمكنها أن تضع ملابسها، وأين الحمّام، وأنّ عليها أن تأتي إليّ إذا ما احتاجت أيّ شيء. «إلى اللقاء في الصباح»، قلتُ لها أخيراً.

كانت بَهار تقف هناك وهي لا تزال ممسكةً بفرشاة الأسنان بينما كنتُ أغادر الغرفة.

40

يناير 1982

كانت موظّفة الاستقبال تضع كحل عينٍ بلونٍ أخضر فاقع، وكان شعرها الأشقر مرفوعاً بتسريحة خلية النحل التي تعود للستينيات، فيما أبرز كريم الأساس الثقيل التجاعيد حول عينيها.

أمسكتُ يد بَهار بقوّة. كانت كلتا راحتينا متعرّقتين. أردتُ أن تشعر بَهار بالراحة والأمان في هذه المدرسة الجديدة. لن أكذب - قبل المغامرة بالذهاب مع بَهار إلى المدرسة، كنتُ متوتّرةً لدرجة أنّي رحتُ أربِّتُ على شعري على كلا الجانبين.

كنّا خلال الأسابيع الأولى نتحدّث هاتفياً مع هوما بصورةٍ متكرّرة. تحدّثنا إليها كلّ يومين - ولتذهب الفواتير إلى الجحيم. كانت بَهار تؤكّد لوالدتها أنّها بخير، وعلى ما يرام، ونعم، كانت تستمتع بهذا البلد الجديد. كانتا لا تكفّان عن إخبارنا كم كنّا كريمَين بحقّ. وفي كل مرة كنت أسمع كلمة «كريم»، شعرتُ وكأنّني محتالة على نحوٍ ما. كان ثمّة الكثير مما لم تعرفه بَهار عن صداقتي بوالدتها.

شكرتني هوما مراراً وتكراراً، كما أصرّتْ بشدّة على تسجيل بَهار في المدرسة الثانوية حتّى تتمكن من الحصول على تعليم جامعيّ. وككلِّ مرة، وجدتُ نفسي مدفوعةً بقدرة هوما الهائلة على الإقناع.

سجّلتْ موظفة الاستقبال اسمَينا، وطلبتْ منّا الانتظار على مقعدٍ خشبيّ قبالة طاولة مكتبها المرتفعة. كان المقعد أملسَ وزلقاً. فكّرتُ في الطلاب الذين جلسوا عليه بعد أن كانوا قد ارتكبوا خطأً ما، بعد أن أزعجوا المعلّم، أو بعد أن قلبوا رأساً على عقب الأدوار المفترضة للسلطة والخضوع للسلطة، فكسبوا نتيجة لذلك جائزةً تتمثل في الاجتماع بالمدير.

لم نكن قد ارتكبنا أيّ خطأ؛ أنا وبَهار. كنّا هنا لإتمام إجراءات التسجيل في المدرسة فحسب. مدرسةٌ عامّة في نيويورك. فقد كانت بَهار في الولايات المتحدّة بموجب تأشيرةٍ صالحة.

أدركتُ لاحقاً فقط حقيقةَ أنَّ هوما كانت تسعى جاهدة وتتقدم بطلبات للحصول على تأشيرة لابنتها منذ سنوات. وبتوجيهٍ من نيلو، انتظرتْ دورها لسنوات. كان مهرداد يعمل بجدّ، وهو أستاذٌ مساعد متمرّس. كان وجودنا هنا شرعيّاً، والآن أصبحت بَهار تحت رعايتنا.

أصدرتْ مشعاعات التدفئة أزيزاً خافتاً. لم أكن أطيق صبراً حتى يأتي الربيع. شعرتُ بياقة كنزتي تضيّق الخناق عليّ. كنتُ أرتدي سترةً فوق الكنزة، وفوق السترة معطفي البنّي. كنتُ أتصبَّبُ عرقاً، فخلعتُ معطفي.

إذ خرج المدير أخيراً من مكتبه لاستقبالنا، ورأسه الأصلع يلمع تحت مصباح الفلورسنت، نهضنا أنا وبَهار، ودنت هذه الأخيرة أكثر منّي. توقّعتُ أن يكون مرتدياً بذلة مع ربطة عنق، كحال المديرين في الكتب القديمة التي قرأتُها في إيران عن المدارس الداخلية الإنجليزية، لكن لم يكن في وجهه المرهَق المتغضّن ما يوحي بالنبل، وكان صوف معطفه مهلهلاً.

- «إذاً فابنتك في السابعة عشرة من عمرها؟»، سأل المدير.
- «في الواقع، هي ليست ابنتي ——»، بدأتُ أجيبه.
- «أنا في السابعة عشرة»، قاطعتني بَهار بأفضل إنجليزية لديها. كانت لكنتها ثقيلة. هل ستتحسن بمرور الوقت؟ ما كانت لكنتي لتتحسّن أكثر.

لم تكن لغتها الإنجليزية جيدة، لكن كان يمكن لها أن تتحسّن بسرعة. عرضتُ أن أعطي بَهار دروساً في الإنجليزية بنفسي، لمساعدتها في اللحاق بالركب. كلّ يوم، في فترة بعد الظهر، كنتُ أجري لها اختباراً صغيراً بينما نحن جالستان إلى طاولة المطبخ وأمامنا الكتب والدفاتر.

«هل ترغبين في شطيرة زبدة الفول السوداني والمربى للغداء؟»، كنت أسألها. «ما هذه الشطيرة؟»، تجيبني بَهار. كانت تناديني **خاله** والتي تعني خالة بالفارسية، وكانت تنادي مهرداد **عمو** والتي تعني عمّ. «هل تحتاجين إلى حذاءٍ جديد؟»، «لا بأس بحذائي هذا، شكراً لكِ **خاله**».

ابتسم المدير ابتسامةً باهتة. كانت له أسنان مدخِّنٍ صفراء.

أشار إلينا أن ننضمَّ إليه عند مكتب الاستقبال، حيث أعطتني الموظّفة قلم حبرٍ جاف وعدّة استماراتٍ ورقية تتخللها أوراقٌ كربونية رقيقة ومجعّدة.

ملأتُ الاستمارات ممتنّة من جديد لكوني أفهم الإنجليزية. وقَّعتُ الأوراق حيث طُلِب مني التوقيع. خلّفَ ضغط قلم الحبر الجاف على ورقة الكربون نسخة من الاستمارة في الأسفل. ألقى المدير نظرةً سريعة على شهادة ميلاد بَهار. كنتُ قد بذلتُ جهداً كبيراً حتى أترجم بعناية الكلمات الفارسية إلى الإنجليزية، لكنّه وموظفة

الاستقبال بالكاد قاما بقرائتها. ثمَّ نظر إلى ساعته وقال: «أنتِ الآن بين يدي السيدة فالكون القديرتين. استمتعي بيومك، ومرحباً بك».

اختفى الرجل داخل مكتبه.

بعد أن تنهّدتْ بتثاقل، خرجت موظفة الاستقبال ذات كحل العينين الأخضر من وراء مكتبها، وقالت: «اتبعاني».

مشينا عبر ممرّات رمادية، مروراً بجدران مزيّنة بأعمال فنية ومقالات طلابية. كان الهواء يفوح برائحة الغراء والطلاء. وبين الحين والآخر، كان يمرُّ طالبٌ ما، ويلقي التحية بصوتٍ رخيم وممل قائلاً: «صباح الخير سيّدة فالكون».

توقّفت السيدة فالكون فجأة ووجّهتْ كلامها إلى بَهار.

- «هل تريدين أن تأتي ماما معك؟»، سألتْها.

أومأتْ بَهار برأسها.

- «كما تشائين!»، قالت السيدة فالكون. ربّما بدا لها غريباً وحتى صادماً أن ترافق «أمٌّ» فتاةً تبلغ من العمر سبعة عشر عاماً إلى الفصل.

خارج الغرفة رقم 227، وبجوار بابٍ مزين بصورتين ظليلتين[1] لـ «رالف والدو إمرسون»[2] و «لويزا ماي ألكوت»[3] على التوالي، كانت ثمّة لافتة صغيرة كُتبت عليها عبارةٌ غير مألوفة تقول: «الوقت من ذهب!».

---

(1) نوعٌ من الفنون يعتمد على استعمال اللون الأسود فوق خلفية بيضاء لإظهار الحدود الخارجية للشكل، يسمى أيضاً بالسلويت - المترجم.

(2) (1803-1882) كاتب وخطيب وفيلسوف وشاعر أمريكي، حاز مكانة متميزة في تاريخ الأدب والفكر الأمريكي - المترجم.

(3) (1832-1888) كاتبة وروائية أمريكية، برعت بشكل خاص في أدب الأطفال - المترجم.

- «حان الوقت لتدعيها تذهب، يا ماما»، قالت السيدة فالكون.
ولعظيم دهشتي، عانقتني بَهار بقوّة مودِّعة.

كنتُ قد أخذتُ إجازة ليوم واحد كي أحرص على جعل بَهار تستقر في أول يومٍ لها في المدرسة، وبينما كنتُ أسير عائدةً إلى المنزل، وجدتُ نفسي أدور وأدور حول المباني في الحيّ بلا هدف. أملتُ أن تكون بَهار بخير في المدرسة الجديدة، لكنّني كنتُ في ذات الوقت أشعر بالقلق الشديد عليها.

كيف سأتعامل مع هذه الطفلة الجديدة في حياتي إذا كان مزيج المشاعر لمجرّد تركها في المدرسة جارفاً إلى هذا الحدّ؟ هل هذا ما يعنيه أن تكوني أمّاً لأحدهم؟ القلق المستمرّ، الأمل الغريب، والرغبة في أن يسير كل شيءٍ على ما يرام مع الطفل جنباً إلى جنب مع القلق الشديد من عدم حدوث ذلك؟

تحققتُ من الساعة. كان الوقت ظهراً تقريباً. إذا عبرتُ الشارع ودخلتُ حرم جامعة روكفلر، إذا ركبتُ المصعد إلى مختبر مهرداد وعثرتُ عليه، فهل سأتمكّن من سرقته؟ لم أجرؤ قط أن أطلب منه، خلال ساعات عمله، أن يخصص بعض الوقت لنا نحن الاثنين. لكنني كنتُ عبارة عن كتلة من القلق بعد أن تركتُ بَهار في المدرسة. لذا فقد فعلتُ ذلك وحسب.

نهض مهرداد عن مقعده في المختبر إذ رآني، وخرج إلى الممرّ؛ لا بدَّ أنّني كنتُ أبدو محطّمة لأنه قال لي على الفور: «لمَ لا أحضر معطفي. هل ترغبين في تناول الغداء؟».

أخذني إلى مطعمٍ فارسيّ كان قد افتُتح حديثاً في الجادة الثانية وشارع 74؛ سمعنا كثيراً عن ذلك المطعم، وكنّا نرغب في زيارته.

طلبنا الـ **تشيلو كباب**، وإذ وُضعتْ أطباق الأرز بالزعفران واللحم المشوي والطماطم المشوية على طاولتنا، وإذ شربنا من أباريق لبن الـ **دوغ**، اللبن العيران، وإذ اتّكأ مهرداد على كرسيه وتنهّدَ بارتياح، لم يسعني إلّا أن أتذكّر مرةً سابقة حيث كنتُ أجلس قبالته في مطعم، في مطعم نايب عندما طلب يدي للزواج.

الآن، ها نحن في أمريكا، حارسان مؤقتان ومرحليّان لفتاة كان مجرد وجودها قد أثار بداخلي قدراً هائلاً من المشاعر. أخبرتُ مهرداد أنّني كنتُ قلقة بشأن يوم بَهار الأول في المدرسة، وأنّني أريد لها أن تتأقلم، لكنها ليست مضطرة أن تفعل ذلك إلى الحدّ الذي قد تضيع معه ذاتها الأصلية. كما أخبرتُه أنّني كنتُ قلقةً بشأن لغتها الإنجليزية.

- «ستتحدّث الإنجليزية بطلاقة: أنتِ تساعدينها».
- «نعم، لكنّها إيرانية».
- «وماذا في ذلك؟».
- «تعرف كيف أصبح الحال منذ اختطاف الرهائن. الإيرانيون الآن أشخاصٌ غير مرغوب فيهم هنا. ماذا لو تعرَّضتْ للسخرية؟ أو التنمر؟ ماذا لو أساؤوا إليها؟ أو تحيّزوا ضدّها؟».

نظر إليّ مهرداد بتمعّن. «من المحتمل جدّاً أنهم سيفعلون ذلك. يعلم الله أنَّ احتجاز الرهائن من قِبل مجموعة من الطلاب جعل البعض يعتقدون أنَّ كلّ إيراني في جميع أنحاء العالم مسؤولٌ عن الأفعال الشنيعة التي ارتكبتها قلّةٌ قليلة. لكنَّ هذا شيءٌ سنساعدها على تجاوزه، يا إيلي. لن تواجهه بمفردها».

إذ ذاك، خطر ببالي، وليس للمرة الأولى، أنّه لو كانت خطط القدر لنا مختلفة، لكان مهرداد أباً رائعاً.

- «أريدُ لها أن تشعر بالأمان هنا».

- «آمل أنّها ستشعر بذلك».

- «أريد لها أن تحظى بتجربةٍ مختلفة عن تلك التي مررتُ بها أثناء نشأتي».

- «حسنٌ، بكلِّ أسف، فإنَّ تجربتها من بعض النواحي مختلفةٌ جدّاً عن تجربتك. لقد كان عليها أن تختبر الحرب. والقلق من أنَّ ظهور خصلةٍ من شعرها قد يؤدّي إلى اعتقالها؛ كلُّ هذا بفضل ذلك النظام "الثوري" الطائش».

- «أكثر من ذلك، أريدُ لبَهار أن تعيش حياة لا يحكمها القلق الدائم من العين الشريرة».

ضحك مهرداد. «لا تقلقي، يا إيلي! أعلم أنَّ والدتك هي التي حشتْ رأسك بهذا الهراء، لكنني واثقٌ تماماً من أنَّ هوما ليست من المؤمنين بتلك الخرافات القديمة. كما أنَّ بَهار لن تكون عرضةً لهذه الترهات معنا».

- «هذا جيد!»، قلت له. «أوه! هذا رائعٌ فحسب، أقصد أن توافقني الرأي في هذا».

- «أوه، بالله عليكِ، يا إيلي! هل تعتقدين حقّاً أنّكِ لست شفافةً بالكامل أمامي؟ قد تكونين قلقة بشأن تعرّض بَهار للتنمّر لكونها إيرانية، أو ربّما أنتِ حقّاً لا ترغبين في إثارة هراء العين الشريرة معها. لكن ثمّة شيءٌ آخر يزعجك. هيّا، أخبريني ما هو».

كان هذا مهرداد. لم أكن أستطيع أن أخفي الكثير عنه. وضعتُ كلتا يديّ على مفرش المائدة، وأخرجتُ ما في قلبي: «حين كنّا صغاراً، أنا وهوما، ومنذ زيارتي الأولى لها، كنتُ أريد ما لديها».

رفع مهرداد حاجبيه. «ماذا كنتِ تريدين؟ لعبةٌ أو ما شابه؟».

- «أردتُ عائلتها. والدها الحيّ، أمّها اللطيفة الطيّبة، وأختها الرضيعة المحبّبة، وفي وقتٍ لاحق، شقيقها الظريف. وفي بعض الأحيان...»، أطرقتُ برأسي.

- «نعم؟»، حثّني مهرداد على المتابعة.

- «كنتُ في بعض الأحيان أتخيّل حدوث شيءٍ فظيعٍ لأمّي كي أصبح يتيمة وتأخذني عائلة هوما لديهم».

- «حسنٌ»، قال مهرداد. «ليست تلك بجريمة. بالنظر إلى أن والدك كان متوفيّاً ووالدتك، أدامها الله، نرجسيّةٌ بعض الشيء. كلانا يعرف ذلك رغم حبّنا لها بالطبع. وكم كان عمرك حين قابلتِ هوما لأول مرة؟ سبع سنوات؟ أعتقد أنّه يمكننا أن نسامح طفلةً في السابعة على خيالاتٍ كهذه؟».

رفعتُ عينيّ نحوه. «نعم، لكن الآن. انظر الآن. بَهار هنا، معنا. لديَّ ابنة هوما. لديَّ عائلتها!»، تنهّدت قائلة. «ألا ترى هذا غريباً؟ كما لو أنّني جعلتُ هذا يحدث؟ خاصّةً بالنظر إلى... بالنظر إلى، كما تعلم، خيانتي لهوما وكلّ ما إلى ذلك. ربّما كانت لي عينٌ شريرة...».

شدَّ مهرداد شعره بكلتا يديه، ورمقني بنظرة مَن أصابه الجنون. «أوه، بحقِّ كلِّ ما تعتقدين بقدسيّته، عزيزتي إيلي. أوقفي هراء العين الشريرة هذا أرجوك! ليست لكِ عينٌ شريرة. وليست لهوما عينٌ شريرة»، ثمَّ أشار إلى رجلٍ يرتشف شوربة الـ آش السميكة على الطاولة المجاورة. «وليست لذلك الرجل المسكين عينٌ شريرة. لا أحد له عينٌ شريرة! إنّها خرافةٌ، يا إيلي؛ خرافةٌ ملعونة. أرجوك، كفانا من هذه **الخرافات** الفلكلورية».

التقطتُ شوكتي عن الطاولة من جديد. لا شيء يضاهي الزواج

من عالِم للاستماع باستمرار إلى اللازمة المتكررة التي تعارض اعتقاد والدتي الراسخ بالخرافات. «أنتَ على حقّ. أنتَ على حق. الأمر أنّه يصعب عليَّ التخلص من هذه الأشياء. لقد ترسّختْ بداخلي منذ نعومة أظفاري».

أومأ برأسه، وعاد ليأكل بتلذّذ.

- «مهرداد»، قلتُ له.

- «هممم؟»، قال ووجهه مدفونٌ في طبقه.

- «كيف لكَ أن تكون لطيفاً وداعماً إلى هذا الحدّ حيال استضافة بَهار؟».

نظرَ إليّ، كانت ثمّة طراوة في عينيه. «إيلي، كيف كان يمكننا أن نرفض؟»، قال لي. «إنّها بحاجةٍ إلينا».

أمعنتُ النظر في ملامحه، وأدركتُ أنّه كان يعني ما يقول بالكامل.

وإذ التقطَ نظرتي، قال لي: «هذا أقلُّ ما يمكننا فعله».

41

فبراير 1982

من بين كل زملائها في الفصل، كان الاسم الذي تكرّر على لسان بَهار أكثر من غيره هو «ماديسون». كانت ماديسون جميلة جدّاً، والفتاة الأكثر شعبية. كانت ماديسون ذكيّةً. وسرعان ما أصبح الحال أشبه بماديسون فعلتْ هذا، وماديسون فعلت ذلك.

بعد ثلاثة أسابيع من إقامتها معنا، سألتْ بَهار إن كان بوسعها إحضار ماديسون إلى شقّتنا حتّى تتمكّنا من الدراسة معاً بعد المدرسة. فحضرتْ فتاة شقراء طويلة، نحيفة الساقين، شعرها منسدل وعيناها زرقاوان متلألئتان. كانت ماديسون تلبس بنطالاً كاكيّاً وكنزة سوداء بياقةٍ عالية ولم تكن تحمل معطفاً شتويّاً، وكل حركةٍ لها كانت تشير إلى أنّها تنتمي لعائلةٍ ثريّة.

لسببٍ ما، يواجه الإيرانيون صعوبةً في نطق الكلمات التي تبدأ بحرف السين متبوعاً بحرفٍ ساكن. لذا عندما سألتُ الفتاتين ما إذا كانتا ترغبان في وجبةٍ خفيفة ونطقتُ هذه الأخيرة «إس - سناك»، ضحكتْ ماديسون على طريقة نطقي للكلمة.

لم يعجبني كيف كانت بَهار تتملّقُ تلك الفتاة.

لكن كان ثمّة شيءٌ يمكنني أن أستعرض من خلاله قدراتي أمام

بَهار؛ شيءٌ كانت ماديسون عاجزةً عن الإتيان بمثله. فبعد أن غادرت هذه الأخيرة في ذلك اليوم، وقفنا جنباً إلى جنب في المطبخ الأخضر بلون الأفوكادو، حيث سكبتُ الجوز في محضِّر الطعام لإعداد الـ فسنجون بينما فتحتْ بَهار زجاجة دبس الرمان التي اشتريناها من المتجر.

- «علّمتني والدتك كيفية إعداد هذا الطبق»، قلتُ وأنا أقف فوق محضِّر الطعام الدائر. «كنّا نقف معاً في مطبخها الحجريّ القديم لساعات».

- «لقد أخبرتني بذلك»، قالت بَهار بعفوية.

أوقفتُ خفقان الجهاز. هل سمعتُها بشكلٍ صحيح؟ «حقّاً؟»، قلتُ لبَهار.

- «لقد أخبرتْني بكلِّ شيءٍ عنك، وتعود ذاكرتي بشأنك إلى بدايات قدرتي على التذكّر. كيف تسلّقتما الجبل صعوداً إلى دربند. وكيف كان من عادتكما تقليد معلماتكما. كانت طبطبائي خانم هي المفضّلة لديكما، أليس كذلك؟ حتّى أنّها أخبرتني عن اليوم الذي تغيّبتما فيه عن المدرسة وذهبتما إلى البازار». هزّتْ بَهار إصبعها أمام وجهي وقالت بالإنجليزية: «شقيّتان، شقيّتان».

طوال تلك السنوات التي مرت منذ أن افترقنا أنا وهوما، لم أتخيّل قط أنّها ستتشارك مع ابنتها قصص طفولتنا. كنت أفترض أنّها لا تريد حتّى أن تفكّر بي.

مررتُ بأصابعي على أزرار محضِّر الطعام، وقلت: «هذا مفاجئٌ حقّاً».

- «ولمَ هو كذلك؟».

- «لأنَّ والدتك وأنا لم نكن بالضبط... على تواصل طيلة السنوات العديدة الماضية». توقّفتُ للحظة. «لكن إن كانت قد أخبرتكِ بكلِّ تلك القصص، فلماذا عندما التقينا في البازار، تصرّفتْ وكأنّ...».

- «وكأنّك مجرّدُ صديقةٍ قديمة لا على التعيين، أليس كذلك؟ ولستِ إيلي الشهيرة التي كنتُ قد سمعتُ عنها الكثير؟ أعرف ذلك! لم أدرك أنَّ المرأة المختبئة خلف برميل الجوز كانت هي نفسها إيلي الشهيرة، حتى جاء اليوم الذي أخبرتني فيه ماما بأنّها تريدني أن أسافر إلى أمريكا. أعتقد أنَّها كانت متأثرة على نحوٍ جارف في ذلك اليوم في البازار. لقد ظلّت بعدها لأيّام في حالةٍ أقرب للسبات أو الغيبوبة».

ما كان يلحُّ عليّ هو سؤالٌ أعلم أنّه لا ينبغي لي أن أطرحه. لن يكون هذا عادلاً بحقِّ بَهار. لا يجب إقحامها في الأمر. لكنّني لم أستطع أن أمنع نفسي. «هل تساءلتِ يوماً»، قلتُ بسرعة، «إذا كنا أنا ووالدتك مقرّبتين إلى تلك الدرجة حقّاً، فلماذا لم نكن نرى بعضنا أبداً؟ أقصد أثناء نشأتك».

وضعتْ بَهار زجاجة الدبس من يدها ووقفتْ ساكنةً تماماً. قريباً، ستصبح أطول منّي. «أعرف السبب»، قالت وهي تنظر إليَّ دون أن يرفَّ لها جفن.

شعرتُ بقلبي يغور عميقاً في صدري.

كانت تعلم بما فعلتُه بأمّها. ما يعني أنَّ هوما كانت تعلم بالتأكيد. «فهمت»، قلتُ لها.

- «لأنها لم ترد لكِ التورّط في أيِّ مشاكل؛ هذا هو السبب. تماماً كما لم ترد لأيٍّ من صديقاتها الأخريات أن يتورطن في مشاكل.

كان لدى نظام الشاه ملفات عنها. لطالما اعتقدتْ ذلك. ولفترةٍ طويلة، كانت قلقةً من أنّها موضوعةٌ تحت المراقبة. كانت قد اعتزلت السياسة تماماً، لكن بعد ذلك - وصل هذا النظام الحالي إلى السلطة، ولم تستطع أن تبقى على الهامش». خفضتْ بَهار صوتها إذ ذاك، بحكم العادة ربّما، رغم أنّنا كنا واقفتين داخل مطبخٍ في مدينة نيويورك. «لقد عادت لتكون الآن ناشطةً ضدَّ هذا النظام الحالي. هي تقول إنّنا ما زلنا لم نفعلها على النحو الصحيح في إيران».

- «لم نقترب حتّى من فعلها على النحو الصحيح. أتمنّى أن نرى إيران ديمقراطيةً»، قلتُ على نحوٍ آليٍّ تقريباً. كنا أنا ومهرداد نكرر هذه العبارة منذ وقتٍ طويل، لدرجة أنّني كنتُ أردّدها مثل الببغاء الآن. لكن ماذا بشأن أنَّ هوما كانت ترفض رؤيتي بسبب قلقها من أن تكون تحت المراقبة؟ هل قطعتْ كلَّ صلةٍ بي خوفاً على سلامتي؟

أردتُ أن أتشرّب هذه المعلومة الجديدة، أن أستوعبها وأحفظها. أردتُ أن أذهب إلى غرفة المعيشة، وألقي بنفسي على الأريكة وأغرق في البكاء. لكن ها هنا كانت تقف هذه الفتاة المرعوبة بشأن مصير والدتها. لذا وضعتُ رغبتي جانباً. كنتُ منذ الليلة التي اصطحبنا فيها بَهار من المطار أتعلّم بصورةٍ مكثّفة أنَّ احتياجات هذه الطفلة تفوق احتياجاتي وتتفوق عليها.

- «التمنّي ليس بذاك الشيء المهم»، تابعتْ بَهار. «الجميع يتمنّون. لكن أمي لا تتمنّى وحسب. هي لا تركن للأحلام. إنّها فعّالة لما يجب أن يُفعل. إنّها الآن ناشطة أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. أنا جدُّ قلقةٍ عليها. حين اعتُقلتْ...».

تشنّجتْ عضلات كتفيّ. «ماذا تعرفين عن اعتقالها؟».

- «أعلم أنّها اعتُقلتْ في عهد الشاه. لكن منذ أن أطلقتْ منظّمتها النسائية الجديدة، حسنٌ، هي تعيش في حالة قلقٍ دائم من أن يتمَّ اعتقالها مجدّداً. إنّها على قائمتهم. إنّها تحت المراقبة. قال أبي...».

تهدَّجَ صوت بَهار. ابتلعتْ ريقها بصعوبة، وراحتْ تعبث بأطراف قميصها. ثمَّ نظرتْ إليّ وقالت: «أتعلمين؟ أنا أفتقد أبي كثيراً. لكن بطريقةٍ ما، فإنَّ افتقاده أسهل من افتقاد أمّي. ففي حالته ثمّة خاتمةٌ قطعية؛ لقد رحل وليس هناك ما يمكننا فعله حيال ذلك. أكره التفكير في الطريقة التي مات بها، وأحاول ألّا أفكِّر في لحظاته الأخيرة، لكن الحقيقة هي أنَّ روحه في سلامٍ الآن. لقد مرت أربع سنوات منذ وفاته. في العامين الأولين بعد وفاته، شعرتُ في كلِّ يوم وكأنّني على وشك أن أفقد عقلي. لم أتعلّم إلّا في العام الثالث كيف أتعامل مع مسألة رحيله؛ كيف أجد، في بعض الأيام، بعض السلام والتصالح مع الأمر برمّته»، قالت وهي تقاوم انهمار دموعها.

- «أعرف ما يعنيه فقدان الأب»، همستُ لها.

- «لكن أمّي؟»، تابعتْ بَهار وكأنّها لم تسمعني، «ليس ثمّة يقين أو قطعية في حالتها. قد يأخذوها مني في أية لحظة».

- «أنا آسفةٌ للغاية».

سرحتْ بَهار بعينيها عبر نافذة مطبخنا الصغير. كانت الأشجار لا تزال عارية في شارع يورك، وأغصانها الرفيعة رماديّةٌ ميتة. لكنَّ الربيع سيأتي. الفصل الذي يحمل اسمها: بَهار. في نهاية المطاف، ستزهر الأشجار ببراعم وليدة، ستنمو هذه البراعم وتكبر لتستحيل خضراء مذهلة في كل مكان.

- «ليس بوسعهم إيذاء أبي بعد الآن»، قالت بَهار. «هذا هو

عزائي الوحيد. لقد كان أفضل أبٍ يمكن لأيٍّ شخصٍ أن يحظى به. الأفضل في العالم بلا منازع». نظرت إليّ بوجهٍ مرتعش، ثمَّ أجهشت في البكاء.

اقتربتُ منها. لمستُ ذراعها بوجل، ثمَّ عانقتُها. خبّأتْ وجهها بين عنقي وكتفي، وبلَّلت دموعها قميصي وبشرتي. شددتُها إليَّ أكثر، فخارتْ قواها وانهارت بالكامل في أحضاني.

يقولون إنَّ الكثير ممّا نحن عليه يتحدّد بينما لا نزال في الأرحام. وإنَّ لا سلطة لنا على كوكتيل الجينات التي تشكّلنا. إذ حضنتُ بَهار في المطبخ في تلك الليلة من شهر فبراير، لم أكن أعرف ماذا تُخبِّئ الجيوبوليتيك[1] لمسقط رأسنا، ولم يكن بمقدوري أن أتخيل ثقل وتأثير نشاط والدتها السياسي في السنوات القادمة، لكنني عرفتُ في تلك اللحظة أنّني كنت لأزلزل السماء والأرض كرمى لهذه الطفلة.

هذه الطفلة - هذه المراهقة - التي بُعثت في حياتي لفترةٍ قصيرة، كانت قد أخذت مكانها واستقرتْ داخل قلبي بالفعل. أيّاً يكن ما سيحدث، سوف أحميها.

---

(1) مصطلح تقليدي ينطبق في المقام الأول على تأثير الجغرافيا على السياسة، لكنه تطور خلال القرن الماضي ليشير إلى الروابط والعلاقات السببية بين السلطة السياسية والحيز الجغرافي - المترجم.

42

يونيو 1982

- «يمكن للمخدرات والكحول أن يتسبّبا في مقتلك!»، قلتُ بصوتٍ عالٍ وحاد في يومٍ من أيام يونيو بدا فيه وكأنَّ المدينة ستطقطق وتتصدّع من شدّة الحرّ غير المتوقّعة. كنتُ جالسةً أحاول إقناع بَهار بعد وجبة إفطار متأخر صباح يوم السبت. «كنتُ أعرف أنَّ ماديسون مصدر إزعاج منذ اليوم الأوّل. هي دعتكِ وأنتِ وافقتِ إذاً؟ بهذه البساطة؟ لقد أخبرتني أنجيلا عمّا يحدث في الحفلات التي تعقب حفل التخرج. إنّه شيءٌ مروّع!».

- «**خاله** إيلي، أنتِ تبالغين في ردة فعلك». جلستْ بَهار مستقيمةً على مقعدها عند طاولة المطبخ. «ليس الأمر بتلك الأهمية. إنّها مجرد حفلةٍ صغيرة. أعني أنّنا سنتخرج قريباً - ستكون هناك حفلات في كلّ مكان. لو كنتِ تعرفين لأيِّ درجة أنا بعيدةٌ عن الحفلات. أنا لا أخبركِ بكل الدعوات التي أرفضها. لكنَّ هذه الحفلة مهمّة».

- «لا ينبغي أن يكون لكِ أيُّ علاقةٍ بالحفلات أصلاً. لقد تعيَّنَ على والدتك أن تتوسّل وتستجدي وتنتظر كي تحصل على تأشيرة زيارةٍ مؤقّتة. إنّها محظوظة لأنَّ بإمكانها القدوم لرؤيتكِ وأنتِ

تتخرجين. حلمها هو أن تشاهدك تمشين على تلك المنصّة. كلُّ ما تريده هو أن تنجحي على المستوى الأكاديمي، وأن تدخلي الجامعة هنا. هذا ما يهمّ. هي لا تحتاج أن تجد أنَّ ابنتها تتسكّع مع السكارى في مانهاتن! ماذا سأقول لها؟».

- «ماديسون ليست سكّيرة. إنّها...».

- «إنّها متكبرة ومتغطرسة من حي الأثرياء في الجهة الشمالية الشرقية للمدينة، وتعتقد أنّها تملك العالم. وهي تتحكم بك كما لو كانت قد ألقتْ عليك تعويذةً ما، يا بَهار»

حدَّقتْ بي بَهار وقد احمرَّتْ وجنتاها. «أنتِ مخطئةٌ تماماً، يا خاله إيلي. ماديسون شخصٌ طيّب. إنّها صديقتي. ألم تكن رغبتك أن أتكيف مع هذه الحياة الأمريكية؟ أن أتأقلم؟ حسنٌ، أنا أحاول. والأمر ليس كما تعتقدين. إنّه مجرّد تجمّعٍ صغير بعد حفل التخرج، وليس هناك شيءٌ يتعلق بالكحول أو المخدّرات. الأمر لا يتعدى مجموعة أولادٍ يحظون ببعض المرح. كما أنّني عملتُ بجدّ. لقد قُبلتُ في الجامعة، ألم أفعل؟ أنا أفعل كلّ ما هو صائب. إنّها فرصتي الأخيرة لأكون مع أصدقائي من المدرسة الثانوية قبل أن نفترق جميعاً في دروبٍ منفصلة. ماديسون ستهتمُّ بي».

- «أشخاصٌ مثل ماديسون لا يهتمون بأحدٍ خلا أنفسهم»، تمتمتُ قائلة. حتى وأنا أنطق الكلمات، كنتُ مدركةً تماماً أنّني أبدو كثيراً مثل أمّي. لكنني لم أستطع منع نفسي.

أخبرتني أنجيلا أنّها فقدتْ عذريتها في حفلة أعقبت حفل التخرج، وجعلت الأمر يبدو وكأنَّ الهدف من فقدان العذرية عقب حفل التخرج هو أن يكون ذلك بمثابة طقس عبورٍ تقريباً. استمعتُ إليها وقد أخذ الذهول مني كلّ مأخذ. حين وصلتْ بَهار إلى مطار

جون إف كينيدي، واصطحبناها إلى المنزل، لم أكن لأتخيّل أنّنا سنتشاجر يوماً بشأن الحفلات، وبأنَّني سأقلق بشأن تعرّضها المحتمل للكحول والمخدرات والجنس. ولكن، ها نحن ذا.

- «إنّها مجرّد ليلةٍ واحدة! لمَ لا تثقين بي، يا **خاله** إيلي؟»، تنهّدتْ بَهار. «ولديَّ شعورٌ بأنَّ أمّي لن تمانع».

- «سنرى بهذا الشأن»، قلتُ باقتضاب.

بعد خمسة أشهر وثلاثة أيام من استقبالنا - أنا ومهرداد - لبَهار في المطار، عدنا نحن الثلاثة إلى مطار جون إف كينيدي لاستقبال هوما. شعرتُ وكأنّني تلميذةٌ في المدرسة. شعرتُ وكأن ثمّة فراشات ترفرف في معدتي كلّما فكرتُ في أنّني سأرى صديقتي القديمة. كنتُ أنقِّلُ ثقلي من قدم لأخرى؛ كان يستحيل عليّ أن أبقى ساكنة.

كنت قد أرسلتُ صور بَهار مرفقةً برسائلي إلى هوما، بما في ذلك بعض الصور التي أظهر فيها مع مهرداد. لكن لم يصلنا من هوما سوى صورتين فقط. تركت الثورة والحرب والانفصال عن ابنتها آثارها على الجسد النحيف المتهالك في الصورة التي تُظهرها جالسةً على كرسيٍّ بمسندين، ذراعاها متقاطعتان، وعلى وجهها ابتسامةٌ مصطنعة؛ وفي الصورة الأخرى، حيث تقف في حديقةٍ ما حاملة مجرفة صغيرة، وعلى رأسها قبّعةٌ ضخمة.

- «ماما!»، صاحتْ بَهار فجأة واندفعتْ نحو البوّابة.

ثمَّ رأيتُها. كانت طويلة ونحيفة، وكانت ترتدي بنطال جينز وتنتعل حذاءً عسكرياً ثقيلاً، وكان شعرها مربوطاً بعقدة ذيل الحصان. وحول رقبتها، التفَّ غطاء الرأس المميّز الذي أصبح الآن إلزامياً على متن رحلات الخطوط الجوّية الإيرانية، والذي كان بلا

شكٍّ يُنزع حال النزول من الطائرة الإيرانية عند التوقّف في أوروبا.

ركضتْ بَهار مباشرةً إلى والدتها، عانقتْها وانفجرتا معاً في البكاء.

أمطرت هوما وجه بَهار بالقبلات، وراحتْ تضحك وتبكي في آنٍ واحد. شعرتُ بالصدمة لرؤية مدى سهولة احتضان أمٍّ وابنتها لبعضهما.

بقيتُ ومهرداد على بعد بضعة أقدامٍ منهما.

في النهاية، سارت بَهار وهوما نحونا. كانت ذراع بَهار مشبوكةً بذراع هوما - وكلاهما تبتسمان بينما تمسحان دموعهما. إذ وصلتا إلينا أنا ومهرداد، صرختْ هوما وكادت تلقي بي أرضاً عندما لفّتْ ذراعيها حول رقبتي. فقدتُ توازني، فجذبتني هوما بسرعة، وظلتْ ممسكةً بي تاركةً مسافة ذراعٍ بيننا. «إيلي! إيلي جون! **دوست من!**».

كدتُ أفقد صوابي لدى سماعها تناديني بـ «صديقتي». كنتُ قد نسيتُ مقدار الفرح الذي يمكن أن ينضح من هوما القوية المفعمة بالحياة. هي لا تزال على عهدها في ذلك.

كانت رحلة العودة بالسيارة عبارة عن هوما تطرح الأسئلة، بَهار تتحدث بلا توقّف، وأنا ومهرداد نتدخل بين الحين والآخر بغرض إعطاء إجابة أو توضيح ما. كانت ابنتنا الثرثارة ذات السبعة عشر ربيعاً ستتخرج من الثانوية في غضون عشرة أيام. واعتباراً من الخريف القادم، ستبدأ الدراسة في جامعة كوينز.

وها هنا، كانت بجانب أمّها الآن.

استدرتُ في مقعدي باتّجاههما. كانت هوما قد وضعتْ رأسها على كتف ابنتها وأغمضت عينيها، بينما تبللت رموشها بدفقة جديدة من الدموع.

43

يونيو 1982

صباح اليوم التالي، وأثناء تناول الإفطار، سعت بَهار جاهدة كي لا تذهب إلى المدرسة حتى يتسنى لها قضاء اليوم مع والدتها. كانت هوما نائمة بفعل إرهاق السفر في الغرفة التي تتشاركها الآن مع ابنتها. «لقد انتهينا عملياً على أيّة حال. سنتخرّج قريباً. ليس ثمة شيءٌ جديد لنتعلّمه»، قالت بَهار.

ظهرت هوما عند باب المطبخ. «يجب عليك بكلٍّ تأكيد أن تذهبي إلى المدرسة»، قالت لبَهار.

كانت ترتدي كنزة بنقشٍ أحمر وبرتقالي مع ياقةٍ مدوّرة، وبنطال جينز أزرق باهت. كان شعرها مسدلاً، وقد فوجئتُ كم كان طويلاً. كانت تضع في قدميها نعالاً بلاستيكياً مثل تلك التي اعتدنا أن ننتعلها في إيران. ومضتْ في رأسي صورة نعال والد هوما - وكيف زلقتْ أختها سارة قدميها الصغيرتين في ذلك النعال، وأخذت تمشي مترنّحة في فناء منزلهم القديم.

- «لا تقلقي»، قالت هوما، ومشت إلى حيث كانت تجلس بَهار وقبّلتْ خدّها. «تأشيرتي مدّتها أربعة أسابيع. سأفرض نفسي على

خاله إيلي وعمو مهرداد لبعض الوقت. هيا اذهبي، وسأكون هنا عندما تعودين إلى المنزل».

بعد أن غادرت بَهار ومهرداد المطبخ على عجل، قدّمتُ لهوما بعض البيض المخفوق وجلست إلى طاولة المطبخ قبالتها. كانت الساعة الدائرية الكبيرة على الحائط تدقُّ بصوتٍ عال.

- «لم يكن عليكِ أن تأخذي إجازة من العمل. يجب أن تواصلي حياتك وكأنّني لستُ موجودة هنا».

- «هل تمزحين؟ لا أريد أن أفوّت هذا اليوم الأول معك! يمكن للعمل أن ينتظر».

- «هل تتذكرين عندما كنّا صغيرتين؟ حين كنّا نتحدث عما سنكون عليه عندما نكبر؟ مؤكَّدٌ أنّه كان للحياة طريقتها في عرقلة بعض هذه الخطط، أليس كذلك؟ رغم أنّني أعتقد أنّكِ سعيدةٌ بوظيفتك هنا، صحيح؟».

- «أنا أحبّها. أستمتع بالتعامل مع العملاء - في الغالب - ولديَّ زملاء عملٍ رائعون. لا أعرف»، سكتُّ للحظة. «يمكن للأمر أن يبدو وكأنّني فقدتُ قوة الدفع أو ما شابه. وربّما هذا ما حدث لي بالفعل. لقد زالت الرغبة بالتنافس، والسعي الدؤوب. حدث ذلك في نفس الفترة تقريباً التي ——»، توقّفتُ هنا عن الكلام. هل يجب أن أقول لها الحقيقة؟ هل يجدر بي أن أقول أنَّ ذلك حدث في نفس الفترة التي اعتُقلتِ فيها تقريباً؟ كنتُ في أمسِّ الحاجة للاعتذار لها عمّا فعلت. ربّما نتمكّنُ أخيراً من كشف وتوضيح كل شيء. ليحدث ما يحدث. ستكرهني هوما على الأرجح، لكنّني لم أعد قادرةً على إخفاء هذه الحقيقة الرهيبة عنها بعد الآن. كان عليها أن تعرف ما فعلتُه.

- «في نفس الفترة التي تزوجتِ فيها، أليس كذلك؟»، قالت

هوما بما يشبه المرح. «الزوجة الفارسية المطيعة؛ هذا ما أصبحتِه! اسمعي، يا إيلي، ليس ثمّة عيبٌ في ذلك. في منظّمتي النسائية وضمن نشاطنا النسويّ، هناك فكرةٌ واحدة نحاول دائماً أن ندعمها ونرسّخها في الأذهان، وهي أنَّ النسوية تأتي بأشكال عديدة ومختلفة. لا ينبغي لنا أن نعيِّر النساء اللاتي اخترن رعاية المنزل والأسرة. طالما أنَّ هذا كان خيار المرأة نفسها. لا أقصد أن ألمّح إلى أنَّ وظيفتك الآن، أو حتى إن اخترت سابقاً أو لاحقاً البقاء في المنزل، تندرج بأيِّ حالٍ من الأحوال تحت بند مناهضة النسوية. لأنَّ ثمّة مكاناً لكل ما سبق في قلب النسوية الحقيقية. للمرأة الحق في أن تعيش حياةً مهنيّة بأقصى درجات الطموح، أو حياةً بطموحٍ أكثر تخفّفاً أو ما شابه ذلك. كما قلتْ، أيّاً يكن ما تختاره هي».

لم أكن أتصوّر أنَّ محاولتي إثارة موضوع ليلة اعتقالها سيفضي إلى محاضرةٍ عن النسوية. رغم أنّني كنتُ ممتنّة لطريقتها في رؤية الأمر.

- «وحبيبكِ مهرداد، كم هو رائع؟! أنا سعيدةٌ للغاية أنَّ كل شيءٍ سار على ما يرام معكما».

ابتسمتُ. «وأنا أيضاً. لا أنفكُّ أنتظر أن يتحوّل إلى وحشٍ أو شيءٍ من هذا القبيل». قلتُ ذلك وارتجفتُ إذ تذكرت ما كشفتْه لي أمّي عن أبي في مطعم بلومينغديلز قبل أربع سنوات.

- «لن يفعل»، قالت هوما.

- «كيف يمكنكِ أن تكوني متأكدة لهذه الدرجة؟ أنا لا أقول إنّه مثاليٌّ تماماً الآن. صدّقيني، لن ترغبي في الذهاب إلى الحمّام بعد أن يكون فيه، أؤكد لك ذلك! الرجل يعاني مشاكل فظيعة في الأمعاء!».

ضحكتْ هوما. «دعي المزاح جانباً، عرفتُ أنّه سيكون مناسباً لك. ألم أخبرك بذلك؟ حين نظرتُ في عينيه في ذلك المقهى في الجبل، أخبرتك أنّني رأيتُ السعادة».

- «لقد فعلتِ».

- «وكم يسعدني أنّني كنتُ محقة. أعني، لقد وافق الرجل على أن تستضيفا ابنتي هنا! هذا النوع من الناس - الناس الطيبون بحقّ - عملةٌ نادرة جدّاً. لقد كنّا محظوظتين، أنا وأنتِ».

جلستُ معتدلةً في مقعدي. «نعم. عبدول أيضاً. كان جوهرةً حقيقية».

كان موته يحوم حولنا في الغرفة. ورأيتُ مقالات الصحيفة عن حريق سينما ريكس ماثلةً أمام عينيّ من جديد. جلسنا نحن الاثنتين نعاين في صمت علبة رش السكر على الطاولة أمامنا.

كنتُ بحاجةٍ إلى توضيح الأشياء مع هوما أكثر من أيّ وقتٍ مضى. لذا جرّبتُ تكتيكاً مختلفاً. «أتعلمين، هوما جون؟»، قلتُ لها، «كنتُ أقرأ في مجلةٍ تسمّى ذي **أتلنتيك** مقالاً عن طائر الفينيق. وقد ظهر اسمك فيها».

- «اسمي؟».

- «نعم، اسمك، هوما. الطائر من الأساطير الفارسية».

- «دعينا نرى»، قالت هوما. «هل فهموا الأمر على نحوٍ صحيح؟ هل يعرفون أنّ طائر الهوما ذاك لا يهبط أبداً؟ وأنّنا نحن معشر الهوما نقضي حياتنا كلها فوق الأرض؟».

- «نعم، لقد غطّت المقالة هذا الجانب. وذكرتْ أيضاً أنَّ طائر الهوما هو أكثر الطيور شفقةً ورحمة. إنّه يغدق الحظ السعيد على كلِّ من يلمسه. وأنا...».

- «أنتِ ماذا؟».

- «أعتقد أنَّ هذا ينطبق عليك بالكامل».

كنتُ على وشك أن أشرع في الشرح والاعتذار حين لوّحت هوما بذراعها فجأة في اتّجاه إبريق الشاي الذي يجثم متوازناً فوق غلّاية غير مغطّاة على الموقد، وقالت: «مرحباً! كان لدينا في ما مضى إبريقٌ يشبه هذا تماماً». افترَّ ثغرها عن ابتسامةٍ عريضة.

- «أعرف ذلك. حين رأيتُه في أحد المتاجر هنا، كان لزاماً عليَّ أن أشتريه». نهضتُ عن مقعدي. لم يكن مقدَّراً لهذه المحادثة أن تحدث بسهولة ودون عوائق. صببتُ لنا كوبين من الشاي.

إذ ناولتُ هوما كوبها، رفعتْه ببطء، متصنِّعةً أنّه كان ثقيلاً جدّاً. «هذه الأواني الهائلة أمريكيةٌ جدّاً!». أخذتْ بضع رشفات، ثمَّ قالت بنبرةٍ أكثر هدوءاً، «كيف لي أن أتمكن من شكرك كفاية، يا إيلي؟».

عدتُ لأجلس قبالتها. «إنّه مجرد كوب شاي».

- «تعرفين ماذا أقصد؛ لاعتنائك بابنتي».

- «كنتِ ستفعلين ذات الشيء»، قلتُ لها. «لو انقلبت الأدوار»، قلتُ هذا الجزء الأخير متمتمة. ما كانت لتدرك كيف بذلنا أنا ومهرداد كلّ ما في وسعنا كي ننجب الأطفال. كان جانبٌ كبير من حياة كلٍّ منا قد أصبح مبهماً في عينيّ الأخرى.

نظرتْ هوما من النافذة. كانت الأشجار في شارع يورك الآن في كامل ألقها الأخضر. كان الوعد بالصيف في كل مكان.

لم يكن بوسع بَهار العودة إلى إيران الآن، ليس في خضمّ حربٍ دامية. لقد اجتهدت كثيراً في دراستها، ونجحتْ في نيل قبول في جامعة كوينز. هل ستوافق هوما على السماح لنا بدفع تكاليف دراستها هناك؟ كان ثمّة الكثير ممّا علينا أن نناقشه، ونكتشفه. لكنّني

كنت مدينة لهوما بتفسيرٍ للأذى الذي ألحقتُه بها عندما كنا لا نزال طالبتين في الجامعة.

- «هوما، أحتاج أن أعتذر لك».

أعتمَ وجهها. «بلند شو! انهضي!»، قالت لي. «كفاك من هذا الإحساس بالذنب والعودة إلى الماضي. هل ستأخذينني في جولةٍ أم ماذا؟ أنا سائحةٌ في مدينة نيويورك! وبَهار في المدرسة. دعيني أرى مدينتك هذه!».

- «لكننا نحتاج أيضاً أن نتحدث بخصوص ——».

- «باسه! كفى! دعينا نستمتع بهذا اليوم. أريني مدينتك. أنا لكِ بالكامل».

تذكّرتُ كيف كنتُ أجوب الشوارع بمفردي في الأيام الأولى لانتقالنا إلى نيويورك، متمنّيةً من كل قلبي لو أحظى بصديقتي القديمة إلى جانبي، لأتشارك معها المناظر والأصوات. والآن، ها هي هنا. مرّتْ خمس سنواتٍ تقريباً منذ أن كنتُ تلك المهاجرة التي يعييها الحنين إلى الوطن. لكنّها كانت هنا الآن. معي، حتى ولو بصورةٍ مؤقتة.

يمكن لاعترافي أن يتحيّن الفرصة المناسبة. كان علينا أن نستغلّ هذا اليوم على أفضل وجه. On doit profiter!. سمعتُ أمّي وهي تقتبس بالفرنسية. كانت لديّ قائمةٌ جاهزة بالأماكن الواجب رؤيتها.

- «أين تودّين الذهاب أوّلاً، هوما جون؟».

- «أين تقترحين؟».

وضعتُ الأطباق في حوض المغسلة. ساعدتني هوما. «حسنٌ، حين أتت أمّي لزيارتنا، أخذناها إلى مبنى إمباير ستيت. دائماً ما يرغب الجميع في رؤيته. وفندق بلازا. إنّه بالغ الفخامة! هناك أيضاً

F.A.O. Schwarz، وهو متجر ألعاب هائل على الجهة المقابلة من فندق بلازا في الجادة الخامسة؛ ألعابٌ لم تري مثيلاً لها في حياتك! **ديدانيه**، إنّه يستحقُّ المشاهدة. وبالطبع يمكننا أن نتنزّه في سنترال بارك. يسعدني أيضاً أن أصطحبك إلى بلومنغديلز، حيث أعمل. يمكنك أن تجرِّبي الزبادي المجمّد هناك. وبالقرب من بلومينغديلز، يمكنك أن تجربي أفضل شوكولاتة ساخنة في سيريندييتي. ويمكننا أيضاً أن نزور المتاحف. وأن نتفقد المعرض الجديد في الميتروبوليتان. . .».

ابتسمتْ هوما بخجل، وقالت: «هل تعلمين إلى أين أودُّ الذهاب حقّاً، يا إيلي؟».

- «إلى أين؟».

- «المكتبة».

- «ماذا؟».

- «المكتبة الكبيرة ذات الأسدين الضخمين اللذين يحرسان بوّابتها. لقد قرأتُ الكثير عنها».

هبّتْ نسمات لطيفة بينما كنّا نسير على طول الجادة الخامسة باتجاه الشارع 42. لم يكن الصيف قد حلَّ رسميّاً بعد، لكنَّ إشارات الصيف كانت في كلِّ مكان. فقد خرجتْ عربات بيع الآيس كريم الإيطالي إلى الشوارع بالفعل. وبدأ الناس يكشفون أجسادهم بارتداء قمصانٍ بلا أكمام وسراويل قصيرة.

- «التفكير في أنّكم جميعاً ترتدون مثل هذه الملابس هنا يبدو غريباً جداً»، قالت هوما. «لقد اعتدتُ أن أكون مغطّاةً بالكامل. لا

يسعني إخبارك كم مرّ من وقت مذ شعرتُ بأشعة الشمس تلامس شعري».

نظرتُ مجدّداً إلى كنزتها ذات المربعات الحمراء والبرتقالية وبنطالها الجينز وشعرها المنسدل؛ خياراتٌ بسيطة باتت محظورة في ما أصبحتْ عليه إيران اليوم. كنتُ أرتدي تنورة قطنية وقميصاً أبيضَ. يمكن للباسٍ كهذا في مسقط رأسي أن يتسبَّب لي بالجَلْد علناً، وحتى الاعتقال.

شبكتُ ذراعي بذراع هوما، وقلتُ لها: «هيا بنا». مشينا معاً بسرعة حتى وصلنا إلى مكتبة نيويورك العامة. نظرنا إلى المبنى الضخم بأعمدته عتيقة الطراز، ودرجات الغرانيت المفضية إلى المدخل. كان ثمّة أسدان حجريان يجثمان فوق قاعدتين حجرتين على جانبي الدرج. كانا يبدوان شامخين ومهيبين.

- «هل تعلمين»، قالت هوما، «أنّه في بدايات هذا القرن، أُطلِق على هذين الأسدين اسم ليو أستور وليو لينوكس على التوالي، تيمّناً باسم مؤسِّسَي المكتبة؟». نطقتْ أستور مثل **أستووور**، ولينوكس مثل **لينووكس**. «لاحقاً، وأثناء فترة الكساد العظيم، أطلق عمدة نيويورك على هذين الأسدين اسم الصبر والجَلَد، لحثِّ الناس على امتلاك هذه الصفات في الأوقات الصعبة. هل كنتِ تعلمين ذلك؟».

لم أكن أعلم شيئاً من هذا. «أنتِ في مدينتي منذ أقل من يوم واحد، وها أنتِ تعطيني دروساً عنها. كيف تعرفين كلَّ ذلك عن هذا الأمر؟»، قلتُ لها.

- «لأنّني قرأتُ عنه... في مكتبة!»، شقشقت ضاحكة. «هل فهمتِ؟».

- «فهمت»، قلتُ لها وأحكمتُ تطويق ذراعها بذراعي. «هوما،

هل تتذكرين عندما كنا نقول إنّنا سنصبح من النساء الأُسود؟».

- «شير زن»، قالت هوما. «بالطبع أتذكّر ذلك».

- «أنتِ بالتأكيد واحدةٌ منهنّ».

- «أنتِ أيضاً، يا إيلي. لا تقللي من شأن نفسك أبداً»، قالت هوما.

انكمشتُ وأنا أفكر في ما لم تكن تعرفه عن دوري في اعتقالها.

- «هيّا بنا! فلندخل!»، قالت لي.

صعدنا الدرجات بيدين مشبوكتين. إذ دخلنا المبنى، كانت القاعة الرخامية الكبيرة هادئة وباردة. لحسن الحظ، لم يكن هناك الكثير من الزوار. تجوّلتْ هوما في القاعة بوجهٍ متورد. وبينما وقفتُ أشاهدها وهي تنظر نحو السقف العالي وتتفحص كل زاويةٍ بعناية، أدركتُ أنَّ هذا مكانٌ مقدّس في نظر هوما. ربّما أكثر من أي معبد يمكن أن يوجد يوماً.

دنتْ مني وهمستْ قائلة: «هل تعلمين، يا إيلي، أنه في أيامي الأولى بعد... خروجي، أنقذتني ثلاثة أشياء؟».

تلك كانت المرة الأولى منذ وصولها التي تلمح فيها إلى الوقت الذي قضته في السجن. حبستُ أنفاسي. يمكنني أن أعترف لها الآن وهنا، في هذه القاعة المقدّسة، لكنَّ هوما مضت في حديثها. «بالطبع، أنقذتني عائلتي. وأنا جدُّ ممتنّةٍ لهم. والمشي أيضاً أنقذني. كنتُ أمشي مسافة كيلومترات في اليوم الواحد، كنتُ أمشي وحسب. ساعدني ذلك في تنظيم أفكاري، والتوصل إلى ترتيبات خاصةٍ بي. أما الشيء الثالث الذي أنقذني؟ هل تعرفين ماذا كان؟».

- «ماذا؟»، همستُ، حريصةً ألّا أقطع دفق أفكارها أثناء الاعتراف.

- «إنّها الكتب. كنتُ أقرأ وأقرأ. ذهبتُ إلى المكتبة قدر ما استطعت. وإلى متاجر بيع الكتب. كنتُ أتوه في الكتب، وأنسى نفسي تماماً. هل تعلمين أنّه يمكن للكتب أن تشفيك؟ لقد ساعدتني على ترميم الخراب الذي حلَّ بي».

«حسنٌ إذاً»، قلتُ لها. «ثمّة مكتبة أخرى يجب أن أصطحبك إليها بعد هذه. أراهن أنّها مكتبةٌ لم تقرئي عنها حتى!».

ركبنا الحافلة إلى جادة ماديسون. وإذ دخلنا مكتبة بيير بونبت مورغان، كان انبهار هوما بجمالها من الداخل هو كلُّ ما احتجتُ إليه. أخذتْ تتفحّصُ صناديق الكتب العتيقة والمخطوطات القديمة والرسائل في صمتٍ مطبق. داخل هذه القاعات، كانت الأجواء مريحة وساحرة. شيءٌ ما في رائحة المكان ذكّرني برائحة مطبخ هوما القديم، وكيف كنّا نهبط تلك الدرجات إلى السحر الكهفيّ لذلك المكان. والآن ها نحن ذا، داخل مكتبة مليونير فاحش الثراء.

- «هل تعلمين أنَّ الشخص الذي أطلق هذه المكتبة هو جيه بي مورغان؟ قطب السكك الحديدية الشهير الذي تمكن من جمع ثروةٍ طائلة»، قلتُ لها.

- «من الجيد معرفة أنه يمكن أن ينجم بعض الخير من ثروةِ رأسماليٍّ»، تمتمتْ هوما.

- «هوما، أنتِ لم تعودي شيوعية، أليس كذلك؟».

ضحكتْ. «لا. بالتأكيد لا. كنتُ شيوعيّةً أيام الجامعة، وانتهى الأمر عندها. لقد تخلّيتُ تماماً عن أنشطتي الشيوعية بعد... خروجي».

- «لكنّكِ لا تزالين نشطةً جدّاً سياسياً؟»، قلتُ همساً، لأنّنا كنّا

في مكتبة، وأيضاً لأنّني اعتدتُ أن أخفض صوتي كلما كان ثمة نقاش عن نشاطٍ سياسيّ، حتّى بعد ما يقرب من خمس سنوات في الولايات المتّحدة.

- «نعم»، قالت هوما. «نشطةٌ جدّاً. لكنَّ تركيزي ليس على الشيوعية. ليس على الرأسمالية. ما يهمّني، يا إيلي، أكثر من أيٍّ شيء هو الديمقراطية. وحقوق المرأة. هذا ما تركّز عليه المنظمة التي أطلقتُها».

رشقتنا امرأةٌ أكبر سنّاً بنظرة انزعاج من همسنا، فصمتنا في الحال.

أخذتُ هوما إلى «غرفة الشرق». وقفتْ ساكنة، تتأمّلُ كل الكتب، والسقف المزين بأوراق الذهب، والسجّاد الفارسيّ.

حالما خرجنا من هناك، التفتت إليَّ وقالت بغير همس: «أليس هذا عجيباً، يا إيلي؟ بغض النظر عن المكان الذي تذهبين إليه أو أيّاً تكن المسافة التي تقطعينها حين تسافرين، حين تكونين في مكان يتّسم بالأبّهة والأهمية، ستكون الأرضية مغطاة بسجادٍ من بلادنا؛ العمل الفنّي المميّز لأرض أجدادنا. وهو ما يعني حقّاً أنّكِ تكونين في كل هذه الأماكن مع نتاج عمل النساء الإيرانيات».

فكّرتُ في السجاد الذي رأيناه في غرفة الشرق في تلك المكتبة المذهلة؛ في تلك التشكيلات الهندسية التي أعرفها جيداً. الأشجار والزهور والتصميمات المعقدة التي بدت مألوفةً لي وكأنّها الوطن.

- «لا يهم من الذي يملك ورش صنع السجاد»، تابعت هوما. «النساء هنَّ من يشتغلن العُقد، والنساء هنَّ من ينسجن. فنُّ النساء الإيرانيات منتشرٌ في جميع أنحاء العالم. عملهنّ موجودٌ في كلّ مكان».

لم أفكّر في الأمر على هذا النحو من قبل. لكن كان هذا ديدن صديقتي دائماً وأبداً؛ تجعلني أرى أصغر الأشياء بطريقةٍ لا تعود معها تلك الأشياء صغيرة بحالٍ من الأحوال. كانت تعطي معنىً لما كان ليكون بلا معنىً في نظر الغالبية الساحقة.

هذا ما كنتُ أفتقده. كنتُ أفتقدها. صحبتها. رؤيتها الفريدة للأمور. أفكارها العشوائية وخواطرها. عقلها.

شبكتُ ذراعي بذراعها مجدّداً، ممتنَّةً كلّ الامتنان لوجودها. وبأنانية، أردتُ ألّا أفسد هذا اليوم باعترافٍ قد يجعلها تكرهني. كان عليَّ أن أنتظر الوقت المناسب لذلك - كنّا نملك الوقت. «أين يمكنني اصطحابك لتناول الغداء؟»، سألتُها.

- «هل تعلمين ما أرغب به حقّاً؟»، قالت هوما. «شطيرة هوت دوغ الشهيرة خاصتكم في نيويورك. لقد رأيتُ تلك العربات في جميع الأفلام والكتب».

شققنا طريقنا عبر الشارع إلى عربة هوت دوغ يديرها رجلٌ في منتصف العمر يبدو وكأنّه خرج من البازار الكبير في طهران. طلبتُ شطيرتين من الهوت دوغ مع مخلل الملفوف والخردل ودفعتُ ثمنهما، متجاهلةً كل توسلات هوما أن أسمح لها بالدفع.

جلسنا على حافّةٍ قريبة، وبدأنا نلتهم شطيرتي الهوت دوغ.

- «والآن أخبريني»، قالت هوما. «ما قصة حفل التخرج الذي لا تنفكّ بَهار تتحدث عنه؟ ظلّت تثرثر طوال الليل وهي تشرح لي عن فساتين السهرة وباقات الزهور. إنّه تقليدٌ أمريكي، أليس كذلك؟ وماذا عن الحفلة التي تصر على الذهاب إليها بعد ذلك؟ أعتقد أنّه يجب أن نسمح لها بذلك. دعي الفتاة تعيش!».

44

يونيو 1982

بَهار

تدخل بَهار بهو المبنى السكني الراقي في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة، وتخبر البوّاب باسمها. هو ليس نفس الشخص الذي تعرفه من مرّاتٍ سابقة كانت فيها هنا. يتفحّصها من أعلى لأسفل بعينيه المتمركزتين أسفل قبعة تشبه تلك التي يضعها كابتن الطائرة ويقول: «أنتِ ذاهبة إلى منزل آل كاتلر؟».

- «نعم»، تقول وهي تحاول أن تبدو سلسة وأمريكية، آملةً ألّا تكون لكنتها فجّةً جدّاً. «منزل آل كاتلر. ماديسون كاتلر».

في حقيبةٍ كانت لوالدتها، تحمل بَهار هديّةً لوالدة ماديسون: رمّانة خزفية يمكن وضعها كقطعة زينة على الرف. تأمل بَهار أنَّ السيدة كاتلر ستحبُّ هذه الهدية. كانت بَهار قد التقتْ بالسيدة كاتلر بضع مرات من قبل؛ وهي طويلةٌ جدّاً ونحيلةٌ جدّاً. تضع السيدة كاتلر كحل عينٍ داكن، وتبدو ضجرةً على أروع نحوٍ ممكن. قالت ماديسون إنَّ والدتها تعمل في دارٍ للمزادات. كانت تبيع أشياء قديمة باهظة الثمن لأشخاصٍ يحبون اقتنائها.

حين تخرج بَهار من المصعد وتتجه إلى شقّة ماديسون - الشقة التي أتت إليها من قبل سبع مرات بالضبط، للدراسة والتسكّع وقراءة مجلة **تايغر بيت** والثرثرة عن بريت روبنسون وابتسامته الساحرة - تسمع موسيقى صاخبة قادمة من خلف الباب.

تقرع بَهار جرس الباب. ربّما ستفتح لها والدة ماديسون. والد ماديسون يعيش في نانتاكيت، حيث يؤلِّف كتباً عن الرؤساء السابقين. والداها مطلقان، لكن وفقاً لماديسون، «إنّه طلاقٌ ودّي». كان على بَهار أن تخرج قاموس ميريام-وبستر السميك لتبحث عن معنى كلمة «ودّي». كانت بَهار قد التقت بوالد ماديسون ذات مرة عندما كان في الشقة يتحدّث إلى والدة ماديسون. بدا رجلاً لطيفاً، بشعرٍ رمادي كثيف، وسترةٍ على مقاسه تماماً، وحذاء جلديّ مسطّح - فوجئتْ بَهار لملاحظة عملة معدنية من فئة البنس كانت مدسوسة في الجزء العلوي منه.

هذه الليلة، ماديسون هي من يفتح الباب على وقع ضجيج الموسيقى الصاخبة. إنّها ترتدي قميصاً أبيض بلا أكمام، وسروالاً قطنياً قصيراً جدّاً من طرازٍ يدعى «ديزي دوكس»، كان على بَهار أن تبحث عنه في قاموس ميريام-وبستر أيضاً.

تشعر بَهار بسخونةٍ في وجهها. «لقد غيّرتِ ملابسك»، تقول لماديسون.

- «بالطبع، لقد غيرتُها، أيتها الحمقاء!»، تصرخ ماديسون أعلى من صوت الموسيقى. «الجميع غيّروا ملابسهم. اعتقدتُ أنَّ هذا ما كنتِ تفعلينه أيضاً حين عدتِ إلى المنزل بعد حفل التخرج».

تبتسم ماديسون بلطف وتقود بَهار إلى داخل الشقة. الأجساد تملأ المكان - أولادٌ يرقصون ويغنّون ويتحرّكون على أنغام أغنية

Don't you want me لفرقة The Human League. كان الهواء يفوح برائحة شيءٍ أقرب للخميرة المخرّشة للأنف. كانت ثمة أيضاً رائحةٌ غريبة جدّاً تشبه رائحة الظربان. على الأقل، كانت بَهار تعرف هذه الأغنية؛ لقد شغَّلتْها مراراً وتكراراً على مشغِّل الأشرطة من نوع باناسونيك الذي أهداه لها العم مهرداد والخالة إيلي بمناسبة رأس السنة الفارسية.

عندما قالت ماديسون إنّها سوف تستضيف حفلةً بعد حفل التخرج، تخيّلتْ بَهار حفلةً راقية، مع شرائح البرتقال وشراب البنش ربما. كانت تعرف ما هو البنش، وقد شربت منه في تجمّعات أمريكية أخرى. ذكرتْ ماديسون أنّه سيكون هناك الكثير من الناس، لكن بَهار لم تتخيل أن يحضر هذا العدد الكبير. ماديسون تتمتع بشعبية كبيرة، وهي جزء من الدائرة الضيقة لأصحاب النفوذ والتأثير في المدرسة. لكن لمَ دعت الكثير من الناس؟ يبدو أنَّ كلَّ شخصٍ من مدرستهم الثانوية موجود في حفلة ماديسون، والجميع يرتدون سراولَ قصيرةً وكنزات بلا أكمام والجينز والقمصان. لم يأتِ أحدٌ إلى حفلة ماديسون بملابس حفلة التخرج. باستثناء بَهار.

- «لقد عدتُ إلى المنزل بالفعل!»، تصرخ بَهار أعلى من صوت الموسيقى، رغم أنّها ترغب في تمرير هذه المعلومة بهدوء. «عدتُ إلى المنزل لأستريح وأستعيد نشاطي. اعتقدتُ... اعتقدتُ أنّنا سنبقى جميعاً مرتدين ملابس حفل التخرج».

- «يا إلهي، أعتقد أنّه من الرائع أنّكِ لا تزالين مرتديةً فستانك! تبدين فاتنةً جدّاً! لا تقلقي! ستحظين بوقتٍ ممتع أيّاً كان ما تلبسينه!». تأخذ ماديسون بيد بَهار. يدُ ماديسون ناعمة لأبعد الحدود. شَقّان طريقهما عبر الحشد في غرفة الطعام وصولاً إلى

غرفة المعيشة، حيث المزيد والمزيد من الأولاد يرقصون، والبعض منهم - لصدمة بَهار - يتبادلون القُبل. «ماذا يمكنني أن أحضر لكِ لتشربي؟ عبوة Bud؟»، تسأل ماديسون.

ما هذا الـ Bud؟ لكن قبل أن تتمكّن من الإجابة، تختفي ماديسون، وتتمنى بَهار لو أنّها تختفي أيضاً.

إنّها ترتدي فستاناً طويلاً من قماش التفتا مع عقدة وردة كبيرة في الخلف وأكمام منفوخة. كانت والدتها وخالتها إيلي قد أبدتا إعجابهما الشديد بفستان حفل التخرج هذا الذي كان معروضاً في بلومنغديلز، حيث استفادت الخالة إيلي من الخصم الخاص بالموظفين لشرائه. ومع ذلك، فقد غمغمت والدتها شيئاً من قبيل أنَّ هذا الفستان يكلّف أكثر من راتب شهر كامل لموظف إداري في إيران. لكنَّ كلتا المرأتين أرادتا لها أن تستمتع بحفل التخرج، حتّى أنَّ الخالة إيلي وافقت في نهاية المطاف على أن تذهب بَهار إلى الحفلة التي تعقب حفل التخرج في منزل ماديسون، لكن فقط لأنَّ والدتها أصرّت على أن تذهب بَهار. كانت هذه الأخيرة تشعر بالذنب لترك والدتها أثناء زيارتها لها؛ هي التي تجشّمت عناء القدوم من إيران لرؤيتها، لكنّها مجرّد ليلة واحدة، أليس كذلك؟ كما أنَّ والدتها فهمت جيداً أنَّ هذه كانت الفرصة الأخيرة للطلاب كي يحتفلوا معاً كزملاء صف. ففي الخريف، سيكونون جميعاً في جامعاتهم.

تجلس بَهار على الأريكة المخملية بلون الخردل في غرفة المعيشة في منزل ماديسون. تبدو الغرفة معتمة أكثر من المعتاد لأنَّ الأضواء الرئيسية مطفأة، وفقط بعض المصابيح التي توضع على الطاولات كانت مضاءة. ثمّة فتاةٌ ربطتْ شعرها بعقدة ذيل الحصان

وصبي يرتدي سترة كرة القدم يتبادلان القبلات على الجهة الأخرى من الأريكة. تخيّلوا أنّها غادرت المبنى الذي أقيم فيه حفل التخرج وقفلتْ راجعةً إلى المنزل فقط كي تعيد تصفيف شعرها بمساعدة من أمّها والخالة إيلي، ليبدو حتى أكثر تكلّفاً من ذي قبل. يا لها من حركةٍ تليق بمهاجرةٍ نزلت لتوّها من المركب! تمتمتْ والدتها بلا توقّف كلاماً بشأن كونها لا تحب الحفلات البرجوازية، لكنّها قالت أيضاً، بقدر لا بأس به من الفخر، إنّها تريد لابنتها أن تعيش، أن تعيش، أن تعيش.

لأنَّ أولئك الأوغاد القائمين على حكومتنا في إيران يريدون لفتياتنا أن يذوين حدَّ التلاشي. لا رقص للنساء. لا غناء. لا متعة. اذهبي، يا بَهار جون. اذهبي واستمتعي بوقتك!

- «انتبهي لنفسك!»، قالت الخالة إيلي لبَهار حين أوصلتْها مع والدتها إلى مبنى ماديسون لحضور هذه الحفلة؛ حفلةٌ تخيلتْ أنّها ستكون راقية و. . . ليست شيئاً كهذا.

- «ها أنتِ ذا!». تعود ماديسون وتناول بَهار عبوةً معدنية حمراء وزرقاء وبيضاء اللون. «هذه لأجلك».

تدوِّر بَهار العبوة في يدها. وفي الغرفة خافتة الإضاءة، تميِّزُ كلمة بدوايزر (Budweiser) المكتوبة بخطٍّ مائل أنيق. هذه بيرة؛ هذا كلُّ ما تعرفه. ولا ينبغي لها أن تشربها. كانت قد شربت البيرة مرة واحدة فقط من قبل، في حفلة عيد ميلاد ماديسون، وأمام والدة هذه الأخيرة. يومذاك، تمتمت والدة ماديسون شيئاً من قبيل: «أن تفعلي ذلك أمامي أفضل من أن تفعليه من وراء ظهري».

- «شكراً ماديسون»، تقول بَهار. «أين أمّك؟».

يبدو على ماديسون الارتباك، لكنّها ترجع إذ ذاك رأسها إلى

الخلف وتضحك قائلة: «أمّي؟ يا إلهي كم أنتِ لطيفة، يا بَهار. أمّي بعيدةٌ بالطبع. لمَ قد تكون هنا؟ اشربي واستمتعي بوقتك. ثمّة المزيد من هذا هناك»، تشير ماديسون إلى الجهة البعيدة من الغرفة حيث وُضعت مختلف أنواع العبوات والزجاجات على طاولة. «ولديَّ أيضاً بعض الأشياء الجيّدة، تعلمين أنّكِ تستحقينها، لذا سأعود إليك لأجل هذا».

تختفي ماديسون مجدداً. كان الثنائي على الطرف الآخر من الأريكة قد أصبحا مستلقيين جزئياً الآن، والفتاة تفرك جسدها بجسد الصبي أسفل منها. تخفي بَهار حقيبة والدتها العتيقة. مكانها ليس هنا؛ ليس في حفلةٍ كهذه. داخل تلك الحقيبة، تقبع الرمانة الخزفية التي أحضرتْها هديّة لوالدة ماديسون. لم تفهم. لم تفهم منذ البداية ماهيّة هذه الحفلة.

كان ابتلاع البيرة أمراً شاقاً، لكنَّ بَهار تجبر نفسها على ذلك، واعدةً نفسها أنَّ المذاق سيتحسن كلّما شربت أكثر. في مرحلة ما، يناولها أحدهم عبوةً ثانية. (هل هي الفتاة ذات عقدة ذيل الحصان التي كانت على الأريكة، وقد تخلّصت من ذاك الصبيّ الآن؟ ربّما تكون هي). أمّا العبوة الثالثة، فكان من دواعي سرور ماديسون أن تعطيها لها. بعد ذلك، تصدح من جهاز الستيريو أغنية ريك سبرينغفيلد «لا تتحدّثي إل الغرباء»، فتصرخ ماديسون وأخريات متحمّسات. ثمّ أغنية أخرى لريك سبرينغفيلد «أيُّ نوعٍ من الحمقى أنا»، فتجرُّ ماديسون بَهار إلى حلبة الرقص وسط غرفة المعيشة.

لم يسبق لها أن أحسَّتْ بأطرافها على هذا النحو. الأمر أشبه بسائلٍ فوّار يسبح في ذراعيها وساقيها. تشعر برأسها خفيفاً على نحوٍ غريب، ومتحرّراً من قيوده أخيراً. تلاحظ بَهار تفاصيل في شقة

ماديسون لم تكن قد لاحظتها من قبل. النحت المعقّد والدقيق لقناعٍ آسيوي معلّقٍ على الحائط. الكيفية التي يتجعّد بها نمط النقوش على الأريكة المخملية الصفراء تشبه تجعّد شعر والدتها. ذراعا ماديسون الجميلتان - طويلتان ونحيفتان بينما تتثنّيان فوق رأسها وهي ترقص. وتلاحظ بَهار لأوّل مرة أنَّ **بإمكانها** الرقص على الطريقة الأمريكية. بإمكانها أن تتحرك مثل هؤلاء الأولاد. ليس عليها أن تكتفي بهزّ وركيها على الطريقة الفارسية. لكنّها إذ تهزّهما بتلك الطريقة، تطلق ماديسون صيحةً عالية لدرجة أنَّ بَهار تتوقف للحظة عن الرقص. «يا إلهي! لا تتوقفي - إنّه أروع شيءٍ رأيتُه على الإطلاق. ارقصي، يا بَهار! ارقصي!».

سوف ترقص طوال الليل. هي ترقص مع ماديسون والفتيات الأخريات، وحتى مع بريت روبينسون لبضع لحظات. حسنٌ، ليس معه بالتحديد، لكنّه في محيطها العام بينما هي ترقص. لم تذهب بَهار إلى حفل التخرج مع رفيق. لكن ذلك لم يكن بالأمر الجلل.

لقد ذهبت مع أصدقائها إلى حفل التخرّج، وكانت ماديسون لطيفةً جدّاً، لطيفةً جدّاً جدّاً لدعوتها إلى هذه الحفلة. لكن الحق يقال، الآن وقد أصبحتْ هنا، يمكن القول إنَّ قائمة الضيوف لم تكن انتقائيةً حقّاً. مع ذلك، هي هنا الآن. مثل كل الأولاد الآخرين. وهي تشرب البيرة. لقد شربت ثلاثاً حتى الآن، وربّما أربع. تبدو معرفة الرقم الدقيق صعبة على نحوٍ غريب.

يبدو أنَّ رائحة الظربان لم تكن صادرةً عن ظربان. بل عن نوعٍ من المواد الشبيهة بالأعشاب، والتي تسمّيها ماديسون «حشيشاً» ويسمّيها بريت روبينسون «عشباً»، ويلفّونها داخل قطعٍ من الورق، ثمَّ يدخنونها مثل السجائر. تستنشق بَهار الـ «جوينت»، السيجارة

الحشيش حين تعرض ماديسون عليها واحدة. طعمها مقزّزٌ تماماً، لكنّ بَهار تتظاهر بأنّها ليست كذلك. ثمّة أيضاً مسحوقٌ أبيض يظهر على طاولة القهوة في غرفة المعيشة، وسط احتفالاتِ الضيوف.

لا أحد يأكل شرائح البرتقال المقطَّعة. في الواقع، ولدهشتها، لم يكن هناك سوى القليل جدّاً من الطعام باستثناء بعض كرات الجبن المنفوشة داخل وعاءٍ مهمل في زاوية بعيدة. وإذ تمشي مترنّحة إلى ذلك الوعاء، وتضع قطعةً من الجبن في فمها، يذكِّرها الطعم بكرات جبن **بفك نمكي** الشهيرة التي اعتاد والدها أن يشتريها لها من متجر البقالة عند الزاوية، ليس بعيداً عن مبنى الطوب الأصفر في طهران. إذ تقف محشورة بين أجساد هؤلاء المتعرّقين في غرفة المعيشة في منزل ماديسون، وتتذكر عطف والدها وكرمه، وكيف احترق داخل دار سينما في فعل عنف لا يمكن تصوّر وحشيته؛ فعلٌ لا يمتُّ للعدل والإنصاف بأيِّ صلة، تأخذ بَهار علبة بيرة أخرى (رقم خمسة؟ أو ستة؟) من على الطاولة وتشربها. ثمَّ تلتقط كوباً يحتوي سائلاً بلون ذهبيٍّ داكن وتجبر نفسها على ابتلاعه. رائحته تشبه رائحة الكيروسين. تتذكرُ كيف فُرض التقنين على الكيروسين أثناء الحرب. لا يزال هذا التقنين قائماً. هل ستضطر والدتها للعودة إلى تلك الحرب؟ ألا ينبغي أن تعود بَهار مع والدتها؟ تلتقط كأساً آخر مملوءاً بسائلٍ شفاف. طعمه أشبه بالعرق النتن ممزوجاً بالبطاطس المتعفنة. تشربه بَهار بالكامل.

في مرحلة ما، صرن في المطبخ. الأضواء ضبابية. تصعد ماديسون وبضع فتياتٍ أخريات فوق المنضدة، ثمَّ فوق الموقد، ويبدأن الرقص هناك. سقف هذا المطبخ مرتفعٌ جدَّاً، حتّى أنَّ رؤوسهن لا تطاله. يطأنَ بأقدامهنّ رؤوس الإشعال، فتفكّر بَهار في

والدتها، وفي الوجبات التي كانت تطهوها على موقدهما في شقّتهما في طهران، كيف كانتا تقفان جنباً إلى جنب أمام ذلك الموقد، وتطبخان. تفكّر كيف كانت والدتها تقرأ لها القصص المصوَّرة في ذلك القبو عندما كانت القنابل تسقط على طهران، رغم أنّها كانت في الخامسة عشرة، ثمَّ في السادسة عشرة، ثمَّ في السابعة عشرة. تفكّرُ في الحرب، تلك الحرب التي لا نهاية لها بين إيران والعراق. فتشرب المزيد.

لقد ناضلت والدتها باستمرار من أجل حقوق النساء. شاركتْ في المسيرات في الشوارع دعماً لحقوقهنّ، واصطحبتْ بَهار معها. والدتها تهتمّ كثيراً، تهتمُّ كثيراً ولأبعد الحدود بحرية المرأة. كانت والدتها قد اختفتْ؛ اختفت مرّةً لأشهر، لتجنب أن تُعتقل وتزجَّ في السجن مرةً أخرى. كانت بَهار تطبخ؛ تطبخ لها ولوالدها عندما كان هذا الأخير لا يزال على قيد الحياة، ثمَّ لها فقط عندما كانت والدتها متخفّية. صحيحٌ أنَّ الخال علي رضا وزوجته كانا يطمئنان عليها ويصرّان على بقائها معهما بينما والدتها «بعيدة»، لكنّها لم ترد أن تكون مع الخال علي رضا وزوجته. أرادتْ أن تكون مع والدتها، والدتها ووالدها. والدها الذي لا ينبغي أن يكون ميتاً.

تشرب بَهار المزيد. السائل الذهبي الداكن. ثمَ الشفاف النتن. ثمَّ الآخر.

كان أحدهم قد أحضر دفّاً. وأحدهم سلّمَ الدفَ إلى ماديسون، وها هي تضرب عليه وتنقره وتهزّه. كانت بَهار تعتقد أنَّ الدفوف موجودةٌ فقط في قصص آرتشي المصورة، في قصص آرتشي المصورة مع فرقة فتيات تدعى جوزي آند ذا بوسي كاتس. أم كانت هذه قصةً مصوّرة أخرى؟

رأسها يؤلمها. لم يعد خفيفاً وحرّاً الآن. الأمر كما لو أنَّ أحدهم أقحم قضيباً معدنياً خلف عينها وأخذ يطرقه، ويطرقه، ويطرقه. تضعف ساقاها. ماذا سيحدث في الخريف؟ ستلتحق ماديسون بجامعة ييل. أي أنّها ستكون شمال ولاية نيويورك. أو لحظة، هل جامعة ييل في ولايةٍ أخرى؟ لا يمكنها أبداً أن تتذكر أسماء الولايات الأمريكية بشكلٍ صحيح. نعم، جامعة ييل في ولاية يبدأ اسمها بحرف «C». إنّه اسمٌ معقد. وبَهار عاجزةٌ عن تذكّره.

المزيد من الأولاد يقفزون على طاولة المطبخ. إنّهم يرقصون على أغنية كوين. كوين. فريدي ميركوري. تصرُّ الخالة إيلي على أنَّ فريدي ميركوري من أصلٍ فارسيّ، إنّها شديدة الفخر بأيٍّ شيءٍ أو أي شخص يمتُّ ولو بصلةٍ بعيدة للفارسية. يقول العمّ مهرداد إنَّ مكتب البريد اختراعٌ فارسيّ. هو يحتفظ بقائمةٍ طويلة من الأشياء التي اخترعها الفرس. الكحول. كان الكحول أحد تلك الأشياء. اكتشف عالمٌ فارسي يدعى الرازي الكحول عن طريق الخطأ في مختبره.

تشعر برغبةٍ في التقيّؤ. لا يزال الأولاد فوق الطاولة. تريد بَهار أن تمحو الكثير ممّا حدث. فريدي ميركوري يغني. كوين. جامعة كوينز. يدور رأسها بلا توقف.

- «مرحى لك!»، قالت ماديسون عندما علمت أنَّ بَهار قد قُبلت في تلك الجامعة. «مرحى لك، يا بَهار!».

لا تنطق ماديسون كلمة «بَهار» بطريقة صحيحة أبداً، هي تجعل وقعها أشبه بـ «ببار»، والصحيح العمل على إطالة المقطع الأول «باا». لا أحد يستطيع نطق اسمها هنا.

إلى متى ستبقى هنا، في هذا البلد الذي لا يستطيع أحدٌ فيه نطق

اسمها بشكلٍ صحيح؟ وماذا ستفعل والدتها حال ذهاب بَهار إلى جامعة كوينز؟ كيف يمكن لوالدتها أن تحصل على تأشيرة مختلفة تخوّلها البقاء هنا؟ لقد عمل العم مهرداد والخالة إيلي بجدّ لتمديد تأشيرة الدراسة الخاصة ببَهار. ولا خيار لديها سوى الذهاب إلى الجامعة - إنّها الطريقة الوحيدة لتبقى في البلد بصفة قانونية. والسبب الوحيد وراء حصولها على تلك التأشيرة الأولى هو أنَّ زوج صديقة والدتها القديمة من الثانوية، الخالة نيلو، كان يعمل في مكتب التأشيرات، وقد استخدم علاقاته في الخارج لهذا الغرض. فقد بات من شبه المستحيل على الإيرانيين الحصول على تاشيرة دخول إلى الولايات المتحدة.

الجميع يكرهون الإيرانيين. منذ الثورة. منذ أخذ الطلاب الإيرانيون رهائن أمريكيين داخل السفارة. وهي الآن هنا، في البلد الذي يكرهون فيه أبناء جلدتها. هي هنا. لكن أين ستكون والدتها؟

والدة بَهار فخورةٌ جدّاً بها لتمكّنها من الالتحاق بجامعة كوينز، وتريد لها أن تدرس القانون، أن تصبح محامية، كما كانت الأم تتمنى لنفسها أن تكون دون أن تصيب نجاحاً. لا تريد بَهار أن تصبح محامية، لكن ليس بمقدورها أن تخيِّب أمل والدتها. ينبغي لها أن تذهب إلى الجامعة في إيران وحسب، أن تكون بالقرب من والدتها. لكن قول «لا» ليس خياراً متاحاً. انظروا فقط كم هي محظوظة. لقد تمكّنت من مغادرة بلدٍ مزَّقتْه الحرب والقدوم إلى أمريكا لتقيم مع الخالة إيلي. لم يعد بلدها آمناً. لذا ستذهب إلى جامعة كوينز، وستدرس بكلِّ جدّ. يجب عليها أن تكون جديرة بكلِّ ما قدّموه من تضحيات.

لمَ لم تتمكن والدتها من أن تصبح محامية؟ قالت هذه الأخيرة

إنّها كانت قد بدأت دراستها الجامعية، لكنّها توقّفت حين أنجبتْ بَهار. إلّا أنّها عادتْ وحصلتْ على شهادتها كمعلّمة، ألم تفعل؟ هذا ما كانت عليه والدتها. محاربة.

إنّها تنحدر من سلالة من النساء الأسود. سلالة من النساء خارقات القوّة، لا يمكن لأحدٍ تدميرهنّ.

تتمايل بَهار على أنغام الموسيقى. تدور في الأرجاء، فتشعر بالدوار على نحوٍ أسرع بكثير مما كان يمكن لها أن تتوقع. تتذكّر يوم دارت وهي تمسك بيد أمّها بينما كانتا ترقصان في غرفة المعيشة.

إنّها تغوص في الأرض الآن. تغوص وكأنّها بلا ساقين. تشعر بالمواد الخشنة التي صُنع منها السجاد تكشط ساقيها. لا بدَّ أنَّ فستانها الطويل ارتفع كثيراً للأعلى لأنَّ بإمكانها الإحساس بالسجادة الخشنة على جلد فخذيها. كانت السجادات الفارسية في شقّتها القديمة في طهران ناعمةً كالحرير. صوت الطرق خلف عينيها لا يتوقف أبداً. واضطراب معدتها يطغى على كلِّ شيء. لكنها لبؤة - امرأة من نسل الأسود؛ عليها أن تكون كذلك. لكن وبجبروت موجةٍ يستحيل السيطرة عليها، تندفع أحشاؤها للأعلى، وتفلت المحيطات هاربةً من فمها. تزأر بعنف. إنّها مبلّلةٌ بالكامل الآن. إنّها متعبة. هي لا تعرف ماذا سيحدث لأمّها. لمَ هي هنا؟ لمَ هي هنا حتى؟ كان ينبغي لها أن تبقى في المنزل. كان يمكن لها أن تكون في إيران. كان والدها يحبُّ أن يشتري لها كرات الجبن المنفوشة.

آخر ما تسمعه، صراخ ماديسون.

مكتبة
t.me/soramnqraa

45

يونيو 1982

- «متى يمكننا رؤيتها؟».

وقفتُ وهوما أمام مكتب الممرضة. كانت ماديسون قد اتّصلت بشقّتنا. قالت إنّها ركبتْ سيارة الإسعاف مع بَهار، وسجّلتْ دخولها إلى المستشفى. ركبنا، أنا ومهرداد وهوما، سيارة الفورد إيسكورت بأسرع ما استطعنا. والآن ها نحن هنا: مهرداد يركن السيارة، وأنا وهوما واقفتان تحت ضوء الفلورسنت في الطابق السادس من المستشفى.

- «من منكما الأمّ؟»، سألت الممرضة. كانت في منتصف العمر، شعرها أحمر قصير، وعيناها كبيرتان ومدوّرتان. وكانت تحاول أن تكون لطيفة على نحوٍ واضح.

- «أنا هي»، قالت هوما بلغتها الإنجليزية المكسَّرة.

- «هل يمكنني أن أرى هويةً ما؟ وستحتاجين إلى ملء هذه الاستمارات - يرجى تضمين اسم المؤمَّن عليه إضافةً إلى العلاقة التي تربطه بالراعي الأساسي، وسيتعيّن عليكِ أيضاً التوقيع هنا بصفتك الوصيّ القانوني على الطفلة».

نظرتْ إليَّ هوما يائسة، فهي لم تفهم كلمةً واحدة ممّا قالته الممرضة.

- «أنا الوصيُّ القانوني على الطفل»، قلتُ للممرضة، وفتحتُ حقيبتي، أخرجتُ منها المحفظة ذات القفل التي كانت أمي قد أعطتني إياها عندما كنتُ طفلة. كنتُ أحتفظ ببطاقة هويتي هناك.

بعد أن ملأتُ الاستمارات وخفّفتُ من ارتباك الممرضة، قادتنا هذه الأخيرة عبر ممرٍّ تفوح منه رائحة كحول التنظيف ومياه المماسح. كانت بَهار في الغرفة رقم 7 خلف ستارةٍ تفصلها عن امرأةٍ مسنة بيضاء الشعر، كانت المرأة نائمة وتشخر بصوتٍ عال. شهقتُ عندما رأيتُ بَهار - بَهارنا. كانت موصولةً إلى أنابيب وأسلاك، وثمّة أنبوب تنفّس في فمها.

أوضحت الممرضة أنَّ «التسمّم الكحولي» هو سبب دخولها إلى غرفة الطوارئ. بعد أن تلقّت العلاج هناك، تمَّ نقلها إلى الطابق السادس للاستمرار في مراقبتها. ردّاً على أسئلتي العديدة، أعطتني الممرضة إجابات مباشرة. نعم، لقد عانى نظامها جرّاء شرب كميات كبيرة من الكحول خلال وقتٍ قصيرٍ جدّاً. ولدى وصولها إلى المستشفى، كان وضعها خطيراً للغاية.

- «لقد أخبرونا»، قالت الممرضة، «أنَّ صديقتها تلك قد أنقذتْ حياتها عبر الاتصال بالطوارئ وإحضارها إلى المستشفى. لقد أصبح تنفّس ابنتك ودورتها الدموية»، نظرتْ إليّ ثمَّ إلى هوما، «بطيئَين للغاية. هي لا تُظهر ردود فعلٍ انعكاسية. ولا تبدي استجاباتٍ حركيّة».

- «هل يمكن أن يموت؟»، سألت هوما بصوتٍ أقرب للهمس. لقد اختلط عليها ضمير الجنس، كما يحدث مع الكثير من الإيرانيين

حين يتحدّثون الإنجليزية. ففي الفارسية، ليس لدينا ضميرٌ محدِّدٌ للجنس - بل ضمير محايدٌ واحد فقط.

- «لحسن الحظ، لقد تلقّتْ»، شدّدت الممرضة على ضمير التأنيث، «عنايةً طبية طارئة قبل فوات الأوان. لكنها ليست خارج دائرة الخطر تماماً بعد. في الواقع، إنّها في غيبوبةٍ حالياً».

التفتت إليّ هوما. «**خاي خدا!** يا إلهي!». لقد ميّزتْ كلمة «غيبوبة». إنّها نفس الكلمة بالفارسية. «هل فعلتم شيئاً؟».

كانت الممرضة الآن تنظر إليّ فقط وهي تجيب. «وضعنا لها أنبوب تنفس لفتح مجرى الهواء لديها. نحن نزوّدها بالأوكسجين والسوائل الوريدية. كما أنّنا أجرينا لها غسيل معدة، وركّبنا لها قثطرة».

ترجمتُ لهوما، التي أخذت تتوسّل للممرضة من خلال ترجمتي بشأن إمكانية أن نبقى مع بَهار هذه الليلة، أو على الأقل أن تبقى هي معها، لكنَّ الممرضة رفضت ذلك بحزم. «أنا آسفةٌ للغاية. ليس أكثر من خمسٍ وأربعين دقيقة، ثم نخرج من هنا»، قالت وهي تشير إلى كرسيٍّ بجانب سرير بَهار.

- «زوجي يركن السيارة في الأسفل، ومن ثمَّ سوف ــــ».

- «زوجك؟»، أمكنني رؤية أنّها كانت مرتبكة، لكنّها لم تطرح أي أسئلة. «لا يمكنه الدخول إلى هنا»، قالت الممرضة. «اثنان رقمٌ أكثر من كافٍ».

- «نعم، لكنه سيصعد إلى هنا بعد أن ــــ».

- «يتعيّن على الجميع تسجيل دخولهم عند مكتب الممرضة، وحين يفعل زوجك ذلك، سنخبره بأنّه لا يستطيع الدخول إلى هنا.

سيكون عليه البقاء في غرفة الانتظار. أنا آسفةٌ جدّاً»، قالت الممرضة، ثمّ غادرتْ.

على وقع الأنفاس الثقيلة المنتظمة للمرأة في السرير الآخر وطنين الأجهزة في جهة بَهار من الغرفة، سحبت هوما كرسياً من جهة المرأة العجوز إلى جهة بَهار، وجلسنا نحن الاثنتان جنباً إلى جنب قرب سرير ابنتها. فاحت الغرفة برائحة دواء السعال بنكهة الكرز الذي كنتُ أتناوله في إيران حين كنتُ طفلة، وبرائحة المواد الكيميائية المعقمة، والتي افترضتُ أنّها صادرةٌ عن الآلات. قرب السرير، وعلى طاولةٍ صغيرة بعجلات، كان ثمّة طبقٌورديّ اللون على شكل كلية، وإبريق بلاستيكيّ أزرق بغطاءٍ أبيض. كان هناك أيضاً كوبٌ بجانب الإبريق. كما لو أنَّ بَهار يمكنها أن تشرب بوجود تلك الأنابيب السميكة في فمها. كان ترطيب نظامها يعتمد حالياً على كيسٍ مملوءٍ بالسوائل معلقٍ على عمود، تنبثق منه أنابيب شفافة سميكة تسكب السوائل في أوردة بَهار.

- «أنا أكره هذا المكان»، قالت هوما.

- «أنا أيضاً».

- «قواعدهم سخيفة؛ خمسٌ وأربعون دقيقة».

- «لكنّنا محظوظون لأنّها وصلتْ إلى هنا في الوقت المناسب»، قلتُ لها.

- «نحن محظوظون بصديقتها».

- «نعم»، كان علي أن أوافقها الرأي.

جلسنا صامتتين. لو كان القلق قناعاً يمكن أن يسبب الاختناق، فقد كنّا نختنق حرفيّاً.

- «لم يكن ينبغي لي أبداً السماح لها بالذهاب إلى تلك الحفلة. لم تكن إلّا واحدة من حفلات المراهقين المجنونة والغبية المليئة بالحماقات».

- «لم تريدي لها أن تذهب»، قالت هوما. «أنا أصررتُ على ذهابها».

- «هذا ليس خطأك. أردنا لها أن تشعر بأنّها حرة وحسب».

- «أوه، إيلي»، أخذتْ هوما نفساً عميقاً. «لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟»

- «ستكون بخير، هوما جون»، قلتُ وأنا أربّتُ على قميصها. «دعينا نتحدث عن أشياء أخرى لبعض الوقت؛ عن أشياء جيّدة».

عبستْ هوما، وبدتْ مكلومةً تماماً.

- «عن العصافير الزرقاء وأقواس قزح؟»، اقترحتُ بصوتٍ ضعيف.

- «بالتأكيد، أو عن فطائر الـ **بيروشكي** والقهوة المثلّجة»، قالت هوما.

- «هل تتذكرين كيف قفزنا فوق تلك النار الهائلة؟».

- «أوه، هل حقاً تريدين الرجوع إلى زقاق الذكريات؟ بالطبع، أتذكر. كنتِ مرعوبةً، يا إيلي».

- «لكننا فعلناها. لقد عبرنا إلى الجانب الآخر»، قلتُ لها.

- «السندويتشات في مطعم أندريه. وسلطة أوليفييه»، قالت هوما.

- و«كا-نا-دا-دي-راي!»، قلتُ لها.

كنّا يائستين تماماً لنتشبَّث بذكرياتٍ محبّبة من طفولتنا ومراهقتنا، وكأنّه يمكن لها بطريقة ما أن تساعدنا في اجتياز هذا الانتظار

الرهيب. لكن هل ستعيش بَهار المزيد من فترة المراهقة؟ لم أرغب في التفكير في السؤال القابع في أعمق أعماق روحي. **هل ستكون هي نفسها يوماً بعد الآن؟**

- «النظرة على وجه السيدة طبطبائي يوم عدنا من البازار»، قالت هوما كما لو كانت منتشية.

- «دائماً ما كنتُ أتورّط في المتاعب بسببك!»، قلتُ لها، ثمَّ توقّفت. كانت أجهزة بَهار تطنُّ بلا توقف، وأنفاس السيدة العجوز الثقيلة تملأ الغرفة. «هوما يجب أن تعرفي».

كان عليَّ أن أخبرها. لقد حاولتُ إخبارها عدّة مرات. لكن الآن، وبَهار تصارع للبقاء على قيد الحياة، لم أكن قادرةً على الاستمرار لحظةً أخرى بوجود هذا الجدار بيننا.

لم تقل هوما شيئاً، بل جلست تحدّق ببساطة في ابنتها المستلقية على السرير.

- «هوما»، قلتُ بصوتٍ مرتعش لأقصى الحدود، وتمنّيتُ ألا أتلعثم لدرجة أعجز معها عن الكلام. «تلك الليلة، في منزل سوسن، في حفل خطوبة نيلو. تحدّثتُ مع الكولونيل. لقد طرح عليّ الكثير من الأسئلة. عنّا. عنكِ. عن عملك. ظننتُ أنّني أتحدث مع شخصٍ مأمون؛ شخص يمكن أن يكون والدي». انقبضتْ حنجرتي وشعرتُ مجدّداً بتلك الكتلة المؤلمة تستقرُّ فيها. نظرتُ إلى بَهار وهي مستلقيةٌ هناك، والأنابيب البيضاء تنبثق خارج فمها. كان عليَّ أن أطلق العنان لصوتي. كان عليَّ أن أوضح كلّ شيءٍ مرّةً واحدة وإلى الأبد. كان علينا أن نتحدث عن الحقيقة ولا شيء غيرها. «اعتقالك، في اليوم التالي مباشرة. كان بسببي. لقد أخبرتُه عن نشاطك ودورك في

المعارضة الشيوعية. جعل الرجل الأمر يبدو وكأنّه فخورٌ بالفتيات اللاتي يضطلعن بدور رياديّ في المقاومة». أصبح وجهي ساخناً جدّاً، وشعرتُ بكلِّ عضلة وهي تنقبض بعنف. «لم أكن أعلم أن هذا سيكون سبباً في اعتقالك. أنا آسفةٌ جدّاً، جدّاً».

التفتت هوما نحوي. كانت عيناها غارقتين في الحزن. ثمَّ قالت: «حسنٌ».

هكذا بالضبط. قالت كلمة «حسن» بالإنجليزية (Okay).

- «هل كنتِ تعلمين؟».

- «لنقل أنّه كانت لديّ فكرة؛ دعينا نترك الأمر عند هذا الحدّ. ما المهم حقّاً في هذا. **گذشته**. أصبح هذا من الماضي».

كافحتُ لأتمكّن من صياغة الكلمات معاً. «إنّه مهم. إنّه مهمٌّ لأنّكِ كنتِ في السجن بسببي. وكلُّ ما حدث بعد ذلك... كان بسببي».

أطرقتْ هوما برأسها، وظلّتْ صامتةً لدقيقة، ثمَّ قالت: «لقد كنتُ في السجن بسبب أفعالي».

- «أنا مَن سلَّمكِ إليهم». تذكّرتُ كيف مشيت إلى الحرم الجامعي صباح اليوم التالي للحفلة، ورأيتُ هوما تمشي إلى الأمام مني. تذكّرتُ كيف اقتربتْ تلك السيارة كثيراً منّي قبل أن تندفع مسرعة نحو هوما، وكيف قفز الرجلان من السيارة وألقيا بها في الداخل. «أنا آسفةٌ للغاية»، قلتُ لها. «أرجوك، عليكِ أن ——».

قاطعتني هوما قائلة: «توقّفي فحسب».

- «لو أنَّ بإمكاني إبطال ما حدث، فما كنتُ لأتردّد. لو أنَّ بإمكاني بطريقةٍ ما التكفير عن كل شيء، فسأفعل ذلك في الحال».

- «لقد فعلتِ».

- «ولا بأيِّ شكلٍ من الأشكال».

- «لقد منحتِ ابنتي بيتاً. لقد غمرتِها بمحبّتك. أنتِ ومهرداد تجاوزتما حدود الكرَم».

- «يمكننا أن نستضيف بَهار لبقية حياتنا، ولن يعوّض ذلك عمّا فعلته».

التفتت هوما نحوي وقالت: «انظري، حين أتيتِ لرؤيتي عندما كانت بَهار لا تزال طفلةً رضيعة، لم أكن قادرةً على التعامل مع الأمر. لم أكن قادرةً على التحدّث إليكِ وكأنَّ شيئاً لم يحدث، وذلك لأنّني كنتُ... ماذا كنتِ ستقولين بالإنجليزية؟ ''تحت تأثير الصدمة''. لذا طلبتُ منكِ أن تبقي بعيدة. فأنا لم أكن جاهزة. وعندما التقينا صدفةً في البازار، لم يكن الوقت مناسباً للخوض في أيِّ شيء. كان هناك أناسٌ في كلِّ مكان. وحدث كلُّ شيءٍ بسرعةٍ كبيرة».

تذكّرتُ حديثنا أنا وبَهار في المطبخ قبل عدّة أشهر. قالت بَهار يومئذٍ إنَّ هوما لم تكن تلتقي بصديقاتها لأنّها كانت دائمة القلق بشأن كونها مراقَبة.

- «كانوا يراقبونك، أليس كذلك؟»، سألتُ هوما. «الشرطة السرية للشاه؟».

- «نعم، وبعد الثورة، صارت الجمهورية الإسلامية تراقبني. وما زالت تفعل حتّى الآن! أنا ما يمكنك أن تطلقي عليه الآفة ذات الحظوظ المتكافئة. فقد كنتُ مكروهةً من كلا النظامين».

- «هل كنتِ تطلبين مني الابتعاد لأنّهم كانوا يراقبونك، ولم تريدي لي التورط في المشاكل؟».

واصلتْ هوما التحديق في وجهي، ثمَّ ربَّتتْ على يدي وقالت: «نعم، فلنقل ذلك».

- «ماذا تقصدين بـ فلنقل ذلك؟».

- «نحن هنا الآن. لقد عملتُ بجدٍّ كبير لكي أتمكّن من التعافي».

أصدرتْ إحدى الأجهزة صوت صفير، فقفزت كلتانا عن مقعدها. تدفّق الأدرينالين في أنحاء جسدي. «هل يجب أن نستدعي الممرّضة؟»، سألتُ هوما. لكن صوت الآلة عاد لسابق عهده، وبدا أنَّ كل الأنابيب والأسلاك موصولة جيّداً وتعمل بشكلٍ طبيعي.

- «أعتقد أنَّ الوضع على ما يرام. ما علينا سوى الانتظار، والصلاة»، قالت هوما. كانت حلمتا أذنيها حمراوين زاهيتين. تماماً كما كانتا قبل سنوات عديدة عندما تحدَّث عبدول عن روحيّتها، معاناتها على المستوى النفسي، أثناء زيارتي لهم في شقتهم في طهران.

أحنيتُ رأسي، وهمستُ بالدعاء لبَهار حتى تتعافى. أغمضتُ عينيّ، وظللتُ أردّد: **يا ربّ، ساعدها. يا ربّ، اشفها. يا ربّ، احفظها**. لم أكن شخصاً متديّناً - على الإطلاق - لكنني وجدتُ نفسي في غمرة اليأس أدعو الله من أعماق قلبي. حين رفعتُ رأسي، كانت هوما محنية رأسها هي الأخرى، وتتمتم بالدعاء.

- «أكره أنّنا ضيّعنا كل هذه السنوات. كان يمكن أن نبقى صديقتين. لم تكوني مضطرةً لأن تشعري بأنّه لا يمكنني المجيء لرؤيتك لأنّكِ كنتِ تحت المراقبة...».

انتفضَ رأس هوما وهي ترفعه لتنظر إليّ. «أوه، إيلي. أنا أقول لكِ أن نترك الماضي وراءنا، وأنتِ تصرين على مناقشته بالكامل.

والآن، وهنا من بين كل الأماكن! لقد كنتُ غاضبةً لوقتٍ طويلٍ جدّاً. ثمَّ دخلتُ في حالة اكتئابٍ شديد. كنتُ بحاجة إلى استجلاء الأمور. كان عبدول مساعداً بالطبع، لكنّنا لم نتحدث يوماً بشأن ما حدث. انسحبتُ إلى داخلي وحسب. لكن، عزيزتي إيلي. . . ».

- «ماذا؟».

أخذتْ نفَساً عميقاً. نظرتْ إلى بَهار المستلقية على السرير. بدا وكأنَّها تصارع شيئاً يعتمل بداخلها. ثمَّ همستْ: «كانوا يريدونك، يا إيلي، كانوا يسعون وراءك. لقد استجوبوني مراراً وتكراراً في الفترة الأولى من اعتقالي. كانوا يريدون الحصول على أسماء».

- «لكنّني لم أكن جزءاً من جماعتك الشيوعية»، قلتُ لها. هل فقدت عقلها؟ لربّما نال منها الحزن والقلق إلى الحدِّ الذي جعلها تهذي وتهذر بأيِّ شيء. شعرتُ بالندم على إثارة هذا الموضوع الشائك. كان حريّاً بي أن أنتظر. فمن الواضح جدّاً أنَّ الوقت لم يكن مناسباً لخوض هذا النقاش. كان القلق على بَهار قد أخذ من هوما كل مأخذ لدرجة أنّها كانت عاجزة عن تذكّر أيّ شيء على نحوٍ صحيح. «لا بأس»، قلتُ وأنا أحاول أن أهدِّئ من روعها. «دعينا ننسى الأمر».

- «ما كانوا يريدونه، يا إيلي»، قالت هوما ببطء، «هو معرفة من كان وراء ترجمة المنشورات قبل وقوع الاحتجاجات. أرادوا اعتقال المترجم. كانوا يعرفون أنَّ المترجم لا يمكن أن يكون أنا».

استحال جسدي بارداً كالجليد.

- «لقد ضغطوا عليّ للحصول على المعلومات. وعرضوا عليَّ صفقة؛ أكشف لهم عن هوية الفاعل، فيطلقون سراحي».

جلستُ ساكنةً كالأموات. كانت رائحة دواء السعال في الغرفة ثقيلةً جدّاً، وشعرتُ بالغثيان. «ماذا تقولين؟».

- «لقد أرادوا اعتقالك. لكنّني ما كنتُ لأكشف لهم عن هويتك. لذا احتفظوا بي لديهم. وأنزلوا بي. . . العقاب. ولمّا حدث ذلك الاعتداء عليّ، لم يطلقوا سراحي بدافع الإمعان في الانتقام. . .»، تقطَّعَ صوتها للحظة. «لكنني لم أستسلم».

حلّت السطوة الرهيبة لما قالته في الغطاء الأبيض للإبريق البلاستيكي الأزرق بجوار بَهار، وفي كل خصلة شعرٍ بيضاء من رأس المرأة المسنة على السرير المجاور، وفي الأخاديد الدقيقة للأنابيب البيضاء السميكة المنبثقة من أنف بَهار ومن فمها. أردتُ أن أصدّق بالكامل - دون أن تراودني ذرة شك - بأنَّ هوما كانت مخطئة. لقد بقيتْ في السجن لأنّها كانت تحميني؟ استذكرتُ محادثتي مع الكولونيل. هل كان يحاول أن يستخلص معلوماتٍ عنّي؟ «كانت مجرّد بضع منشورات. . .»، قلتُ لهوما.

- «شعروا أنَّ توفّر تلك المنشورات مترجمةً إلى الفارسية كانت سبباً في إطلاق سلسلة الاحتجاجات كلّها»، قالت بهدوء.

أردتُ أن أصرخ، أن أنكمش حدّ التلاشي، أن أهرب، أن أختبئ. كلُّ ما حدث بعد ذلك - الاغتصاب، التعنيف - كان لأنّها التزمت الصمت فيما يتعلّق بي؟ «كان عليكِ أن تخبريهم أنّني من فعل ذلك»، قلتُ يائسة. «لمَ لم تفعلي؟».

- «لأنّكِ صديقتي».

قالت ذلك بأسلوب بسيط ومباشر، وكأنها تشير إلى أمرٍ واقع مجرّد، إلى حقيقةٍ كونية لا يمكن التشكيك فيها، أو إلى مبدأ فيزيائي غير قابلٍ للتغيير. كل ما حملتُه يوماً من أشكال الغيرة تجاه ما تملكه

هوما - والدتها الطيبة، والدها النبيه، شقيقتها سارة، شقيقها علي رضا، منزلها والمطبخ الحجري، نشاط هوما وشجاعتها، امتلاكها للدافع، طبيعتها الطيبة بالفطرة، وقدرتها العجيبة على ألّا تستسلم - عادت لتجرفني مثل فيضان هائل. كان حسدي عبارةً عن طاقةٍ حيّة تتنفس هواء الغرفة. ثمَّ تذكّرتُ تلك الزيارة، زيارتي إلى شقة هوما حين كانت تعيش مع عبدول. نظرتها الخاوية وهي تحدّق في السجادة وكأنّها منوَّمةٌ مغناطيسياً. الإيحاء الذي أعطته بأنّها بعيدة ومنفصلة عن الواقع. الجولة التي قدّمتها لي في أرجاء شقتها، ثم الغضب الذي واجهتْ به محاولتي لمس ذراعها، ورفضها العنيف لعرضي للمساعدة.

- «عندما وافقتِ أخيراً على رؤيتي، وجئتُ لزيارتك في الشقة. . .».

- «هل كنتُ غاضبةً منك؟ نعم، خاصةً حين عرضتِ عليّ **المال**. لم أكن أريد أموالك. لم أكن أريد أسلوب حياتك أو أيّاً من تلك البهارج».

حاولت كبح دموعي. «لقد وشيتُ بك، يا هوما».

- «أنا أسامحك».

لقد قالت الكلمتين اللتين كنت أتوق سراً لسماعهما منذ سنواتٍ طويلة. الكلمتان اللتان انتظرتُ طوال هذا الوقت أنْ أحملهما بيديّ المكوّبتين. شعرتُ بحملٍ ثقيل ينفجر ويتلاشى ببساطة. كان كلُّ ما يهم الآن هو أنّني كنتُ مع هوما، كل ما يهم هو أنّني أحبُّ صديقتي وسأظلُّ أحبّها حتّى نهاية أيامنا. لقد سئمتُ من محاولة التنافس معها، من أن أكون هي، من أن أنساها، أو أتفوق عليها، أو أتصالح معها.

لقد منحتني هدية. هديّةٌ تعود جذورها إلى اليوم الذي دعتني فيه للعب حين كنا في السابعة من العمر. هديةٌ ظلّت قائمة حين خضنا مغامرات استكشفنا فيها المدينة وانطلقنا عبر دروبٍ جديدة ودفعنا لتغيير خطِّ الحدود المرسومة لنا. هديّةٌ ظلت على قيد الحياة عندما جاءت هوما إلى مدرستي دون سابق إنذار. كانت الهدية التي لطالما منحتني إياها هوما هي أن تكون صديقتي ببساطة.

وعلى نحوٍ غير مشروط.

مددتُ يدي وأمسكتُ بيد هوما. وإذ انهمرت دموعها، كان جسدها بأكمله ينتفض ألماً.

- «شكراً لكِ على كلِّ ما فعلته»، قلتُ لها.

- «گذشته. أصبح هذا من الماضي»، قالت هوما. «هل تفهمين؟ لقد سلبوني الكثير. لكنّني لن أسمح لهم بسرقة روحي. أنا أرفض ذلك. أرفض أن أتخلّى لهم عن قوّتي هذه. حتّى مع التهديد بالاعتقال الآن، هذا ما يسعون إليه. إنّهم يريدون تجريدنا من كرامتنا. يريدون أن يلغوا قابليتنا للفرح. لكن ليس بمقدورهم الفوز. ليس هذا النظام الجديد المناهض للمرأة. لقد تغيّرَ الكثير منذ رحيلك، يا إيلي. الطائرات العراقية تجد مدننا وتقصفنا في الليل. لكن لا شيء من كل هذا» ـ تأخذ نفساً عميقاً وكأنّها تجمع الأوكسجين من الهواء لتتمكن من المتابعة ـ «يمكن أن يدمّرني. هل تفهمين؟».

لم أفهم، لكنّني كنتُ قد وضعتُ قدمي على الطريق. هوما التي مشت متثاقلة نحونا - أنا ومهرداد - في المطار، وهي تكاد تحمل بَهار على ذراعها. وضحكاتها مع ابنتها بعد سيل الدموع الجارف في البداية. جعلني ذلك المشهد أفترض أنَّ رباطة جأش هوما كانت

تغطي على الكثير من الألم والمعاناة في العمق. لكن، وبينما كنا جالستين في غرفة لمستشفى تلك، أدركتُ أنَّ رباطة جأش هوما لم تكن تخفي ألمها. بل كانت بسبب ذلك الألم. دائماً وأبداً، ستخوض هوما حروبها بكلّ بأس.

- «أعتقد أنّني بدأتُ أفهم».

وإذ ذاك، فتحتْ بَهار عينيها.

46

يوليو 1982

حالما استفاقت بَهار على سرير المستشفى، وحالما تنفّسنا الصعداء، وحالما عدنا ببَهار إلى شقتنا بعد بضعة أيام أخرى من الرعاية والمراقبة ثمَّ تكفلنا - أنا وهوما - بهذه المهمة، بدا واضحاً أنّه لا يمكن لهذا الشكل من الانفصال أن يستمر.

أرادتْ هوما أن تكون مع بَهار. وأرادت بَهار أن تكون مع أمّها. قالت هوما إنّها مستعدّة للتخلي عن البلد الذي تحبّ، والذي قاتلت طويلاً من أجله، وضحَّتْ في سبيله بحريّتها مراراً، من أجل أن تكون مع ابنتها.

وبينما كانت بَهار مستلقيةً على الأريكة تحاول أن تسترجع قواها، كانت هوما تداعب شعر ابنتها وتعدها بأنّه فور عودتها إلى إيران، ستلتقي بنيلو وتبدأ في الإجراءات الرسمية للتقدم بطلب الحصول على تأشيرة جديدة - تأشيرة لا تنتهي صلاحيتها خلال أربعة أسابيع - وبأنّها ستفعل كل ما يلزم لتكون مع ابنتها. كنا جميعاً نعلم أنَّ عودة بَهار ليست بالخيار الجيد. ليس في خضم الحرب الدائرة هناك. وليس حين تكون لديها الفرصة لأن تحظى بمستقبل أفضل عبر الالتحاق بجامعةٍ في الولايات المتحدة.

قبل يومين من الموعد المحدد لرحلة عودة هوما إلى إيران، جلستْ بَهار ومهرداد على الأريكة يتصفّحان العدد الأسبوعي من مجلة TV Guide - **دليل التلفزيون**، كانا يتطلّعان إلى ليلةٍ من مشاهدة برامجهم التلفزيونية المفضّلة، والتي كنتُ أعلم أنّها ستتوَّج بمسلسل The Love Boat - **قارب الحبّ**، على قناة ABC في تمام التاسعة ليلاً.

دخلتْ هوما معي إلى المطبخ. فتحتُ الجريدة فوق الطاولة، وأخذتُ أقرأ بصوتٍ عالٍ أسماء الأفلام المعروضة في دار السينما القريبة. بدا فيلم Poltergeist مخيفاً جدّاً. ولم يكن Star Trek II خياراً رائعاً، حيث أنَّ أحداً منا لم يكن قد شاهد الجزء الأول (وهو ما أثار استياء مهرداد كثيراً). بدا Rocky III احتمالاً وارداً. لكنَّ رأينا استقرَّ في النهاية على حضور فيلم جديد اسمه .E.T. قرأتُ بصوتٍ عال من الصحيفة نبذةً عن الفيلم. كان يتحدث عن مخلوقٍ فضائي جاء في زيارةٍ إلى أمريكا. كانت هوما تعضُّ على شفتها. لقد بدت قلقة.

- «لسنا مضطرتَين للذهاب»، قلتُ لها.
- «أريد أن أذهب».
- «هل أنتِ واثقة من أنّكِ جاهزةٌ لذلك؟».
- «فقط إنْ ذهبتِ معي»، قالت هوما.

مشينا جانبياً على طول صفِّ المقاعد، معتذرتين لرواد السينما الذين اضطروا أن يرفعوا ركبهم كي يفسحوا لنا المجال للمرور. صُدمتْ هوما بحجم عُلب الفشار التي تُباع في الردهة. لم يكن هناك حيّزٌ في معدتينا للفشار أو الصودا، لكنني اشتريتُ علبةً صفراء اللون

من الحلوى السكرية كُتب عليها Jujyfruits. أخذنا مكاننا على كرسيين مخمليين. ونظرتُ إلى صديقتي. كان وجهها شاحباً.

أخذتُ يدها، وأبقيتُها داخل يدي.

أُطفأت الأضواء، وأضاءت الشاشة، ثمَّ بدأنا نشاهد مقاطع تشويقية لأفلام سوف تعرض لاحقاً. كنتُ آمل ألّا تكون هذه المقاطع مخيفة، خاصةً وأنَّ فيلم .E.T هذا مصنَّفٌ على أنّه مناسبٌ للأطفال.

ضغطتُ على يد هوما. كانت خائفةً بما فيه الكفاية بالفعل.

بدأ فيلمنا المنتظَر، وسرعان ما سرق الكائن الفضائي بتجاعيده ورأسه الكبير وعينيه المعبِّرتَين الأضواء. ضحك الناس في المسرح عندما وضعت الفتاة الصغيرة الرائعة شعراً مستعاراً لـ .E.T. وشهقوا عندما قال .E.T عبارة «هاتف المنزل» ثمَّ قام بعكسها «منزل الهاتف». وعندما ركب الصبيّ في الفيلم دراجته إلى السماء و .E.T جالسٌ أمامه في السلة مع قمرٍ مكتمل في خلفية الصورة، ساد صمتٌ مطبقٌ بين الحضور، تبعه تصفيقٌ حادٌّ يشي بأقصى درجات التقدير.

أراحت هوما رأسها ببساطة على كتفي، وبكتْ.

لربّما استمتع آخرون في تلك الليلة بالمؤثّرات السينمائية الخاصة، أو بالحوار، أو بمسار رحلة .E.T.

لكن الحقُّ يقال، لم نكن أنا وهوما في المسرح في تلك الليلة لمتابعة رحلة الكائن الفضائي الصغير.

كنّا هناك فقط من أجل كسر حاجز الخوف لدى هوما.

كنّا هناك كي تتمكّن هوما من تطبيع علاقتها مع هذه الحالة البسيطة المتمثّلة في الجلوس مع غرباء ضمن صفوفٍ في قلب العتمة.

كنّا هنا كي تختبر واقع عدم وجود نارٍ أو لهب، كي تتمكن من النهوض في نهاية الفيلم ورؤية أنَّ الشاشة سليمة، والمقاعد في أماكنها، والمبنى قائم، وأنَّ الجميع على قيد الحياة، ويخرجون من المكان بسلاسة وهدوء.

خرجنا من السينما إلى هواء الخارج العليل. مالت هوما نحوي، وهمست لي بعبارات الشكر. ثمَّ مشينا عائدتين إلى المنزل. فكّرتُ في عبدول وكلّ شخصٍ آخر كان في سينما ريكس في ليلةٍ صيفية في عبادان قبل أربع سنوات.

عدنا إلى بَهار، والتي كانت نائمةً في فراشها الآن، وإلى مهرداد الذي كان يشاهد برنامج السهرة الكوميدي على التلفزيون. رفع حاجبيه لنا إذ دخلنا، كما لو كان يسأل إن كانت المهمّة قد نجحت.

أخبرتُه أنَّ كلَّ شيء سار على ما يرام.

لقد كانت بخير.

في الليلة التي سبقت عودتها إلى إيران، تحدّثتُ مع هوما في المطبخ بينما كنا نطهو. كانت هوما قد أصرت على مساعدتي - قالت إنَّ إبقاء يديها منشغلتين في المطبخ كحالنا في الأيام الخوالي عندما كنا نطبخ معاً يجعلها تشعر بالاسترخاء. «اتّصلي بنيلو حال عودتك. إنّها تعرف الإجراءات الصحيحة للتقدم بطلب الحصول على الإقامة. يمكننا أن نحصل لكِ على وضعية اللاجئ هنا. أنتِ في موقفٍ مناسب لذلك لكونك سجينةً سياسية سابقة - هذا يؤهلك للحصول على اللجوء».

كانت هوما تقطِّع البقدونس والكزبرة لطبق الـ **قورمه سابزي**.

«لقد وعدتُ هوما بأنّني سأتقدم بطلب، وهذا ما سأفعله». تابعت التقطيع، ثمَّ نظرتْ إليَّ بابتسامة تملؤها المرارة. «لكن كم أتمنّى لو أنَّ بوسعي البقاء في بلدنا. جميعنا؛ بَهار، أنا، أنتِ، مهرداد. لقد استولى أولئك البلطجية الأصوليون على إيران واختطفوها. ليس من العدل ألّا يكون لابنتي مستقبلٌ هناك. إنّه بلدها».

- «سنساعدك في التقدّم بطلب اللجوء»، كان هذا كل ما استطعتُ قوله.

- «قد يستغرق الأمر سنوات».

- «يمكننا توكيل محامٍ جيّد. سنجعل الأمر يتحقّق. سوف ترين».

نظرتْ هوما في أرجاء مطبخنا، ثمَّ نظرتْ إليّ. «يمكن أن تكون الشوارع هنا مرصوفةً بالذهب، ويمكن أن يكون كلّ شخصٍ هنا ملاكاً مرسلاً من السماء. لكن هذا لن يغيّر حقيقةً واحدة: هذا المكان ليس موطني. ولن يكون كذلك أبداً».

- «قد يكون كذلك في يومٍ من الأيام».

- «إذا غادرنا جميعاً، فماذا سيحدث لإيران؟ إنّ معدلات هجرة الأدمغة فلكيّةٌ بالفعل». نظرت للأسفل نحو لوح التقطيع. «طلّابي. . .».

- «سوف ينجون».

- «منظّمتي للنساء. لدينا أعضاء جدد، إنهم مستعدون. . .».

- «هوما»، قلتُ لها، «دعي شخصاً آخر يقاتل بدلاً منك. مكانك مع ابنتك. ولا يمكن لابنتك أن تكون في إيران. ليس الآن، ليس قبل أن تتغير الأمور».

تنهدّتْ. «نعم، نعم، أعلم».

أكملنا تحضير الطعام في صمت.

بعد أن وضعنا كلّ شيءٍ في قدرٍ فوق نارٍ هادئة على الموقد، غسلتْ هوما يديها وقالتْ: «لديَّ شيءٌ لك، انتظري ثانية»

غادرتْ وعادتْ بعد لحظات ويديها خلف ظهرها. «تمنّيتُ أن آتيكِ بكيسٍ ورقي»، قالت هوما. «كيس ورقي مملوء بالمال، مالٌ يمكن أن يكون كمغارةٍ صغيرة في جبل ما أدين لك به».

- «كفاكِ حديثاً عن المال. أخبرتكِ ألف مرة أنَّه تمَّ حلُّ الأمر».

- «أنتِ تعلمين أنَّني كنتُ لأفعل ذلك لو كنتُ أستطيع، أليس كذلك يا إيلي؟ الأمر فقط أنّني لا أملك المال، لم أملكه قطّ. لكنني ذات يوم، سأردُّ لكِ كلّ ما أنفقتِه على رعاية بَهار».

- «أعرف ذلك»، قلتُ لها. «**گذشته**. هذا من الماضي الآن»، استخدمتُ كلماتها للردّ عليها.

سحبتْ هوما ذراعها من خلف ظهرها، وكشفت عمّا كانت تخبِّئه.

شهقتُ. «هل ما زلتِ تحتفظين به؟».

- «ألا تملكين قلادتي؟ أخبرتِني في اليوم الأول لي هنا بأنّكِ تحتفظين بها في صندوق مجوهراتك».

- «أنا كذلك بالفعل!».

- «عندما رحلتِ عن الحيّ القديم وبقيتُ أنا هناك، تعلّقتُ بهذا الدفتر أيّما تعلّق، ونادراً ما كتبتُ فيه شيئاً خلا بضع رسائل إليك في ذلك الوقت». سلّمت الدفتر ذا الغطاء الورديّ الباهت لي، فاستشعرتُ وزنه ومظهره مجدّداً. كنتُ قد اخترتُه بعناية من مكتبة السيد فخري أوائل صيف العام 1953 حين ذهبتُ مع العم مسعود

إلى هناك. «لقد أحضرتِه معك في أول يوم لكِ في مدرستنا الثانوية»، قلتُ لها.

- «أردتُ أن أبهرك حين ترين أنّني كنتُ لا أزال أحتفظ به. حتى إنّني كتبتُ بعض الملاحظات من فصل السيدة روشنفكر».
جاءت هوما بقربي، وفتحت الدفتر وهو بين يديّ، وأرتني الكتابة بخطٍّ يدها بالفارسية.

- «تلك القصائد القديمة!»، قلتُ لها.

- «في النهاية، شعرتُ بالغباء. اشتريتُ لنفسي أحد تلك الدفاتر ذات السلك الحلزوني الذي تحمل منه كل الفتيات. حاولتُ أن أكون متكيّفة مع المحيط»، ابتسمتْ هوما.

- «هوما روزبِه تحاول أن تتكيّف. تخيّلوا ذلك!».

- «ها! لكن انظري»، قالت هوما. «لقد صمد على نحوٍ جيّدٍ للغاية. ما نوع اللحاء الذي كانوا يستخدمونه لصناعة الورق آنذاك؟ إنّه ورقُ كرتون عمليّاً!» - قلّبتْ بضع صفحاتٍ أخرى - «ما فعلتُه هو أنّني كتبتُ جميع وصفات والدتي هنا».

في الصفحات التالية، رأيت الوصفة تلو الأخرى. وصفة الـ فسنجون خوريش الذي تعدّه والدتها. والـ قطب المحشوّ بالرمان الذي تناولناه أوّل مرةٍ كنتُ فيها في بيت هوما. ووصفة بسكويت الحمص على طريقة والدتها. نظرتُ إلى هوما مذهولة. «يجب أن تحتفظي بهذه الوصفات من أجل بَهار».

- «أريد لك أن تحصلي عليها»، قالت هوما. «فذات يوم، يا إيلي، سوف تتخرّجين من وظيفتك في بيلووم هذه».

- «بلومينغديلز»، قلتُ لها.

- «وربّما، فقط ربما، سوف تفتحين مطعمك الخاص هنا. كم

سيكون ذلك رائعاً؟ اجعلي هؤلاء الناس يرون ثقافتنا. دعيهم يتذوقون أطباقنا. دعيهم يعرفون من نكون. ماذا تقولين؟».

أنا؟ أفتح مطعماً؟ في أمريكا؟ وأقدّم طعاماً إيرانيّاً؟ يا لها من خيالات لطيفة. نظرتُ إلى صديقتي، فابتسمتْ لي ابتسامةً مفعمةً بالأمل. كانت في آن واحد امرأةً في الثامنة والثلاثين من عمرها وعلى وشك العودة إلى إيران والصديقة التي كنتُ قد عرفتُها مذ كنا نطبخ معاً في مطبخ والدتها. «لا أحد يعرف. ربّما سأفعل ذلك يوماً»، قلتُ لها.

- «استخدمي وصفات أمي. عديني بذلك».

- «حسنٌ، سأفعل ذلك لكن **معك**. أنتِ عائدة إلى هنا، هل تذكرين؟».

أومأت هوما برأسها بينما انهمرت الدموع على خديها. اقتربتْ من الطاولة، وجمعت الأطباق المتسخة عنها، ثمَّ وضعتْها في الحوض. رشّتْ سائل التنظيف على الإسفنجة، وشرعتْ هي تغسل الأطباق، وأنا أجففها. عملنا معاً في تناغمٍ مألوف، كما كنا نفعل ونحن طفلتين.

- «بالطبع»، قالت هوما. «بالطبع سوف أعود. حالما يسمحون لي بذلك».

47

سبتمبر 2022

في يومٍ من أيّام سبتمبر حيث الهواء منعشٌ بما يكفي حتى لبائع القرطاسية المتذمّر دائماً أن يردَّ التحية لأولاد المدرسة الثانوية، وحيث أوراق الأشجار آخذةٌ بالتحول إلى اللون الأحمر الكستنائي، وفي طراوة وقت الغسق حيث يستحيل تخيّل عالمِ حُرِمٍ يوماً من الأمل، يرونها على شاشات هواتفهم. ينبض ظهورها غير المتوقّع مثل الصدى، مثل ذكرى حُلٍّ وثاقها، مثل جرحٍ من الماضي، وشريطٍ من الأمل.

قبل ساعاتٍ من ظهورها غير المتوقَّع، كانت ليلي وستٌّ من صديقاتها في المدرسة الثانوية يمشين على طول جادة ماساتشوستس، مروراً بالبنوك العديدة وصالونات الأظافر في مركز المدينة، ومتجر الأحذية الذي تأسس قبل مئة عام، والصيدلية العائلية، قادت ليلي صديقاتها إلى أن توقّفت بالقرب من دار السينما القديمة تماماً.

يتدلّى من نافذة **مطعم الآنسة إيلي** بساط حائط مألوف أخضر اللون من قماش الـ **ترمه**. تتلألأ على القماش في شمس الظهيرة طيورٌ دقيقة حيكت بخيوط فضّية لامعة. وعلى الباب الزجاجي، ثمّة قطعة ورق مثبّتة بشريط لاصق كُتِب عليها «المكان مغلق لحفلةٍ خاصة!».

تدفع ليلي الباب، فيرنُّ الجرس المعلَّق أعلاه. في الداخل، تفوح في الهواء رائحة القهوة والهال والخميرة. يحتوي المطعم على سبع طاولات دائرية مع أربع كراسٍ حول كلٍّ منها. وبينما تتكيف عيناها من سطوع الضوء في الخارج، تلاحظ ليلي نجوماً ذهبية صغيرة تغطي كل طاولة. وتطفو بالونات الهيليوم المزينة بعبارة «عيد ميلادٍ سعيد!»، في جميع أنحاء الغرفة مثل الأشباح.

تغطّي الصور المؤطَّرة والأبيات المكتوبة بالخط العربي جدران المطعم. هناك صورٌ لميدان البولو الشهير في أصفهان، وجسر سي وسه بل بأقواسه الثلاثة والثلاثين المضاءة ليلاً، وقبر الشاعر حافظ في شيراز، وبرج أزادي الشهير في طهران. وداخل الأطر الأنيقة، تميل الحروف لتشكِّل أبياتاً من القصائد الفارسية القديمة. وخلف المنضدة مباشرة، ثمّة صورة بولارويد باهتة مؤطرة لفتاتين داكنتي الشعر في لقطة من أعلى جبل، حيث تضع كلٌّ منهما ذراعها حول الأخرى، وترتدي كلتاهما بنطال جينز، وإحداهما تربط شعرها بعقدة ذيل الحصان، ومن خلفهما تمتد طهران إلى ما لا نهاية.

ترفع الآنسة إيلي رأسها، وتندفع لتلقي التحيّة على المجموعة، وتقبّل خدَّي ليلي. شعرها الفضّي مربوطٌ على شكل كعكة، وترتدي كنزةً صفراء وبنطالاً أسود وخفّها المفضّل من الصوف الصناعي. مع كلِّ عام يمرّ، تصبح الآنسة إيلي أقصر ومدوّرة أكثر، لكنّها لا تزال سريعة على قدميها، ولا يفوتها أيّ شيء.

- «مرحباً، آنسة إيلي»؛ «شكراً لاستضافتنا، آنسة إيلي»؛ «يبدو المكان رائعاً، آنسة إيلي!»، تشقشق صديقات ليلي. فكأيِّ شخصٍ آخر في المدينة، تنادي ليلي خالتها الكبرى بـ «الآنسة إيلي».

تلاحظ ليلي الآن أنَّ الآنسة إيلي تحمل في يدها وعاءً به عددٌ

لا يحصى من النجوم الذهبية الإضافية. للحظة، تفكّر ليلي أنَّ الآنسة إيلي قد ترفع ذراعها وترش الأولاد بحفنةٍ من النجوم، لكنّها تضع الوعاء على الطاولة ببساطة، وتلمس، جرياً على عادتها، تميمة الطائر المعلق بالقلادة التي لا تتذكّر ليلي يوماً لم تكن الآنسة إيلي تضعها فيه. يستقر الطائر الذهبي الصغير ذو الجناح الفيروزي دائماً في التجويف وسط عظم الترقوة. كانت ليلي قد تعلّمتْ في درس علم الأحياء أنَّ هذا الجزء من الجسم يسمَّى «الشقّ الوداجي». يتلألأ الطائر تحت أضواء المطعم.

- «مرحباً!». تظهر والدة ليلي من باب المطبخ الخلفي وهي تمسح يديها بمئزرٍ عليه صورة حبة الفول السوداني التي تنتعل حذاءً رياضياً، وأسفل الصورة عبارة "أنا مهووسٌ بالصحة".

- «مرحباً، بَهار!»، تهتف الفتيات بينما يأخذن أماكنهن على الطاولات. تكره والدة ليلي أن يُنادى عليها باسم السيدة ميرفي، وتصر أن تناديها صديقات ابنتها باسمها الأول.

في هذه المدينة الأمريكية التاريخية، بنتْ عائلة ليلي مطعماً يقدِّم الأطباق الفارسية التقليدية. على بعد أقلّ من نصف ميل من موقع باتل غرين - حيث أُطلِقت في العام 1775 الرصاصة التي سُمع صداها في أرجاء العالم، وكانت بداية معركة تحوَّلتْ إلى حرب أدّتْ إلى ثورة أفضت بعد ذلك إلى تأسيس الولايات المتحدة - تقدِّمُ العائلة أطباقاً لذيذة تُسعد السكان والسياح على حدٍّ سواء في ليكسنغتون بولاية ماساتشوستس.

منذ افتتاحه قبل سبعة وعشرين عاماً، توسّع المطعم، ليس في المساحة، بل في الخيارات التي يعرضها. لم يعد يقدّم الشاي والقهوة والمعجنات فقط. بجرأة، وبمساعدةٍ من زوجها (الذي تناديه

ليلي متودّدة باسم بابو مهرداد)، ووالدة ليلي، بَهار، قدّمت الآنسة إيلي المقبّلات الإيرانية كجزءٍ من «العرض الأسبوعي الخاص»، حين كانت ليلي لا تزال في مرحلة ما قبل المدرسة.

انتشرتْ الأخبار حول الأطعمة الجديدة بسرعةٍ كبيرة. كلُّ ما تطلّبه الأمر لازدهار الأعمال كان نشر بعض المراجعات الإيجابية على قائمة البريد الإلكتروني الخاصة بالمدينة. وبدلاً من أن تصيب الشهرة والتوقّعات العالية الآنسة إيلي بالذعر، احتضنتْ هذه الأخيرة مسؤولياتها الجديدة بطاقةٍ وحماس. الآن، يتجول السياح مستكشفين الشارع الرئيسي الذي عدا ذات يوم بول ريفير[1] بجواده عبره. تستطيع الآنسة إيلي أن تسحر حتى أكثر المتجوّلين كراهيةً للأجانب بحديثها النابع من القلب وطعامها الإيراني اللذيذ لدرجة أنّه لا يمكن كرهه.

تعلم ليلي أنَّ والدتها متحمّسةٌ للغاية. كانت تخطط لحفلة عيد ميلاد ليلي الثامن عشر لأسابيع، وكتبت كل ما ستشتريه على تطبيق Notes في هاتفها، وطهتْ من الأطباق أكثر بكثير مما يلزم. عمل الجميع معاً في التحضير للمناسبة. استخدموا زيت الزيتون عالي الجودة، وعصروا كمّيات إضافية من الليمون في السلطة الشيرازية. قام والد ليلي (المعروف أيضاً باسم «السيد مورفي» - فهو لا يحب أن يناديه طلابٌ في الثانوية «ستيف») بتقطيع الخيار والطماطم والبصل إلى مكعبات صغيرة. أما بخصوص طبق الأرز المرصع

(1) أحد أشهر الوطنيين في الثورة. اشتهر برحلته الليلية في أبريل 1775 لينبه ميليشيا المستوطنين من زحف القوات البريطانية قبل معركتي ليكسنغتون وكونكورد - المترجم.

بالجواهر، فقد حمصتْ والدتها حبات الزعرور، مع الحرص على ألا تبالغ في ذلك. رتّبت الآنسة إيلي قشور البرتقال في صينية وتركتْها لتجفّ في الشمس. نُقعَ الدجاج في الزعفران والليمون لساعات. وزيَّنتْ ليلي طبق **الكوتليت**، فطائر اللحم المقلية، بالمخللات المقطَّعة وأعواد النعنع والفجل المنحوت على شكل وردة.

حرصتْ الآنسة إيلي على خلط البطيخ المهروس مع الكمية المناسبة من العسل والخل لتحضير مشروب سموذي على الطريقة الفارسية. كان لا بدَّ لكل شيءٍ أن يكون مثالياً لحفل عيد ميلاد ليلي الثامن عشر.

وإنّه لَمثالي. ولبعض الوقت، تستمتع الآنسة إيلي، وبابو مهرداد، وبَهار، وستيفن مورفي، وليلي، وصديقاتها في المدرسة الثانوية بالطعام والجو البهيج، ويحتفلون ببلوغ ليلي عامها الثامن عشر. في تلك اللحظات، ينسون مشاكلهم ويستمتعون بتناول الطعام والشراب معاً. تخيّل أنّهم قبل عامين فقط كانوا جميعاً محجورين ومعزولين بسبب جائحةٍ عالمية. كم هو رائع أن يكونوا معاً من جديد!

بعد أن ينتهي حفل عيد الميلاد، وبعد أن تغادر صديقات ليلي، وتُنقَل الأطباق إلى المطبخ الصغير في الخلف، وبعد أن يمسح بابو مهرداد أرضية المطعم رغم تحذيرات الآنسة إيلي من أنّه قد يؤذي ظهره، وبعد أن يتعاونوا جميعاً في تحميل غسّالة الأطباق وغسل الأواني الكبيرة يدوياً، يجتمعون معاً من أجل جلسةٍ هادئة في المطعم.

يعود الثقل الذي حاولوا نسيانه مؤقتاً خلال الحفلة ليربض على

قلوبهم. فعلى مدار الأسبوع والنصف الماضيين، ظلت عائلة ليلي بأكملها ملتصقة بالشاشة لمتابعة التحديثات من إيران. كانت شرطة الأخلاق قد اعتقلتْ امرأةً شابة تدعى مهسا أميني - اسمها الكردي جينا أميني - في طهران بسبب الحجاب غير اللائق، وتعرَّضت للضرب المبرّح، فدخلتْ في غيبوبةٍ وتوفّيت. انتشرت صورة هذه الشابة وهي مستلقية على سرير المستشفى وأنابيب بيضاء تبرز من فمها في جميع وسائل التواصل الاجتماعي كالنار في الهشيم. جعلتْ تلك الصورة بَهار ترتجف مذعورة بينما أخذها زوجها في أحضانه.

كانت وفاة هذه الشابة بمثابة الشرارة التي أشعلت احتجاجاتٍ انتشرت في طول البلاد وعرضها كالنار في الهشيم.

لم تزر ليلي إيران قطّ، لكنّها تحمل الكثير من الفضول تجاه البلاد. وإذ تجلس ليلاً وتحدّق في هاتفها بينما تشاهد لقطات من الاحتجاجات في إيران، تشعر ليلي بمزيجٍ من الانبهار، والأمل، والحزن، والخوف، والإلهام في آنٍ معاً. تشاهد على تيك توك ويوتيوب وتويتر وإنستغرام مقاطع فيديو لشابات ينزلن إلى الشوارع. تتحدى هؤلاء النساء بشجاعة قوانين الحجاب الإلزامي. يلقين بأغطية الرأس في النار ويدرن حولها، ويهتفن من أجل الحرية وحقوق الإنسان. ينضمُّ الرجال إليهن في الاحتجاجات. ولقمع الاحتجاجات، تغلق الحكومة شبكة الإنترنت، وتعتقل المتظاهرين وتضربهم. بل وتقتل بعضهم. لكنَّ الاحتجاجات تستمرُّ مع ذلك. لقد سئم الناس. سئموا إخبارهم كيف يتصرفون، وماذا يقولون، وماذا يرتدون، ومن يعبدون. سئموا الإمعان في تقليص حقوقهم وإضعافها. شعارهم - المستوحى من أحد شعارات النضال الكردي - هو:

«المرأة، الحياة، الحرية». بالكردية: **«جن، جيان، أزادي»**. وبالفارسية: **«زن، زدگجي، آزادي»**.

تعلم ليلي أنّها تنحدر من سلالةٍ من النساء الأُسود. كانت الآنسة إيلي ووالدتها قد أخبرتاها عن جدّتها، هوما، والعمل الذي اضطلعتْ به في سبيل حقوق المرأة طوال حياتها. أخبرتاها كل شيء عن نشاطها الدؤوب طيلة عقودٍ من الزمن. كم كانت ليلي تحب أن تلتقي بجدّتها هذه ذات يوم! أن تجلس قبالتها على الطاولة وتطرح عليها كل الأسئلة التي راودتها مذ كانت صغيرة. ما الذي جعل من جدّتها امرأةً شجاعة إلى هذا الحدّ؟ ما الذي يجعل النساء اللواتي يقاتلن في شوارع إيران الآن لا يخشين شيئاً؟ إنَّ نصفها هو عبارةٌ عن دماء تلك النساء تجري متدفقةً في عروقها. رغم أنَّ والدها يحبّ أن يذكّرها بأنَّ الشطر الإيرلندي من عائلتها لا يقل شجاعة، وليس أقل اعتياداً على مناهضة القمع. الأمر الذي قد يكون صحيحاً على الأرجح.

- «ما الأخبار القادمة من إيران؟»، تسأل بَهار الآن في المطعم بعد انتهاء الحفلة.

تُخرج ليلي هاتفها. كانت غير متّصلة بالإنترنت أثناء حفلة عيد ميلادها، وهي ليست متأكدة ممّا يمكن أن يكون قد حدث خلال ذلك الوقت، رغم أنّه منتصف الليل في إيران الآن. تفتح تويتر وتتصفّح هاشتاغ # مهسا أميني على نحوٍ محموم، كما تفعل كل يوم منذ بدء الاحتجاجات. تنحني فوقها الآنسة إيلي ووالدتها كي تتمكنا من رؤية شاشة هاتفها بينما يراقب بابو مهرداد ووالدها من بعيد، منتظرَين أن تنقل لهما ليلي ما تراه.

كان عددٌ لا يحصى من الصور ومقاطع الفيديو والمستجدات من

إيران قد تسرّبتْ رغم حملة الحكومة على الإنترنت. تتابع ليلي التصفّح. يمكنها أن تسمع أنفاس الآنسة إيلي ووالدتها لشدة قربهما. تُظهر مقاطع الفيديو تلميذات مدرسة يطاردن مسؤولاً من النظام خارج ساحة مدرستهنّ، وامرأةً شابّة تسير وسط حركة مرور السيارات بدون غطاء رأس وترسم بكلتا يديها إشارة النصر «V» بينما يشجعها أولئك الناس من داخل سياراتهم بإطلاق أبواقها بلا توقّف. تشتغل مقاطع الفيديو الواحد تلو الآخر بينما يتفرّجن في صمت.

- «لحظة، لحظة، لحظة»، تقول الآنسة إيلي. «توقّفي هنا».

تطلب من ليلي أن تعيد تشغيل مقطع فيديو وهي تشير إليه على شاشة ليلي. تعيد ليلي تشغيل المقطع الذي تبلغ مدته واحدٌ وعشرون ثانية.

تمشي امرأةٌ عجوز بشعرها الأبيض ليلاً وسط حشدٍ من المحتجين. ترفع ذراعها عالياً في الهواء وهي تحكم شدَّ قبضتها. ثمّة عرجٌ واضح في مشيتها، لكنّها تتحرك على وقع هتافات الحشد. ويمكن سماع صوتها بكل وضوح وهي تصرخ: «**زن، زدگجي، آزادي**». المرأة، الحياة، الحرية.

تشعر ليلي بنبضٍ في أذنيها؛ وجهها الآن يحترق، إنّها في حالة ذهول تام. لأنَّ ليلي تعرف ما تعرفه والدتها الجالسة على يمينها وخالتها الكبرى إيلي الجالسة على يسارها. هذه جدّتها، التي تدعوها ليلي بمامان هوما. يشاهدنها بينما يجلسن في المطعم الذي بنته عائلتها في شمال شرق الولايات المتحدة؛ جدّتها التي تبلغ من العمر تسعة وسبعين عاماً تنضمُّ للنساء المحتجات في الشوارع.

تنهمر الدموع من عينيّ الآنسة إيلي.

بَهار ساكنة تماماً، لكن يمكن رؤية ارتعاش خفيف أسفل ذقنها.

- «بالطبع سوف تكون في الشوارع»، همست الآنسة إيلي وهي تقترب أكثر من ليلي لتشاهد الفيديو مرةً أخرى. تعيد ليلي تشغيله مرةً بعد مرة.

- «ما كنتُ لأتوقّع ما هو أقل من ذلك»، تقول والدة ليلي.

تطفو البالونات في جميع أرجاء الغرفة، وتلمع النجوم الذهبية الصغيرة فوق الطاولات.

خاتمة

2022

عزيزتي ليلي،

في معظم الأيام قبل أن أنهض من السرير، أبقى مستلقية دون حراك قدر ما أستطيع. فطالما لا أحرّك وركي الأيسر، وطالما أنا مستلقيةٌ على ظهري، فلن أشعر بشيء. التهاب الجراب[1]، والتيبّس، والشدّ في ركبتي اليمنى.

وإذ أستلقي في ذلك المكان العذب حيث اللا ألم، أتخيّل أنّني أركض. أبحر في محيط الأبنية خارج شقتي الصغيرة في طهران، وعبر البازار، والمتاهات التي اعتدتُ التجول فيها وأنا طفلة صغيرة. وبعينيّ خيالي، تتحرك ساقاي كما كانتا تتحركان في السابق، قبل أن يغزو التيبس مفاصلي ويستقر فيها، وقبل أن تبدأ في الظهور آثار التلف والتآكل المتراكمين لعقود. تصفر الريح في أذنيّ، وينبض قلبي بسرعةٍ كبيرة لدرجة أنه يستحيل ألّا أشعر بالتحرّر وبتدفّق الأدرينالين في عروقي - أن أشعر بأنَّ العالم ملكي.

---

(1) انتفاخ واحد أو أكثر من أكياس الجراب، وهو ما يسبب ألماً شديداً ويعيق مرونة وحركة المفصل المصاب - المترجم.

إذ أركض على هذا النحو، أرى الصديقة التي عرفتها ذات يوم. الصديقة التي لعبنا أنا وهي معاً، وحلمنا بأن يصبح العالم ملكاً لنا. وكانت لنا من الجرأة ما يكفي لنصدق أنَّ فتاتين من طهران يمكنهما أن تحصلا ليس فقط على القليل، بل على كلِّ شيء. لقد أردنا أن ندرس ونردَّ للعالم الجميل. حين كنا لا نزال طفلتين، لم يكن بوسعنا أن نتخيل زمناً لا نكون فيه معاً.

عدتُ إلى إيران في يوليو 1982، بعد أن قطعتُ وعداً لبَهار بتقديم الأوراق المطلوبة لأتمكن من الإقامة معها في أمريكا. لكنّني اعتُقلتُ لحظة مروري من الجمارك في مطار طهران. ومن سجني، اتّصلتُ بعلي رضا، وطلبتُ منه أن يطلع إيلي وبَهار في نيويورك على آخر المستجدات. لم أكن لأتصوّر أنّه لن يُفرَج عني قبل أربع سنواتٍ أخرى.

في العاشر من مارس 1986، أُطلق سراحي أخيراً. وعدتُ إلى شقتي، لكنّهم كانوا قد أخذوا جواز سفري. لقد أصبحتُ ممنوعة من مغادرة البلاد.

أرسلتْ لي بَهار رسائل مرفقةً بصور لحفل تخرجها في الجامعة، ورحلاتٍ مع أصدقائها، وصديقها في الكلية الذي قيل لي إنّه يدعى ستيف. حين انتقلوا إلى ليكسنغتون، بماساتشوستس، كي يستلم مهرداد منصبه الجديد في جامعة نورث إيسترن، أرسلت لي إيلي صوراً لرقعة الأرض الخضراء حيث أُطلقت الرصاصة الأولى التي تردّد صداها في أنحاء العالم، وكانت سبباً في اندلاع الثورة الأمريكية. كنتُ فخورةً جدّاً لأنَّ بَهار أنهت درجة الماجستير في الصحة العامة من جامعة بوسطن، وبدأت العمل في إدارة المستشفيات في مستشفى ماساتشوستس العام.

لم يمرّ يومٌ واحد دون أن أفكّر فيها. وأشتاق إليها. وأتمنّى أن أكون معها.

وبعد ذلك، أنت.

كنتُ ممنوعةً من مغادرة إيران لمدة واحد وعشرين عاماً. الصور، الرسائل، المكالمات الهاتفية؛ تلك كانت طريقتنا في الحفاظ على التواصل طوال عقد الثمانينيات. في منتصف التسعينيات، بدأنا نتراسل عبر البريد الإلكتروني. وحين جاءت بَهار مع إيلي لزيارتي في العام 1996، كان لمُّ الشمل حلواً لدرجة شعرتُ معها أنّني قد أتحطم.

في العام 1997، سُمح لي أخيراً بمغادرة إيران والذهاب إلى أمريكا.

بحلول ذلك الوقت، كانت بَهار في الثالثة والثلاثين من عمرها ومتزوجة. كانت لديها وظيفة، وزوجها كذلك الأمر، وكانا يعيشان حياةً منتِجة، فماذا كان بإمكاني أن أفعل في ماساتشوستس؟ لم يكن لديّ إقامة، ولا بطاقةٌ خضراء، ولا صفة شرعية في ذلك البلد. لذا عدتُ إلى إيران.

وواصلتُ النضال.

الآن، مع الاحتجاجات عقب وفاة مهسا والحزن الذي عمَّ البلاد، يسيطر الغضب عليَّ على مدار الساعة. أشعر به في كل عضوٍ من جسدي، وفي كل مللتر من دمي. بالطبع، أنا أخرج مع الشابات والشبان المحتجين ليلة بعد ليلة. كيف يمكنني أن أبقى في المنزل؟

دعيهم يضربونني بهراواتهم، دعيهم يكدمون جسدي حتى يستحيل يباساً. دعيهم يطلقون عليَّ النار ويردونني قتيلة. لقد قاتلنا

طيلة حياتنا. قاتلنا وقاتلنا وقاتلنا. نريد أن نكون أحراراً. نريد أن نكون متساوين. نريد أن نكون قادرين على أن نعيش حياتنا.

قرأتُ مؤخراً نظريةً حول أمواج المحيط. تقول النظرية إنَّه بينما يبدو لأعيننا أنَّ الأمواج تظهر فجأة على الشاطئ، فإنَّ فجائية ظهورها ما هي إلّا وهم. فالأمواج تبدأ رحلتها على بعد آلاف الأميال في عرض البحر. لقد راكمت شكلها وقوتها من الرياح والتيارت التحتمائية لعصور.

لذا عندما ترين النساء يصرخن في إيران من أجل حقوقهنّ، أرجوك تذكّري، يا ليلي العزيزة، أنَّ القوة والغضب في صراخنا كانا يكتسبان زخمهما لسنوات.

في كل مكالمات الفيديو التي أجريناها، وكلٍّ محادثاتنا واتصالاتنا عبر الإنترنت، أنظر إليكِ يا حفيدتي العزيزة، وأتمنى لك لا أن تملكي العالم، ولا أن تنجحي فيه حتى.

أتمنّى لك إمكانية أن تكوني حرة.

وآمل أن تختبري بعض اللحظات الرقيقة والعزيزة التي تعوّضك عن ألف لحظةٍ قاسية.

تذكّري قبل كل شيء أن تحبّي دائماً.

أن تحبّي بجنون.

جدّتك،

هوما

كلمة المؤلف

في العام 2019، وبعد بضعة أشهر من نشر روايتي **مكتبتنا الصغيرة في طهران**، بدأتُ في كتابة قصة أربع أمّهات من خلفيات مختلفة في ضاحية نيو إنغلاند يختبرن مشاعر الخوف والإثارة إزاء ذهاب أطفالهنّ البكر إلى الجامعة. لكنَّ شخصيّةً ثانوية في القصة، وهي الآنسة إيلي صاحبة المطعم، ما فتئت تطفو على السطح وتطلّ برأسها. كان حضور هذه الشخصية الثانوية، هذه المرأة الإيرانية المسنّة، طاغياً لدرجة أنّني تخلصتُ من الصفحات الـ 125 التي كنتُ قد كتبتُها عن الأمهات الأخريات، وبدأتُ بدايةً جديدة بالكامل لأروي قصة إيلي وصديقتها هوما، الناشطة الإيرانية في مجال حقوق المرأة التي لا تعرف الكلل.

لقد باتت الكتابة عن النساء الإيرانيات ثيمةً محورية في حياتي. فأنا أنحدر من سلالة من النساء الإيرانيات القويات، والعنيدات، والصريحات جدّاً، اللاتي فتحن لأنفسهن في بعض المناسبات آفاقاً جديدة بالكامل (كانت جدتي من أوائل النساء العاملات بدوامٍ كامل في إيران في أربعينيات القرن العشرين)، وفي مناسبات أُخرى، شهدن حياتهنّ وهي ترزح تحت وطأة حصار وقيود ثقافة يفرضها المجتمع البطريركي، وفي جميع الحالات، اِختبرن العيش في ظل

حكومة متشددة قضت بين عشية وضحاها على حقوق ناضلت النساء لعقود من أجل الحصول عليها.

في روايتي الأولى **الشاي معاً**، أتحرّى قصة فتاة تنقلب طفولتها رأساً على عقب بسبب الثورة والحرب التي أعقبتها، فتاةٌ تحاول والدتها بشراسة التمسك بالحياة والكرامة التي تصرُّ القوى القمعية على سحقهما. وفي روايتي الثانية، **مكتبتنا الصغيرة في طهران**، أرجع في تاريخ إيران أكثر إلى الوراء لأتحرّى قصة شابة مولعة بالكتب تقع في الحب أثناء فترة الانقلاب العسكري في إيران عام 1953، حيث تتشكل حياتها من خلال ذلك الحب الذي لا يمكنها التعافي منه أبداً. وفي هذه الرواية الثالثة، أتحرّى قصة الصداقة بين فتاتين تنتميان إلى أسرتين ومكانتين في الحياة على قدرٍ كبيرٍ من الاختلاف، لكنَّ رابطة لا تنفصم تتشكل بينهما حين كانتا في السابعة من العمر. تتقاسم الفتاتان معاً أفراح الطفولة، وتقلّبات المراهقة، وانكسارات الخيانة كشابتين، وراحة الخلاص بعد أن تأخذهما الأقدار بعيداً عبر الحدود والمحيطات. وعلى طول الطريق، تقاتل إحداهما، هوما، بلا هوادة من أجل حرية المرأة الإيرانية.

بدأتُ في كتابة هذا الكتاب في العام 2019، ومضيتُ قدماً خلال شتاء بوسطن المثلج دخولاً في العام 2020. وبينما أغلق العالم أبوابه أثناء الجائحة، انفتح قلبي لهاتين الفتاتين. واصلتُ الكتابة خلال العام التالي والعام الذي يليه، وكنتُ قد أنهيت ما يزيد عن نصف قصة إيلي وهوما عندما قُتلت في إيران شابة تدعى مهسا جينا أميني على يد قوات الأمن في سبتمبر 2022 لارتدائها الحجاب على نحوٍ غير لائق. ومثل كثيرٍ من الإيرانيين في الشتات، ملأني الأمل والوجع لرؤية النساء والفتيات وقد نزلن إلى الشوارع بعد تلك

الحادثة لأنّهن اكتفين تماماً. اكتفين من السيطرة عليهنّ. اكتفين من كونهنّ خاضعات. اكتفين من أن يُملي عليهن من لا يقدّرون حيويتهنّ أو مواهبهنّ أو أحلامهنّ مَن ينبغي لهنّ أن يحببن، أو ما ينبغي لهنّ أن يلبسن أو يقلن. شاهدتُ كيف انتفضت نساء ورجال إيران للقتال من أجل الحرية وكيف سحقتهم قوات الأمن. وإذ أنهيتُ هذا الكتاب، كانت رحلة إيران الطويلة نحو الحرية، ودورتها المأساوية من الاحتجاج والقمع تحدث حقيقةً على أرض الواقع.

أنا لستُ بباحثة ولا مؤرخة، ولا أدّعي أنّني كتبتُ كتاباً عن التاريخ الكامل للحركة النسائية في إيران. لكنّني روائية، وأعرف قوة الحكاية. فالحكاية هي التي ساعدت شهرزاد على البقاء حية، ومن خلال الحكاية (سواء عبر قراءتها أو كتابتها) نجد العزاء، والملاذ، والأمل، والفهم. آمل أيها القارئ العزيز أن أعرض لك بقلمي ما عاشته فتاتان من إيران من أفراح وخسائر وآمال وأحلام وهموم. لقد اختلقتُ هذه الحكاية، لكنّها حقيقية بنظري. آمل أن تستمتع برحلتهما. وآمل أن ترى في آمالهما بعضاً من آمالك. كما آمل من خلال حكايتهما أن تشعر بأنَّ قلوبنا جميعاً ما هي إلّا قلبٌ واحد.

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

مرجان كمالي

نساء جسورات من طهران

«**شير زن**. نساءٌ من نسل الأُسود. هؤلاء نحن. ألا يمكنكِ رؤية ذلك، يا إيلي؟ يوماً ما، سنفعل أشياءَ عظيمة، أنا وأنتِ. سنعيش حياةً من أجلنا، وسوف نساعد الآخرين. قد نكون مجرّد شبلتين الآن، لكنّنا سنكبر لنصبح لبؤتَين، امرأتين قويّتين تجعلان الأشياءَ تتحقّق».

❀ ❀ ❀

في مكتبتنا الصغيرة في طهران، رجعتُ بتاريخ إيران إلى الوراء لأتحرّى قصة شابة مولعة بالكتب تقع في الحب أثناء فترة الانقلاب العسكري في إيران عام 1953. وفي هذه الرواية الجديدة، أتحرّى قصة الصداقة بين فتاتين تنتميان إلى أسرتين وطبقتين على قدرٍ كبيرٍ من الاختلاف.

أنا لستُ بباحثة ولا مؤرخة، لكنّني روائية، وأعرف قوة الحكاية. فالحكاية هي التي ساعدت شهرزاد على البقاء حية، ومن خلال الحكاية، نجد العزاء، والملاذ، والأمل، والفهم. آمل أيها القارئ العزيز أن أعرض لك بقلمي ما عاشته فتاتان من إيران من أفراح وخسائر وآمال وأحلام وهموم. لقد اختلقتُ هذه الحكاية، لكنّها حقيقية بنظري. آمل أن تستمتع برحلتهما. وآمل أن ترى في آمالهما بعضاً من آمالك. كما آمل من خلال حكايتهما أن تشعر بأنَّ قلوبنا جميعاً ما هي إلّا قلبٌ واحد.

مرجان كمالي

مكتبة
t.me/soramnqraa

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
markaz.casablanca@gmail.com